

الْبَيْتُ وَالْبَيْتَانِ

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ فِي مَجْمَعِ الشُّنَنِ

تَأَلَّفَ الْأَسْتَاذُ الدُّكْتُورُ
أَبِي سَهْلٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَعْمَرِيُّ

الْمَجْلَدُ الْحَادِي وَالْثَلَاثُونَ

الدُّخَانُ - مُحَمَّدٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْبَيْتُ فِي الْبَيْتَانِ

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ صَحِيحُ الشَّيْخِ

الطبعة الأولى

المؤلف : أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المفرّوي
Author : Abu Sahl Muhammad ben Abdur-Rahman
Al-Maghrawi.

عدد الصفحات (40 مجلداً) 22072
Pages (40 Volumes)
Size 17x24 cm قياس الصفحات
Year 2014 A.D - 1435 H. سنة الطباعة
Printed in : Lebanon بلد الطباعة : لبنان
Edition : 1st الطبعة : الأولى

الكتاب : التدبر والبيان
في تفسير القرآن بصحيح السنن

Title : AT-TADABBUR WAL-BAYÂN
FĪ TAFSĪR AL-QURĀN BI ṢAḤĪḤ AS-SUNAN

Classification: Exegesis

التصنيف : تفسير

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

رقم الإيداع القانوني : ٢٠١٤ MO ٠٤٢٨

مدمك : ٧ - ١٤٧ - ٣٣ - ٩٩٥٤ - ٩٧٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الدخان

اغراض السورة

قال البقاعي : «مقصودها الإنذار بالهلكة لمن لم يقبل ما في الذكر الحكيم من الخير والبركة رحمة جعلها بين عامة خلقه مشتركة . وعلى ذلك دل اسمها (الدخان) إذا تؤملت آياته ، فإنه تعالى هددهم بآيتين : العذاب لهم من جهة السماء في صورة الدخان ، وهددهم بالانتقام منهم بالبطشة الكبرى لكذبهم ، وسوء منقلبهم ومرتكبهم»^(١).

وقال ابن عاشور : «أشبه افتتاح هذه السورة فاتحة سورة الزخرف من التنويه بشأن القرآن وشرفه ، وشرف وقت ابتداء نزوله ؛ ليكون ذلك مؤذنا أنه من عند الله ، ودالا على رسالة محمد ﷺ ، وليتخلص منه إلى أن المعرضين عن تدبر القرآن ألهاهم الاستهزاء واللمز عن التدبر ، فحق عليهم دعاء الرسول بعذاب الجوع ، إيقاظا لبصائرهم بالأدلة الحسية ، حين لم تنجع فيهم الدلائل العقلية ، ليعلموا أن إجابة الله دعاء رسوله ﷺ دليل على أنه أرسله ليبلغ عنه مراده .

فأنذرهم بعذاب يحل بهم علاوة على ما دعا به الرسول ﷺ تأييدا من الله له بما هو زائد على مطلبه .

وضرب لهم مثلا بأمم أمثالهم عصوا رسل الله إليهم ، فحل بهم من العقاب من شأنه أن يكون عظة لهؤلاء ، تفصيلا بقوم فرعون مع موسى ومؤمني قومه ، ودون التفصيل بقوم تبع ، وإجمالا وتعميما بالذين من قبل هؤلاء .

وإذ كان إنكار البعث وإحالاته من أكبر الأسباب التي أغرتهم على إهمال التدبر

(١) مصاعد النظر (٢ / ٤٧١).

في مراد الله تعالى ، انتقل الكلام إلى إثباته والتعريف بما يعقبه من عقوبة المعاندين ، ومثوبة المؤمنين ترهيباً وترغيباً .

وأدمج فيها فضل الليلة التي أنزل فيها القرآن ؛ أي : ابتدئ إنزاله وهي ليلة القدر ، وأدمج في خلال ذلك ما جرت إليه المناسبات من دلائل الوجدانية وتأييد الله من آمنوا بالرسول ، ومن إثبات البعث . وختمت بالشدة على قلب الرسول ﷺ بانتظار النصر وانتظار الكافرين القهر^(١) .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في اختبار النبي ﷺ لا بن صياد بالدخان

* عن ابن عمر رضي الله عنهما أن عمر انطلق في رهط من أصحاب النبي ﷺ مع النبي ﷺ قبل ابن صياد حتى وجده يلعب مع الغلمان عند أطم بني مغالة ، وقد قارب يومئذ ابن صياد يحتلم ، فلم يشعر بشيء حتى ضرب النبي ﷺ ظهره بيده ، ثم قال النبي ﷺ : «أتشهد أنني رسول الله؟» فنظر إليه ابن صياد فقال : أشهد أنك رسول الأمين ، فقال ابن صياد للنبي ﷺ : أتشهد أنني رسول الله؟ قال له النبي ﷺ : «آمنت بالله ورسله» . قال النبي ﷺ : «ماذا ترى؟» قال ابن صياد : يأتيني صادق وكاذب . قال النبي ﷺ : «خلط عليك الأمر» . قال النبي ﷺ : «إني قد خبأت لك خبيثاً» . قال ابن صياد : هو الدخ . قال النبي ﷺ : «أخساً ، فلن تعدو قدرك» ، قال عمر : يا رسول الله ! ائذن لي فيه أضرب عنقه . قال النبي ﷺ : «إن يكنه فلن تسلط عليه ، وإن لم يكن هو فلا خير لك في قتله»^(٢) .

* غريب الحديث:

أطم : الأطم بناء من الحجارة مرفوع كالقصر ، وآطام المدينة حصونها .
بني مغالة : بطن من الأنصار .

(١) التحرير والتنوير (٢٥ / ٢٧٦) .

(٢) أخرجه : أحمد (١٤٨ / ٢) ، البخاري (٦ / ٢١١ / ٣٠٥٥) واللفظ له ، مسلم (٤ / ٢٢٤٤ / ٢٩٣٠) ، أبو داود

(٤ / ٥٠٣-٥٠٥ / ٤٣٢٩) ، الترمذي (٤ / ٤٥٠ / ٢٢٤٩) وقال : «حسن صحيح» . وفي الباب عن جابر وأبي

سعيد وابن مسعود وأبي ذر رضي الله عنهم .

الدخ: هو الدخان وقال الشاعر:

عند رواق البيت يغشى الدخا.

إخساً: كلمة زجر واستهانة؛ أي: اسكت صاغراً ذليلاً.

★ فوائد الحديث:

قال النووي رحمته الله في ابن صياد: «يقال له: ابن صياد وابن صائد، وسمي بهما في هذه الأحاديث، واسمه صاف، قال العلماء: وقصته مشكلة، وأمره مشتبه في أنه هل هو المسيح الدجال المشهور أم غيره؟، ولا شك في أنه دجال من الدجاجلة. قال العلماء: وظاهر الأحاديث أن النبي ﷺ لم يوح إليه بأنه المسيح الدجال ولا غيره، وإنما أوحى إليه بصفات الدجال، وكان في ابن صياد قرائن محتملة، فلذلك كان النبي ﷺ لا يقطع بأنه الدجال ولا غيره، ولهذا قال لعمر رضي الله عنه: «إن يكن هو فلن تستطيع قتله»^(١).

قال القرطبي: «وكانت حاله في صغره حالة الكهان يصدق مرة ويكذب مرارا، ثم إنه أسلم لما كبر وظهرت منه علامة الخير من الحج والجهاد مع المسلمين، ثم ظهرت منه أحوال، وسمعت منه أقوال تشعر بأنه الدجال، وبأنه كافر فقيل: إنه تاب ومات بالمدينة، ووقف على عينه هناك. وقيل: بل فقد يوم الحرة ولم يوقف عليه، وكان جابر وابن عمر رضي الله عنهما يحلفان أنه الدجال لا يشكان فيه، وعلى الجملة فأمره كله مشكل على الأمة، وهو فتنة ومحنة»^(٢).

قال الخطابي رحمته الله: «وقد اختلف الناس في ابن صياد اختلافا شديدا، وأشكل أمره حتى قيل فيه كل قول، وقد يسأل عن هذا فيقال: كيف يقر رسول الله ﷺ رجلا يدعي النبوة كاذبا، ويتركه بالمدينة يساكنه في داره ويجاوره فيها، وما معنى ذلك؟ وما وجه امتحانه إياه بما خبأه له من أنه الدخان؟ وقوله بعد ذلك: «إخساً فلن تعدو قدرك».

والذي عندي: أن هذه القصة إنما جرت معه أيام مهادنة رسول الله ﷺ اليهود

(١) شرح مسلم (١٨ / ٣٧).

(٢) المفهم (٧ / ٢٦٢-٢٦٣).

وحلفاءهم ، وذلك أنه بعد مقدمه المدينة كتب بينه وبين اليهود كتابا ، صالحهم فيه على أن لا يهاجوا ، وأن يتركوا على أمرهم ، وكان ابن صياد منهم أو دخيلا في جملتهم ، وكان يبلغ رسول الله ﷺ خبره وما يدعيه من الكهانة ، ويتعاطاه من الغيب ، فامتحنه بذلك ليزور به أمره ويخبر شأنه ، فلما كلمه علم أنه مبطل ، وأنه من جملة السحرة أو الكهنة ، أو ممن يأتيه رؤى من الجن ، أو يتعاهده شيطان فيلقي على لسانه بعض ما يتكلم به ، فلما سمع منه قوله : الدخ ، زبره ، فقال : «اخشأ فلن تعدو قدرك» يريد أن ذلك شيء اطلع عليه الشيطان فألقاه إليه ، وأجراه على لسانه . وليس ذلك من قبل الوحي السماوي ؛ إذ لم يكن له قدر الأنبياء الذين أوحى الله إليهم من علم الغيب . . وإنما كانت له تارات يصيب في بعضها ويخطئ في بعض ، وذلك معنى قوله : (يأتيني صادق وكاذب) فقال له عند ذلك : قد «خلط عليك» .

والجملة أنه كان فتنة قد امتحن الله بها عباده المؤمنين ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حيى عن بينة ، وقد امتحن قوم موسى ﷺ في زمانه بالعجل ، فافتتن به قوم وهلكوا ، ونجى من هداه الله وعصمه منهم^(١) .

قال القرطبي : وقوله : «لن تعدو قدرك» أي : لن تجاوز حالة الكهان المتخرصين الكذابين ، لا يليق بك إلا ذلك ، وإنما اختبره النبي ﷺ بذلك لينظر هل طريقته طريقة الكهان ، أو لا ؟ فظهر أنه كذلك . وأن الشياطين تلعب به ، وتلبس عليه .

وقوله ﷺ لعمره : «إن يكنه ، فلن تسلط عليه ، وإن لم يكنه فلا خير في قتله» هذا يدل على أن النبي ﷺ لم يتضح له شيء من أمر كونه هو دجال أم لا ؟ وليس هذا نقصا في حق النبي ﷺ ؛ لأنه لم يكن يعلم إلا ما علمه الله ، وهذا مما لم يعلمه الله تعالى به ، ولا هو مما تُرْهَق إلى علمه حاجة لا شرعية ، ولا عادية ، ولا مصلحة ، ولعل الله تعالى قد علم في إخفائه مصلحة فأخفاه ، والذي يجب الإيمان به : أنه لا بد من خروج الدجال يدعي الإلهية ، وأنه كذاب أعور ، كما جاء في الأحاديث الصحيحة الكثيرة التي قد حَصَلَتْ لمن عاناها العلم القطعي بذلك^(٢) .

قال الحافظ : «وأما جواب ابن صياد بالدخ فقليل : إنه اندهش فلم يقع من لفظ

(١) معالم السنن (٤ / / ٣٢٢-٣٢٣) .

(٢) المنهم (٧ / ٢٦٥) .

الدخان إلا على بعضه، وحكى الخطابي أن الآية حينئذ كانت مكتوبة في يد النبي ﷺ، فلم يهتد ابن صياد منها إلا لهذا القدر الناقص على طريقة الكهنة، ولهذا قال له النبي ﷺ: «لن تعدو قدرك» أي: قدر مثلك من الكهان الذين يحفظون من إلقاء شياطينهم ما يحفظونه مختلطا صدقه بكذبه.

وحكى أبو موسى المديني أن السرف في امتحان النبي ﷺ له بهذه الآية الإشارة إلى أن عيسى ابن مريم يقتل الدجال بجبل الدخان، فأراد التعريض لابن صياد بذلك، واستبعد الخطابي ما تقدم وصوب أنه خبا له الدخ وهو نبت يكون بين البساتين، وسبب استبعاده له أن الدخان لا يخبا في اليد ولا الكم.

ثم قال: إلا أن يكون خبا له اسم الدخان في ضميره، وعلى هذا فيقال: كيف اطلع ابن صياد أو شيطانه على ما في الضمير؟ ويمكن أن يجاب باحتمال أن يكون النبي ﷺ تحدث مع نفسه أو أصحابه بذلك قبل أن يختبره فاسترق الشيطان ذلك أو بعضه^(١).

قال القاضي عياض: «وأصح الأقوال في قوله: «الدخ» أنه لم يهتد من الآية التي أضمرها له ﷺ إلا لهذا اللفظ الناقص على عادة الكهان؛ إذ إنما يلقي الشيطان إليهم بقدر ما يختطف قبل أن يدركه الشهاب، ويدل عليه قوله: «اخسأ فلن تعدو قدرك»؛ أي: أبعد كاهنا منخرصا فلن تعدو قدر هذا الصنف من الاهتداء إلى بعض الشيء، وما لا يتبين منه حقيقة، ولا يصل إلى قدر البيان والتحقيق والجلاء لأمر الغيب التي تأتي من قبل الوحي إلا من أوتي النبوة»^(٢).

قال ابن كثير رحمه الله: «والمقصود أن ابن صياد ليس بالدجال الذي يخرج في آخر الزمان قطعا؛ لحديث فاطمة بنت قيس -حديث الجساسة^(٣)- وهو فيصل في هذا المقام والله أعلم^(٤).

وقال شيخ الإسلام بن تيمية: «وهذا بخلاف الأحوال الشيطانية مثل حال (عبد الله بن صياد) الذي ظهر في زمن النبي ﷺ، وكان قد ظن بعض الصحابة أنه

(١) فتح الباري (٦ / ٢١٣).

(٢) الإكمال (٨ / ٤٧١-٤٧٢).

(٣) أخرجه: أحمد (٦ / ٣٧٣-٣٧٤). مسلم (٤ / ٢٢٦١-٢٢٦٤ / ٢٩٤٢). أبو داود (٤ / ٥٠٠-٥٠١).

(٤) النهاية (١ / ٧٠).

(٤٣٢٦).

الدجال، وتوقف النبي ﷺ في أمره حتى تبين له فيما بعد أنه ليس هو الدجال؛ لكنه كان من جنس الكهان، قال له النبي ﷺ: «قد خبأت لك خبأ» قال: الدخ الدخ. وقد كان خبأ له سور الدخان، فقال له النبي ﷺ «اخسأ فلن تعدو قدرك» يعني: إنما أنت من إخوان الكهان؛ والكهان كان يكون لأحدهم القرين من الشياطين يخبره بكثير من المغيبات بما يسترقه من السمع، وكانوا يخلطون الصدق بالكذب، كما في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره أن النبي ﷺ قال: «إن الملائكة تنزل في العنان وهو السحاب، فتذكر الأمر قضي في السماء، فتسترق الشياطين السمع فتوحيه إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم»^(١) «(٢)».

* عن أبي وائل قال: جاء رجل إلى ابن مسعود فقال: قرأت المفصل الليلة في ركعة، فقال: (هذا كهذا الشعر؟)، لقد عرفت النظائر التي كان النبي ﷺ يقرن بينهن، فذكر عشرين سورة من المفصل، سورتين من آل حاميم في كل ركعة^(٣).

★ غريب الحديث:

المفصل: من ﴿ق﴾ إلى آخر القرآن على الصحيح، وسمي مفصلاً لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة على الصحيح.

هذا: بفتح الهاء وتشديد الذال المعجمة؛ أي: سرداً وإفراطاً في السرعة، وهو منصوب على المصدر، وهو استفهام إنكار بحذف أداة الاستفهام، وقال ذلك لأن تلك الصفة كانت عادتهم في إنشاد الشعر.

النظائر: أي: السور المتماثلة في عدد المعاني كالموعظة أو الحكم أو القصص لا المتماثلة في عدد الآي؛ لما سيظهر عند تعيينها. قال المحب الطبري: «كنت أظن أن المراد بأنها متساوية في العدد حتى اعتبرتها فلم أجد فيها شيئاً متساوياً».

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «والنظائر والقرائن: هي السور المتقاربة في المقدار، وقد

(١) أخرجه: أحمد (٦ / ٨٧)، البخاري (٦ / ٣٧٣-٣٧٤ / ٣٢١٠)، مسلم (٤ / ١٧٥٠ / ٢٢٢٨).

(٢) مجموع الفتاوى (١١ / ٢٨٣).

(٣) أخرجه: أحمد (١ / ٣٨٠-٤٢٧-٤٦٢)، البخاري (٢ / ٣٢٥ / ٧٧٥) واللفظ له، مسلم (١ / ٥٦٣ / ٨٢٢)،

أبو داود (٢ / ١١٧ / ١٣٩٦)، النسائي (٢ / ٥١٦-٥١٧ / ١٠٠٤).

عدها ثمانى عشرة في رواية، وفي أخرى عشرين، ولا بعد في ذلك، فإنه يذكر في وقت الأقل من غير تعرض للحصر، ويزيد في وقت آخر. أو يكون النبي ﷺ قرن في وقت بين ثمانى عشرة، وفي أخرى بين عشرين، وقد ذكر أبو داود هذا الحديث عن علقمة والأسود قالا: (أتى ابن مسعود رجل فقال: إني أقرأ المفصل في ركعة فقال: أهذا كهذا الشعر، ونشرا كنثر الدقل؟ لكن رسول الله ﷺ كان يقرأ النظائر، السورتين في ركعة، الرحمان والنجم في ركعة، واقتربت والحاقة في ركعة، والطور والذاريات في ركعة، والواقعة ونون في ركعة، وسأل سائل والنازعات في ركعة، وويل للمطففين وعبس في ركعة، وهل أتى ولا أقسم في ركعة، وعم يتساءلون والمرسلات في ركعة، والدخان وإذا الشمس كورت في ركعة). وقال أبو داود: هذا تأليف ابن مسعود،^(١) قلت: وهذا مفسر لرواية من روى ثمانى عشرة، وزاد في رواية ابن الأعرابي: والمدثر والمزمل في ركعة، فكملة عشرين^(٢).

قال الحافظ: «وعرف بهذا أن قوله في رواية واصل: (وسورتين من آل حم مشكل)؛ لأن الروايات لم تختلف أنه ليس في العشرين من الحواميم غير الدخان فيحمل على التغليب، أو فيه حذف، كأنه قال: (وسورتين إحداهما من آل حم) وكذا قوله في رواية أبي حمزة: (آخرهن حم الدخان، وعم يتساءلون) مشكل؛ لأن حم الدخان آخرهن في جميع الروايات، وأما عم فهي في رواية أبي خالد: (السابعة عشرة) وفي رواية أبي إسحاق (الثامنة عشرة) فكان فيه تجوزا؛ لأن (عم) وقعت في الركعتين الأخيرتين في الجملة، ويتبين بهذا أن في قوله في حديث الباب: (وعشرين سورة من المفصل) تجوزا؛ لأن الدخان ليست منه، ولذلك فصلها من المفصل في رواية واصل. نعم يصح ذلك على أحد الآراء في حد المفصل^(٣).

وقال أيضاً: «وأغرب الداودي فقال: قوله: (من آل حاميم)، من كلام أبي وائل، وإلا فإن أول المفصل عند ابن مسعود من أول الجاثية اهـ، وهذا إنما يرد لو

(١) يعني بهذا: الترتيب في مصحفه.

(٢) المفهم (٢ / ٤٥٤-٤٥٥).

(٣) الفتح (٢ / ٣٣٠).

كان ترتيب مصحف ابن مسعود كترتيب المصحف العثماني ، والأمر بخلاف ذلك ؛ فإن ترتيب السور في مصحف ابن مسعود يغاير الترتيب في المصحف العثماني ، فلعل هذا منها ، ويكون أول المفصل عنده أول الجاثية ، والدخان متأخرة في ترتيبه عن الجاثية ، لا مانع من ذلك ، وقد أجاب النووي على طريق التنزل بأن المراد بقوله : (عشرين من أول المفصل) أي : معظم العشرين^(١) .

وقال أيضًا : «والجمع بينهما-أي بين رواية ثمان عشرة ورواية عشرين سورة أن الثمان عشرة غير سورة الدخان والتي معها ، وإطلاق المفصل على الجميع تغليباً ، وإلا فالدخان ليست من المفصل على المرجح ، لكن يحتمل أن يكون تأليف ابن مسعود على خلاف تأليف غيره ، فإن في آخر رواية الأعمش على تأليف ابن مسعود آخرهن حم الدخان وعم ، فعلى هذا لا تغليب»^(٢) .

* * *

(١) الفتح (٩ / ١١١) .

(٢) الفتح (٩ / ١١٠) .

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾
 حم ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ
 ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً
 مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال السعدي رحمه الله: «هذا قسم بالقرآن على القرآن.

فأقسم بالكتاب المبين لكل ما يحتاج إلى بيانه أنه أنزله في ليلة مباركة؛ أي: كثيرة الخير والبركة، وهي ليلة القدر، التي هي خير من ألف شهر. فأنزل أفضل الكلام، بأفضل الليالي والأيام، على أفضل الأنام، بلغة العرب الكرام؛ لينذر به قوما عمتهم الجهالة، وغلبت عليهم الشقاوة، فيستضيئوا بنوره، ويقتبسوا من هداه، ويسيروا وراءه، فيحصل لهم الخير الدنيوي، والخير الآخروي، ولهذا قال: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾^(١).

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في تلك الليلة أي ليلة من السنة هي؟ فقال بعضهم: هي ليلة القدر. . . وقال آخرون: بل هي ليلة النصف من شعبان. والصواب من القول في ذلك قول من قال: عني بها ليلة القدر؛ لأن الله -جل ثناؤه- أخبر أن ذلك كذلك لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ خَلَقْنَا بِهَذَا الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ فِي اللَّيْلَةِ الْمُبَارَكَةِ عَقُوبَتَنَا أَنْ تَحِلَّ بَمَنْ كَفَرَ مِنْهُمْ، فلم ينب إلى توحيدنا، وإفراد الألوهة لنا»^(٢).

وقال الشنقيطي: «أبهم تعالى هذه الليلة المباركة هنا، ولكنه بين أنها هي ليلة القدر في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾^(٣) وبين كونها مباركة المذكورة

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧ / ٣-٤).

(٢) جامع البيان (٢٥ / ١٠٧-١٠٨).

(٣) القدر: الآية (١).

هنا في قوله تعالى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾^(١) إلى آخر السورة. فقوله: ﴿فِي لَيْلَةٍ مُّبَرَّكَةٍ﴾ أي: كثيرة البركات والخيرات.

ولا شك أن ليلة هي خير من ألف شهر، إلى آخر الصفات التي وصفت بها في سورة القدر كثيرة البركات والخيرات جدًا.

وقد بين تعالى أن هذه الليلة المباركة هي ليلة القدر، التي أنزل فيها القرآن من شهر رمضان، في قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾^(٢). فدعوى أنها ليلة النصف من شعبان كما روي عن عكرمة وغيره لا شك في أنها دعوى باطلة لمخالفتها لنص القرآن الصريح. ولا شك كل ما خالف الحق فهو باطل. والأحاديث التي يوردها بعضهم في أنها من شعبان المخالفة لصريح القرآن لا أساس لها، ولا يصح سند شيء منها، كما جزم به ابن العربي وغير واحد من المحققين. فالعجب كل العجب من مسلم يخالف نص القرآن الصريح بلا مستند كتاب ولا سنة صحيحة^(٣).

وقال ابن عاشور: «وتنكير ﴿لَيْلَةٍ﴾ للتعظيم، ووصفها بـ ﴿مُبَرَّكَةٍ﴾ تنويه بها وتشويق لمعرفة. فهذه الليلة هي الليلة التي ابتدئ فيها نزول القرآن على محمد ﷺ في الغار من جبل حراء في رمضان قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾^(٤).

والليلة التي ابتدئ نزول القرآن فيها هي ليلة القدر قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾^(٥).

والأصح أنها في العشر الأواخر من رمضان، وأنها في ليلة الوتر. وثبت أن الله جعل لنظيرتها من كل سنة فضلًا عظيمًا؛ لكثرة ثواب العبادة فيها في كل رمضان، كرامة لذكرى نزول القرآن، وابتداء رسالة أفضل الرسل ﷺ إلى الناس كافة. قال تعالى: ﴿نَزَّلْنَا الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾^(٦) سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ^(٦). وذلك من معاني بركتها، وكم لها من بركات للمسلمين في دينهم، ولعل

(٢) البقرة: الآية (١٨٥).

(٤) البقرة: الآية (١٨٥).

(٦) القدر: الآيتان (٤-٥).

(١) القدر: الآية (٣).

(٣) أضواء البيان (٧/ ٣١٩).

(٥) القدر: الآية (١).

تلك البركة تسري إلى شؤونهم الصالحة من أمور دنياهم .

فبركة الليلة التي أنزل فيها القرآن بركة قدرها الله لها قبل نزول القرآن ؛ ليكون القرآن بابتداء نزوله فيها مُلابسًا لوقت مبارك ، فيزداد بذلك فضلًا وشرقًا ، وهذا من المناسبات الإلهية الدقيقة التي أنبأنا الله ببعضها .

والظاهر أن الله أمدها بتلك البركة في كل عام كما أوماً إلى ذلك قوله : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ إذ قاله بعد أن مضى على ابتداء نزول القرآن بضع عشرة سنة . وقوله : ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ ^(١) وقوله : ﴿ نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ ^(٢) .

وقوله : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ ^(٣) . وعن عكرمة : أن الليلة المباركة هي ليلة النصف من شعبان وهو قول ضعيف .

واختلف في الليلة التي ابتدئ فيها نزول القرآن على النبي ﷺ من ليالي رمضان ، فقيل : هي ليلة سبع عشرة منه ذكره ابن إسحاق عن الباقر أخذًا من قوله تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنِينَ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ ﴾ ^(٢) فإن رسول الله ﷺ التقى هو والمشركون ببدر يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة ليلة من رمضان اهـ . أي تأول قوله : ﴿ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى عَبْدِنَا ﴾ أنه ابتداء نزول القرآن . وفي المراد بـ ﴿ مَا أُنْزِلْنَا ﴾ احتمالات ترفع الاحتجاج بهذا التأويل بأن ابتداء نزول القرآن كان في مثل ليلة يوم بدر .

والذي يجب الجزم به أن ليلة نزول القرآن كانت في شهر رمضان ، وأنه كان في ليلة القدر . ولما تضافرت الأخبار أن النبي ﷺ قال في ليلة القدر : « اطلبوها في العشر الأواخر من رمضان ، في ثالثة تبقى ، في خامسة تبقى ، في سابعة تبقى ، في تاسعة تبقى » ^(٣) . فالذي نعتمده أن القرآن ابتدئ نزوله في العشر الأواخر من رمضان ، إلا إذا حُمل قول النبي ﷺ : « اطلبوها في العشر الأواخر » على خصوص الليلة من ذلك العام . وقد اشتهر عند كثير من المسلمين أن ليلة القدر ليلة سبع وعشرين باستمرار وهو مناف لحديث : « اطلبوها في العشر الأواخر » على كل

(٢) الأنفال : الآية (٤١) .

(١) القدر : الآية (٣) .

(٣) أخرجه : أحمد (١ / ٢٣١) ، والبخاري (٤ / ٣٢٦ / ٢٠٢١) ، وأبو داود (٢ / ١٠٨ / ١٣٨١) .

احتمال»^(١).

وقوله: ﴿فِيهَا يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ قال ابن كثير: «أي: في ليلة القدر يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنة، وما يكون فيها من الآجال والأرزاق، وما يكون فيها إلى آخرها. وهكذا روي عن ابن عمر، وأبي مالك، ومجاهد، والضحاك، وغير واحد من السلف. وقوله: ﴿حَكِيمٍ﴾ أي: محكم لا يبدل ولا يغير»^(٢).

وقال الشنقيطي: «معنى قوله: ﴿يُفَرَّقُ﴾ أي: يفصل ويبين، ويكتب في الليلة المباركة، التي هي ليلة القدر، ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾، أي ذي حكمة بالغة؛ لأن كل ما يفعله الله مشتمل على أنواع الحكم الباهرة. قال بعضهم: ﴿حَكِيمٍ﴾، أي محكم، ولا تغيير فيه، ولا تبديل. وكلا الأمرين حق؛ لأن ما سبق في علم الله، لا يتغير ولا يتبدل، ولأن جميع أفعاله في غاية الحكمة. وهي في الاصطلاح وضع الأمور في مواضعها، وإيقاعها في مواقعها.

وإيضاح معنى الآية أن الله -تبارك وتعالى- في كل ليلة قدر من السنة يبين للملائكة ويكتب لهم بالتفصيل والإيضاح جميع ما يقع في تلك السنة، إلى ليلة القدر من السنة الجديدة.

فتبين في ذلك الآجال والأرزاق والفقر والغنى، والخصب والجذب، والصحة والمرض، والحروب والزلازل، وجميع ما يقع في تلك السنة كائناً ما كان. وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة، يدل أيضاً على أن الليلة المباركة هي ليلة القدر، فهو بيان قرآني آخر. وإيضاح ذلك أن معنى قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ أي في ليلة التقدير لجميع أمور السنة، من رزق وموت، وحياة وولادة، ومرض وصحة، وخصب وجذب، وغير ذلك من جميع أمور السنة.

قال بعضهم: حتى إن الرجل لينكح ويتصرف في أموره ويولد له، وقد خرج اسمه في الموتى في تلك السنة. وعلى هذا التفسير الصحيح لليلة القدر، فالتقدير المذكور هو بعينه المراد بقوله: ﴿فِيهَا يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾^(٣).

(١) التحرير والتنوير (٢٥ / ٢٧٧-٢٧٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٤٥).

(٣) أضواء البيان (٧ / ٣٢٠-٣٢١).

قال ابن عاشور: «والأمر الحكيم: المشتغل على حكمة من حكمة الله تعالى، أو الأمر الذي أحكمه الله تعالى وأتقنه بما ينطوي عليه من النظم المدبرة الدالة على سعة العلم وعمومه. وبعض تلك الأمور الحكيمة يُنفذُ الأمرُ به إلى الملائكة الموكلين بأنواع الشؤون، وبعضها يُنفذُ الأمرُ به على لسان الرسول مدة حياته الدنيوية، وبعضها يلهمُ إليه من ألهمه الله أفعالا حكيمة، والله هو العالم بتفاصيل ذلك»^(١).

قوله: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ ٥ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾ قال السعدي: «أي: هذا الأمر الحكيم أمر صادر من عندنا.

﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ للرسول ومنزلين للكتب، والرسول تبلغ أوامر المرسل وتخبر بأقداره، ﴿رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ﴾ أي: إن إرسال الرسل وإنزال الكتب التي أفضلها القرآن رحمة من رب العباد بالعباد، فما رحم الله عباده برحمة أجل من هدايتهم بالكتب والرسول، وكل خير ينالونه في الدنيا والآخرة فإنه من أجل ذلك وسببه، ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: يسمع جميع الأصوات، ويعلم جميع الأمور الظاهرة والباطنة، وقد علم تعالى ضرورة العباد إلى رسله وكتبه، فرحمهم بذلك ومن عليهم، فله تعالى الحمد والمنة والإحسان»^(٢).

قال الشنقيطي: «واختلف العلماء في إعراب قوله: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا﴾ قال بعضهم: هو مصدر منكر في موضع الحال؛ أي: أنزلناه في حال كوننا أمرين به.. وقال بعضهم: هو ما ناب عن المطلق من قوله: ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ وجعل ﴿أَمْرًا﴾ بمعنى: إنزالا.. وقال بعضهم: هو ما ناب عن المطلق من ﴿يُفَرِّقُ﴾، فجعل ﴿أَمْرًا﴾ بمعنى فرقا أو فرق بمعنى أمرا.. وقال بعضهم: هو حال من ﴿أَمْرًا﴾ أي: يفرق فيها بين كل أمر حكيم. في حال كونه أمرا من عندنا، وهذا الوجه جيد ظاهر، وإنما ساغ إتيان الحال من النكرة وهي متأخرة عنها لأن النكرة التي هي ﴿أَمْرًا﴾ وصفت بقوله: ﴿حَكِيمٍ﴾ كما لا يخفى. وقال بعضهم: ﴿أَمْرًا﴾ مفعول به لقوله: ﴿مُنْذِرِينَ﴾ وقيل غير ذلك. واختار الزمخشري: أنه منصوب بالاختصاص»^(٣).

(١) التحرير والتنوير (٢٥ / ٢٨٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧ / ٤-٥).

(٣) أضواء البيان (٧ / ٣٢٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في تفسير الليلة المباركة بليلة القدر

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « إنك لترى الرجل يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى ثم قرأ ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ﴾ (٢) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿١﴾ يعني : ليلة القدر قال : ففي تلك الليلة يفرق أمر الدنيا إلى مثلها من قابل « (١) .

* فوائد الحديث :

قال ابن القيم رحمه الله : وهذه هي ليلة القدر قطعاً لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ (١) ومن زعم أنها ليلة النصف من شعبان فقد غلط . قال سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد : ليلة القدر : ليلة الحكم .

وقال سفيان عن محمد بن سوقة عن سعيد بن جبير : يؤذن للحجاج في ليلة القدر فيكتبون بأسمائهم وأسماء آبائهم فلا يغادر منهم أحد ، ولا يزداد فيهم ولا ينقص منهم . وقال ابن علية : حدثنا ربيعة بن كلثوم قال : قال رجل للحسن وأنا أسمع : رأيت ليلة القدر ، في كل رمضان هي ؟ قال : نعم ، والذي لا إله إلا هو إنها لفي كل رمضان ، وإنها لليلة القدر يفرق فيها كل أمر حكيم ، فيها يقضي الله كل أجل وعمل وورق إلى مثلها .

وذكر يوسف بن مهران عن ابن عباس قال : يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من موت وحياة ورزق ومطر حتى الحجاج ، يقال يحج فلان ويحج فلان . وذكر عن سعيد بن جبير في هذه الآية : إنك لترى الرجل يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى . وقال مقاتل : يقدر الله في ليلة القدر أمر السنة في بلاده وعباده إلى السنة القابلة .

وقال أبو عبد الرحمن السلمي : يقدر أمر السنة كلها في ليلة القدر . وهذا هو الصحيح . إن القدر مصدر قدر الشيء يقدره قدرا ، فهي ليلة الحكم والتقدير .

وقالت طائفة : ليلة القدر : ليلة الشرف والعظمة ، من قولهم : لفلان قدر في

(١) أخرجه : ابن جرير في التفسير (٢٥ / ١٠٩) ، الحاكم (٢ / ٤٤٨-٤٤٩) وصححه ووافقه الذهبي ، البيهقي في الشعب (٣ / ٣٢١ / ٣٦٦١) .

الناس . فإن أراد صاحب هذا القول أن لها قدرا وشرفا مع ما يكون فيها من التقدير فقد أصاب ، وإن أراد أن معنى القدر فيها هو الشرف والخطر فقد غلط . إن الله سبحانه أخبر أن فيها يفرق ، أي يفصل الله ويبين ويبرم كل أمر حكيم^(١) .

* * *

(١) شفاء العليل (١ / ٦٩-٧٠) .

قوله تعالى: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ
 ﴿٧﴾ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ
 هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : الذي أنزل هذا الكتاب يا محمد عليك ، وأرسلك إلى هؤلاء المشركين رحمة من ربك ، مالك السموات السبع والأرض وما بينهما من الأشياء كلها .

وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ يقول: إن كنتم توقنون بحقيقة ما أخبرتكم من أن ربكم رب السموات والأرض ، فإن الذي أخبرتكم أن الله هو الذي هذه الصفات صفاته ، وأن هذا القرآن تنزيله ، ومحمدا ﷺ رسوله حق يقين ، فأيقنوا به كما أيقنتم بما توقنون من حقائق الأشياء غيره .

وقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ يقول: لا معبود لكم أيها الناس غير رب السموات والأرض وما بينهما ، فلا تعبدوا غيره ، فإنه لا تصلح العبادة لغيره ، ولا تنبغي لشيء سواه ، ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ ، يقول: هو الذي يحيي ما يشاء ، ويميت ما يشاء مما كان حيا .

وقوله: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ يقول: هو مالكم ومالك من مضى قبلكم من آبائكم الأولين ، يقول: فهذا الذي هذه صفته ، هو الرب فاعبدوه دون آلهتكم التي لا تقدر على ضر ولا نفع»^(١) .

وقال ابن عاشور: «هذا عود إلى مواجهة المشركين بالتذكير على نحو ما ابتدئت به السورة . وهو تخلص للاستدلال على تفرد الله بالإلهية إلزاماً لهم بما يُقرّون به من أنه رب السماوات والأرض وما بينهما ، ويُقرّون بأن الأصنام لا تخلق شيئاً ، غير

(١) جامع البيان (٢٥ / ١١٠) .

أنهم معرضون عن نتيجة الدليل ببطلان إلهية الأصنام، ألا ترى القرآن يكرر تذكيرهم بأمثال هذا مثل قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٧) وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (١٥) أَمْوَتْ غَيْرُ أَحْيَاءٍ (٢) (٣).

وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ (١) قال السعدي: «فلما قرر تعالى ربوبيته وألوهيته بما يوجب العلم التام ويدفع الشك، أخبر أن الكافرين مع هذا البيان ﴿فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ أي: منغمرون في الشكوك والشبهات، غافلون عما خلقوا له، قد اشتغلوا باللعب الباطل، الذي لا يجدي عليهم إلا الضرر» (٤).

* * *

(١) النحل: الآية (١٧).

(٢) النحل: الآيتان (٢٠-٢١).

(٣) التحرير والتنوير (٢٥ / ٢٨٣).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٧ / ٥).

قوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾
يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا
مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال السعدي: ﴿فَارْتَقِبْ﴾ أي: انتظر فيهم العذاب فإنه قد قرب وأن أوانه،
﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ﴾ أي: يعمهم ذلك الدخان ويقال
لهم: ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١).

وللسلف في معنى الدخان ثلاثة أوجه: الأول: قال السعدي: إن المراد بذلك
ما أصاب كفار قريش حين امتنعوا من الإيمان واستكبروا على الحق، فدعا عليهم
النبي ﷺ فقال: «اللهم أعني عليهم بسنين كسني يوسف» فأرسل الله عليهم الجوع
العظيم حتى أكلوا الميتات والعظام، وصاروا يرون الذي بين السماء والأرض
كهيئة الدخان وليس به، وذلك من شدة الجوع.

فيكون -على هذا- قوله: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ﴾ أن ذلك بالنسبة إلى
أبصارهم وما يشاهدون، وليس بدخان حقيقة. ولم يزالوا بهذه الحالة حتى
استرحموا رسول الله ﷺ وسألوه أن يدعو الله لهم أن يكشفه الله عنهم، فكشفه الله
عنهم، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٢﴾﴾^(٢) إخبار
بأن الله سيصرفه عنكم، وتوعد لهم أن يعودوا إلى الاستكبار والتكذيب، وإخبار
بوقوعه فوق، وأن الله سيعاقبهم بالبطشة الكبرى، قالوا: وهي وقعة بدر، وفي هذا
القول نظر ظاهر^(٣).

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧ / ٥).

(٢) الدخان: الآية (١٥).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧ / ٦-٧).

وقال أبو السعود: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ أي: يومَ شِدَّةٍ وَمَجَاعَةٍ، فإنَّ الجائعَ يرى بينه وبين السماء كهيئة الدخان، إما لضعفِ بصره، أو لأنَّ في عام القحطِ يُظلمُ الهواءُ لقلَّةِ الأمطارِ وكثرةِ الغبارِ، أو لأنَّ العربَ تُسمِّي الشرَّ الغالبَ دُخَانًا، وذلك أنَّ قريشًا لما استعصت على رسول الله ﷺ دَعَا عليهم فقال: «اللَّهُمَّ اشْدُدْ وطأتَكَ على مضرَ، واجعلها عليهم سنينَ كسني يوسفَ»^(١) فأخذتهم سنةٌ حتى أكلوا الجيفَ والعظامَ والعِلْهَزَ^(٢)، وكان الرجلُ يرى بين السماء والأرضِ الدُّخَانَ، وكان يحدثُ الرجلُ ويسمعُ كلامه ولا يراه من الدخانِ، وذلك قوله تعالى: ﴿يَفْشَى النَّاسَ﴾ أي: يحيطُ بهم ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي قائلين ذلك، فمشى إليه عليه الصَّلَاةُ والسَّلَامُ أبو سفيانَ ونفَرٌ معه وناشدوه الله تعالى والرحمَ، وواعدوه إن دَعَا لهم وكشف عنهم أن يؤمنوا، وذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ وهذا قولُ ابنِ عباسٍ وابنِ مسعودٍ رضي الله عنهما، وبه أخذ مجاهدٌ ومقاتلٌ وهو اختيارُ الفراءِ والزَّجَّاجِ^(٣).

وقال ابن كثير: «وقد وافق ابن مسعود على تفسير الآية بهذا، وأن الدخان مضي، جماعة من السلف كمجاهد، وأبي العالية، وإبراهيم النخعي، والضحاك، وعطية العوفي، وهو اختيار ابن جرير»^(٤).

قال ابن جرير: «وأولى القولين بالصواب في ذلك ما رُوي عن ابن مسعود من أن الدخان الذي أمر الله نبيه ﷺ أن يرتقبه، هو ما أصاب قومه من الجهد بدعائه عليهم، على ما وصفه ابن مسعود من ذلك إن لم يكن خبر حذيفة الذي ذكرناه عنه عن رسول الله ﷺ صحيحا، وإن كان صحيحا، فرسول الله ﷺ أعلم بما أنزل الله عليه، وليس لأحد مع قوله الذي يصح عنه قول»^(٥).

وهذا القول هو الذي رجحه ابن عاشور فقال: «والكلام يؤذن بأن هذا الدخان المرتقب حادث قريب الحصول، فالظاهر أنه حدث يكون في الحياة الدنيا، وأنه

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) العلهز بالكسر: طعام كانوا يتخذونه من الدم ووبر البعير في سنين المجاعة، ولحم معلهز: إذا لم ينضج.

(٣) تفسير أبي السعود (٨ / ٦٠).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٤٦-٢٤٧).

(٥) جامع البيان (٢٥ / ١١٤).

عقاب للمشركين .

فالمراد بالناس من قوله : ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ هم المشركون كما هو الغالب في إطلاق لفظ الناس في القرآن ، وأنه يكشف زمناً قليلاً عنهم إعداراً لهم لعلهم يؤمنون ، وأنهم يعودون بعد كشفه إلى ما كانوا عليه ، وأن الله يعيده عليهم كما يؤذن بذلك قوله : ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا﴾ . وأما قوله : ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ﴾ ^(١) فهو عذاب آخر . وكل ذلك يؤذن بأن العذاب بالدخان يقع في الدنيا وأنه مستقبل قريب ، وإذا قد كانت الآية مكية تعين أن هذا الدخان الذي هو عذاب للمشركين لا يصيب المؤمنين لقوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَّةٌ لِّعَذَابِهِمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ أَلَلَّةٌ مُّعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ^(٢) فتعين أن المؤمنين يوم هذا الدخان غير قاطنين بدار الشرك ، فهذا الدخان قد حصل بعد الهجرة لا محالة ، وتعين أنه قد حصل قبل أن يسلم المشركون الذين بمكة وما حولها ، فيتعين أنه حصل قبل فتح مكة أو يوم فتح مكة على اختلاف الأقوال . والأصح أن هذا الدخان غني به ما أصاب المشركين من سني القحط بمكة بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة . والأصح في ذلك حديث عبد الله بن مسعود في «صحيح البخاري» عن مسلم وأبي الضحى عن مسروق قال : دخلت على عبد الله بن مسعود فقال : إن قريشاً لما غلبوا على النبي ﷺ واستعصوا عليه قال : «اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف» ، فأخذتهم سنة أكلوا فيها العظام والميتة من الجهد حتى جعل أحدهم يرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان من الجوع فأتى رسول الله ﷺ فقبل له : استسقى لمضر أن يكشف عنهم العذاب ، فدعا فكشف عنهم ، وقال الله له : إن كشفنا عنهم العذاب عادوا ، فعادوا : فانتقم الله منهم يوم بدر ، فذلك قوله تعالى : ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ ^(٣) إلى قوله : ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾ ^(٤) والبطشة الكبرى يوم بدر . وإن عبد الله قال : مضى خمس : الدخان ، والروم والقمر والبطشة واللزام .

في حديث أبي هريرة في «صحيح البخاري» في أبواب الاستسقاء أن النبي ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركعة الآخرة من الصبح يقول : «اللهم أنج عياش بن أبي

(١) الدخان : الآية (١٦) .

(٢) الأنفال : الآية (٣٣) .

(٣) الدخان : الآيات (١٠-١٦) .

ربيعة. اللهم أنج سلمة بن هشام، اللهم أنج الوليد بن الوليد، اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر، اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف^(١) وهؤلاء الذين دعا لهم بالنجاة كانوا ممن حبسهم المشركون بعد الهجرة، وكل هذه الروايات يؤذن بأن دعاء النبي ﷺ على المشركين بالسنين كان بعد الهجرة لئلا يعذب المسلمون بالجوع، وأنه كان قبل وقعة بدر، وفي بعض روايات القنوت أنه دعا في القنوت على بني لحيان وعُصَيَّة^(٢).

والذي يستخلص من الروايات أن هذا الجوع حلّ بقریش بُعيد الهجرة، وذلك هو الجوع الذي دعا به النبي ﷺ إذ قال: «اللهم أعني عليهم بسبع كسبي يوسف» وفي رواية «اللهم اشدد وطأتك على مضر، اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف» فأتى النبي ﷺ فقليل له: استسق لمضر وفي رواية عن مسروق عن ابن مسعود في «صحيح البخاري» أن الذي أتى النبي هو أبو سفيان. وقال المفسرون: إن أبا سفيان أتاه في ناس من أهل مكة يعني أتوا المدينة لما علموا أن النبي ﷺ كان دعا عليهم بالقحط، فقالوا: (إن قومك قد هلكوا فادع الله أن يسقيهم فدعا)^(٣).

الوجه الثاني: هو دخان يظهر في العالم قال القاسمي: «وهو إحدى علامات القيامة ولم يأت بعد، وهو آت، وهو قول حذيفة، ويروى عن علي وابن عباس وجمع من التابعين، قال الرازي: واحتج القائلون بهذا القول بوجوه:

الأول: أن قوله: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ يقتضي وجود دخان تأتي به السماء، وما ذكرتموه من الظلمة الحاصلة في العين بسبب شدة الجوع فذاك ليس بدخان أتت به السماء، فكان حمل لفظ الآية على هذا الوجه عدولاً عن الظاهر لا لدليل منفصل، وإنه لا يجوز.

الثاني: أنه وصف ذلك الدخان بكونه مبيناً، والحالة التي ذكرتموها ليست كذلك؛ لأنها عارضة تعرض لبعض الناس في أدمغتهم، ومثل هذا لا يوصف بكونه

(١) أخرجه: أحمد (٢٣٩/٢)، البخاري (١٢/٣٨٥/٦٩٤٠)، مسلم (١/٤٦٦/٦٧٥)، أبو داود (٢/١٤٢/١٤٤٢)، النسائي (٢/٥٤٦-٥٤٧/١٠٧٢-١٠٧٣)، ابن ماجه (١/٣٩٤/١٢٤٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/١٠٩)، البخاري (٧/٤٩٠/٤٠٠٩)، مسلم (١/٤٦٨/٦٧٧)، والنسائي (٢/٥٤٨-٥٤٩/١٠٧٦)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) التحرير والتنوير (٢٥/٢٨٦-٢٨٧).

دخانًا مبينًا .

والثالث : أنه وصف ذلك الدخان بأنه يغشى الناس ، وهذا إنما يصدق إذا وصل ذلك الدخان إليهم واتصل بهم ، والحالة التي ذكرتموها لا تغشى الناس إلا على سبيل المجاز ، وقد ذكرنا أن العدول من الحقيقة إلى المجاز لا يجوز إلا لدليل منفصل .

الرابع : ما روي عن النبي ﷺ من عده الدخان من الآيات المنتظرة .

أما القائلون بالقول الأول فلا شك أن ذلك يقتضي صرف اللفظ عن حقيقته إلى المجاز ، وذلك لا يجوز إلا عند قيام دليل يدل على أن حمله على حقيقته ممتنع ، والقوم لم يذكروا ذلك الدليل ، فكان المصير إلى ما ذكرناه مشكلاً جداً ، فإن قالوا : الدليل على أن المراد ما ذكرناه ، أنه تعالى حكى عنهم أنهم يقولون : ﴿ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ (١٢) وهذا إذا حملناه على القحط الذي وقع بمكة استقام ، فإنه نقل أن القحط لما اشتد بمكة مشى إليه أبو سفيان وناشده بالله وبالرحم ، ووعدته أنه إن دعا لهم وأزال الله عنهم تلك البلية أن يؤمنوا به ، فلما أزال الله تعالى عنهم ذلك رجعوا إلى شركهم ، أما إذا حملناه على أن المراد منه ظهور علامة من علامات القيامة لم يصح ذلك ؛ لأن عند ظهور علامات القيامة لا يمكنهم أن يقولوا : ﴿ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ (١٢) ولم يصح أيضاً أن يقال لهم : ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ (١٥) والجواب : لم لا يجوز أن يكون ظهور هذه العلامة جاريًا مجرى ظهور سائر علامات القيامة في أنه لا يوجب انقطاع التكليف فتحدث هذه الحالة ، ثم إن الناس يخافون جداً فيتضرعون ، فإذا زالت تلك الواقعة عادوا إلى الكفر والفسق ، وإذا كان هذا محتملاً فقد سقط ما قالوه ، والله أعلم .

وهكذا رجح الإمام ابن كثير الوجه الثاني ذهاباً إلى ما صح عن ابن عباس ترجمان القرآن ومن وافقه من الصحابة والتابعين ، مع الأحاديث المرفوعة الصحاح والحسان وغيرهما التي أوردوها ، مما فيه مقنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة ، مع أنه ظاهر القرآن ، قال الله - تبارك وتعالى - : ﴿ فَأَرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴾ (١٠) أي : بين واضح يراه كل أحد . وعلى ما فسره ابن مسعود رضي الله عنه ، إنما هو خيال رأوه في أعينهم من شدة الجوع والجهد وهكذا قوله : ﴿ يَغْشَى النَّاسَ ﴾ أي : يتغشاهم ويعمهم ، ولو كان أمراً خيالياً يخص أهل مكة المشركين لما

قيل فيه : ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾^(١).

الوجه الثالث : قال السعدي : «قيل : إنه الدخان الذي يغشى الناس ويعمهم حين تقرب النار من المجرمين في يوم القيامة ، وأن الله توعدهم بعذاب يوم القيامة ، وأمر نبيه أن ينتظر بهم ذلك اليوم .

ويؤيد هذا المعنى أن هذه الطريقة هي طريقة القرآن في توعد الكفار والتأني بهم ، وترهيبهم بذلك اليوم وعذابه ، وتسلية الرسول والمؤمنين بالانتظار بمن آذاهم . ويؤيده أيضا أنه قال في هذه الآية : ﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ﴾^(٢) وهذا يقال يوم القيامة للكفار حين يطلبون الرجوع إلى الدنيا فيقال : قد ذهب وقت الرجوع»^(٣).

ومعنى قوله : ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ قال الألوسي : «أي : يحيط بهم ، والمراد بهم كفار قريش ، ومن جعل الدخان ما هو من أشراط الساعة حمل ﴿النَّاسَ﴾ على من أدركه ذلك الوقت ، ومن جعل ذلك يوم القيامة حمل ﴿النَّاسَ﴾ على العموم»^(٤).

وقوله : ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال ابن كثير : «أي : يقال لهم ذلك تقريرا وتوبيخا ، كقوله تعالى : ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا﴾^(٥) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكْذِبُونَ ﴿١٤﴾»^(٥) ، أو يقول بعضهم لبعض ذلك»^(٦).

قال ابن عطية : «يحتمل أن يكون إخبارا من الله تعالى ، كأنه يعجب منه على نحو من قوله تعالى لما وصف قصة الذبح : ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾^(٧)» ، ويحتمل أن يكون ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ من قول الناس ، كأن تقدير الكلام : يقولون : ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾»^(٨).

قال القرطبي : «فمن قال : إن الدخان قد مضى فقوله : ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ حكاية حال ماضية ، ومن جعله مستقبلا فهو حكاية حال آتية . وقيل : ﴿هَذَا﴾ بمعنى ذلك . . وقيل : هو إخبار عن دنو الأمر كما تقول : هذا الشتاء فأعد له»^(٩).

(٢) الدخان : الآية (١٣) .

(٤) روح المعاني (٢٥ / ١١٩) .

(٦) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٤٩) .

(٨) المحرر والوجيز (٥ / ٧٠) .

(١) محاسن التأويل (١٤ / ٣٦٦-٣٦٧) .

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧ / ٦) .

(٥) الطور : الآيتان (١٣-١٤) .

(٧) الصافات : الآية (١٠٦) .

(٩) الجامع لأحكام القرآن (١٦ / ١٣٢) .

وقوله سبحانه: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ قال ابن كثير: «أي: يقول الكافرون إذا عاينوا عذاب الله وعقابه سائلين رفعه وكشفه عنهم، كقوله جلّت عظمتُه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيِّنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِثَائِتِ رَبِّنَا وَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١)». وكذا قوله -جل وعلا-: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُحِبِّ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوْلَمَ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ (٢)». (٣)

قال المراغي: «وهذه هي طبيعة البشر إذا هم وقعوا في شدة أيا كانت أن يعدوا بالتوبة والإقلاع عما هم فيه، ولكن النفوس الشريرة، لا تتجه إلى فعل الخير، ولا تفعل ما تقترب به إلى ربها، انتظارا لمثوبته، ورجاء في غفرانه ورحمته» (٤).

وقال ابن عاشور: «حملها جميع المفسرين على أنها حكاية قول الذين يغشاهم العذاب بتقدير: يقولون ربنا اكشف عنا العذاب، أي هو وعد صادر من الناس الذين يغشاهم العذاب بأنهم يؤمنون إن كشف عنهم العذاب، أي فيكون مثل قوله تعالى في سورة الزخرف: ﴿وَقَالُوا يَتَأْتِيهِ السَّاحِرُ أَدْعُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ﴾ (٥) أي: إن دعوت ربك اتبعناك ويكون بمعنى قوله في سورة الأعراف: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمْوَسَىٰ أَدْعُ لَنَا رَبِّكَ﴾ إلى قوله: ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ (٦) ومما تسمع به تراكيب الآية وسياقها أن يكون القول المحذوف مقدراً بفعل أمر؛ أي: قولوا لتلقين المسلمين أن يستعيذوا بالله من أن يصيبهم ذلك العذاب إذ كانوا والمشركين في بلد واحد، كما استعاذ موسى عليه السلام بقوله: ﴿أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ (٧). وفيه إيماء إلى أن الله سيخرج المؤمنين من مكة قبل أن يحلّ بأهلها هذا العذاب، فهذا التلقين كالذي في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ (٨) الآيات. وعليه فجملة ﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ تعليل لطلب دفع العذاب عنهم؛ أي: إنا متلبسون بما يدفع عنا عذاب الكافرين، وفي تلقينهم بذلك تنويه بشرف الإيمان» (٩).

(٢) إبراهيم: الآية (٤٤).

(٤) تفسير المراغي (٢٥ / ١٢٣).

(٦) الأعراف: الآية (١٣٤).

(٨) البقرة: الآية (٢٨٦).

(١) الأنعام: الآية (٢٧).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٤٩).

(٥) الزخرف: الآية (٤٩).

(٧) الأعراف: الآية (١٥٥).

(٩) التحرير والتنوير (٢٥ / ٢٨٩-٢٩٠).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في اشراط الساعة

* عن عبد الله فقال: إن النبي ﷺ لما رأى من الناس إدباراً قال: «اللهم سبع كسيع يوسف». فأخذتهم سنة حصت كل شيء، حتى أكلوا الجلود والميتة والجيف وينظر أحدهم إلى السماء فيرى الدخان من الجوع، فأتاه أبو سفيان فقال: يا محمد إنك تأمر بطاعة الله وبصلة الرحم، وإن قومك قد هلكوا، فادع الله لهم، قال الله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى﴾، فالبطشة يوم بدر، وقد مضت الدخان، والبطشة والالزام وآية الروم^(١).

* عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه موقوفاً: (مضى خمس: الدخان، والروم والبطشة والقمر والالزام)^(٢).

* عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: «اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر فقال: «ما تذاكرون؟» قالوا: نذكر الساعة، قال: «إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى بن مريم عليه السلام، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن، تطرد الناس إلى محشرهم»^(٣).

* غريب الأحاديث:

الالزام: يريد قول الله تعالى من سورة الفرقان: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾^(٤) قال أبو عبيدة: «أي جزاء يلزم كل عامل بما عمل. وله معنى آخر يكون هلاكاً»^(٥).

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٤٣١ و ٤٤١) البخاري (٢/ ٦٢٦ / ١٠٠٧) مسلم (٤/ ٢١٥٦ / ٢٧٩٨) الترمذي (٥/ ٣٥٤ / ٣٢٥٤) وقال: «حسن صحيح» والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٥٥ / ١١٤٨١).

(٢) أخرجه: البخاري (٨/ ٧٣٤ / ٤٨٢٠) واللفظ له، مسلم (٤/ ٢١٥٧ / ٢٧٩٨ [٤١]) النسائي في الكبرى (٦/ ٤٢٦ / ١١٣٨٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٦) ومسلم (٤/ ٢٢٢٥ / ٢٩٠١) واللفظ له، أبو داود (٤/ ٤٩١-٤٩٢ / ٤٣١١) والترمذي (٤/ ٤١٤ / ٢١٨٣) والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٢٤ / ١١٣٨٠) وابن ماجه (٢/ ١٣٤١ / ٤٠٤١) مختصراً.

(٤) الفرقان: الآية (٧٧).

(٥) فتح الباري (٨/ ٤٩٦).

السنة : الجذب والقحط .

★ فوائد الأحاديث:

قال ابن كثير : «قد تكلمنا على تفسير هذه الآية في سورة الدخان بما فيه مقنع ، وقد نقل البخاري عن ابن مسعود أنه فسر ذلك بما كان يحصل لقريش من شدة الجوع ، بسبب القحط الذي دعا عليهم به رسول الله ﷺ ، فكان أحدهم يرى فيما بينه وبين السماء دخانا من شدة الجوع .

وهذا التفسير غريب جدًا ، ولم ينقل مثله عن واحد من الصحابة غيره ، وقد حاول بعض العلماء المتأخرين رد ذلك ، ومعارضته بما ثبت في حديث أبي سريحة حذيفة بن أسيد ؛ «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات» ، فذكر فيهن الدجال ، والدخان ، والدابة ، وكذلك في حديث أبي هريرة : «بادروا بالأعمال ستًا»^(١) ، فذكر فيهن هذه الثلاث ، والحديثان في صحيح مسلم مرفوعان ، والمرفوع مقدم على كل موقوف ، وفي ظاهر القرآن ما يدل على وجود دخان من السماء يغشى الناس ، وهذا أمر محقق عام ، وليس كما روي عن ابن مسعود أنه خيال في أعين قريش من شدة الجوع .

قال تعالى : ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴿١٥﴾﴾ أي : ظاهر واضح جلي ، ليس خيالاً من شدة الجوع ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾﴾ أي : ينادي أهل ذلك الزمان ربهم بهذا الدعاء ، يسألون كشف هذه الشدة عنهم ، فإنهم قد آمنوا ، وأيقنوا بما وعدوا به من الأمور الغيبية الكائنة بعد ذلك يوم القيامة ، وهذا دليل على أن يكون هذا قبل يوم القيامة ، حيث يمكن رفعه ، ويمكن استدراك التوبة ، والإنابة والله أعلم»^(٢) .

قال النووي عند شرحه لحديث حذيفة بن أسيد : «هذا الحديث يؤيد قول من قال : إن الدخان دخان يأخذ بأنفاس الكفار ، ويأخذ المؤمن منه كهيئة الزكام ، وأنه لم يأت بعد ، وإنما يكون قريباً من قيام الساعة ، وقد سبق في كتاب بدء الخلق ، قول

(١) أخرجه : أحمد (٣٢٤ / ٢) ، مسلم (٢٩٤٧ / ٢٢٦٧ / ٤) .

(٢) النهاية في الفتن (١ / ١٧٢) .

من قال هذا ، وإنكار ابن مسعود عليه ، وأنه قال : إنما هو عبارة عما نال قريشا من القحط حتى كانوا يرون بينهم وبين السماء كهيئة الدخان ، وقد وافق ابن مسعود جماعة ، وقال بالقول الآخر حذيفة وابن عمر والحسن ، ورواه حذيفة عن النبي ﷺ : وأنه يمكث في الأرض أربعين يوما ، ويحتمل أنهما دخانان للجمع بين هذه الآثار^(١) .

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « ما نمت البارحة حتى أصبحت ، قلت : لم ؟ قال : طلع الكوكب ذو الذنب ، فخشيت أن يكون الدخان قد طرق فما نمت حتى أصبحت »^(٢) .

* * *

(١) شرح مسلم (١٨ / ٢٢) .

(٢) أخرجه عبد الرزاق في التفسير (٢ / ٢٠٦) . ابن جرير في التفسير (٢٥ / ١١٣) واللفظ له ، والحاكم (٤ / ٤٥٩) وصححه ووافقه الذهبي ، وزاد نسبه السيوطي في الدر (٥ / ٧٤٤) لعبد بن حميد وابن أبي حاتم وصحح إسناده وأورده الحافظ في الفتح (٨ / ٧٣٦) وسكت عنه .

قوله تعالى : ﴿ أَفَنُؤْمِنُ بِالْذِّكْرِ وَكَذَّبُوا بِرُسُولِهِمْ ﴾ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ
وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴿١٤﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال أبو السعود : [هذا] ردُّ لكلامهم واستدعائهم الكشف ، وتكذيبُ لهم في الوعدِ بالإيمانِ المنبئ عن التذكيرِ والاتعاظِ بما اعتراه من الداهية ؛ أي : كيف يتذكرون ، أو مِنْ أين يتذكرون بذلك ويفقون بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذابِ عنهم ﴿ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴾ أي : والحالُ أنَّهم شاهدوا مَنْ دَوَّاعِي التذكيرِ وموجباتِ الاتعاظِ ما هو أعظمُ منه في إيجابها ، حيثُ جاءَهُم رسولٌ عظيمُ الشأنِ ، وبين لهم مناهجَ الحقِّ بإظهارِ آياتٍ ظاهرة ، ومعجزاتٍ قاهرة ، تخرُّ لها صُمُّ الجبال . ﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ ﴾ عن ذلك الرسول ، وهو هو ريثما شاهدوا منه ما شاهدوه من العظائم الموجبة للإقبال عليه ، ولم يقتنعوا بالتولي ﴿ وَقَالُوا ﴾ في حقِّه ﴿ مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴾ أي : قالوا تارة : يعلمه غلامٌ أعجميٌ لبعض ثقيف ، وأخرى مجنونٌ ، أو يقول بعضهم كذا ، وآخرون كذا ، فهل يتوقع من قوم هذه صفاتهم أن يتأثروا بالعظة والتذكير ، وما مثلهم إلا كمثلِ الكلبِ إذا جاعَ ضغاً ، وإذا شبعَ طغى ^(١) .

قال ابن كثير : « وهذا كقوله جلَّتْ عظمتُه : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَنْذِكُرُ الْإِنْسَانَ وَأَنَّهُ لَهُ الذِّكْرُ ﴾ (٢٣) يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ (٢٤) ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ (٥١) وَقَالُوا ءَامَنَّا بِهِ وَأَنَّهُ لَهُمُ التَّنَاسُتُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ (٥٢) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ (٥٣) ^(٣) ^(٤) .

وقال ابن عاشور : « والمعلم الذي يعلمه غيره ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ ^(٥) .

(١) تفسير أبي السعود (٨ / ٦٠-٦١) .

(٢) الفجر : الآيتان (٢٣-٢٤) .

(٣) سبأ : الآيات (٥١-٥٣) .

(٤) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٤٩) .

(٥) النحل : الآية (١٠٣) .

والمعنى: أنهم وصفوه مرة بأنه يعلمه غيره، ووصفوه مرة بالجنون، تنقلًا في البهتان، أو وصفه فريق بهذا وفريق بذلك، فالقول موزع بين أصحاب ضمير ﴿قَالُوا﴾ أو بين أوقات القائلين. ولا يصح أن يكون قولًا واحدًا في وقت واحد؛ لأن المجنون لا يكون معلمًا، ولا يتأثر بالتعليم^(١).

* * *

(١) التحرير والتنوير (٢٥ / ٢٩٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ ﴿١٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال المراغي: «ثم نبه إلى أنهم لا يوفون بعهدهم؛ بل إذا زال الخوف نكصوا على أعقابهم ورجعوا سيرتهم الأولى، وعضوا على الكفر بالنواجذ، وساروا على طريق الآباء والأجداد فقال: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾»^(١).

قال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما: أنه يقول تعالى: ولو كشفنا عنكم العذاب ورجعناكم إلى الدار الدنيا، لعدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾»^(٢)، وكقوله جلّت عظمتة: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾»^(٣).

والثاني: أن يكون المراد: إنا مؤخرو العذاب عنكم قليلا بعد انعقاد أسبابه ووصوله إليكم، وأنتم مستمرون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال، ولا يلزم من الكشف عنهم أن يكون باشرهم، كقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾»^(٤)، ولم يكن العذاب باشرهم، واتصل بهم، بل كان قد انعقد سببه ووصوله عليهم، ولا يلزم أيضا أن يكونوا قد أقلعوا عن كفرهم ثم عادوا إليه، قال الله تعالى إخبارا عن شعيب عليه السلام أنه قال لقومه حين قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَٰئِكَ كَافِرِينَ﴾ ﴿٨٨﴾ قَدْ أَفْرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنَّ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهَ ﴿٥﴾، وشعيب عليه السلام لم يكن قط على ملتهم وطريقتهم. وقال قتادة: ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ إلى عذاب الله»^(٦).

(١) تفسير المراغي (٢٥ / ١٢٣).

(٣) الأنعام: الآية (٢٨).

(٥) الأعراف: الآيتان (٨٨-٨٩).

(٢) المؤمنون: الآية (٧٥).

(٤) يونس: الآية (٩٨).

(٦) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٥٠).

وقال أبو السعود: «[هذا] جوابٌ من جهته تعالى عن قولهم: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٢﴾ بطريق الالتفات لمزيد التوبيخ والتهديد، وما بينهما اعتراضٌ؛ أي: إنا نكشفُ العذابَ المعهودَ عنكم كشفًا قليلًا، أو زمانًا قليلًا، إنكم تعودون إثر ذلك إلى ما كنتم عليه من العُتُوِّ والإصرارِ على الكفر وتنسَوْنَ هذه الحالةَ . . . ولقد وقعَ كلاهما حيثُ كشفهُ اللهُ تعالى بدعاءِ النبي ﷺ، فما لبثوا أن عادُوا إلى ما كانوا عليه من العُتُوِّ والعناد. ومن فسر الدخانَ بما هو من الأشرارِ قال: إذا جاء الدخانُ تَصَوَّرَ المعذبونَ به من الكفارِ والمنافقينِ وغَوَّثُوا وقالُوا: رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ، فيكشفهُ اللهُ تعالى عنهم بعدَ أربعينَ يومًا، وريثما يكشفهُ عنهم يرتدونَ ولا يتمهلون»^(١).

* * *

(١) تفسير أبي السعود (٨ / ٦١).

قوله تعالى : ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾ (١٦)

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال المراغي : «ولما كان العذاب الأليم لم يؤثر ، والإصلاح بالعلم والإيمان لم يفد ، أمهلناهم إلى يوم البطشة الكبرى حيث لا توبة بعدها فينتقم الله منهم ، وهذا ما عناه سبحانه بقوله : ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾» (١).

قال ابن جرير : «يقول - تعالى ذكره - : إنكم أيها المشركون إن كشفت عنكم العذاب النازل بكم ، والضرّ الحالّ بكم ، ثم عدتم في كفركم ، ونقضتم عهدكم الذي عاهدتم ربكم ، انتقمتم منكم يوم أبطش بكم بطشتي الكبرى في عاجل الدنيا فأهلككم ، وكشف الله عنهم ، فعادوا ، فبطش بهم - جل ثناؤه - بطشته الكبرى في الدنيا ، فأهلكهم قتلاً بالسيف» (٢).

وقال الماوردي : «والبطشة الكبرى هي العقوبة الكبرى ، وفيها قولان : أحدهما : القتل بالسيف يوم بدر ، قاله ابن مسعود ، وأبي بن كعب ، ومجاهد ، والضحاك .

الثاني : عذاب جهنم يوم القيامة ، قاله ابن عباس والحسن . ويحتمل ثالثاً : أنها قيام الساعة ؛ لأنها خاتمة بطشاته في الدنيا» (٣).

قال ابن عاشور : «و﴿الْبَطْشَةُ الْكُبْرَى﴾ : هي بطشة يوم بدر ، فإن ما أصاب صناديد المشركين يومئذ كان بطشة بالشرك وأهلِهِ ؛ لأنهم فقدوا سادتهم وذوي الرأي منهم الذين كانوا يسيّرون أهل مكة كما يريدون» (٤).

قال ابن كثير : «والظاهر أن ذلك يوم القيامة وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضاً» (٥).

(١) تفسير المراغي (٢٥ / ١٢٤).

(٢) تفسير الماوردي (٥ / ٢٤٨).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٥٠).

(٤) جامع البيان (٢٥ / ١١٦).

(٥) التحرير والتنوير (٢٥ / ١٩٣).

ورجح هذا القول الرازي أيضًا معللاً ذلك بقوله: «لأن يوم بدر لا يبلغ هذا المبلغ الذي يوصف بهذا الوصف العظيم، ولأن الانتقام التام إنما يحصل يوم القيامة لقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾^(١) ولأن هذه البطشة لما وصفت بكونها كبرى على الإطلاق وجب أن تكون أعظم أنواع البطش، وذلك ليس إلا في القيامة»^(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في أن البطشة الكبرى يوم القيامة

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (قال ابن مسعود: البطشة الكبرى يوم بدر وأنا أقول: هي يوم القيامة)^(٣).

* * *

(١) غافر: الآية (١٧).

(٢) التفسير الكبير (٢٧ / ٢٤٥).

(٣) أخرجه: ابن جرير (١١٧ / ٢٥)، وصححه ابن كثير في تفسيره. وزاد السيوطي نسبه في الدر المنثور لعبد بن حميد وصحح إسناده.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿٧﴾ أَنْ أَذُوا إِلَىٰ عَبْدِ اللَّهِ إِنَّ لَكُمْ رَسُولًا أَمِينٌ ﴿٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي ءَاتِيكُمْ بِسُلْطَنِ مُبِينٍ ﴿٩﴾ وَإِنِّي عَذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿١٠﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعَزِّلُونِ ﴿١١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما بين أن كفار مكة مصرون على كفرهم، بين أن كثيراً من المتقدمين أيضاً كانوا كذلك، فبين حصول هذه الصفة في أكثر قوم فرعون، قال صاحب «الكشاف»: قرئ ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾ بالتشديد للتأكيد قال ابن عباس ابتلينا، وقال الزجاج بلونا، والمعنى عاملناهم معاملة المختبر ببعث الرسول إليهم ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ وهو موسى، واختلفوا في معنى الكريم ههنا: فقال الكلبي: كريم على ربه؛ أي: أنه استحق على ربه أنواعاً كثيرة من الإكرام، وقال مقاتل: حسن الخلق، وقال الفراء: يقال: فلان كريم قومه؛ لأنه قل ما بعث رسول إلا من أشرف قومه وكرامهم»^(١).

وقوله: ﴿أَنْ أَذُوا إِلَىٰ عَبْدِ اللَّهِ﴾ قال السعدي: «أي: قال لفرعون وملئه: أدوا إلي عباد الله، يعني بهم: بني إسرائيل أي: أرسلوهم وأطلقوهم من عذابكم وسومكم إياهم سوء العذاب، فإنهم عشيرتي وأفضل العالمين في زمانهم. وأنتم قد ظلمتموهم واستعبدتموهم بغير حق، فأرسلوهم ليعبدوا ربهم»^(٢).

قال ابن عطية: «واختلف المتأولون في الشيء المؤدى في هذه الآية ما هو؟ فقال مجاهد وابن زيد وقتادة: طلب منهم أن يؤدوا إليه بني إسرائيل، وإياهم أراد بقوله: ﴿عِبَادَ اللَّهِ﴾ وقال ابن عباس: المعنى: اتبعوني إلى ما أدعوكم إليه من

(١) التفسير الكبير (٢٧ / ٢٤٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧ / ٨).

الحق، فقلوه: ﴿عِبَادَ اللَّهِ﴾ منادى مضاف، والمؤدى هي الطاعة والإيمان والأعمال.

قال القاضي أبو محمد: والظاهر من شرع موسى ﷺ أنه بعث إلى دعاء فرعون إلى الإيمان، وأن يرسل بني إسرائيل، فلما أبى أن يؤمن، ثبتت المكافحة في أن يرسل بني إسرائيل^(١).

وقال الشنقيطي: «وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن موسى طلب فرعون أن يسلم له بني إسرائيل ويرسلهم معه جاء موضحاً في آيات آخر، مصرح فيها بأن عباد الله هم بنو إسرائيل، كقوله تعالى في طه: ﴿فَأَنبِئْهُمْ أَنِّي بَارِئٌ مِّمَّا يَشْرُونَ﴾ (٢) وقوله تعالى في الشعراء: ﴿فَأَنبِئْهُمْ أَنِّي بَارِئٌ مِّمَّا يَشْرُونَ﴾ (٣) الآية^(٤).

وقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (٥) قال السعدي: «أي: رسول من رب العالمين أمين على ما أرسلني به لا أكتكم منه شيئاً، ولا أزيد فيه ولا أنقص، وهذا يوجب تمام الانقياد له»^(٥).

وقوله: ﴿وَأَن لَّا تَقْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ قال ابن كثير: «أي: لا تستكبروا عن اتباع آياته، والانقياد لحججه والإيمان ببراهينه، كقوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (٦)»^(٧).

قال الماوردي: «فيه أربعة تأويلات: أحدها: لا تبغوا على الله، قاله قتادة. الثاني: لا تفتروا على الله، قاله ابن عباس، والفرق بين البغي والافتراء أن البغي بالفعل، والافتراء بالقول.

الثالث: لا تعظموا على الله، قاله ابن جريج. الرابع: لا تستكبروا على عباد الله، قاله يحيى. والفرق بين التعظيم والاستكبار أن التعظيم تطاول المقتدر، والاستكبار ترفع المحتقر»^(٨).

(١) المحرر الوجيز (٥ / ٧٠-٧١).

(٣) الشعراء: الآيتان (١٦-١٧).

(٥) تيسير الكريم الرحمن (٧ / ٨).

(٧) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٥١).

(٢) طه: الآية (٤٧).

(٤) أضواء البيان (٧ / ٣٢٤).

(٦) غافر: الآية (٦٠).

(٨) النكت والعيون (٥ / ٢٤٩).

وقوله: ﴿إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ يقول ابن جرير: «يقول: إني آتيكم بحجة على حقيقة ما أدعوكم إليه، وبرهان على صحته، مبين لمن تأملها وتدبرها أنها حجة لي على صحة ما أقول لكم»^(١).

وهذا تعليل لما قبله من النهي؛ أي: بحجة واضحة لا سبيل إلى إنكارها، وقال قتادة: بعذر بين، والأول أولى، وبه قال يحيى بن سلام^(٢).

وقوله: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾^(٣) كأنهم توعدوه بالقتل فاستجار بالله^(٤).

وقال ابن جرير: «يقول: وإني اعتصمت بربي وربكم، واستجرت به منكم أن ترجمون».

واختلف أهل التأويل في معنى الرجم الذي استعاذ موسى نبي الله ﷺ بربه منه، فقال بعضهم: هو الشتم باللسان.. وقال آخرون: بل هو الرمي بالحجارة.. وقال آخرون: بل عني بقوله: ﴿أَنْ تَرْجُمُونِ﴾: أن تقتلوني.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب ما دلّ عليه ظاهر الكلام، وهو أن موسى ﷺ استعاذ بالله من أن يرجمه فرعون وقومه، والرجم قد يكون قولاً باللسان، وفعلاً باليد. والصواب أن يقال: استعاذ موسى بربه من كل معاني رجمهم الذي يصل منه إلى المرجوم أذى ومكروه، شتما كان ذلك باللسان، أو رجماً بالحجارة باليد.

وقوله: ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا إِلَيَّ فَأَعْتَزَلُونِ﴾^(٥) يقول - تعالى ذكره - مخبراً عن قيل نبيه موسى ﷺ لفرعون وقومه: وإن أنتم أيها القوم لم تصدّقوني على ما جئكم به من عند ربي، فاعتزلون: يقول: فخلوا سبيلي غير مرجوم باللسان ولا باليد^(٦).

قال ابن عاشور: «والرجم: الرمي بالحجارة تباعاً حتى يموت المرمي أو يشخه الجراح. والقصد منه تحقير المقتول؛ لأنهم كانوا يرمون بالحجارة من يطرّدونه، قال: ﴿فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَاجِعٌ﴾»^(٧).

(١) جامع البيان (٢٥ / ١١٩).

(٢) قاله الشوكاني في فتح القدير (٤ / ٨٠٣).

(٣) قاله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن (١٦ / ١٣٥).

(٤) جامع البيان (٢٥ / ١١٩-١٢٠). (٥) الحجر: الآية (٣٤).

وإنما استعاذ موسى منه لأنه علم أن عاداتهم عقاب من يخالف دينهم بالقتل رميًا بالحجارة. وجاء في سورة القصص: ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾^(١) ومعنى ذلك إن لم تؤمنوا بما جئت به فلا تقتلونني، كما دل عليه تعقيبه بقوله: ﴿وَإِنْ لَرَأَوْنَا لِي﴾.

والمعنى: إن لم تؤمنوا بالمعجزة التي آتيكم بها فلا ترجموني، فإني أعوذ بالله من أن ترجموني، ولكن اعتزلوني، فكونوا غير موالين لي وأكون مع قومي بني إسرائيل، فالتقدير: فاعتزلوني وأعتزلكم، لأن الاعتزال لا يتحقق إلا من جانبين^(٢).

* * *

(١) القصص: الآية (٣٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥ / ٢٩٧-٢٩٨).

قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ (٢٣) فَأَسْرَ بِعِبَادِي لَيْلًا
إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ ﴿٢٤﴾ وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهَوًّا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «فلما طال مقامه بين أظهرهم، وأقام حجج الله عليهم، كل ذلك وما زادهم ذلك إلا كفرًا وعنادًا، دعا ربه عليهم دعوة نفذت فيهم، كما قال تبارك تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا» (١). وهكذا قال هاهنا: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ (٢٣) فعند ذلك أمره الله تعالى أن يخرج ببني إسرائيل من بين أظهرهم من غير أمر فرعون ومشاورته واستئذانه؛ ولهذا قال: ﴿فَأَسْرَ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ﴾ (٢٤) كما قال: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اسْرِبْ بِعِبَادِي فَأَضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾ (٢٥).

وقوله ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ (٢٣) هاهنا: ﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهَوًّا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ﴾ (٢٤) وذلك أن موسى عليه السلام لما جاوز هو وبني إسرائيل البحر، أراد موسى أن يضربه بعصاه حتى يعود كما كان، ليصير حائلًا بينهم وبين فرعون، فلا يصل إليهم. فأمره الله تعالى أن يتركه على حاله ساكنًا، وبشره بأنهم جند مغرقون فيه، وأنه لا يخاف دركًا ولا يخشى.

قال ابن عباس: ﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهَوًّا﴾ كهيئته وامضيه. وقال مجاهد ﴿رَهَوًّا﴾ طريقًا يبسًا كهيئته، يقول: لا تأمره يرجع، اتركه حتى يرجع آخرهم. وكذا قال عكرمة، والربيع بن أنس، والضحاك، وقتادة، وابن زيد وكعب الأحبار، وسماك بن حرب، وغير واحد (٣).

(٢) طه: الآية (٧٧).

(١) يونس: الآيتان (٨٨-٨٩).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٥١-٢٥٢).

وقال الشوكاني: ﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهَوًا﴾ أي: ساكنًا، يقال: رها يرهو رهوًا: إذا سكن لا يتحرك. قال الجوهري: يقال: افعل ذلك رهوًا؛ أي: ساكنًا على هيئتك، وعيش راه؛ أي: ساكن، ورها البحر سكن، وكذا قال الهروي، وغيره، وهو المعروف في اللغة، ومنه قول الشاعر:

والخيل تمرح رهوافي أعنتها كالطير تنجو من الشرنوب ذي البرد

أي: والخيل تمرح في أعنتها ساكنة، والمعنى: اترك البحر ساكنًا على صفته بعد أن ضربته بعصاك، ولا تأمره أن يرجع كما كان ليدخله آل فرعون بعدك، وبعد بني إسرائيل، فينطبق عليهم، فيغرقون. وقال أبو عبيدة: رها بين رجله يرهو رهوًا؛ أي: فتح قال: ومنه قوله: ﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهَوًا﴾، والمعنى: اتركه منفرجًا كما كان بعد دخولكم فيه، وكذا قال أبو عبيد، وبه قال مجاهد وغيره. قال ابن عرفة: وهما يرجعان إلى معنى واحد، وإن اختلف لفظاهما؛ لأن البحر إذا سكن جريه انفرج^(١).

(١) فتح القدير (٤ / ٨٠٤).

قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكَوْا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ۖ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ۖ﴾ (٢٦-٢٨)

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: كم ترك فرعون وقومه من القبط بعد مهلكهم، وتغريق الله إياهم من بساتين وأشجار، وهي الجنات، ﴿وَعُيُونٍ﴾ يعني: ومنابع ما كان ينفجر في جنانهم»^(١).

قال ابن عطية: «والجنات والعيون: روي أنها كانت متصلة ضفتي النيل جميعاً من رشيد إلى أسوان. وأما العيون فيحتمل أنه أراد الخلجان الخارجة من النيل فشبهها بالعيون، ويحتمل أنه كانت ثم عيون، ونضبت كما يعتري في كثير من بقاع الأرض»^(٢).

قوله: ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ قال ابن كثير: «وهي المساكن الكريمة الأنيقة والأماكن الحسنة. وقال مجاهد، وسعيد بن جبير: ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ المنابر»^(٣).

وقال الرازي: «والمراد بالمقام الكريم ما كان لهم من المجالس والمنازل الحسنة، وقيل: المنابر التي كانوا يمدحون فرعون عليها»^(٤).

وقال ابن كثير: «وقال ابن لهيعة، عن وهب بن عبد الله المعافري، عن عبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما قال: نيل مصر سيد الأنهار، سخر الله تعالى له كل نهر بين المشرق والمغرب، وذلك له، فإذا أراد الله أن يجري نيل مصر، أمر كل نهر أن يمدّه، فأمدته الأنهار بمائها، وفجر الله -تبارك وتعالى- له الأرض عيوناً، فإذا انتهى جريه إلى ما أراد الله -جل وعلا-، أوحى الله إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره. وقال في قول الله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾

(١) جامع البيان (٢٥ / ١٢٣).

(٢) المحرر الوجيز (٥ / ٧٢).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٥٢).

(٤) التفسير الكبير (٢٧ / ٢٤٧).

﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾ ^(١) قال : كانت الجنان بحافتي هذا النيل من أوله إلى آخره في الشقين جميعًا ، ما بين أسوان إلى رشيد ، وكان له تسعة خلج : خليج الإسكندرية ، وخليج دمياط ، وخليج سردوس ، وخليج منف ، وخليج الفيوم ، وخليج المنتهى ، متصلة لا ينقطع منها شيء عن شيء ، وزروع ما بين الجبلين كله من أول مصر إلى آخر ما يبلغه الماء ، وكانت جميع أرض مصر تروى من ستة عشر ذراعًا ، لما قدروا ودبروا من قناطرها وجسورها وخلجها ^(٢) .

قوله : ﴿وَنَعَمْتَ كَانُوا فِيهَا فَكِهِينَ﴾ ﴿٦٧﴾ قال ابن كثير : «أي : عيشة كانوا يتفكهون فيها فيأكلون ما شاؤوا ، ويلبسون ما أحبوا مع الأموال والجاهات والحكم في البلاد ، فسلموا ذلك جميعه في صبيحة واحدة ، وفارقوا الدنيا وصاروا إلى جهنم وبئس المصير» ^(٣) .

وقال ابن عطية : «والنَّعْمَةُ بفتح النون : غضارة العيش ولذاذة الحياة ، والنَّعْمَةُ بكسر النون أعم من هذا ، لأن النعمة بالفتح هي من جملة النعم بالكسر ، وقد تكون الأمراض والآلام والمصائب نعمًا ، ولا يقال فيها نعمة بالفتح» ^(٤) .

وقال الشوكاني : «النعمة بالفتح : التنعم ، يقال : نعمه الله ، وناعمه فتنعم ، وبالكسر : المنة ، وما أنعم به عليك ، وفلان واسع النعمة ؛ أي : واسع المال ذكر معنى هذا الجوهري» ^(٥) .

وقوله : ﴿فَكَهِينَ﴾ قرئت فكهين قال الشوكاني : «والمعنى على القراءة الأولى : متنعمين طيبة أنفسهم ، وعلى القراءة الثانية : أشرين بطرين . قال الجوهري : فكه الرجل بالكسر ، فهو فكه إذا كان طيب النفس مزاحًا ، والفكه أيضًا : الأشر البطر . قال : و﴿فَكَهِينَ﴾ أي : ناعمين . وقال الثعلبي : هما لغتان كالحاذر والحذر ، والفاره والفره . وقيل : إن الفاكه هو : المستمتع بأنواع اللذة كما يتمتع الرجل بأنواع الفاكهة» ^(٦) .

وقوله : ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ﴿٦٨﴾ قال ابن كثير : «واستولى على البلاد

(١) الشعراء : الآيات (٥٧-٥٩) .

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٥٢) .

(٥) فتح القدير (٤ / ٨٠٥) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٥٢) .

(٤) المحرر الوجيز (٥ / ٧٣) .

(٦) فتح القدير (٤ / ٨٠٥) .

المصرية وتلك الحواصل الفرعونية والممالك القبطية بنو إسرائيل ، كما قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ۖ ﴾ (١) وقال في موضع آخر : ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَمُّونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ۖ ﴾ (٢) . وقال عز وجل ههنا : ﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ۖ ﴾ (٣) .

وقال القرطبي : «يعني بني إسرائيل ، ملكهم الله تعالى أرض مصر بعد أن كانوا فيها مستعبدين ، فصاروا لها وارثين ، لوصول ذلك إليهم كوصول الميراث» (٤) .

وقال الألوسي : «والمراد بالقوم الآخرين بنو إسرائيل ، وهم مغايرون للقبط جنسًا ودينًا . ويفسر ذلك قوله تعالى في سورة الشعراء ﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ۖ ﴾ (٥) ، وهو ظاهر في أن بني إسرائيل رجعوا إلى مصر بعد هلاك فرعون وملكوها ، وبه قال الحسن .

وقيل : المراد بهم غير بني إسرائيل ممن ملك مصر بعد هلاك القبط ، وإليه ذهب قتادة قال : لم يرد في مشهور التواريخ أن بني إسرائيل رجعوا إلى مصر ، ولا أنهم ملكوها قط ، وأول ما في سورة الشعراء بأنه من باب : ﴿ وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمرِهِ ۖ ﴾ (٥) وقولك : عندي درهم ونصفه ، فليس المراد خصوص ما تركوه ؛ بل نوعه وما يشبهه ، والإيراث الإعطاء . وقيل : المراد من إيراثها إياهم : تمكينهم من التصرف فيها ، ولا يتوقف ذلك على رجوعهم إلى مصر ، كما كانوا فيها أولاً ، وأخذ جمع بقول الحسن وقالوا : لا اعتبار بالتواريخ ، وكذا الكتب التي بيد اليهود اليوم ، لما أن الكذب فيها كثير ، وحسبنا كتاب الله تعالى ، وهو سبحانه أصدق القائلين ، وكتابه - جل وعلا - مأمون من تحريف المحرفين» (٦) .

(٢) الأعراف : الآية (١٣٧) .

(٥) فاطر : الآية (١١) .

(١) الشعراء : الآية (٥٩) .

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٥٢) .

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٦ / ١٣٩) .

(٦) روح المعاني (٢٥ / ١٢٣-١٢٤) .

قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ (٢٩)

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: «أي: لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد في أبواب السماء فتبكي على فقدهم، ولا لهم في الأرض بقاع عبدوا الله تعالى فيها فقدتهم؛ فلهذا استحقوا ألا ينظروا ولا يؤخروا لكفرهم وإجرامهم، وعتوهم وعنادهم.. وقال سفيان الثوري عن أبي يحيى القنات، عن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان يقال: تبكي الأرض على المؤمن أربعين صباحًا. وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وغير واحد.

وقال مجاهد أيضًا: ما مات مؤمن إلا بكّت عليه السماء والأرض أربعين صباحًا، قال: فقلت له: أتبكي الأرض؟ فقال: أتعجب؟ وما للأرض لا تبكي على عبد كان يعمرها بالركوع والسجود؟ وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتكبيره وتسييحه فيها دوي كدوي النحل؟.

وقال قتادة: كانوا أهون على الله ﷻ من أن تبكي عليهم السماء والأرض.. عن يزيد بن أبي زياد قال: لما قتل حسين بن علي رضي الله عنهما، احمرت آفاق السماء أربعة أشهر. قال يزيد: واحمرارها بكاؤها. وهكذا قال السدي الكبير. وقال عطاء الخراساني: بكاؤها: أن تحمر أطرافها.

وذكروا أيضًا في مقتل الحسين رضي الله عنه أنه ما قلب حجر يومئذ إلا وجد تحته دم غبيط، وأنه كسفت الشمس، واحمر الأفق، وسقطت حجارة. وفي كل من ذلك نظر، والظاهر أنه من سُخِف الشيعة وكذبهم، ليعظموا الأمر - ولا شك أنه عظيم - ولكن لم يقع هذا الذي اختلقوه وكذبوه، وقد وقع ما هو أعظم من قتل الحسين رضي الله عنه، ولم يقع شيء مما ذكروه، فإنه قد قتل أبوه علي بن أبي طالب، وهو أفضل منه بالإجماع، ولم يقع شيء من ذلك، وعثمان بن عفان رضي الله عنه قتل محصورًا مظلومًا، ولم يكن شيء من ذلك. وعمر بن الخطاب رضي الله عنه، قتل في المحراب في صلاة

الصبح ، وكأن المسلمين لم تطرقهم مصيبة قبل ذلك ، ولم يكن شيء من ذلك . وهذا رسول الله ﷺ وهو سيد البشر في الدنيا والآخرة ، يوم مات لم يكن شيء مما ذكره . ويوم مات إبراهيم ابن النبي ﷺ خسفت الشمس فقال الناس : الشمس خسفت لموت إبراهيم ، فصلى بهم رسول الله ﷺ صلاة الكسوف ، وخطبهم وبين لهم أن الشمس والقمر لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته^(١) .

وقوله : ﴿وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ قال ابن جرير : «يقول : وما كانوا مؤخرين بالعقوبة التي حلت بهم ، ولكنهم عوجلوا بها إذ أسخطوا ربهم ﷻ عليهم»^(٢) .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن السماء والأرض

تبكيان على موت المؤمن ولا يعلم حقيقة ذلك إلا الله

وأن تسير الكون كله بيد الله

* عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﷻ : ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ قال : «بفقد المؤمن أربعين صباحا»^(٣) .

*** فوائد الحديث :**

في هذا الأثر أن المؤمن إذا مات يفقده مصلاه الذي كان يصلي فيه ويذكر ربه ، فيكون هذا سبب بكاء الأرض عليه ، وكذلك السماء لأن المكان الذي يعرج منه عمله يغلق . وأما الكافر فليس له موضع عبادة ولا عمل ، لذلك لا يبكي شيء بفقده . * عن المغيرة بن شعبة قال : انكسفت الشمس يوم مات إبراهيم ، فقال الناس : انكسفت لموت إبراهيم ، فقال رسول الله ﷺ : «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتموهما فادعوا الله وصلوا حتى ينجلي»^(٤) .

(١) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٥٣-٢٥٥) .

(٢) جامع البيان (٢٥ / ١٢٦) .

(٣) أخرجه : الحاكم (٢ / ٤٤٩) وصححه ووافقه الذهبي . وأخرجه مقطوعا من حديث محمد بن كعب القرظي : ابن المبارك في الزهد (١٣٨٥) بسند صحيح . أبو نعيم في الحلية (٣ / ٢١٣) .

(٤) أخرجه : أحمد (٤ / ٢٤٥-٢٤٩-٢٥٣) ، البخاري (٢ / ٦٩٥ / ١٠٦٠) واللفظ له ، مسلم (٢ / ٦٣٠ / ٩١٥) .

★ غريب الحديث:

انكسفت الشمس: الكسوف هو التغير للسواد، ومنه كسف وجهه إذا تغير^(١).

★ فوائد الحديث:

المراد منه أن ما يحدث في الكون من بعض الآيات المخوفة لا ينبغي تفسيره بموت أحد الصالحين، وفي هذا رد على أكاذيب الشيعة الذين أوردوا حكايات باطلة في ذلك لما قتل الحسين عليه السلام.

قال القرطبي: «وقوله: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله تعالى» أي: دليان على وجود الحق سبحانه، وقهره، وكمال الإلهية، وقد خصهما بالذكر لما وقع للناس من أنهما يخسفان لموت عظيم، وهذا إنما صدر عن لا علم عنده ممن ضعف عقله، واختل فهمه، فرد النبي ﷺ عليهم جهالتهم. وتضمن ذلك الرد على من قال بتأثيرات النجوم، ثم أخبر بالمعنى الذي لأجله يكسفان، وهو: أن الله تعالى يخوف بهما عباده»^(٢).

(١) المفهم (٢ / ٥٤٩).

(٢) المفهم (٢ / ٥٥٢-٥٥٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٢٠﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٢١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما بيّن كيفية إهلاك فرعون وقومه بيّن كيفية إحسانه إلى موسى وقومه. واعلم أن دفع الضرر مقدم على إيصال النفع، فبدأ تعالى ببيان دفع الضرر عنهم فقال: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٢٠﴾﴾ يعني قتل الأبناء، واستخدام النساء، والإتعايب في الأعمال الشاقة»^(١).

وقال ابن كثير: «يمتن عليهم تعالى بذلك، حيث أنقذهم مما كانوا فيه من إهانة فرعون وإذلاله لهم، وتسخيرهم إياهم في الأعمال المهينة الشاقة.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٢١﴾﴾ أي: مستكبراً جباراً عنيداً، كقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ﴿٢٢﴾﴾. وقوله جلت عظمتة: ﴿فَأَسْتَكَبرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٢٣﴾﴾، وقوله: ﴿فَأَسْتَكَبرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾، فكان فرعون سرفاً في أمره، سخيئ الرأي على نفسه»^(٥).

قال القرطبي: «﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي: جباراً من المشركين. وليس هذا علو مدح بل هو علو في الإسراف. . . وقيل هذا العلو هو الترفع عن عبادة الله»^(٦).

وقال الشنقيطي: «وما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة، من أن فرعون كان علياً من المسرفين، أوضحه أيضاً في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في يونس: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٧٧﴾﴾ وقوله تعالى في أول

(١) التفسير الكبير (٢٧ / ٢٤٩).

(٢) القصص: الآية (٤).

(٣) المؤمنون: الآية (٤٦).

(٤) العنكبوت: الآية (٣٩).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٥٥).

(٦) الجامع لأحكام القرآن (١٦ / ١٤٢).

(٧) يونس: الآية (٨٣).

القصص: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدِّخُّ
أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾^(١) إلى غير ذلك من الآيات^(٢).

وقال ابن عاشور: «والمقصود من ذكر هذا الإشارة إلى أن الله تعالى ينجي
الذين آمنوا بمحمد ﷺ من عذاب أهل الشرك بمكة، كما نجى الذين اتبعوا موسى
من عذاب فرعون.

وجعل طغيان فرعون وإسرافه في الشر مثلاً لطغيان أبي جهل وملئه، ولأجل
هذه الإشارة أكد الخبر باللام^(٣).

* * *

(١) القصص: الآية (٤).

(٢) أضواء البيان (٧ / ٣٢٥).

(٣) التحرير والتنوير (٢٥ / ٣٠٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٣٢﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو حيان: «﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَهُمْ﴾ أي: اصطفينا هم وشرفناهم. ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ علم مصدر لم يذكر فاعله، فقيل: على علم منهم، وفضل فيهم، فاخترناهم للنبوات والرسالات. وقيل: على علم منا، أي عالمين بمكان الخيرة، وبأنهم أحقاء بأن يختاروا. وقيل: على علم منا بما يصدر من العدل والإحسان والعلم والإيمان بأنهم يزيفون، وتفطر منهم الهنات في بعض الأموال. وقيل: اخترناهم بهذا الإنجاء وهذه النعم على سابق علم لنا فيهم، وخصصناهم بذلك دون العالم.

﴿عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾: أي عالمي زمانهم؛ لأن أمة محمد ﷺ مفضلة عليهم. وقيل: على العالمين عام لكثرة الأنبياء فيهم، وهذا خاص بهم ليس لغيرهم. وكان الاختيار من هذه الجهة؛ لأن أمة محمد أفضل»^(١).

قال ابن كثير: «قال مجاهد: ﴿اخْتَرْنَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ على من هم بين ظهريه. وقال قتادة: اختيروا على أهل زمانهم ذلك. وكان يقال: إن لكل زمان عالما. وهذا كقوله تعالى: ﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾^(٢) أي: أهل زمانه ذلك، وكقوله ﷺ: ﴿وَأَصْطَفَيْتُكَ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾^(٣) أي: في زمانها؛ فإن خديجة إما أفضل منها، وكذا آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، أو مساوية لها في الفضل، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»^(٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل عائشة رضي الله عنها

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فضل عائشة على النساء

(١) البحر المحيط (٨ / ٣٨).

(٢) الأعراف: الآية (١٤٤).

(٣) آل عمران: الآية (٤٢).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٥٥).

كفضل الثريد على سائر الطعام»^(١).

★ غريب الحديث:

الثريد: الثريد في الأصل: الخبز المكسور، يقال: ثردت الخبز ثردا أي: كسرتة، فهو ثريد ومثروود، والاسم: الثُرْدَةُ بالضم. وقال ابن الأثير في شرح هذا الموضوع: قيل: لم يرد عين الثريد، وإنما أراد الطعام المتخذ من اللحم والثريد معا؛ لأن الثريد غالبا لا يكون إلا من لحم، والعرب قلما تجد طبيخا، ولا سيما باللحم. ويقال: الثريد أحد اللحمين، بل اللذة والقوة إذا كان اللحم نضيجا في المرق أكثر مما في نفس اللحم. انتهى. قلت: علم من هذا أن الثريد طعام متخذ من اللحم يكون فيه خبز مكسور، فلا يسمى اللحم المطبوخ وحده بدون الخبز المكسور ثريدا، ولا الخبز المكسور وحده بدون اللحم ثريدا، والظاهر أن فضل الثريد على سائر الطعام إنما كان في زمانهم؛ لأنهم قلما كانوا يجدون الطبيخ، ولا سيما إذا كان باللحم، وأما في هذا الزمان فأطعمة معمولة من أشياء كثيرة متنوعة فيها من أنواع اللحوم، ومعها أنواع من الخبز الحواري، فلا يقال: إن مجرد اللحم مع الخبز المكسور أفضل من هذه الأطعمة المختلفة الأجناس والأنواع، وهذا ظاهر لا يخفى»^(٢).

★ فوائد الحديث:

قال السندي: «مثل بالثريد لأنه أفضل طعام العرب؛ لأنه مع اللحم جامع بين الغذاء واللذة، والقوة وسهولة التناول، وقلة المؤنة في المضغ، فيفيد بأنها أعطيت مع حسن الخلق، وحلاوة المنطق، وفصاحة اللسان، ورزانة الرأي، فهي تصلح للتبعل والتحدث، وحسبك أنها عقلت ما لم يعقل غيرها من النساء، وروت ما لم يرو مثلها من الرجال»^(٣).

قال الحافظ: «وقوله: «فضل عائشة» إلخ لا يستلزم الأفضلية المطلقة، وقد

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ١٥٦-٢٦٤)، البخاري (٧/ ١٣٣ / ٣٧٧٠)، مسلم (٤/ ١٨٩٥ / ٢٤٤٦)، الترمذي (٥/ ٦٦٤ / ٣٨٨٧) واللفظ له، ابن ماجه (٢/ ١٠٩٢ / ٣٢٨١)، والنسائي في الكبرى (٤/ ١٦١ / ٦٦٩٢). وله شواهد من حديث أبي موسى وعائشة رضي الله عنهما.

(٢) حاشية المسند (٣٢/ ٢٨٩-٢٩٠).

(٣) عمدة القاري (١١/ ٤٩١).

أشار ابن حبان إلى أن أفضليتها التي يدل عليها هذا الحديث وغيره، مقيدة بنساء النبي ﷺ، حتى لا يدخل فيها مثل فاطمة رضي الله عنها^(١).

قال الشيخ العثيمين رحمه الله: «وقوله: «على النساء»، ظاهره العموم؛ أي: على جميع النساء. وقيل: إن المراد: فضل عائشة على النساء أي: من أزواجه اللاتي على قيد الحياة، فلا تدخل في ذلك خديجة.

لكن ظاهر الحديث العموم؛ لأن الرسول ﷺ قال: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»^(٢). وقد أخرجه الشيخان بدون ذكر خديجة، وهذا يدل على أنها أفضل النساء مطلقاً.

ولكن ليست أفضل من فاطمة باعتبار النسب؛ لأن فاطمة لا شك أشرف من عائشة نسباً. وأما منزلة، فإن عائشة رضي الله عنها لها من الفضائل العظيمة ما لم يدركه أحد غيرها من النساء.

وظاهر كلام المؤلف رحمه الله يريد شيخ الإسلام ابن تيمية - أن هاتين الزوجين رضي الله عنهما في منزلة واحدة، لأنه قال: خصوصاً خديجة والصديقة ولم يقل: ثم الصديقة. والعلماء اختلفوا في هذه المسألة: فقال بعض العلماء: خديجة أفضل لأن لها مزايا لم تلحقها عائشة فيها. وقال بعض العلماء: بل عائشة أفضل، لهذا الحديث، ولأن لها مزايا لم تلحقها خديجة فيها.

وفصل بعض العلماء فقال: إن لكل منهما مزية لم تلحقها أخرى، ففي أول الرسالة لا شك أن المزايا التي حصلت عليها خديجة لم تلحقها عائشة، ولا يمكن أن تساويها، وبعد ذلك، وبعد موت الرسول ﷺ، حصل من عائشة من نشر العلم ونشر السنة وهداية الأمة ما لم يحصل لخديجة، فلا يصح أن تفضل إحداهما على الأخرى تفضيلاً مطلقاً، بل نقول: هذه أفضل من وجه، وهذه أفضل من وجه،

(١) فتح الباري (٧ / ١٣٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٤ / ٣٩٤)، والبخاري (٧ / ١٣٣ / ٣٧٦٩)، ومسلم (٤ / ١٨٨٦ - ١٨٨٧ / ٢٤٣١)، والترمذي (٤ / ٢٤٢ / ١٨٣٤)، والنسائي (٧ / ٧٨ / ٣٩٥٧) مختصراً، وابن ماجه (٢ / ١٠٩١ / ٣٢٨٠). من حديث أبي موسى الأشعري وليس في شيء من هذه المصادر ذكر خديجة رضي الله عنها.

ونكون قد سلكنا مسلك العدل، فلم نهدر ما لهذه من المزية، ولا ما لهذه من المزية، وعند التفصيل يحصل التحصيل، وهما وبقية أزواج الرسول في الجنة معا^(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله: «إن خديجة نفعته في أول الإسلام نفعاً لم يبق غيرها فيه مقامها، فكانت خيراً له من هذا الوجه، لكونها نفعته وقت الحاجة، لكن عائشة صحبتته في آخر النبوة، وكمال الدين، فحصل لها من العلم والإيمان ما لم يحصل لمن لم يدرك إلا أول زمن النبوة، فكانت أفضل بهذه الزيادة، فإن الأمة انتفعت بها أكثر مما انتفعت بغيرها، وبلغت من العلم والسنة ما لم يبلغه غيرها، فخديجة كان خيرها مقصوراً على نفس النبي ﷺ، لم تبلغ عنه شيئاً، ولم تنتفع بها الأمة كما انتفعوا بعائشة، ولا كان الدين قد كمل حتى تعلمه، ويحصل لها من كمال الإيمان به ما حصل لمن علمه وآمن به بعد كماله، ومعلوم أن من اجتمع همه على شيء واحد، كان أبلغ فيه ممن تفرق همه في أعمال متنوعة، فخديجة رضي الله تعالى عنها خير له من هذا الوجه، ولكن أنواع البر لم تنحصر في ذلك، ألا ترى أن من كان من الصحابة أعظم إيماناً وأكثر جهاداً بنفسه وماله كحمزة وعلي وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير وغيرهم، هم أفضل ممن كان يخدم النبي ﷺ وينفعه في نفسه أكثر منهم، كأبي رافع وأنس بن مالك وغيرهما، وفي الجملة الكلام في تفضيل عائشة وخديجة ليس هذا موضع استقصائه، لكن المقصود هنا أن أهل السنة مجمعون على تعظيم عائشة ومحبتها، وأن نساء أمهات المؤمنين اللاتي مات عنهن، كانت عائشة أحبهن إليه، وأعلمهن وأعظمهن حرمة عند المسلمين^(٢).

وقال ابن القيم رحمته الله: «الخلاف في كون عائشة أفضل من فاطمة، أو فاطمة أفضل، إذا حرر محل التفضيل صار وفاقاً، فالتفضيل بدون التفصيل لا يستقيم، فإن أريد بالفضل كثرة الثواب عند الله ﷻ، فذلك أمر لا يطلع عليه إلا بالنص؛ لأنه بحسب تفاضل أعمال القلوب، لا بمجرد أعمال الجوارح، وكم من عاملين أحدهما أكثر عملاً بجوارحه، والآخر أرفع درجة منه في الجنة.

وإن أريد بالتفضيل التفضل بالعلم، فلا ريب أن عائشة أعلم وأنفع للأمة،

(١) مجموع فتاوى ورسائل الشيخ العثيمين (٨ / ٦١٣-٦١٥).

(٢) منهاج السنة (٤ / ٣٠٣-٣٠٥).

وأدت إلى الأمة من العلم ما لم يؤد غيرها ، واحتاج إليها خاص الأمة وعامتها ، وإن أريد بالترفضيل شرف الأصل وجلالة النسب ، فلا ريب أن فاطمة أفضل ، فإنها بضعة من النبي ﷺ ، وذلك اختصاص لم يشركها فيه غير إختوتها ، وإن أريد السيادة ، ففاطمة سيدة نساء الأمة ، وإذا ثبتت وجوه التفضيل وموارد الفضل وأسبابه ، صار الكلام بعلم وعدل ، وأكثر الناس إذا تكلم في التفضيل لم يفصل جهات الفضل ، ولم يوازن بينهما ، فيبخس الحق ، وإن انضاف إلى ذلك نوع تعصيب وهوى لمن يفضله تكلم بالجهل والظلم .

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن مسائل عديدة من مسائل التفضيل ، فأجاب فيها بالتفضيل الشافي منها أنه سئل عن خديجة وعائشة أمي المؤمنين ، أيهما أفضل ؟ فأجاب : بأن سبق خديجة وتأثيرها في أول الإسلام ، ونصرها وقيامها في الدين ، لم تشركها فيه عائشة ولا غيرها من أمهات المؤمنين ، وتأثير عائشة في آخر الإسلام وحمل الدين وتبليغه إلى الأمة ، وإدراكها من العلم ما لم تشركها فيه خديجة ولا غيرها مما تميزت به عن غيرها ، فتأمل هذا الجواب الذي لو جئت بغيره من التفضيل مطلقاً ، لم تخلص من المعارضة^(١) .

* * *

(١) بدائع الفوائد (٣ / ١٦١-١٦٣) .

قوله تعالى: ﴿وَعَايَنَهُمْ مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَكٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿٣٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «إيتاء الآيات من آثار الاختيار؛ لأنه من عناية الله بالأمة؛ لأنه يزيدهم يقيناً بإيمانهم. والمراد بالآيات: المعجزات التي ظهرت على يد موسى عليه السلام، أيد الله به بني إسرائيل في مواقع حروبهم بنصر الفئة القليلة منهم على الجيوش الكثيرة من عدوهم»^(١).

قال الماوردي: «وفي قوله: ﴿مَا فِيهِ بَلَكٌ مُّبِينٌ﴾ ثلاث تأويلات: أحدها: نعمة ظاهرة، قاله الحسن وقتادة كما قال تعالى: ﴿وَلِيَسْلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ مِنهُ بَلَاءٌ حَسَنًا﴾^(٢). . الثاني: عذاب شديد، قاله الفراء. الثالث: اختيار بين يتميز به المؤمن من الكافر، قاله عبد الرحمن بن زيد»^(٣).

وقال ابن جرير: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبر أنه أتى بني إسرائيل من الآيات ما فيه ابتلاؤهم واختبارهم، وقد يكون الابتلاء والاختبار بالرخاء، ويكون بالشدة، ولم يضع لنا دليلاً من خبر ولا عقل، أنه عنى بعض ذلك دون بعض، وقد كان الله اختبرهم بالمعنيين كليهما جميعاً. وجائز أن يكون عنى اختبارهم إياهم بهما، فإذا كان الأمر على ما وصفنا، فالصواب من القول فيه أن نقول كما قال -جل ثناؤه-: إنه اختبرهم»^(٤).

* * *

(١) التحرير والتنوير (٢٥ / ٣٠٦).

(٢) الأنفال: الآية (١٧).

(٣) النكت والعيون (٥ / ٢٥٤).

(٤) جامع البيان (٢٥ / ١٢٧).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءَ لَيَقُولُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٢٥﴾ فَأَتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى منكراً على المشركين في إنكارهم البعث والمعاد، وأنه ما ثم إلا هذه الحياة الدنيا، ولا حياة بعد الممات، ولا بعث ولا نشور»^(١).

وقال أبو حيان: «﴿إِنَّ هَؤُلَاءَ﴾ يعني قريشاً، وفي اسم الإشارة تحقير لهم. ﴿لَيَقُولُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَى: أي ما الموتة إلا محصورة في موتتنا الأولى. وكان قد قال تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾^(٢) فذكر موتتين، أولى وثانية، فأنكروا هم أن يكون لهم موة ثانية. والمعنى: ما آخر أمرنا ومنتهاى وجودنا إلا عند موتتنا. فيتضمن قولهم هذا إنكار البعث، ثم صرحوا بما تضمنه قولهم، فقالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾: أي بمبعوثين بحياة دائمة يقع فيها حساب وثواب وعقاب؛ وكان قولهم ذلك في معنى قولهم: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾^(٣)»^(٤).

وقوله: ﴿فَأَتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يقول ابن جرير: «يقول -تعالى- ذكره- مخبراً عن قيل مشركي قريش لنبي الله ﷺ: إن هؤلاء المشركين من قومك يا محمد ﴿لَيَقُولُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَى التي نموتها، وهي الموتة الأولى ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ بعد مماتنا»^(٥).

قال ابن كثير: «وهذه حجة باطلة وشبهة فاسدة، فإن المعاد إنما هو يوم القيامة

(١) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٥٥).

(٢) البقرة: الآية (٢٨).

(٣) الأنعام: الآية (٢٩).

(٤) البحر المحيط (٨ / ٣٨).

(٥) جامع البيان (٢٥ / ١٢٨).

لا في الدار الدنيا ؛ بل بعد انقضائها وذهابها وفراغها يعيد الله العالمين خلقًا جديدًا ،
ويجعل الظالمين لنار جهنم وقودًا ، يوم تكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول
عليكم شهيدًا»^(١).

وخو طب الرسول ﷺ هو وحده خطاب الجميع كما قيل : ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ
النِّسَاءَ﴾^(٢) وكما قيل : ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾^(٣) «^(٤)».

وقال أبو حيان : «﴿فَأَتُوا بِآبَائِنَا﴾ خطاب لرسول الله ﷺ ، وللمؤمنين الذين
كانوا يعدونهم بالبعث ، أي إن صدقتم فيما تقولون ، فأحيوا لنا من مات من آبائنا ،
بسؤالكم ربكم ، حتى يكون ذلك دليلًا على البعث في الآخرة»^(٥).

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٥٥).

(٢) الطلاق : الآية (١).

(٣) المؤمنون : الآية (٩٩).

(٤) أفاده ابن جرير (٢٥ / ١٢٨).

(٥) البحر المحيط (٨ / ٣٨).

قوله تعالى: ﴿أَهْمَ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبَعِّعُ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (٢٧)

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «إن كفار مكة لم يذكروا في نفي الحشر والنشر شبهة حتى يحتاج إلى الجواب عنها، ولكنهم أصروا على الجهل والتقليد في ذلك الإنكار، فلهذا السبب اقتصر الله تعالى على الوعيد، فقال: إن سائر الكفار كانوا أقوى من هؤلاء، ثم إن الله تعالى أهلكهم، فكذلك يهلك هؤلاء»^(١).

قال ابن كثير: «قال تعالى متهدداً لهم، ومتوعداً ومنذراً لهم بأسه الذي لا يرد، كما حل بأشباههم ونظرائهم من المشركين المنكرين للبعث، وكقوم تبع - وهم سبأ - حيث أهلكهم الله وخرب بلادهم، وشردهم في البلاد، وفرقهم شذر مذر، كما تقدم ذلك في سورة سبأ، وهي مُصَدِّرة بإنكار المشركين للمعاد. وكذلك هاهنا شبههم بأولئك، وقد كانوا عرباً من قحطان كما أن هؤلاء عرب من عدنان»^(٢).

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿أَهْمَ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبَعِّعُ﴾ هذا والتبع أيضاً الظل.. والتبع أيضاً ضرب من الطير. وقال السهيلي: تبع اسم لكل ملك ملك اليمن والشحر وحضرموت، وإن ملك اليمن وحدها لم يقل له تبع، قاله المسعودي»^(٣).

قال الرازي: «فإن قيل: ما معنى قوله: ﴿أَهْمَ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبَعِّعُ﴾ مع أنه لا خير في الفريقين؟ قلنا معناه أهم خير في القوة والشوكة، كقوله: ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَ﴾»^(٤) بعد ذكر آل فرعون»^(٥).

قلت: وقد أطال المفسرون في ذكر أخبار تبع وأحواله مما هو من الإسرائيليات، ولا يخلوا من مبالغات كذكرهم أنه ملك الدنيا كلها.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٥٥-٢٥٦).

(٤) القمر: الآية (٤٣).

(١) التفسير الكبير (٢٧ / ٢٥٠).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٦ / ١٤٤-١٤٥).

(٥) التفسير الكبير (٢٧ / ٢٥٠).

قال الألوسي بعد سرد قصة تُبَّع: «إن ملكه الدنيا كلها غير مسلم، وبالجمله الأخبار مضطربة في أمر التبابعة وأحوالهم وترتيب ملوكهم؛ بل قال صاحب تواريخ الأمم: ليس في التواريخ أسقم من تاريخ ملوك حمير؛ لما يذكر من كثرة عدد سنينهم مع قلة عدد ملوكهم، فإن ملوكهم ستة وعشرون، ومدتهم ألفان وعشرون سنة.

وقال بعض: إن مدتهم ثلاثة آلاف واثنان وثمانون سنة، ثم ملك من بعدهم اليمن الحبشة واللّه تعالى أعلم بحقيقة الحال، والقدر المعول عليه ههنا أن تبعا المذكور هو أسعد أبو كرب، وأنه كان مؤمناً بنينا ﷺ، وكان على دين إبراهيم عليه السلام ولم يكن نبياً، وحكاية نبوته عن ابن عباس رضي اللّه تعالى عنهما لا تصح، وإخباره بمبعثه ﷺ لا يقتضيها؛ لأنه علم ذلك من أخبار اليهود، وهم عرفوه من الكتب السماوية»^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: أهؤلاء المشركون من قريش خير أم قوم تبع والذين من قبلهم من الأمم الكافرة بربها، يقول: فليس هؤلاء بخير من أولئك، فنصفح عنهم، ولا نهلكهم، وهم باللّه كافرون، كما كان الذين أهلكناهم من الأمم قبلهم كفارا.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُجْرِمِينَ﴾ يقول: إن قوم تبَّع والذين من قبلهم من الأمم الذين أهلكناهم إنما أهلكناهم لإجرامهم، وكفرهم بربهم»^(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل تبع

* عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «لا تسبوا تبعا فإنه قد أسلم»^(٣).

(١) روح المعاني (٢٥ / ١٣٠).

(٢) جامع البيان (٢٥ / ١٢٩).

(٣) أخرجه: الطبراني في الكبير (١١ / ٢٩٦ / ١١٧٩٠) وفي الأوسط (٢ / ٢٤٧ / ١٤٤١)، الخطيب في التاريخ (٣ / ٢٠٥) وابن عساكر (١١ / ٥ / ٢٦٩٢)، وقال الهيثمي في المجمع (٨ / ٧٦): «رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه أحمد بن أبي برة المكي ولم أعرفه وبقية رجاله ثقات». وقال الحافظ في الفتح (٨ / ٧٣٣) بعد ما ذكره من حديث سهل: «وأخرجه الطبراني من حديث ابن عباس مثله وإسناده أصلح من إسناده سهل». وله شاهد قوي من حديث عائشة رضي الله عنها انظر الحديث بعده وصححه لأجل شواهد الشيخ الألباني في الصحيحة رقم (٢٤٢٣).

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان تبع رجلا صالحا، ألا ترى أن الله ﷻ ذم قومه ولم يذمه»^(١).

* عن وهب بن منبه قال: «نهى رسول الله ﷺ عن سب تبع. قلنا: يا أبا عبد الله، وما كان تبع؟ قال: كان صابئا، قلنا: يا أبا عبد الله، وما الصابي؟ قال: كان على دين إبراهيم، وكان إبراهيم يصلي كل يوم صلاة ولم تكن شريعة»^(٢).

* عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أدري أتبع لعين هو أم لا، وما أدري أعزير نبي هو أم لا»^(٣).

* فوائد الأحاديث:

في هذه الأحاديث النهي عن سب تبع؛ لأنه كان قد أسلم فكان رجلا صالحا على دين إبراهيم.

قال الحافظ ابن حجر: «وموضع تبع في الجاهلية، موضع الخليفة في الإسلام، وهم ملوك العرب الأعظم»^(٤).

قال ابن عساكر في بيان اسمه ونسبه: «هو تبع بن حسان بن ملكي كرب بن تبع بن الأقرن»^(٥).

قال ابن كثير رحمه الله: «وكأنه -والله أعلم- كان كافرا ثم أسلم، وتابع دين الكليم على يدي من كان من أحبار اليهود في ذلك الزمان على الحق قبل بعثة المسيح ﷺ، وحج البيت في زمن الجرهميين»^(٦).

(١) أخرجه: الحاكم (٢ / ٤٥٠) واللفظ له وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي. عبد الرزاق في التفسير (٢ / ٢٠٨)، وابن عساكر (١١ / ٦)، وله شواهد انظرها في الصحيحة (٢٤٢٣) للشيخ الألباني.

(٢) أخرجه: عبد الرزاق في التفسير (٢ / ٢٠٩) واللفظ له وابن عساكر (١١ / ٦)، وعزاه السيوطي في الدر لابن المنذر وابن عساكر، وقال الشيخ الألباني في الصحيحة (٥ / ٥٤٩): «مرسل جيد»، وله شواهد من حديث عائشة وابن عباس وغيرهما.

(٣) أخرجه: أبو داود (٥ / ٥٤-٥٥ / ٤٦٧٤) واللفظ له، والحاكم (١ / ٣٦) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وعنه البيهقي (٨ / ٣٢٩) وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢ / ٨٢٨ / ١٥٥٣) وأورده الألباني في الصحيحة (رقم: ٢٢٧١).

(٤) فتح الباري (٨ / ٧٣٣).

(٥) تاريخ دمشق (١١ / ٣).

(٦) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٥٦-٢٥٧).

قال ابن عساكر: «وهذا الشك من النبي ﷺ كان قبل أن يتبين له أمره، ثم أخبر أنه كان مسلماً»^(١).

قال الحافظ: «والجمع بينه وبين ما قبله: أنه ﷺ أعلم بحاله بعد أن كان لا يعلمها، فلذلك نهى عن سبه خشية أي يبادر إلى سبه من سمع الكلام الأول»^(٢).

قال المناوي بعد سياقه لحديث الباب: «وهذا قبل علمه بأنه كان قد أسلم، بدليل ما سيجيء في حديث: «لا تسبوا»، وفي رواية: «لا تلعنوا تبعاً فإنه كان قد أسلم»، وهو تبع الحميري كان مؤمناً وقومه كافرين، فلذلك ذمهم الله ولم يذمه»^(٣).

* * *

(١) تاريخ دمشق (٥ / ١١).

(٢) فتح الباري (٨ / ٧٣٣).

(٣) فيض القدير (٣ / ٣١٠).

قوله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبَادٍ ۖ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٩)

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير : «يقول تعالى مخبراً عن عدله وتنزيهه نفسه عن اللعب والعبث والباطل ، كقوله -جل وعلا- : ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ (٢٧)»^(١) ، وقال تعالى : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١١٥) فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكبير ﴿١١٦﴾»^(٢)»^(٣).

وقال ابن عاشور : «والمعنى : أنه لو لم يكن بعثٌ وجزاءٌ لكان خلق السماوات والأرض وما بينهما عبثاً ، ونحن خلقنا ذلك كله بالحق ؛ أي : بالحكمة كما دل عليه إتقان نظام الموجودات ، فلا جرم اقتضى خلق ذلك أن يجازى كل فاعل على فعله ، وأن لا يضاع ذلك ، ولما كان المشاهد أن كثيراً من الناس يقضي حياته ولا يرى لنفسه جزاء على أعماله تعين أن الله أخر جزاءهم إلى حياة أخرى ، وإلا لكان خلقهم في بعض أحواله من قبيل اللعب . وذكر اللعب توبيخ للذين أحالوا البعث والجزاء بأنهم اعتقدوا ما يفضي بهم إلى جعل أفعال الحكيم لعباً»^(٤).

قال المراغي : «وقوله : ﴿وَمَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي : ما خلقناهما إلا خلقاً ملتبساً بالحق ، وهو الدلالة بهما على وحدانية الخالق لهما ، ووجوب طاعته ، والإنابة إليه ، لعظمته وجبروته»^(٥).

قال ابن عاشور : «والحق : ما يحق وقوعه من عمل أو قول ، أي يجب ويتعين

(١) ص : الآية (٢٧).

(٢) المؤمنون : الآيتان (١١٥-١١٦).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٥٨).

(٤) التحرير والتنوير (٢٥ / ٣١٠).

(٥) تفسير المراغي (٢٥ / ١٣٢).

لسببية أو تفرع أو مجازاة، فمن الحق الذي خلقت السماوات والأرض وما بينهما لأجله مكافأة كل عامل بما يناسب عمله ويُجازيه، وتقدم عند قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾^(١) ^(٢).

قال المراغي: «وقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: ولكن أكثر هؤلاء المشركين بالله لا يعلمون ذلك، فهم لا يخافون من سخطه عقوبة لهم على ما اجتروحوا من السيئات، ولا يرجون ثوابا على خير فعلوه، لتكذيبهم بالميعاد، والعودة إلى دار أخرى بعد هذه الدار»^(٣).

وهذه يقول الألوسي: «تذليل وتجهيل فخيم لمنكري الحشر وتوكيد؛ لأن إنكارهم يؤدي إلى إبطال الكائنات بأسرها ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾^(٤) ولهذا قال المؤمنون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(٥) ^(٦).

* * *

(١) الروم: الآية (٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥ / ٣١٠-٣١١).

(٣) تفسير المراغي (٢٥ / ١٣٣).

(٤) النور: الآية (١٥).

(٥) آل عمران: الآية (١٩١).

(٦) روح المعاني (٢٥ / ١٣١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٤١) يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٢) إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٤٣)

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «يَوْمَ الْفَصْلِ» هو يوم الحكم؛ لأنه يفصل فيه الحق من الباطل، وهو من أسماء يوم القيامة، قال تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا يَوْمِ أَجَلَتْ﴾ (١٢) لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ (١) (٢).

قال ابن عطية: «وهذا هو الإخبار بالبعث، وهو أمر جوزه العقل وأثبتته الشرع بهذه الآية وغيرها» (٣).

قال القرطبي: وسمي بذلك لأن الله تعالى يفصل فيه بين خلقه. دليله قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ (٤). ونظيره قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِدُ بِنَفَرٍ مِمَّنْ يَتَّقُونَ﴾ (٥) فيوم الفصل ميقات الكل كما قال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتًا﴾ (٦) أي الوقت المجمعول لتمييز المسيء من المحسن، والفصل بينهما: فريق في الجنة وفريق في السعير. وهذا غاية في التحذير والوعيد» (٧).

ثم وصف سبحانه ذلك اليوم فقال: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا﴾ قال ابن جرير: «يقول: لا يدفع ابن عم عن ابن عم، ولا صاحب عن صاحبه شيئاً من عقوبة الله التي حلت بهم من الله» (٨).

(١) المرسلات: الآيتان (١٢-١٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢٥ / ٣١١).

(٣) المحرر الوجيز (٥ / ٧٥).

(٤) الممتحنة: الآية (٣).

(٥) الروم: الآية (١٤).

(٦) النبأ: الآية (١٧).

(٧) الجامع لأحكام القرآن (١٦ / ١٤٧).

(٨) جامع البيان (٢٥ / ١٣٠).

قال ابن كثير: «أي: لا ينفع قريب قريباً، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾^(١)، وكقوله جلت عظمتة: ﴿وَلَا يَسْتَلُ حِمِيًّا حَمِيماً﴾^(٢) أي: لا يسأل أخاه عن حاله وهو يراه عياناً»^(٣).

قال الألوسي: «والمولى: الصاحب الذي من شأنه أن يتولى معونة صاحبه على أموره، فيدخل في ذلك ابن العم والحليف والعتيق والمعتق وغيرهم، وذكر الخفاجي أنه من الولاية، وهي التصرف، فيشمل كل من يتصرف في آخر الأمر ما كقربة وصداقة وهو قريب مما ذكرنا»^(٤).

وتنكير مولى في سياق النفي لإفادة العموم أي: لا يغني أحد من الموالى كائناً من كان عن أحد من مواليه كائناً من كان»^(٥).

وقوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يقول: ولا ينصر بعضهم بعضاً فيستعيذوا ممن نالهم بعقوبة كما كانوا يفعلونه في الدنيا»^(٦).

وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ﴾ قال القاسمي: «أي: بأن وفقه للإيمان والعمل الصالح»^(٧).

قال ابن كثير: «ولا ينفع يومئذ إلا رحمة الله عز وجل بخلقه»^(٨).

قال ابن عاشور: «والاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ﴾. . . استثناء متصل؛ أي: إلا من رحم الله من الموالى، أي فإنه يأذن أن يُشَفَّعَ فيه، ويأذن للشافع بأن يُشَفَّعَ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾^(٩) وقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾^(١٠). وفي حديث الشفاعة أنه يقال لرسول الله ﷺ: «سَلْ تُعْطَهِ وَاشْفَعْ تُشَفَّعَ»^(١١). والشفاعة: إغناء عن المشفوع فيه. والشفعاء يومئذ أولياء

(١) المؤمنون: الآية (١٠١).

(٢) المعارج: الآيتان (١٠-١١).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٥٨-٢٥٩).

(٤) روح المعاني (٢٥ / ١٣١).

(٥) قاله ابن عاشور في التحرير والتنوير (٢٥ / ٣١٢). (٦) قاله ابن جرير في جامع البيان (٢٥ / ١٣٠).

(٧) محاسن التأويل (١٤ / ٣٨١).

(٨) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٥٩).

(٩) الأنبياء: الآية (٢٨).

(١٠) سبأ: الآية (٢٣).

(١١) هذا جزء من حديث طويل أخرجه: أحمد (٢ / ٤٣٥). البخاري (٨ / ٥٩٣ / ٢١٧٤)، مسلم (١ / ٤٨١ / ٤٩١).

الترمذي (٤ / ٥٣٧ / ٢٤٣٤). النسائي في الكبرى (٦ / ٣٧٨ / ١١٢٨٦). ابن ماجه

مختصراً (٢ / ١٠٩٩ / ٣٣٠٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

للمؤمنين ، فإن من الشفعاء الملائكة ، وقد حكى الله عنهم قولهم للمؤمنين ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾^(١) .

وقيل هو استثناء منقطع ؛ لأن من رَحِمَهُ اللهُ ليس داخلاً في شيء قبله مما يدل على أهل المحشر ، والمعنى : لكن من رَحِمَهُ اللهُ لا يحتاج إلى من يُغني عنه أو ينصره ، وهذا قول الكسائي والفراء . وأسباب رحمة الله كثيرة مرجعها إلى رضاه عن عبده وذلك سر يعلمه الله^(٢) .

وقوله : ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ قال القرطبي : «أي : المنتقم من أعدائه الرحيم بأوليائه ، كما قال تعالى : ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ ذِي الطَّلَوِّ﴾^(٣) فقرن بين الوعد بالوعيد^(٤) .

قال ابن عاشور : «فهو يرحم من يرحمه بمحض مشيئته وهو رحيم ؛ أي : واسع الرحمة لمن يشاء من عباده على وفق ما جرى به علمه وحكمته ووعد^(٥)» .

* * *

(١) فصلت : الآية (٣١) .

(٢) التحرير والتنوير (٢٥ / ٣١٣) .

(٣) غافر : الآية (٣) .

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٦ / ١٤٨) .

(٥) التحرير والتنوير (٢٥ / ٣١٣) .

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

شجرة الزقوم هي الشجرة الملعونة في القرآن، وهي تنبت في أصل الجحيم^(١) فإذا جاع أهل النار التجؤوا إليها فأكلوا منها^(٢).

قال ابن عاشور: «ومعنى كون الشجرة طعاماً أن ثمرها طعام كما قال تعالى: ﴿طَلَعُهَا كَأَنَّهُ رِئُوسُ الشَّيْطَانِ ﴿٤٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُ مِنْهَا﴾^(٣)»^(٤).

وقد عرف الزقوم الماوردي بقوله: «هو في اللغة ما أكل بكره شديد، ولهذا يقال: قد تزقم هذا الطعام تزقماً؛ أي: هو في حكم من أكله بكره شديد لحشوفه، وشدة شره»^(٥).

والأثيم الكثير الآثام قال الماوردي: «وفي الأثيم وجهان: أحدهما: أنه الآثم قاله ابن عيسى. الثاني: المشترك المكتسب للإثم قاله يحيى»^(٦).

قال ابن كثير: «وذكر غير واحد أنه أبو جهل، ولا شك في دخوله في هذه الآية، ولكن ليست خاصة به»^(٧).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في تفسير الآية وحكم القراءة بغير العربية

* عن همام بن الحارث: أن أبا الدرداء كان يقرأ رجلاً ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ فقال: طعام اليتيم. فقال أبو الدرداء قل: (إن شجرة

(١) أفاده ابن عطية في المحرر الوجيز (٥ / ٧٦).

(٢) أفاده القرطبي في الجامع لأحكام القرآن (١٦ / ١٠٠).

(٣) الصافات: الآيتان (٦٥-٦٦).

(٤) التحرير والتنوير (٢٥ / ٣١٤).

(٥) النكت والعيون (٥ / ٢٥٧).

(٦) النكت والعيون (٥ / ٢٥٧).

(٧) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٥٩).

الزقوم طعام الفاجر»^(١).

★ فوائد الحديث:

أفاد الحديث أن شجرة الزقوم التي أخبر الله أنها تنبت في أصل الجحيم جعلها طعاماً لأهل الجحيم.

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ: «ثمرها في الجحيم طعام الآثم في الدنيا بربه، والآثم ذو الإثم، وعني به في هذا الموضع: الذي إثمه الكفر بربه دون غيره من الآثام»^(٢).

لذلك لما أقرأ أبو الدرداء هذا الرجل وأكثر عليه، فرآه لا يفهم عدل إلى المعنى المراد من الآية فقال له: إن شجرة الزقوم طعام الفاجر.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: «ولا حجة في هذا للجهال من أهل الزيغ، أنه يجوز إبدال الحرف من القرآن بغيره؛ لأن ذلك إنما كان من عبد الله تقريباً للمتعلم، وتوطئة منه له للرجوع إلى الصواب، واستعمال الحق والتكلم بالحرف على إنزال الله وحكاية رسول الله ﷺ»^(٣).

قال الزمخشري: «وبهذا يستدل على أن إبدال كلمة مكان كلمة جائز إذا كانت مؤدية معناها. ومنه أجاز أبو حنيفة القراءة بالفارسية على شريطة وهي أن يؤدي القارئ المعاني على كمالها من غير أن يخرم منها شيئاً. قالوا: وهذه الشريطة تشهد أنها إجازة كلا إجازة، لأن في كلام العرب خصوصاً في القراءان الذي هو معجز بفصاحته، وغرابة نظمه وأساليبه، من لطائف المعاني والأغراض ما لا يستقل بأدائه لسان من فارسية وغيرها، وما كان أبو حنيفة رَحِمَهُ اللهُ يحسن الفارسية، فلم يكن ذلك منه عن تحقق وتبصر»^(٤).

قال ابن حزم رَحِمَهُ اللهُ: «ومن كانت لغته غير العربية جاز له أن يدعو بها في صلاته، ولا يجوز له أن يقرأ بها، ومن قرأ بغير العربية فلا صلاة له.

وقال أبو حنيفة: من قرأ بالفارسية في صلاته جازت صلاته.

(١) أخرجه: الحاكم (٢ / ٤٥١) وصححه ووافقه الذهبي. ابن جرير في التفسير (٢٥ / ١٣٠-١٣١) واللفظ له.

(٢) جامع البيان (٢٥ / ١٣١-١٣٢) باختصار.

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٦ / ١٤٩).

(٤) الكشف (٣ / ٥٠٦).

قال علي: قال رسول الله ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن»^(١) وقال الله تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾^(٣) فصيح أن غير العربية لم يرسل به الله تعالى محمدا ﷺ، ولا أنزل به عليه القرآن، فمن قرأ بغير العربية فلم يقرأ ما أرسل الله تعالى به نبيه ﷺ، ولا قرأ القرآن؛ بل لعب بصلاته، فلا صلاة له؛ إذ لم يصل كما أمر. فإن ذكروا قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾^(٤).

قلنا: نعم، ذكر القرآن والإنذار به في زبر الأولين، وأما أن يكون الله تعالى أنزل هذا القرآن على أحد قبل رسول الله ﷺ فباطل وكذب ممن ادعى ذلك، ولو كان هذا ما كان فضيلة لرسول الله ﷺ ولا معجزة له، وما نعلم أحدا قال هذا قبل أبي حنيفة.

ومن لم يحفظ أم القرآن صلى كما هو، وعليه أن يتعلمها، لقول الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(٥) فهو غير مكلف ما لا يقدر عليه، فإن حفظ شيئا من القرآن غيرها لزمه فرضا أن يصلي به، ويتعلم أم القرآن لقول رسول الله ﷺ: «لا صلاة إلا بقراءة»^(٦) وقول الله تعالى: ﴿فَاقْرَأْ وَمَا يَنْسَرُ مِنَ الْقُرْآنِ﴾^(٧) «^(٨)».

قال ابن المنذر: «وقال النعمان: «إن افتتح الصلاة بالفارسية وقرأ بها وهو يحسن العربية أجزأه».

قال أبو بكر: لا يجزئه؛ لأن ذلك خلاف ما أمر الله به، وخلاف ما علم الرسول ﷺ أمته، وما عليه جماعات أهل العلم، لا نعلم أحدا وافقه على مقالته هذه، ولا يكون قارئنا بالفارسية القرآن أبدا؛ لأن الله تعالى أنزله قرآنا عربيا، فغير جائز أن يقرأ بغير ما أنزل الله»^(٩).

(١) أخرجه: أحمد (٣١٤/٥)، والبخاري (٧٥٦/٣٠١/٢)، ومسلم (٣٩٤/٢٩٥/١)، وأبو داود (٥١٤/١/٨٢٢)، والترمذي (٢٤٧/٢٥/٢) وقال: «حديث حسن صحيح». والنسائي (٩٠٩/٤٧٤/٢)، وابن ماجه (١/٨٣٧/٢٧٣) من حديث عبادة بن الصامت ؓ. (٢) يوسف: الآية (٢)، وطه: الآية (١١٣).

(٣) إبراهيم: الآية (٤). (٤) الشعراء: الآية (١٩٦).

(٥) البقرة: الآية (٢٨٦).

(٦) أخرجه أحمد (٤٤٣/٢)، مسلم (١/٢٩٧/٣٩٦ [٤٢]) مرفوعا. وأخرجه النسائي (٢/٥٠٢-٩٦٩) والبخاري (٢/٣٢٠/٧٧٢) موقوفا عن أبي هريرة ؓ.

(٧) المزمّل: الآية (٢٠). (٨) المحلى (٤/١٥٩).

(٩) الأوسط (٣/٧٧-٧٨).

قوله تعالى: ﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾﴾ يقول -تعالى ذكره-: إن شجرة الزقوم التي جعل ثمرتها طعام الكافر في جهنم، كالرصاص أو الفضة، أو ما يُذاب في النار إذا أذيب بها، فتناهت حرارته، وشدّت حميته في شدة السواد . . . ﴿كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ﴾ يقول: يغلي ذلك في بطون هؤلاء الأشقياء كغلي الماء المحموم، وهو المسخن الذي قد أوقد عليه حتى تناهت شدة حرّه»^(١).

وقد فسر ابن عباس رضي الله عنهما المهل بقوله: «أسود كمهل الزيت»^(٢)، وقال الليث: المهل ضرب من القطران، إلا أنه رقيق شبيه بالزيت يضرب إلى الصفرة، وعن الأصمعي: هو عكر الزيت، وقال صاحب المحكم: إنه خبث الجواهر الذهب وغيره^(٣).

وقوله: ﴿فِي الْبُطُونِ﴾ كقوله: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٤٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئَةِ ﴿٤٧﴾﴾^(٤) ﴿٧﴾﴾^(٥).

* * *

(١) جامع البيان (٢٥ / ١٣١-١٣٣).

(٢) البخاري معلقا (٨ / ٧٣٢) ووصله ابن أبي حاتم كما في الفتح.

(٣) أفاده الحافظ في الفتح (٨ / ٥٧٠).

(٤) الهمزة: الآيتان (٧ و٦).

(٥) محاسن التأويل (١٤ / ٣٨١).

قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۖ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ۖ﴾ (٤٨)

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿خُذُوهُ﴾ يعني هذا الأثيم بربه، الذي أخبر -جل ثناؤه- أن له شجرة الزقوم طعام ﴿فَاعْتِلُوهُ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فادفعوه وسوقوه»^(١).

«والعتل: السوق بعنف وإهانة، ودفع قوي متصل، كما يساق أبدا مرتكب الجرائم»^(٢).

«وقال الأعمش: معنى اعتلوه: اقصفوه كما يقصف الحطب إلى سواء الجحيم»^(٣).

﴿إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ أي: وسط الجحيم. قاله ابن عباس والضحاك وقتادة، وقال الحسن: ﴿سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾: معظم الجحيم يصيبه الحر من جوانبها»^(٤).

قال ابن جرير: «ومعنى الكلام: يقال يوم القيامة: خذوا هذا الأثيم فسوقوه دفعا في ظهره، وسحبا إلى وسط النار»^(٥).

وقوله: ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ۖ﴾ قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ثم صبوا على رأس هذا الأثيم من عذاب الحميم؛ أي: من الماء المسخن الذي وصفنا صفته، وهو الماء الذي قال الله: ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾»^(٦) (٧).

(١) جامع البيان (٢٥ / ١٣٣).

(٢) البحر المحيط (٨ / ٤٠).

(٣) جامع البيان (٢٥ / ١٣٣).

(٤) جامع البيان (٢٥ / ١٣٤).

(٥) المحرر الوجيز (٥ / ٧٧).

(٦) حكاها الماوردي في النكت والعيون (٥ / ٢٥٧).

(٧) الحج: الآية (٢٠).

قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ (٤٩) إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الماوردي: «معناه: إنك لست بعزيز ولا كريم . . . قاله قتادة، وقال أيضًا: إنك أنت العزيز الكريم عند نفسك، وقال سعيد بن جبير: قيل له ذلك استهزاء على جهة الإهانة، وقيل: إنك أنت العزيز في قومك، والكريم على أهلك حكاه ابن عيسى»^(١).

قال الشنقيطي: «هذه الآية الكريمة يتوهم من ظاهرها ثبوت العزة والكرم لأهل النار، مع أن الآيات القرآنية مصرحة بخلاف ذلك كقوله: ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾^(٢) أي صاغرين أذلاء. وكقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾^(٣)، وكقوله هنا: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ (٤٧). والجواب - أنها نزلت في أبي جهل لما قال: أيوعدني محمد ﷺ وليس بين جليلها أعز ولا أكرم مني، فلما عذبه الله بكفره قال: ذق إنك أنت العزيز الكريم في زعمك الكاذب؛ بل أنت المهان الخسيس الحقير، فهذا التقريع نوع من أنواع العذاب»^(٤).

وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ (٥٠) قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : يقال له: إن هذا العذاب الذي تعذب به اليوم، هو العذاب الذي كنتم في الدنيا تشككون، فتختصمون فيه، ولا توقنون به فقد لقيتموه، فذوقوه»^(٥).

* * *

(١) النكت والعيون (٥ / ٢٥٨)، بتصرف واختصار.

(٢) غافر: الآية (٦٠).

(٣) آل عمران: الآية (١٧٨).

(٤) دفع إيهام الاضطراب (٢٢٢-٢٢٣).

(٥) جامع البيان (٢٥ / ١٣٥).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر السعداء، ولهذا سمي القرآن مثاني فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: لله في الدنيا^(١) بأداء طاعته، واجتناب معاصيه^(٢).

وقوله: ﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ أي: «في منزل يأمنون فيه من الموت والزوال، قال علي: وأمنوا من الموت فطاب لهم العيش»^(٣).

قال ابن كثير: «قد أمنوا فيها من الموت والخروج، ومن كل هم وحزن وجزع وتعب ونصب، ومن الشيطان وكيده، وسائر الآفات والمصائب»^(٤).

وقوله: ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ قال ابن جرير: «الجنات والعيون ترجمة عن المقام الأمين، والمقام الأمين: هو الجنات والعيون، والجنات: البساتين، والعيون: عيون الماء المطرد في أصول أشجار الجنات»^(٥).

قال السعدي: «أضاف الجنات إلى النعيم لأن كل ما اشتملت عليه كله نعيم وسرور، كامل من كل وجه، ما فيه منغص ولا مكدر بوجه من الوجوه»^(٦).

قوله تعالى: ﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾:

قال ابن جرير: «يقول: يلبس هؤلاء المتقون في هذه الجنات من سندس، وهو ما رق من الديباج، وإستبرق وهو ما غلظ من الديباج»^(٧).

قال ابن كثير: «السندس هو رفيع الحرير كالقمصان ونحوها ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ وهو ما

(١) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٦٠).

(٣) تفسير السمعاني (٥ / ١٣٢).

(٥) جامع البيان (٢٥ / ١٣٥).

(٧) جامع البيان (٢٥ / ١٣٥).

(٢) جامع البيان (٢٥ / ١٣٥).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٦٠).

(٦) تيسير الكريم الرحمن (٧ / ١٥).

فيه بريق ولمعان، وذلك كالرياش وما يلبس على أعالي القماش»^(١).
 وحكى الماوردي أن السندس ما يلبسونه والإستبرق ما يفترشونه»^(٢).
 وقوله: ﴿مُتَقَبِّلِينَ﴾ أي: لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض، وقيل: متقابلين
 بالمحبة غير متدابرين بالعداوة»^(٣).
 قال السعدي: «في كمال الراحة والطمأنينة والمحبة والعشرة الحسنة،
 والآداب المستحسنة»^(٤).

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٦٠).
 (٢) النكت والعيون (٥ / ٢٥٨).
 (٣) تفسير السمعاني (٥ / ١٣٢).
 (٤) تيسير الكريم الرحمن (٧ / ١٦).

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ (٥٤)

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : كما أعطينا هؤلاء المتقين في الآخرة من الكرامة بإدخالناهم الجنات، وإلباسناهم فيها السندس والإستبرق، كذلك أكرمناهم بأن زوجناهم أيضًا فيها حورا من النساء، وهن النقيات البياض، واحدتهن: حوراء. وكان مجاهد يقول في معنى الحور . . التي يحار فيهن الطرف، بإدْمُخ سوقهن من وراء ثيابهن، ويرى الناظر وجهه في كبد إحداهن كالمرآة من رقة الجلد، وصفاء اللون. وهذا الذي قاله مجاهد من أن الحور إنما معناها: أنه يحار فيها الطرف، قول لا معنى له في كلام العرب؛ لأن الحور إنما هو جمع حوراء، كالحمر جمع حمراء، والسود: جمع سوداء، والحوراء إنما هي فعلاء من الحور وهو نقاء البياض، كما قيل للنقي البياض من الطعام الحواري»^(١).

وقال الشوكاني: «وقيل: هو من حور العين وهو: شدة بياض العين في شدة سوادها، كذا قال أبو عبيدة. وقال الأصمعي: ما أدري ما الحور في العين. قال أبو عمرو: الحور أن تسود العين كلها مثل أعين الظباء والبقر، قال: وليس في بني آدم حور، وإنما قيل للنساء حور: لأنهن شبهن بالظباء والبقر»^(٢).

وقال أيضًا: «وقيل المراد بقوله: ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ﴾ قرناهم، وليس من عقد التزويج؛ لأنه لا يقال: زوجته بامرأة. وقال أبو عبيدة: وجعلناهم أزواجًا لهن كما يزوج البعل بالبعل أي: جعلناهم اثنين اثنين، وكذا قال الأخفش»^(٣).

(١) جامع البيان (٢٥ / ١٣٦).

(٢) فتح القدير (٤ / ٨١١).

(٣) فتح القدير (٤ / ٨١١).

قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ ﴿٥٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يدعو هؤلاء المتقون في الجنة بكلّ نوع من فواكه الجنة اشتهوّه، آمنين فيها من انقطاع ذلك عنهم ونفاده وفنائه، ومن غائلة أذاه ومكروهه، يقول: ليست تلك الفاكهة هنالك كفاكهة الدنيا التي نأكلها، وهم يخافون مكروه عاقبتها، وغبّ أذاها مع نفادها من عندهم، وعدمها في بعض الأزمنة والأوقات»^(١).

وقال السعدي: ﴿آمِنِينَ﴾ من انقطاع ذلك، وآمنين من مضرته، وآمنين من كل مكدر، وآمنين من الخروج منها والموت»^(٢).

* * *

(١) جامع البيان (٢٥ / ١٣٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧ / ١٦).

قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّعَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۖ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝٥٧﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال القرطبي: «أي: لا يذوقون فيها الموت البتة؛ لأنهم خالدون فيها، ثم قال: ﴿إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ﴾ على الاستثناء المنقطع؛ أي: لكن الموتة الأولى قد ذاقوها في الدنيا»^(١).

قال أبو حيان: «وذلك تنبيه على ما أنعم به عليهم من الخلود السرمدي، وتذكير لهم بمفارقة الدنيا الفانية إلى هذه الدار الباقية»^(٢).

قال القرطبي: «وقيل: إن إلا بمعنى: بعد، كقولك: ما كلمت رجلا اليوم إلا رجلا عندك، أي بعد رجل عندك».

وقيل: إلا بمعنى سوى؛ أي: سوى الموتة التي ماتوها في الدنيا، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾^(٣). وهو كما تقول: ما ذقت اليوم طعاما سوى ما أكلت أمس»^(٤).

قال ابن عطية: «قدر قوم إلا بسوى، وضعف ذلك الطبري، وقدرها ببعد، وليس تضعيفه بصحيح؛ بل يصح المعنى بسوى ويتسق، وأما معنى الآية: فبين أنه نفى عنهم ذوق الموت، وأنه لا ينالهم من غير ذلك ما تقدم في الدنيا»^(٥).

وقوله: ﴿وَوَقَّعَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۖ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝٥٧﴾ قال ابن كثير: «أي: مع هذا النعيم العظيم المقيم قد وقاهم، وسلمهم ونجاهم

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٦ / ١٥٤).

(٢) البحر المحيط (٨ / ٤١).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٦ / ١٥٥).

(٥) المحرر الوجيز (٥ / ٧٨).

(٣) النساء: الآية (٢٢).

وزحزحهم من العذاب الأليم في دركات الجحيم ، فحصل لهم المطلوب ، ونجاهم من المرهوب»^(١).

قال السعدي : «حصول النعيم واندفاع العذاب عنهم من فضل الله عليهم وكرمه ، فإنه تعالى هو الذي وفقهم للأعمال الصالحة التي بها نالوا خير الآخرة ، وأعطاهم أيضًا ما لم تبلغه أعمالهم»^(٢).

قال ابن جرير : «وقى هؤلاء المتقين ربهم يومئذ عذاب النار تفضلاً يا محمد من ربك عليهم ، وإحساناً منه عليهم بذلك ، ولم يعاقبهم بجرم سلف منهم في الدنيا ، ولولا تفضله عليهم بصفحة لهم عن العقوبة لهم على ما سلف منهم من ذلك ، لم يقهم عذاب الجحيم ، ولكن كان ينالهم ويصيبهم ألمه ومكروهه .

وقوله : ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ يقول - تعالى ذكره - : هذا الذي أعطينا هؤلاء المتقين في الآخرة من الكرامة التي وصفت في هذه الآيات ، هو الفوز العظيم : يقول : هو الظفر العظيم بما كانوا يطلبون من إدراكه في الدنيا بأعمالهم وطاعتهم لربهم ، واتقائهم إياه ، فيما امتحنهم به من الطاعات والفرائض ، واجتناب المحارم»^(٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في ذبح الموت وصفات أهل الجنة

* عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادي مناد : يا أهل الجنة فيشرئبون وينظرون ، فيقول : هل تعرفون هذا؟ فيقولون : نعم ، هذا الموت . وكلهم قد رآه . ثم ينادي : يا أهل النار ، فيشرئبون وينظرون ، فيقول : هل تعرفون هذا؟ فيقولون نعم هذا الموت ، وكلهم قد رآه . فيذبح ثم يقول : يا أهل الجنة ، خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت . ثم قرأ : ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ - وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا -

(١) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٦٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧ / ١٦-١٧).

(٣) جامع البيان (٢٥ / ١٣٨).

﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(١)»^(٢).

★ غريب الحديث:

كبش أملح: أي: إذا كان شعره خليسا؛ أي: مختلط البياض بالسواد.
يشربون: بمعجمة وراء مفتوحة، ثم همزة مكسورة، ثم موحدة ثقيلة مضمومة؛
أي: يمدون أعناقهم ينظرون.

أنذرهم: من الإنذار وهو الإبلاغ، ولا يكون إلا في التخويف.

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «قال القرطبي: الحكمة في الإتيان بالموت هكذا الإشارة إلى أنهم حصل لهم الفداء به كما فدي ولد إبراهيم بالكبش، وفي الأملح الإشارة إلى صفتي أهل الجنة والنار؛ لأن الأملح ما فيه بياض وسواد»^(٣).

قال القرطبي رحمه الله بعد ذكره لحديث الباب وما في معناه: «هذه الأحاديث مع صحتها نص في خلود أهل الدارين فيها، لا إلى غاية ولا إلى أمد، مقيم على الدوام والسرمد من غير موت ولا حياة ولا راحة ولا نجاة؛ بل كما قال في كتابه الكريم وأوضح فيه عن عذاب الكافرين ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَنُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾^(٤) وهم يصطرون فيها» - إلى قوله - ﴿مِنْ نَّصِيرٍ﴾^(٥) وقال: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾^(٦) وقال: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾^(٧) يصهر به ما في بطونهم والجلود^(٨) وهم مقيع من حديد^(٩) كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غي أعيدوا فيها^(١٠) وقد تقدمت هذه المعاني كلها، فمن قال: إنهم يخرجون منها، وأن

(١) مريم: الآية (٣٩).

(٢) أخرجه: أحمد (٩/٣)، البخاري (٨/٥٤٧ / ٤٧٣٠)، مسلم (٤/٢١٨٨ / ٢٨٤٩)، الترمذي (٤/٥٩٧ /

٢٥٥٨) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/٣٩٣ / ١١٣١٦). وله شواهد من حديث أبي هريرة

(٣) فتح الباري (١١/٥١٢).

وغیره.

(٤) فاطر: الآيتان (٣٦-٣٧).

(٥) النساء: الآية (٥٦).

(٦) الحج: الآيات (١٩-٢٢).

النار تبقى خالية بجملتها خاوية على عروشها ، وأنها تفنى وتزول ، فهو خارج عن مقتضى المعقول ، ومخالف لما جاء به الرسول ، وما أجمع عليه أهل السنة العدول ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ فُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝﴾ (١) (٢) .

قال ابن القيم رحمه الله : «وهذا الكبش والإضجاع والذبح ومعاناة الفريقين ، ذلك حقيقة لا خيال ولا تمثيل ، كما أخطأ فيه بعض الناس خطأ قبيحا ، وقال : الموت عرض ، والعرض لا يتجسم ، فضلا عن أن يذبح ، وهذا لا يصح ، فإن الله سبحانه ينشئ من الموت صورة كبش يذبح ، كما ينشئ من الأعمال صورة معاينة يثاب بها ويعاقب ، والله تعالى ينشئ من الأعراض أجساما تكون الأعراض مادة لها ، وينشئ من الأجسام أعراضا ، كما ينشئ سبحانه وتعالى من الأعراض أعراضا ، ومن الأجسام أجساما ، فالأقسام الأربعة ممكنة مقدورة للرب تعالى ، ولا يستلزم جمعا بين النقيضين ، ولا شيئا من المحال ، ولا حاجة إلى تكلف من قال : إن الذبح لملك الموت . فهذا كله من الاستدراك الفاسد على الله ورسوله ، والتأويل الباطل الذي لا يوجبه عقل ولا نقل ، وسببه قلة الفهم لمراد الرسول ﷺ من كلامه ، فظن هذا القائل أن لفظ الحديث يدل على أن نفس العرض يذبح ، وظن غلط آخر أن العرض يعدم ويزول ، ويصير مكانه جسم يذبح ، ولم يهتد الفريقان إلى هذا القول الذي ذكرناه ، وأن الله سبحانه ينشئ من الأعراض أجساما ويجعلها مادة لها وكان يزيد الرقاشي يقول في كلامه : (أمن أهل الجنة من الموت فطاب لهم العيش ، وأمنوا من الأسقام فهناهم في جوار الله طول المقام) ثم يبكي حتى تجري دموعه على لحيته» (٣) .

وقال أيضا : «سأل سائل فقال : إذا كانت الجنة لا موت فيها ، فكيف يأكلون فيها لحم الطير ، وهو حيوان قد فارقت الروح ؟ فأجيب بأنه يجوز أن لا يكون ميتا ، وهذا جواب في غاية الغثاثة ، قال ابن عقيل : وما الذي أحوجه إلى هذا ، والجنة دار

(١) النساء : الآية (١١٥) .

(٢) التذكرة (ص : ٤٣٦-٤٣٧) .

(٣) حادي الأرواح (ص : ٢٨٣-٢٨٤) .

لا يخلق فيها أذى ولا نصب، لا مطلقاً؛ بل لا يدخل الداخل إليها ذلك على طريق الإكرام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۖ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ﴾ (١) وذلك مشروط بالطاعة، فإذا جاز ذلك في حق آدم، علم أنه ليس بواجب في حق الطير، ولا يمتنع في قدرة الله تعالى أن يكون هذا الطائر مشوياً لا عن روح خرجت منه، أو عن روح خرجت خارج الجنة، وولج الجنة وهو لحم مشوي، قلت: وما الذي أوجب هذا التكلف كله، فالجنة دار الخلود لأهلها وسكانها، وأما الطير فهو نوع من أنواع الأطعمة التي يحدثها الله لهم شيئاً بعد شيء، فهو دائم النوع، وإن آحاده منصرمة، كالفاكهة وغيرها، وقد ثبت عن النبي ﷺ أن المؤمنين ينحر لهم يوم القيامة ثور الجنة الذي كان يأكل منها، فيكون نزلهم. رواه مسلم (٢) فهذا حيوان قد كان يأكل من الجنة فينحر نزلاً لأهلها والله أعلم (٣).

* عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ينادي مناد: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً فذلك قوله ﷺ: ﴿وَتُودُّوْا أَنْ تَلِكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾» (٤) (٥).

★ فوائد الحديث:

فيه «أن أهل الجنة لا يموتون فيها لكمال حياتهم، وكمالهم في ازدياد من قوة الشباب، ونضرة الوجوه، وحسن الهيئة، وطيب العيش» (٦).

* عن جابر رضي الله عنه قال: سئل النبي ﷺ فليل: يا رسول الله أينام أهل الجنة؟ فقال رسول الله ﷺ: «النوم أخو الموت، وأهل الجنة لا ينامون» (٧).

(٢) أخرجه مسلم (١/ ٢٥٢-٢٥٣/ ٣١٥).

(١) طه: الآيتان (١١٨-١١٩).

(٤) الأعراف: الآية (٤٣).

(٣) بدائع الفوائد (٣/ ١٧٦-١٧٧).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٩) ومسلم (٤/ ٢١٨٢/ ٢٨٣٧)، الترمذي (٥/ ٣٤٩/ ٣٢٤٦)، النسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٥/ ١١١٨٤).

(٦) قاله ابن كثير في النهاية (٢/ ٤٦٨).

(٧) أخرجه: الطبراني في الأوسط (١/ ٥٠٢/ ٩٢٣) واللفظ له، وأيضاً: (٩/ ٣٧٦-٣٧٧/ ٨٨١١)، البزار (كشف الأستار ٤/ ١٩٣/ ٣٥١٧)، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٤١٥): رواه الطبراني في الأوسط والبزار ورجال البزار رجال الصحيح وصحح السيوطي سنده في الدر المنثور وانظر الصحيحة (رقم: ١٠٨٧).

* فوائد الحديث:

فيه أن النوم أخو الموت وأن أهل الجنة «لا ينامون كي لا يشغلوا به عن الملاذ والحياة الهنية، جعلنا الله منهم»^(١).

* عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول: قال رسول الله ﷺ: «سدّدوا وقاربوا وأبشروا، فإنه لن يدخل الجنة أحدا عمله قالوا: ولا أنت؟ يا رسول الله! قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله منه برحمة. واعلموا أن أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل»^(٢).

* فوائد الحديث:

قال الحافظ: «قال الرافعي: في الحديث أن العامل لا ينبغي أن يتكل على عمله في طلب النجاة، ونيل الدرجات؛ لأنه إنما عمل بتوفيق الله، وإنما ترك المعصية بعصمة الله، فكل ذلك بفضل ورحمة»^(٣).

قال النووي رحمه الله: «ومذهب أهل السنة أيضا: أن الله تعالى لا يجب عليه شيء تعالى الله؛ بل العالم ملكه، والدنيا والآخرة في سلطانه، يفعل فيهما ما يشاء، فلوا عذب المطيعين والصالحين أجمعين وأدخلهم النار، كان عدلا منه، وإذا أكرمهم ونعمهم وأدخلهم الجنة، فهو فضل منه، ولو نعم الكافرين وأدخلهم الجنة، كان له ذلك، ولكنه أخبر وخبره صدق، أنه لا يفعل هذا؛ بل يغفر للمؤمنين ويدخلهم الجنة برحمته، ويعذب المنافقين ويخلدهم في النار عدلا منه. وأما المعتزلة فيثبتون الأحكام بالعقل، ويوجبون ثواب الأعمال، ويوجبون الأصلح، ويمنعون خلاف هذا في خبط طويل لهم تعالى الله عن اختراعاتهم الباطلة، المنابذة لنصوص الشرع، وفي ظاهر هذه الأحاديث دلالة لأهل الحق أنه لا يستحق أحد الثواب والجنة بطاعته، وأما قوله تعالى: ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٤) ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٥) ونحوهما من الآيات الدالة على أن

(١) أفاده ابن كثير في النهاية (٢/ ٤٦٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ١٢٥)، البخاري (١١/ ٣٥٥/ ٦٤٦٧)، مسلم (٤/ ٢١٧١/ ٢٨١٨) واللفظ له.

(٣) فتح الباري (١١/ ٣٥٩).

(٤) النحل: الآية (٣٢).

(٥) الزخرف: الآية (٧٢).

الأعمال يدخل بها الجنة، فلا يعارض هذه الأحاديث؛ بل معنى الآيات: أن دخول الجنة بسبب الأعمال، ثم التوفيق للأعمال والهداية للإخلاص فيها وقبولها برحمة الله تعالى وفضله، فيصح أنه لم يدخل بمجرد العمل، وهو مراد الأحاديث، ويصح أنه دخل بالأعمال؛ أي: بسببها وهي من الرحمة، والله أعلم^(١).

قال ابن القيم رحمه الله: «وحكمة الرب سبحانه مقتضية لعمارة هذه الدرجات كلها، وإنما تعمّر ويقع التفاوت فيها بحسب الأعمال، كما قال غير واحد من السلف: ينجون من النار بعفو الله ومغفرته، ويدخلون الجنة بفضله ونعمته ومغفرته، ويتقاسمون المنازل بأعمالهم، وعلى هذا حمل غير واحد ما جاء من إثبات دخول الجنة بالأعمال كقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٣) قالوا: وأما نفي دخولها بالأعمال كما في قوله ﷺ: «لن يدخل الجنة أحد بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا». فالمراد منه نفي أصل الدخول، وأحسن من هذا أن يقال: الباء المقتضية للدخول غير الباء التي نفى معها الدخول، فالمقتضية هي باء السببية الدالة على أن الأعمال سبب للدخول، مقتضية له كاقضاء سائر الأسباب لمسبباتها، والباء التي نفى بها الدخول هي باء المعاوضة والمقابلة التي في نحو قولهم: اشتريت هذا بهذا، فأخبر النبي ﷺ أن دخول الجنة ليس في مقابلة عمل أحد، وأنه لو لا تغمد الله سبحانه لعبده برحمته، لما أدخله الجنة، فليس عمل العبد وإن تناهى موجبا بمجرد دخوله الجنة، ولا عوضا لها، فإن أعماله وإن وقعت منه على الوجه الذي يحبه الله ويرضاه، فهي لا تقاوم نعمة الله التي أنعم بها عليه في دار الدنيا، ولا تعادلها؛ بل لو حاسبه لوقعت أعماله كلها في مقابلة اليسير من نعمه، وتبقى بقية النعم مقتضية لشكرها، فلو عذبه في هذه الحالة لعذبه وهو غير ظالم له، ولو رحمه لكانت رحمته خيرا له من عمله»^(٤).

وقال أيضًا بعد ذكره للآيات المتقدم ذكرها وما في معناها: «وهذا في القرآن

(١) شرح مسلم (١٧ / ١٣١-١٣٣).

(٢) الزخرف: الآية (٧٢).

(٣) النحل: الآية (٣٢).

(٤) مفتاح دار السعادة (١ / ١١٩-١٢٠).

كثير، يبين أن الجنة ثوابهم وجزاؤهم، فكيف يقال: لا تكون نعمه ثوابا على الإطلاق، بل لا تكون نعمه تعالى في مقابلة الأعمال، والأعمال ثمنها لها، فإنه لن يدخل أحدا الجنة عمله، ولا يدخلها أحد إلا بمجرد فضل الله ورحمته، وهذا لا ينافي ما تقدم من النصوص، فإنها إنما تدل على أن الأعمال أسباب، لا أعواض وأثمان، والذي نفاه النبي ﷺ في الدخول بالعمل، هو نفي استحقاق العوض ببذل عوضه، فالمثبت بآء السببية، والمنفي بآء المعاوضة والمقابلة، وهذا فصل الخطاب في هذه المسألة»^(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَأَرْتَقِبْ
إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

أي: إنما يسرنا هذا القرآن الذي أنزلناه سهلاً واضحاً بيناً جلياً، بلسانك الذي هو أفصح اللغات وأجلاها وأحلاها وأغلاها^(١)؛ ليتذكر هؤلاء المشركون الذين أرسلناك إليهم بعبره وحججه، ويتعظوا بعظاته، ويتفكروا في آياته إذا أنت تتلوه عليهم، فينبوا إلى طاعة ربهم، ويدعوا للحق عند تبينهموه^(٢).

قال القرطبي: ونظيره: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٧﴾﴾^(٣) فختتم السورة بالحث على اتباع القرآن وإن لم يكن مذكوراً، كما قال في مفتتح السورة: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴿٤﴾﴾، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿٥﴾﴾^(٤)، ﴿٥٠﴾^(٥).

قال ابن كثير: «ثم لما كان مع هذا الوضوح والبيان من الناس من كفر وخالف وعاند، قال الله تعالى لرسوله ﷺ مسلماً له وواعداً له بالنصر، ومتوعداً لمن كذبه بالعطب والهلاك: ﴿فَأَرْتَقِبْ﴾ أي: انتظر ﴿إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾ أي: فسيعلمون لمن تكون النصر والظفر وعلو الكلمة في الدنيا والآخرة، فإنها لك يا محمد ولإخوانك من النبيين والمرسلين، ومن اتبعكم من المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٦﴾﴾^(٦)، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمْ

(١) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٦٢).

(٢) جامع البيان (٢٥ / ١٣٨).

(٣) القمر: الآية (١٧).

(٤) الدخان: الآية (٣).

(٥) القدر: الآية (١).

(٦) الجامع لأحكام القرآن (١٦ / ١٠٣).

(٧) المجادلة: الآية (٢١).

الْلَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ ﴿١﴾ «(٢)» .

قال القرطبي : «أي : انتظر ما وعدتك من النصر عليهم ، إنهم منتظرون لك الموت . حكاة النقاش .

وقيل : انتظر الفتح من ربك إنهم منتظرون بزعمهم قهرك . وقيل : انتظر أن يحكم الله بينك وبينهم ، فإنهم ينتظرون بك ريب الحدثان . والمعنى متقارب . وقيل : ارتقب ما وعدتك من الثواب ، فإنهم كالمنتظرين لما وعدتهم من العقاب . وقيل : ارتقب يوم القيامة فإنه يوم الفصل ، وإن لم يعتقدوا وقوع القيامة ، جعلوا كالمرتقبين لأن عاقبتهم ذلك . والله تعالى أعلم» (٣) .

* * *

(١) غافر : الآيتان (٥١-٥٢) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٦٢) .

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٦ / ١٠٣) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الجاثية

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾
حم ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ
﴿٤﴾ وَاخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ
مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «قد تقدم بياننا في معنى قوله: (حم). وأما قوله: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ﴾ فإن معناه: هذا تنزيل القرآن من عند الله ﴿الْعَزِيزِ﴾ في انتقامه من أعدائه ﴿الْحَكِيمِ﴾ في تدبيره أمر خلقه.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٣﴾ يقول -تعالى ذكره-: إن في السموات السبع اللاتي منهنّ نزول الغيث، والأرض التي منها خروج الخلق أيها الناس ﴿لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول: لأدلة وحججا للمصدقين بالحجج إذا تبينوها ورأوها..

قوله تعالى: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وفي خلق الله إياكم أيها الناس، وخلق ما تفرّق في الأرض من دابة تدب عليها من غير جنسكم ﴿آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يعني: حججا وأدلة لقوم يوقنون بحقائق الأشياء، فيقرّون بها، ويعلمون صحتها..

قوله تعالى: ﴿وَاخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفَ الرِّيحِ ؕ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٥﴾ يقول -تبارك وتعالى-: ﴿وَاخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ أيها الناس، وتعاقبهما عليكم، هذا بظلمته وسواده، وهذا بنوره وضيائه ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ﴾ وهو الغيث الذي به تخرج الأرض أرزاق العباد وأقواتهم، وإحيائه الأرض بعد موتها: يقول: فأثبت ما أنزل من السماء من الغيث ميت الأرض، حتى اهتزت بالنبات والزرع من بعد موتها؛ أي: من بعد جدوبها وقحوطها ومصيرها دائرة لا نبت فيها ولا زرع.

وقوله: ﴿وَتَصْرِيفَ الرِّيحِ﴾ يقول: وفي تصريفه الرياح لكم شمالاً مرة، وجنوباً أخرى، وصباً أحياناً، ودبوراً أخرى لمنافعكم. وقد قيل: عنى بتصريفها: بالرحمة مرة، وبالعذاب أخرى..

وقوله: ﴿آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: في ذلك أدلة وحجج لله على خلقه، لقوم يعقلون عن الله حججه، ويفهمون عنه ما وعظهم به من الآيات والعبر^(١).

قال ابن كثير: «يرشد تعالى خلقه إلى التفكير في آلائه ونعمه، وقدرته العظيمة التي خلق بها السموات والأرض، وما فيهما من المخلوقات المختلفة الأجناس والأنواع من الملائكة والجن والإنس، والدواب والطيور والوحوش والسباع والحشرات، وما في البحر من الأصناف المتنوعة، واختلاف الليل والنهار في تعاقبهما دائبين لا يفتران، هذا بظلامه وهذا بضيائه، وما أنزل الله تعالى من السحاب من المطر في وقت الحاجة إليه، وسماه رزقاً؛ لأن به يحصل الرزق، ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: بعد ما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء.

وقوله: ﴿وَتَصْرِيفَ الرِّيحِ﴾ أي: جنوباً وشاماً، ودبوراً وصباً، بحرية وبرية، ليلية ونهارية. ومنها ما هو للمطر، ومنها ما هو للقاح، ومنها ما هو غذاء للأرواح، ومنها ما هو عقيم لا ينتج.

وقال أولاً: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ثم ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ثم ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ وهو ترقُّ من حال شريف إلى ما هو أشرف منه وأعلى، وهذه الآيات شبيهة بآية البقرة وهي قوله:

(١) جامع البيان (٢٥ / ١٣٩ - ١٤١).

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾^(١) ﴿٢﴾.

قال السعدي: «يخبر تعالى خبراً يتضمن الأمر بتعظيم القرآن والاعتناء به، وأنه ﴿تَنْزِيلٌ﴾ ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ المألوه المعبود، لما اتصف به من صفات الكمال، وانفرد به من النعم، الذي له العزة الكاملة، والحكمة التامة.

ثم أيد ذلك بما ذكره من الآيات الأفقية والنفسية، من خلق السموات والأرض، وما بث فيهما من الدواب، وما أودع فيهما من المنافع، وما أنزل الله من الماء الذي يحيي به الله البلاد والعباد.

فهذه كلها آيات بينات، وأدلة واضحات على صدق هذا القرآن العظيم، وصحة ما اشتمل عليه من الحكم والأحكام، ودالات أيضاً على ما لله تعالى من الكمال وعلى البعث والنشور»^(٣).

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآيات الكريمة، من أول سورة الجاثية ستة براهين من براهين التوحيد، الدالة على عظمته وجلاله، وكمال قدرته، وأنه المستحق للعبادة وحده تعالى.

الأول منها: خلقه السماوات والأرض. الثاني: خلقه الناس. الثالث: خلقه الدواب. الرابع: اختلاف الليل والنهار. الخامس: إنزال الماء من السماء وإحياء الأرض به. السادس: تصريف الرياح.

وذكر أن هذه الآيات والبراهين، إنما ينتفع بها المؤمنون، الموقنون الذين يعقلون عن الله حججه وآياته، فكأنهم هم المختصون بها دون غيرهم، ولذا قال: ﴿لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، ثم قال: ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، ثم قال: ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

وهذه البراهين الستة المذكورة في أول هذه السورة الكريمة، جاءت موضحة في آيات كثيرة جداً كما هو معلوم.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٤٩).

(١) البقرة: الآية (١٦٤).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٨).

أما الأول منها : وهو خلقه السموات والأرض ، المذكور في قوله : ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣) ، فقد جاء في آيات كثيرة ، كقوله تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ (٦) وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) ﴿١١﴾ وقوله تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (٢) الآية ، وقوله : ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٥) ﴿٣﴾ الآية ، وقوله : ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (٤) الآية ، وقوله : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (٥) ، وقوله : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ (٦) ، وقوله : ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ (٧) ، وقوله تعالى : ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (٤٧) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُهَيِّدُونَ (٤٨) ﴿٨﴾ ، وقوله تعالى : ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ (١) إلى قوله : ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ (١٢) ﴿٩﴾ والآيات بمثل ذلك كثيرة جدًا معروفة .

وأما الثاني منها : وهو خلقه الناس المذكور في قوله : ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾ ، فقد جاء موضحة في آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ (٢٠) ﴿١١﴾ ، وقوله : ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٢١) ﴿١١﴾ الآية ، وقوله تعالى عن نبيه نوح : ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ (٣٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (٣٤) ﴿١٢﴾ ، وقوله تعالى : ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصَرِّفُونَ﴾ (١٣) ، وقوله : ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٢١) ﴿١٤﴾ ، والآيات بمثل ذلك كثيرة ومعلومة .

وأما الثالث منها : وهو خلقه الدواب المذكور في قوله : ﴿وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ﴾ ، فقد

(١) ق : الآيات (٦-٨) .

(٣) يونس : الآية (١٠١) .

(٥) الروم : الآية (٢٢) والشورى : الآية (٢٩) .

(٧) غافر : الآية (٦٤) .

(٩) النبا : الآيات (٦-١٢) .

(١١) البقرة : الآية (٢١) .

(١٣) الزمر : الآية (٦) .

(١٤) الذاريات : الآية (٢١) .

(٢) سبأ : الآية (٩) .

(٤) الأعراف : الآية (١٨٥) .

(٦) البقرة : الآية (٢٢) .

(٨) الذاريات : الآيات (٤٧-٤٨) .

(١٠) الروم : الآية (٢٠) .

(١٢) نوح : الآيات (١٣-١٤) .

جاء أيضًا موضحة في آيات كثيرة أيضًا من كتاب الله ، كقوله تعالى في سورة الشورى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ۝١٩﴾^(١) ، وقوله تعالى في البقرة : ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ۝٢﴾^(٢) الآية ، وقوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٤٥﴾^(٣) ، وقوله تعالى : ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمِينَةَ أَزْوَاجٍ ۝٤﴾^(٤) والآيات بمثل ذلك كثيرة ومعلومة .

وأما الرابع منها : وهو اختلاف الليل والنهار المذكور في قوله : ﴿وَاخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ ، فقد جاء موضحة أيضًا في آيات كثيرة من كتاب الله ، كقوله تعالى في البقرة : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ إلى قوله : ﴿لَا يَتَذَكَّرُ لِقَوْمٍ يُعْقِلُونَ﴾^(٥) . وقوله تعالى في آل عمران : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝١٩٠﴾^(٦) ، وقوله تعالى في فصلت : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۝٧﴾^(٧) الآية ، وقوله تعالى : ﴿وَأَيَّاهُ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ۝٧٧﴾^(٨) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾^(٩) الآية . وقوله تعالى : ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ۝٤٤﴾^(١٠) ، وقوله تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَظُلُمٍ ۝٧١﴾^(١١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٧٢﴾^(١٢) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٣﴾^(١٣) ، وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٨٠﴾^(١٤) والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

(٢) البقرة : الآية (١٦٤) .
(٤) الزمر : الآية (٦) .
(٦) آل عمران : الآية (١٩٠) .
(٨) يس : الآيتان (٣٧-٣٨) .
(١٠) القصص : الآيات (٧١-٧٣) .

(١) الشورى : الآية (٢٩) .
(٣) النور : الآية (٤٥) .
(٥) البقرة : الآية (١٦٤) .
(٧) فصلت : الآية (٣٧) .
(٩) النور : الآية (٤٤) .
(١١) المؤمنون : الآية (٨٠) .

وأما الخامس منها وهو: إنزال الماء من السماء، وإحياء الأرض به، وإنبات الرزق فيها المذكور في قوله: ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ، فقد جاء موضحاً أيضاً في آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى في البقرة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ، إلى قوله: ﴿لَا يَنْتَظِرُ لِقَوْمِهِمْ يُعَاقِلُونَ﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾^(٢) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا^(٣) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا^(٤) فَأَبْثْنَا فِيهَا حَبًّا^(٥) وَعِنَبًا^(٦) إِلَى قَوْلِهِ: ﴿مَنْعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾^(٧) وإيضاح هذا البرهان باختصار: أن قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾^(٢) أمر من الله تعالى لكل إنسان مكلف، أن ينظر ويتأمل في طعامه كالخبز الذي يأكله، ويعيش به من خلق الماء الذي كان سبباً لنباته، هل يقدر أحد غير الله أن يخلقه؟ الجواب: لا. ثم هب أن الماء قد خلق بالفعل، هل يقدر أحد غير الله أن ينزله إلى الأرض، على هذا الوجه الذي يحصل به النفع، من غير ضرر بإنزاله على الأرض رشا صغيراً، حتى تروى به الأرض تدريجاً، من غير أن يحصل به هدم، ولا غرق، كما قال تعالى: ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾^(٨)؟ الجواب: لا. ثم هب أن الماء قد خلق فعلاً، وأنزل في الأرض على ذلك الوجه الأتم الأكمل، هل يقدر أحد غير الله أن يشق الأرض، ويخرج منها مسمار النبات؟ الجواب: لا. ثم هب أن النبات خرج من الأرض، وانشقت عنه، فهل يقدر أحد غير الله أن يخرج السنبل من ذلك النبات؟ الجواب: لا. ثم هب أن السنبل خرج من النبات، فهل يقدر أحد غير الله أن ينمي حبه، وينقله من طور إلى طور حتى يدرك ويكون صالحاً للغذاء والقوت؟ الجواب: لا.

وقد قال تعالى: ﴿انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(٩)، وكقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا^(١٠) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا^(١١) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا^(١٢)﴾. وقوله تعالى: ﴿وَأَيُّ لَّهُمُ الْأَرْضُ الَّتِي أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾^(١٣)، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

(١) البقرة: الآية (١٦٤).

(٢) عبس: الآيات (٢٤-٣٢).

(٣) النور: الآية (٤٣)، والروم: الآية (٤٩).

(٤) الأنعام: الآية (٩٩).

(٥) النبأ: الآيات (١٤-١٦).

(٦) يس: الآية (٣٣).

واعلم أن إطلاقه تعالى الرزق على الماء، في آية الجاثية هذه، قد أوضحنا وجهه في سورة المؤمن في الكلام على قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾^(١) الآية.

وأما السادس منها: وهو تصريف الرياح المذكور في قوله: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ﴾، فقد جاء موضحاً أيضاً في آيات من كتاب الله، كقوله في البقرة: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(٢) وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَّاحٍ﴾^(٤) إلى غير ذلك من الآيات.

تنبيه: اعلم أن هذه البراهين العظيمة، المذكورة في أول سورة الجاثية، هذه ثلاثة منها من براهين البعث، التي يكثر في القرآن العظيم الاستدلال بها على البعث كثرة مستفيضة. وقد أوضحناها في مواضع من هذا الكتاب المبارك، في سورة البقرة وسورة النحل وغيرهما، وأحلنا عليها مراراً كثيرة من هذا الكتاب المبارك وسنعيد طرفاً منها هنا لأهميتها إن شاء الله تعالى.

والأول من البراهين المذكورة هو: خلق السماوات والأرض، المذكور هنا في سورة الجاثية هذه ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّمُؤْمِنِينَ﴾^(٥) لأن خلقه -جل وعلا- للسماوات والأرض، من أعظم البراهين على بعث الناس بعد الموت؛ لأن من خلق الأعظم الأكبر، لا شك في قدرته على خلق الأضعف الأصغر.

والآيات الدالة على هذا كثيرة كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾^(٥) أي: ومن قدر على خلق الأكبر فلا شك أنه قادر على خلق الأصغر، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾^(٦)، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٧)، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ

(٢) البقرة: الآية (١٦٤).

(٤) الحجر: الآية (٢٢).

(٦) يس: الآية (٨١).

(١) غافر: الآية (١٣).

(٣) الروم: الآية (٤٦).

(٥) غافر: الآية (٥٧).

(٧) الأحقاف: الآية (٣٣).

مِثْلَهُمْ ﴿١﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿مَنْ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغَطَّشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَمَ عَلَيْكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ (٢).

ونظير آية النازعات هذه قوله تعالى في أول الصافات: ﴿فَأَسْتَفْتِيهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا﴾ (٣) الآية، لأن قوله: ﴿أَمْ مَنْ خَلَقْنَا﴾ يشير به إلى خلق السماوات والأرض، وما ذكر معهما المذكور في قوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ﴿٥﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَأَتَّبَعُهُمْ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ (٤).

وأما الثاني من البراهين المذكورة: فهو خلقه تعالى للناس المرة الأولى، لأن من ابتدع خلقهم على غير مثال سابق، لا شك في قدرته على إعادته خلقهم مرة أخرى كما لا يخفى.

والاستدلال بهذا البرهان على البعث كثير جدًا في كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تُرَابٍ﴾ (٥) إلى آخر الآيات، وقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ (٦)، وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٨١﴾ أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٨٢﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ﴿٨٣﴾﴾ (٧) الآية، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ ﴿٨٤﴾﴾ (٨) الآية، وقوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴿٩٠﴾﴾ (٩)، وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعِندَنَا عَلْتِنًا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٩٠﴾﴾ (١٠)، وقوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٩١﴾﴾ (١١)، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٩٢﴾﴾ (١٢) وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٩٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُنْفَخَتَانِ ﴿٩٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ

(٢) النازعات: الآيات (٢٧-٣٣).

(٤) الصافات: الآيات (٥-١٠).

(٦) يونس: الآية (٧٨-٧٩).

(٨) الروم: الآية (٢٧).

(١٠) الأنبياء: الآية (١٠٤).

(١٢) الواقعة: الآية (٦٢).

(١) الإسراء: الآية (٩٩).

(٣) الصافات: الآية (١١).

(٥) الحج: الآية (٥).

(٧) مريم: الآيات (٦٦-٦٨).

(٩) الإسراء: الآية (٥١).

(١١) ق: الآية (١٥).

﴿٤٧﴾ وقوله تعالى : ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿٤٨﴾ أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُُمْتَنَى ﴿٤٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴿٥٠﴾ جَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٥١﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يُخْرِجَ الْمَوْتَى ﴿٥٢﴾﴾ .

وقوله تعالى : ﴿وَاللَّيْلِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ إلى قوله : ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ ﴿٧﴾﴾ ^(٣) يعنى أي شيء يحملك على التكذيب بالدين ؛ أي : بالبعث والجزاء ، وقد علمت أنني خلقتك الخلق الأول في أحسن تقويم ، وأنت تعلم أنه لا يخفى على عاقل أن من ابتدع الإيجاد الأول ، لا شك في قدرته على إعادته مرة أخرى ، إلى غير ذلك من الآيات .

وأما البرهان الثالث منها : وهو إحياء الأرض بعد موتها المذكور في قوله تعالى في سورة الجاثية هذه : ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ؛ فإنه يكثر الاستدلال به أيضا على البعث في القرآن العظيم ؛ لأن من أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الناس بعد موتهم ، لأن الجميع أحياء بعد موت . فمن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُخْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ وقوله تعالى : ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخْرِجُ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥١﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٥٢﴾﴾ وقوله تعالى : ﴿فَانْظُرْ إِلَى مَآثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخْرِجُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُخْيِ الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٣﴾﴾ ، وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ .

فقوله تعالى : ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ أي : نبعثهم من قبورهم أحياء ، كما أخرجنا تلك الثمرات بعد عدمها ، وأحيينا بإخراجها ذلك البلد الميت ، وقوله

(١) النجم : الآيات (٤٥-٤٧) .

(٣) التين : الآيات (١-٧) .

(٥) الحج : الآيات (٥-٧) .

(٧) الأعراف : الآية (٥٧) .

(٢) القيامة : الآيات (٣٦-٤٠) .

(٤) فصلت : الآية (٣٩) .

(٦) الروم : الآية (٥٠) .

تعالى : ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾^(١) ؛ أي : تخرجون من قبوركم أحياء بعد الموت ، وقوله تعالى : ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتَةً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾^(٢) إلى غير ذلك من الآيات^(٣) .

* * *

(١) الروم : الآية (١٩) .

(٢) ق : الآية (١١) .

(٣) أضواء البيان (٧ / ٣٢٩-٣٣٧) .

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ
وَأَيِّنَّه يُؤْمِنُونَ ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : « يقول - تعالى ذكره - : هذه الآيات والحجج يا محمد من ربك على خلقه نتلوها عليك بالحق : يقول : نخبرك عنها بالحق لا بالباطل ، كما يخبر مشركو قومك عن آلهتهم بالباطل ، أنها تقربهم إلى الله زُلْفَى ، ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَأَيِّنَّه يُؤْمِنُونَ ﴾ : يقول - تعالى ذكره - للمشركين به : فبأي حديث أيها القوم بعد حديث الله هذا الذي يتلوه عليكم ، وبعد حججه عليكم ، وأدلته التي دلکم بها على وحدانيته ، من أنه لا رب لكم سواه ، تصدقون ، إن كنتم كذبتُم لحديثه وآياته . وهذا التأويل على مذهب قراءة من قرأ (تُؤْمِنُونَ) على وجه الخطاب من الله بهذا الكلام للمشركين ، وذلك قراءة عامة قرأ الكوفيون .

وأما على قراءة من قرأه ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ بالياء ، فإن معناه : فبأي حديث يا محمد بعد حديث الله الذي يتلوه عليك ، وآياته هذه التي نبه هؤلاء المشركين عليها ، وذكرهم بها ، يؤمن هؤلاء المشركون ^(١) .

وقال ابن كثير : « يقول تعالى : هذه آيات الله - يعني القرآن بما فيه من الحجج والبيانات - ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾ أي : متضمنة الحق من الحق ، فإذا كانوا لا يؤمنون بها ولا ينقادون لها ، فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون ؟ ! » ^(٢) .

قال الشنقيطي : « قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾ أشار - جل وعلا - لنبيه ﷺ إلى آيات هذا القرآن العظيم ، وبين لنبيه أنه يتلوها عليه ، متلبسة بالحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه .

وما ذكره - جل وعلا - في آية الجاثية هذه ، ذكره في آيات أخر بلفظه كقوله تعالى

(١) جامع البيان (٢٥ / ١٤١) بتصرف .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧ / ٢٥٠) .

في البقرة: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمَالِكِينَ﴾ (٢٥) ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١) وقوله تعالى في آل عمران: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْضَتُوا وُجُوهَهُمْ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١٧) ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ (١٨) ﴿(٢) وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿تِلْكَ﴾ بمعنى هذه.

ومن أساليب اللغة العربية إطلاق الإشارة إلى البعيد على الإشارة إلى القريب كقوله: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ (٣) بمعنى هذا الكتاب. كما حكاه البخاري عن أبي عبيدة معمر بن المثنى، ومن شواهد قول خفاف بن ندبة السلمي:

فإن تك خيلي قد أصيب صميمها فعمداً على عيني تيممت مالكا
أقول له والرمح بأطر مننه تأمل خفافاً إنني أنا ذلكا

يعني: أنا هذا. وقد أوضحنا هذا المبحث وذكرنا أوجهه في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في أول سورة البقرة.

وقوله تعالى: ﴿نَتْلُوهَا﴾ أي نقرأها عليك. وأسند - جل وعلا - تلاوتها إلى نفسه؛ لأنها كلامه الذي أنزله على رسوله بواسطة الملك، وأمر الملك أن يتلوه عليه مبلغاً عنه - جل وعلا -. ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١١) ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (١٧) ﴿فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَلْبَحْ قُرْآنَهُ﴾ (١٨) ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (١٩) ﴿(٤)﴾، فقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأَهُ﴾ أي: قرأه عليك المرسل به، من قبلنا مبلغاً عنا، وسمعته منه، ﴿فَأَلْبَحْ قُرْآنَهُ﴾ أي: فاتبع قراءته وقرأه كما سمعته يقرؤه، وقد أشار تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ (٥). وسماعه ﷺ القرآن من الملك المبلغ عن الله كلام الله، وفهمه له، هو معنى تنزله إياه على قلبه في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (٦)، وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ لِنَزِيلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٢٢) ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ (١٩٣) ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ (١٩٤) ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (١٩٥) ﴿(٧)﴾.

(٢) آل عمران: الآيتان (١٠٧-١٠٨).

(٤) القيامة: الآيات (١٦-١٩).

(٦) البقرة: الآية (٩٧).

(١) البقرة: الآيتان (٢٥١-٢٥٢).

(٣) البقرة: الآية (٢).

(٥) طه: الآية (١١٤).

(٧) الشعراء: الآيات (١٩٢-١٩٥).

وقوله تعالى في هذه الآية : ﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ ﴾ يعني آياته الشرعية الدينية . واعلم أن لفظ الآية ، يطلق في اللغة العربية إطلاقين ، وفي القرآن العظيم إطلاقين أيضاً . أما إطلاقاه في اللغة العربية ، فالأول منهما وهو المشهور في كلام العرب ، فهو إطلاق الآية بمعنى العلامة ، وهذا مستفيض في كلام العرب ، ومنه قول نابغة ذبيان :

توهمت آيات لها فعرفتها لستة أعوام وذا العام سابع

ثم بين أن مراده بالآيات علامات الدار في قوله بعده :

رماد ككحل العين لآيا أبينه ونؤى كجذم الحوض أثلم خاشع

وأما الثاني منهما فهو إطلاق الآية بمعنى الجماعة ، يقولون : جاء القوم بأيّتهم ؛ أي : بجماعتهم . ومنه قول برج بن مسهر :

خرجنا من النقبين لاحي مثلنا بآياتنا نزجي اللقاح المطافلا

وقوله : بآياتنا يعني بجماعتنا .

وأما إطلاقاه في القرآن العظيم ، فالأول منهما إطلاق الآية الشرعية الدينية ، كآيات هذا القرآن العظيم ، ومنه قوله تعالى هنا : ﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۖ الْآيَةُ .

وأما الثاني منهما ؛ فهو إطلاق الآية على الآية الكونية القدرية ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (١) . أما الآية الكونية القدرية ، فهي بمعنى الآية اللغوية التي هي العلامة ، لأن الآيات الكونية علامات قاطعة ، على أن خالقها هو الرب المعبود وحده ، وأما الآية الشرعية الدينية ، فقال بعض العلماء : إنها أيضاً من الآية التي هي العلامة ، لأن آيات هذا القرآن العظيم ، علامات على صدق من جاء بها ، لما تضمنته من برهان الإعجاز ، أو لأن فيها علامات يعرف بها مبدأ الآيات ومنتهاها . وقال بعض العلماء : إنها من الآية بمعنى الجماعة ، لتضمنها جملة وجماعة من كلمات القرآن وحروفه (٢) .

(١) آل عمران : الآية (١٩٠) .

(٢) أضواء البيان (٧ / ٣٣٧-٣٣٨) .

قوله تعالى: ﴿وَيَلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : الوادي السائل من صديد أهل جهنم، لكل كذاب ذي إثم بربه، مفتر عليه ﴿يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنَلَّى عَلَيْهِ﴾ يقول: يسمع آيات كتاب الله تُقرأ عليه ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ على كفره وإثمه فيقيم عليه غير تائب منه، ولا راجع عنه ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ على ربه أن يذعن لأمره ونهيه ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ يقول: كأن لم يسمع ما تلي عليه من آيات الله بإصراره على كفره ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ يقول: فبشر يا محمد هذا الأفَّاك الأثيم الذي هذه صفته بعذاب من الله له. ﴿أَلِيمٍ﴾: يعني موجه في نار جهنم يوم القيامة»^(١).

قال ابن كثير: «ثم قال: ﴿وَيَلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾﴾ أي: أفَّاك في قوله كذاب، حلاف مهين أثيم في فعله وقيله، كافر بآيات الله؛ ولهذا قال: ﴿يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنَلَّى عَلَيْهِ﴾ أي: تقرأ عليه ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ أي: على كفره وجحوده استكباراً وعناداً ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أي: كأنه ما سمعها، ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: فأخبره أن له عند الله يوم القيامة عذاباً أليماً موجعاً»^(٢).

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من أن من كفر بالله وبآيات الله ولم يؤمن بذلك مع ظهور الأدلة والبراهين على لزوم الإيمان بالله وآياته أنه يستبعد، أن يؤمن بشيء آخر؛ لأنه لو كان يؤمن بحديث لآمن بالله وبآياته لظهرت الأدلة على ذلك، وأن من لم يؤمن بآيات الله متوعد بالويل، وأنه أفَّاك أثيم، والأفَّاك كثير الإفك وهو أسوأ الكذب، والأثيم: هو مرتكب الإثم بقلبه وجوارحه، فهو مجرم بقلبه ولسانه

(١) جامع البيان (٢٥ / ١٤٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧ / ٢٥٠).

وجوارحه ، قد ذكره تعالى في غير هذا الموضع فتوعد المكذبين لهذا القرآن ، بالويل يوم القيامة ، وبين استبعاد إيمانهم بأي حديث بعد أن لم يؤمنوا بهذا القرآن ، وذلك بقوله في آخر المرسلات : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ازْكُمُوا لَا يَرْكُمُونَ ۖ﴾ (٤٨) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۖ﴾ (٤٩) ﴿فِي أَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ (١) فقوله تعالى : ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۖ﴾ (٤٩) كقوله هنا : ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۖ﴾ . وقد كرر تعالى وعيد المكذبين بالويل في سورة المرسلات كما هو معلوم . وقوله في آخر المرسلات : ﴿فِي أَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ كقوله هنا في الجاثية : ﴿فِي أَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ .

ومعلوم أن الإيمان بالله على الوجه الصحيح يستلزم الإيمان بآياته ، وأن الإيمان بآياته كذلك يستلزم الإيمان به تعالى ، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنْثَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يَصِرُ مُسْتَكْبِرًا ۚ كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرُهُ بِعَذَابِ إِلِيمٍ ۖ﴾ (٨) يدل على أن من يسمع القرآن يتلى ، ثم يصير على الكفر والمعاصي ، في حالة كونه متكبراً عن الانقياد إلى الحق ، الذي تضمنته آيات القرآن كأنه لم يسمع آيات الله ، له البشارة يوم القيامة بالعذاب الليم وهو الخلود في النار .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضعاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى في لقمان : ﴿وَإِذَا نُتِيَ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا ۚ كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا ۚ كَانَ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرُهُ بِعَذَابِ إِلِيمٍ ۖ﴾ (٧) (٢) ، وقوله تعالى في الحج : ﴿وَإِذَا نُتِيَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَشِرُّ إِلَيْهِمْ ۖ﴾ (٧١) (٣) ، وقوله تعالى : ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۖ﴾ (١٦) (٤) ، فقوله تعالى عنهم : ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ يدل على أنهم ما كانوا يبالون بما يتلو عليهم النبي ﷺ من الآيات والهدى .

وقد ذكرنا كثيراً من الآيات المتعلقة بهذا المبحث في سورة فصلت ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۖ﴾ (١) وقالوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَآ

(١) المرسلات : الآيات (٤٨-٥٠) .

(٢) لقمان : الآية (٧) .

(٣) الحج : الآية (٧٢) .

(٤) محمد : الآية (١٦) .

إِلَيْهِ فِي ءَاذَانِنَا وَقَرْ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴿١﴾ الآية .

وقوله تعالى في هذه الآية : ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ خففت فيه لفظة كأن ، ومعلوم أن كأن إذا خففت كان اسمها مقدرًا وهو ضمير الشأن ، والجملة خبرها كما قال في الخلاصة :

وخففت كأن أيضًا فنوي منصوبها وثابتًا أيضًا روي

وقد قدمنا في أول سورة الكهف : أن البشارة تطلق غالبًا على الإخبار بما يسر ، وأنها ربما أطلقت في القرآن وفي كلام العرب على الإخبار بما يسوء أيضًا ، وأوضحنا ذلك بشواهد العربية .

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿وَيَلُّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيرٍ ﴿٧﴾﴾ ، قال بعض العلماء : وَيَلُّ واد في جهنم ، والأظهر أن لفظة وَيَلُّ كلمة عذاب وهلاك ، وأنها مصدر لا لفظ له من فعله ، وأن المسوغ للابتداء بها مع أنها نكرة كونها في معرض الدعاء عليهم بالهلاك^(٢) .

* * *

(١) فصلت : الآيتان (٤-٥) .

(٢) أضواء البيان (٧ / ٣٤٠-٣٤٢) .

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٤١﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَإِذَا عَلِمَ﴾ هذا الأفاك الأثيم من آيات الله ﴿شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾: يقول: اتخذ تلك الآيات التي علمها هزوا، يسخر منها، وذلك كفعل أبي جهل حين نزلت ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ ۝٤٢ طَعَامُ الْأَثِيمِ ۝٤٣﴾^(١)؛ إذ دعا بتمر وزبد فقال: تزقموا من هذا، ما يعدكم محمد إلا شهدا، وما أشبه ذلك من أفعالهم.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يقول -تعالى ذكره-: هؤلاء الذين يفعلون هذا الفعل، وهم الذين يسمعون آيات الله تُتلى عليهم ثم يصرون على كفرهم استكبارا، ويتخذون آيات الله التي علموها هزوا، لهم يوم القيامة من الله عذاب مهين، يهينهم ويدلهم في نار جهنم، بما كانوا في الدنيا يستكبرون عن طاعة الله واتباع آياته، وإنما قال -تعالى ذكره-: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ فجمع. وقد جرى الكلام قبل ذلك [على الأفراد] ردّا للكلام إلى معنى الكل في قوله: ﴿وَيَلْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧﴾^(٢).

وقال ابن كثير: «﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ أي: إذا حفظ شيئا من القرآن كفر به واتخذ سخرى وهزوا، ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: في مقابلة ما استهان بالقرآن واستهزأ به»^(٣).

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة توعده الأفاك الأثيم بالويل، والبشارة بالعذاب الأليم، وقد قدمنا قريبا أن من صفاته، أنه إذا سمع آيات الله تتلى عليه أصر مستكبرا كأن لم يسمعها، وذكر في هذه الآية الكريمة أنه إذا علم من آيات الله شيئا اتخذها هزوا؛ أي: مهزوءا بها، مستخفا بها، ثم توعده على

(١) الدخان: الآيتان (٤٣-٤٤).

(٢) جامع البيان (٢٥ / ١٤٢).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧ / ٢٥٠).

ذلك بالعذاب المهين .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الكفار يتخذون آيات الله هزواً ، وأنهم سيعذبون على ذلك يوم القيامة ، قد بينه تعالى في غير هذا الموضع ، كقوله تعالى في آخر الكهف : ﴿ ذَلِكْ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُؤًا ﴾ (١٠٦) ، وقوله تعالى في الكهف أيضاً : ﴿ وَبَجْدِلِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُؤًا ﴾ (٥٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴿ (٢) الآية ، وقوله تعالى في سورة الجاثية هذه : ﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَنُكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَصْرِينَ ﴾ (٣٤) ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُؤًا ﴿ (٣) الآية (٤) .

وقال أيضاً : وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ أي : لأن عذاب الكفار الذين كانوا يستهزئون بآيات الله لا يراد به إلا إهانتهم وخزيهم ، وشدة إيلاهم بأنواع العذاب ، وليس فيه تطهير ولا تمحيص لهم ، بخلاف عصاة المسلمين ، فإنهم وإن عذبوا فسيصرون إلى الجنة بعد ذلك العذاب . فليس المقصود بعذابهم مجرد الإهانة ؛ بل ليؤولوا بعده إلى الرحمة ودار الكرامة (٥) .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في النهي أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو

* عن عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ أنه كان ينهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو (٦) .

* فوائد الحديث :

قال القرطبي : « يعني بالقرآن : المصحف ، وقد جاء مفسرا في بعض الطرق .

(٢) الكهف : الآيتان (٥٦-٥٧) .

(٤) أضواء البيان (٧ / ٣٤٣) .

(١) الكهف : الآية (١٠٦) .

(٣) الجاثية : الآيتان (٣٤-٣٥) .

(٥) أضواء البيان (٧ / ٣٤٤) .

(٦) أخرجه أحمد (٢ / ٦-٧-١٠-٥٥-٦٣-٧٦-١٢٨) ، والبخاري (٦ / ١٦٤ / ٢٩٩٠) ، ومسلم (٣ / ١٨٦٩ /

١٤٩١ [٩٣]) واللفظ له ، وأبو داود (٣ / ٨٢ / ٢٦١٠) ، وابن ماجه (٢ / ٩٦١ / ٢٨٧٩-٢٨٨٠) .

وظاهر هذا النهي : تحريم السفر به مطلقا ، فتستوي فيه الجيوش والسرايا ، وهو مذهب مالك ، وقدماء أصحابه ، وسحنون ، وابن حبيب . وذهب أبو حنيفة وغيره : إلى الفرق بين الجيوش العظام فيجاز ذلك فيها ، وبين الصغار فيمنع ذلك فيها ؛ نظرا إلى العلة التي نص عليها في الحديث ، حيث قال : «فلاني لا آمن أن يناله العدو» ونيل العدو له في الجيوش العظام نادر . ولأصحاب القول الأول بعد تسليم العلة المذكورة التمسك بسد الذريعة ، وبأن نسيانه وسقوطه ليس نادرا^(١) .

قال أبو عمر : «وأجمع الفقهاء أن لا يسافر بالقرآن إلى أرض العدو في السرايا والعسكر الصغير المخوف عليهم»^(٢) .

قال البخاري : «وقد سافر النبي ﷺ وأصحابه في أرض العدو وهم يعلمون القرآن» .

قال الحافظ : «أشار البخاري بذلك إلى أن المراد بالنهي عن السفر بالقرآن ، السفر بالمصحف ، خشية أن يناله العدو ، لا السفر بالقرآن نفسه ، وقد تعقبه الإسماعيلي بأنه : لم يقل أحد إن من يحسن القرآن لا يغزو العدو في دارهم ، وهو اعتراض من لم يفهم مراد البخاري ، وادعى المهلب أن مراد البخاري بذلك تقوية القول بالتفرقة بين العسكر الكثير والطائفة القليلة ، فيجوز في تلك دون هذه والله أعلم»^(٣) .

قال أبو عمر : «واختلفوا في جواز ذلك في العسكر الكبير المأمون عليه ؛ قال مالك : لا يسافر بالقرآن إلى أرض العدو ، ولم يفرق بين العسكر الكبير والصغير . وقال أبو حنيفة : يكره أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو ، إلا في العسكر العظيم ، فإنه لا بأس بذلك»^(٤) .

قال النووي : «قوله : «نهى رسول الله ﷺ أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو» وفي الرواية الأخرى : «مخافة أن يناله العدو» ، وفي الرواية الأخرى : «فلاني لا آمن أن يناله العدو» فيه النهي عن المسافرة بالمصحف إلى أرض الكفار للعلة المذكورة

(٢) فتح البر (١١ / ٥٧) .

(١) المفهم (٣ / ٦٩٨-٦٩٩) .

(٣) الفتح (٦ / ١٦٤-١٦٥) .

(٤) فتح البر (١١ / ٥٧-٥٨) .

في الحديث، وهي خوف أن ينالوه فينتهكوا حرمة، فإن أمنت هذه العلة بأن يدخل في جيش المسلمين الظاهرين عليهم، فلا كراهة ولا منع منه حينئذ لعدم العلة، هذا هو الصحيح، وبه قال أبو حنيفة والبخاري وآخرون^(١).

قال ابن بطلال: «وقد أخبر الله أنه: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ﴾ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿لَا يَأْتِي سَفَرَهُ﴾ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾»^(٢) وهم الملائكة، وقال تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (٧٩)^(٣)، وهم الملائكة أيضاً، ففهم من هذا النذب إلى أن لا يمسّه عندنا إلا طاهر، وأن نهيه ﷺ عن السفر به إلى أرض العدو، ليس على وجه التحريم والفرض، وإنما هو على معنى النذب للإكرام للقرآن؛ لأن النبي ﷺ قد كتب إلى قيصر بآية إلى آخرها وهو يعلم أنهم نجس، وعلم أنهم يقرءونها، فصح أن نهيه عن ذلك في حال دون حال، وفي العساكر التي ليست مأمونة^(٤).

قال ابن بطلال: «... لأن بعض الناس زاد في الحديث: «مخافة أن يناله العدو»، وجعله من لفظ النبي ﷺ، ولم تصح هذه الزيادة عند مالك ولا عند البخاري، وإنما هي من قول مالك^(٥).

قال النووي: «وهذه العلة المذكورة في الحديث هي من كلام النبي ﷺ، وغلط بعض المالكية فزعم أنها من كلام مالك^(٦).

قال القاضي عياض: «وما ذكر مسلم في الروايات الآخر عنه ﷺ: «إني لا آمن أن يناله العدو» في الروايات الآخر، من قول النبي ﷺ لا من قول مالك، كما ظنه بعضهم وصححه، وإن كان جاء في الموطأ من رواية يحيى ابن يحيى الأندلسي، ويحيى بن بكير، وجماعة من قول مالك، فيحتمل أنه شك، هل هي من قول النبي ﷺ؟ فجعل بتحريه هذه الزيادة من كلامه على التفسير، وإلا فهي صحيحة من قول النبي ﷺ من رواية الثقات: إسماعيل بن أمية، وليث بن أبي سليمان، والضحاك بن عثمان، وعبد الله العمري، وأيوب وغيرهم. وقد رويت عن مالك متصلة من كلام النبي ﷺ، كرواية غيره من رواية عبد الرحمن بن مهدي، ومن رواية

(١) شرح مسلم (١٣ / ١٣).

(٢) عبس: الآيات (١٣-١٦).

(٣) الواقعة: الآية (٧٩).

(٤) شرح ابن بطلال (٥ / ١٥٠).

(٥) شرح ابن بطلال (٥ / ١٤٩).

(٦) شرح مسلم (١٣ / ١٣).

ابن وهب عنه^(١).

قال ابن عبد البر: «ومعلوم أن من تنزيه القرآن وتعظيمه إبعاده عن الأقدار والنجاسات، وفي كونه عند أهل الكفر تعريض له لذلك وإهانة له؛ وكلهم أنجاس لا يغتسلون من الجنابة، ولا يعافون الميتة»^(٢).

قال الكرمانى: «فإن قلت: قد كتب رسول الله ﷺ إلى هرقل بالقرآن، وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾^(٣) فما وجه التوفيق بينه وبين النهي عن المسافرة بالقرآن؟ قلت: النهي إنما هو عن السفر بالكل؛ إذ ذلك المكتوب لم يكن إلا مختلطاً من القرآن وغيره»^(٤).

قال النووي: «واتفق العلماء على أنه يجوز أن يكتب إليهم كتاب فيه آية أو آيات، والحجة فيه كتاب النبي ﷺ إلى هرقل»^(٥).

* * *

(١) الإكمال (٦ / ٢٨٢-٢٨٣).

(٢) فتح البر (١١ / ٥٨).

(٣) آل عمران: الآية (٦٤).

(٤) شرح البخاري (١٣ / ١٠-١١).

(٥) شرح مسلم (١٣ / ١٣).

قوله تعالى: ﴿مَنْ وَرَّآيَهُمْ جَهَنَّمَ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٠)

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : ومن وراء هؤلاء المستهزئين بآيات الله، يعني من بين أيديهم. وقد بينا العلة التي من أجلها قيل لما أمامك هو وراءك، فيما مضى بما أغنى عن إعادته؛ يقول: من بين أيديهم نار جهنم هم واردوها، ولا يغنيهم ما كسبوا شيئا؛ يقول: ولا يغني عنهم من عذاب جهنم إذا هم عذبوا به ما كسبوا في الدنيا، من مال وولد شيئا.

وقوله: ﴿وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يقول: ولا آلهتهم التي عبدوها من دون الله، ورؤساؤهم، وهم الذين أطاعوهم في الكفر بالله، واتخذوهم نصراء في الدنيا، تغني عنهم يومئذ من عذاب جهنم شيئا، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يقول: ولهم من الله يومئذ عذاب في جهنم عظيم»^(١).

قال ابن كثير: «ثم فسر العذاب الحاصل له يوم معاده فقال: ﴿مَنْ وَرَّآيَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ أي: كل من اتصف بذلك سيصيرون إلى جهنم يوم القيامة، ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا﴾ أي: لا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم، ﴿وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: ولا تغني عنهم الآلهة التي عبدوها من دون الله شيئا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾»^(٢).

وقال السعدي: «ثم قسم تعالى الناس بالنسبة إلى الانتفاع بآياته وعدمه إلى قسمين: قسم يستدلون بها ويتفكرون بها، وينتفعون فيرتفعون، وهم المؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، إيماننا تاما وصل بهم إلى درجة اليقين، فزكى منهم العقول، وازدادت به معارفهم وألبابهم وعلومهم.

(١) جامع البيان (٢٥ / ١٤٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧ / ٢٥٠).

وقسم يسمع آيات الله سماعا تقوم به الحجة عليه ، ثم يعرض عنها ويستكبر ، كأنه ما سمعها لأنها لم ترك قلبه ولا طهرته ؛ بل بسبب استكباره عنها ازداد طغيانه ، وأنه إذا علم من آيات الله شيئا اتخذها هزوا ، فتوعده الله تعالى بالويل فقال : ﴿ وَلَئِنْ لَكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيرٌ ۝٧ ﴾ أي : كذاب في مقاله ، أثيم في فعاله .

وأخبر أن له عذابا أليما ، وأن ﴿ مِّنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ تكفي في عقوبتهم البليغة ، وأنه ﴿ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا ﴾ من الأموال ﴿ شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ يستنصرون بهم ، فخذلوهم أحوج ما كانوا إليهم لو نفعوا^(١) .

وقال الشنقيطي : « قوله تعالى : ﴿ مِّنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ قد قدمنا الآيات الموضحة له مع الشواهد العربية في سورة إبراهيم في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝١٥ مِّنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾^(٢) الآية . وبيننا هناك أن أصبح الوجهين أن وراء بمعنى أمام . فمعنى ﴿ مِّنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ أي : أمامه جهنم يصلها يوم القيامة كما قال تعالى : ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾^(٣) ؛ أي : أمامهم ملك . وذكر هناك الشواهد العربية على إطلاق وراء بمعنى أمام ، وبيننا أن هذا هو التحقيق في معنى الآية ، وكذلك آية الجاثية هذه ، فقوله تعالى : ﴿ مِّنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ أي : أمامهم جهنم يصلونها يوم القيامة .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ ، أوضح فيه أن ما كسبه الكفار في دار الدنيا من الأموال والأولاد لا يغني عنهم شيئا يوم القيامة ؛ أي : لا ينفعهم بشيء ، فلا يجلب لهم بسببه نفع ، ولا يدفع عنهم بسببه ضرر ، وإنما اتخذوه من الأولياء في دار الدنيا من دون الله ، كالمعبودات التي كانوا يعبدونها ، ويزعمون أنها شركاء لله ، لا ينفعهم يوم القيامة أيضا بشيء .

وهاتان المسألتان اللتان تضمنتهما هذه الآية الكريمة ، قد أوضحهما الله في آيات كثرة من كتابه .

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٨-١٩) .

(٢) إبراهيم : الآيتان (١٥-١٦) .

(٣) الكهف : الآية (٧٩) .

أما الأولى منهما : وهي كونهم لا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً ، فقد أوضحها في آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَّا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ ﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ۝ ﴾ (٢) ، وقوله تعالى : ﴿ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۝ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۝ ﴾ (٣) الآية ، وقوله تعالى : ﴿ قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝ ﴾ (٤) ، وقوله تعالى : ﴿ يَلْتَمِتْهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ ۝ مَّا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ ۝ ﴾ (٥) الآية ، وقوله تعالى : ﴿ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ۝ ﴾ (٦) ، وقوله تعالى عن إبراهيم : ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۝ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ ﴾ (٧) ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ ۝ ﴾ (٨) الآية ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ۝ ﴾ (٩) ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ ﴾ (١٠) ، وقوله تعالى في المجادلة : ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ۝ لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۝ ﴾ (١١) الآية ، والآيات بمثل هذا كثيرة جداً ، وقد قدمنا كثيراً منها في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك .

وأما الثانية منهما ، وهي كونهم لا تنفعهم المعبودات ، التي اتخذوها أولياء من دون الله ؛ فقد أوضحها تعالى في آيات كثيرة ، كقوله تعالى في هود : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهِمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا تَنْبِيْ ۝ ﴾ (١٢) ، وقوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۝ ﴾ (١٣) ، وقوله

(١) المسد : الآيتان (١-٢) .

(٣) الهمزة : الآيات (٢-٤) .

(٥) الحاقة : الآيتان (٢٧-٢٨) .

(٧) الشعراء : الآيتان (٨٧-٨٨) .

(٩) آل عمران : الآية (١٠) .

(١٠) آل عمران : الآية (١١٦) .

(١٢) هود : الآية (١٠١) .

(١٣) الأحقاف : الآية (٢٨) .

(٢) الليل : الآية (١١) .

(٤) الزمر : الآية (٥٠) .

(٦) الأعراف : الآية (٤٨) .

(٨) سبأ : الآية (٣٧) .

(١١) المجادلة : الآيتان (١٦-١٧) .

تعالى: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ (٦٤) ﴿١﴾، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ (٥٢) ﴿٢﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ (٥) ﴿٣﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً ﴿٣﴾ الآية وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ (١٣) ﴿٤﴾ إِنَّ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكِكُمْ وَلَا يَنْبُتُكَ مِثْلُ خَيْرٍ ﴿١٤﴾ ﴿٤﴾، وقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ (٨١) ﴿٥﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ ﴿٥﴾، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوِيكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ (٢٥) ﴿٦﴾.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ ، الأولياء جمع ولي، والمراد بالأولياء هنا: المعبودات التي يوالونها بالعبادة من دون الله ﴿٧﴾.

* * *

-
- (١) القصص: الآية (٦٤).
 (٢) الكهف: الآية (٥٢).
 (٣) الأحقاف: الآيتان (٥-٦).
 (٤) فاطر: الآيتان (١٣-١٤).
 (٥) مريم: الآيتان (٨١-٨٢).
 (٦) العنكبوت: الآية (٢٥).
 (٧) أضواء البيان (٧ / ٣٤٤-٣٤٧).

قوله تعالى: ﴿هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجَزٍ أَلِيمٌ﴾ ﴿١١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : هذا القرآن الذي أنزلناه على محمد هدى، يقول: بيان ودليل على الحق، يهدي إلى صراط مستقيم من اتبعه وعمل بما فيه ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ يقول: والذين جحدوا ما في القرآن من الآيات الدالات على الحق، ولم يصدقوا بها، ويعملوا بها، لهم عذاب أليم يوم القيامة موجه»^(١).

قال السعدي: «لما بين آياته القرآنية والعيانية، وأن الناس فيها على قسمين؛ أخبر أن القرآن المشتمل على هذه المطالب العالية أنه هدى فقال: ﴿هَذَا هُدًى﴾، وهو وصف عام لجميع القرآن، فإنه يهدي إلى معرفة الله تعالى بصفاته المقدسة، وأفعاله الحميدة، ويهدي إلى معرفة رسله وأوليائهم وأعدائهم وأوصافهم، ويهدي إلى الأعمال الصالحة ويدعو إليها، ويبين الأعمال السيئة وينهى عنها، ويهدي إلى بيان الجزاء على الأعمال، ويبين الجزاء الدنيوي والأخروي، فالمهتدون اهتدوا به فأفلحوا وسعدوا، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ الواضحة القاطعة، التي لا يكفر بها إلا من اشتد ظلمه وتضاعف طغيانه، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجَزٍ أَلِيمٌ﴾»^(٢).

وقال الشنقيطي: «الإشارة في قوله: ﴿هَذَا هُدًى﴾ راجعة للقرآن العظيم، المعبر عنه بآيات الله في قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾^(٣)، وقوله: ﴿فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ﴾^(٤) الآية، وقوله: ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنَلَّى عَلَيْهِ﴾^(٥)، وقوله: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا﴾»^(٦).

(١) جامع البيان (٢٥ / ١٤٣).

(٣) البقرة: الآية (٢٥٢).

(٥) الجاثية: الآية (٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧ / ٢٠).

(٤) الجاثية: الآية (٦).

(٦) الجاثية: الآية (٩).

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن هذا القرآن هدى، وأن من كفر بآياته له العذاب الأليم، جاء موضّحاً في غير هذا الموضع.

أما كون القرآن هدى؛ فقد ذكره تعالى في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٢)، وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (٢)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (٣)، وقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ (٤)، وقوله: ﴿الْمَ ۖ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (٥)، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ (٦)، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وأما كون من كفر بالقرآن يحصل له بسبب ذلك العذاب الأليم؛ فقد جاء موضّحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ ۖ مِنَ الْأَحْزَابِ ۖ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ۖ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ (٧) الآية، وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ۖ مَن أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ۖ خَلِيلِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا﴾ (٨)، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا ءَايَتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ (٩)، والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة.

وقد قدمنا في سورة فصلت في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ (١٠) الآية، وغير ذلك من المواضع أن الهدى يطلق في القرآن إطلاقاً عاماً، بمعنى: أن الهدى هو البيان والإرشاد وإيضاح الحق، كقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ أي: بينا لهم الحق وأوضحناه وأرشدناهم إليه وإن لم يتبعوه، وكقوله: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾، وقوله هنا: ﴿هَٰذَا هُدًى﴾، وأنه يطلق أيضاً في القرآن بمعناه الخاص، وهو التفضل بالتوفيق إلى طريق الحق والاصطفاء، كقوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى﴾ (١١)، وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَفْتَدَةٌ﴾ (١٢)، إلى غير

(١) الأعراف: الآية (٥٢).

(٣) الإسراء: الآية (٩).

(٥) البقرة: الآيتان (١-٢).

(٧) هود: الآية (١٧).

(٩) الكهف: الآية (١٠٦).

(١١) محمد: الآية (١٧).

(٢) النحل: الآية (٨٩).

(٤) البقرة: الآية (١٨٥).

(٦) فصلت: الآية (٤٤).

(٨) طه: الآيات (٩٩-١٠١).

(١٠) فصلت: الآية (١٧).

(١٢) الأنعام: الآية (٩٠).

ذلك من الآيات .

وقد أوضحنا في سورة فصلت أن معرفة إطلاقي الهدى المذكورين ، يزول بها الإشكال الواقع في آيات من كتاب الله .

والهدى : مصدر هداه على غير قياس ، وهو هنا من جنس النعت بالمصدر ، وبيننا فيما مضى مراراً أن تنزيل المصدر منزلة الوصف إما على حذف مضاف ، وإما على المبالغة . وعلى الأول فالمعنى هذا القرآن ذو هدى ؛ أي : يحصل بسببه الهدى لمن اتبعه كقوله : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ .

وعلى الثاني فالمعنى أن المراد المبالغة في اتصاف القرآن بالهدى ، حتى أطلق عليه أنه هو نفس الهدى .

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ أصح القولين فيه أن المراد بالرجز العذاب ، ولا تكرار في الآية ؛ لأن العذاب أنواع متفاوتة ، والمعنى : لهم عذاب من جنس العذاب الأليم ، والأليم : معناه المؤلم ؛ أي : الموصوف بشدة الألم وفظاعته .

والتحقيق إن شاء الله : أن العرب تطلق الفعيل وصفاً بمعنى المفعول ، فما يذكر عن الأصمعي من أنه أنكر ذلك إن صح عنه فهو غلط منه ؛ لأن إطلاق الفعيل بمعنى المفعول معروف في القرآن العظيم وفي كلام العرب ، ومن إطلاقه في القرآن العظيم قوله تعالى : ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾^(١) أي : مؤلم ، وقوله تعالى : ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾^(٢) ؛ أي : مبدعهما ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ ﴾^(٣) الآية ؛ أي : منذر لكم ، ونظير ذلك من كلام العرب قول عمرو بن معد يكرب :

أمن ربحانة الداعي السميع يؤرقني وأصحابي هجوع

فقوله (الداعي السميع) يعني : الداعي المسمع . وقوله أيضاً :

وخيل قد دلفت لها بخيل تحية بينهم ضرب وجيع

أي : موجه^(٤) .

(١) البقرة : الآية (١٠) .

(٢) البقرة : الآية (١١٧) .

(٣) سبأ : الآية (٤٦) .

(٤) أضواء البيان (٧ / ٣٤٨ - ٣٥٠) .

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ
وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٢)

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : الله أيها القوم، الذي لا تنبغي الألوهة إلا له، الذي أنعم عليكم هذه النعم، التي بيننا لكم في هذه الآيات، وهو أنه ﴿سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ﴾ السفن ﴿فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ لمعايشكم وتصرفكم في البلاد لطلب فضله فيها، ولتشكروا ربكم على تسخيره ذلك لكم فتعبدوه وتطيعوه فيما يأمركم به، وينهاكم عنه»^(١).

قال ابن كثير: «يذكر تعالى نعمه على عبده فيما سخر لهم من البحر ﴿لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ﴾، وهي السفن فيه بأمره تعالى، فإنه هو الذي أمر البحر أن يحملها ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: في المتاجر والمكاسب، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: على حصول المنافع المجلوبة إليكم من الأقاليم النائية، والآفاق القاصية»^(٢).

وقد تقدمت الآيات الموضحة لهذه الآية الكريمة في سورة النحل الآية (١٤) وفي سورة الزخرف الآية (١٢-١٣).

(١) جامع البيان (٢٥ / ١٤٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧ / ٢٥٠).

قوله تعالى : ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿١٤﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : «يقول - تعالى ذكره - : ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ﴾ من شمس وقمر ونجوم ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من دابة وشجر ، وجبل وجماد وسفن ، لمنافعكم ومصالحكم ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ ، يقول - تعالى ذكره - : جميع ما ذكرت لكم أيها الناس من هذه النعم ، نعم عليكم من الله أنعم بها عليكم ، وفضل منه تفضل به عليكم ، فإياه فاحمدوا لا غيره ؛ لأنه لم يشركه في إنعام هذه النعم عليكم شريك ؛ بل تفرد بإنعامها عليكم وجميعها منه ، ومن نعمه فلا تجعلوا له في شكركم له شريكا ؛ بل أفردوه بالشكر والعبادة ، وأخلصوا له الألوهة ، فإنه لا إله لكم سواه . .

وقوله : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يقول - تعالى ذكره - : إن في تسخير الله لكم ما أنبأكم أيها الناس أنه سخره لكم في هاتين الآيتين ﴿لَآيَاتٍ﴾ يقول : لعلامات ودلالات على أنه لا إله لكم غيره ، الذي أنعم عليكم هذه النعم ، وسخر لكم هذه الأشياء التي لا يقدر على تسخيرها غيره ، لقوم يتفكرون في آيات الله وحججه وأدلته ، فيعتبرون بها ويتعظون إذا تدبروها ، وفكروا فيها»^(١).

وقال ابن كثير : «ثم قال تعالى : ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي : من الكواكب والجبال ، والبحار والأنهار ، وجميع ما تنتفعون به ؛ أي : الجميع من فضله وإحسانه وامتنانه ؛ ولهذا قال : ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ أي : من عنده وحده لا شريك له في ذلك ، كما قال تعالى : ﴿وَمَا يَكُم مِّنْ نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْشَرُونَ﴾ ﴿٥٣﴾ (٢) (٣).

(١) جامع البيان (٢٥ / ١٤٣ - ١٤٤).

(٢) النحل : الآية (٥٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧ / ٢٥١).

قال السعدي: « وهذا شامل لأجرام السماوات والأرض، ولما أودع الله فيهما من الشمس والقمر والكواكب والثوابت والسيارات، وأنواع الحيوانات وأصناف الأشجار والثمرات، وأجناس المعادن وغير ذلك مما هو معد لمصالح بني آدم، ومصالح ما هو من ضروراته، فهذا يوجب عليهم أن يبذلوا غاية جهدهم في شكر نعمته، وأن تتغلغل أفكارهم في تدبر آياته وحكمه، ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وجملة ذلك أن خلقها وتدبيرها وتسخيرها دال على نفوذ مشيئة الله وكمال قدرته، وما فيها من الإحكام والإتقان، وبديع الصنعة وحسن الخلقة دال على كمال حكمته وعلمه، وما فيها من السعة والعظمة والكثرة، دال على سعة ملكه وسلطانه، وما فيها من التخصيصات والأشياء المتضادات دليل على أنه الفعال لما يريد، وما فيها من المنافع والمصالح الدينية والدنيوية دليل على سعة رحمته، وشمول فضله وإحسانه، وبديع لطفه وبره، وكل ذلك دال على أنه وحده المألوه المعبود، الذي لا تنبغي العبادة والذل والمحبة إلا له، وأن رسله صادقون فيما جاءوا به، فهذه أدلة عقلية واضحة لا تقبل ريباً ولا شكاً^(١).



(١) تيسر الكريم الرحمن (٧ / ٢١-٢٢).

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿١٤﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - لنبية محمد ﷺ: قل يا محمد للذين صدّقوا الله واتبعوك، يغفروا للذين لا يخافون بأس الله ووقائعه ونقمه، إذا هم نالوهم بالأذى والمكروه ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾» يقول: ليجزي الله هؤلاء الذين يؤذونهم من المشركين في الآخرة، فيصيبهم عذابه بما كانوا في الدنيا يكسبون من الإثم، ثم بأذاهم أهل الإيمان بالله.. وهذه الآية منسوخة بأمر الله بقتال المشركين، وإنما قلنا: هي منسوخة؛ لإجماع أهل التأويل على أن ذلك كذلك»^(١).

وقال ابن كثير: «أي: يصفحوا عنهم ويحملوا الأذى منهم. وهذا كان في ابتداء الإسلام، أمروا أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب، ليكون ذلك لتأليف قلوبهم، ثم لما أصرروا على العناد شرع الله للمؤمنين الجهاد والجهاد. هكذا روي عن ابن عباس، وقتادة. وقال مجاهد في قوله: ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ لا يبالون نعم الله.

وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: إذا صفحوا عنهم في الدنيا، فإن الله مجازيهم بأعمالهم السيئة في الآخرة»^(٢).

قال السعدي: «يأمر تعالى عباده المؤمنين بحسن الخلق والصبر على أذية المشركين به، الذين لا يرجون أيام الله؛ أي: لا يرجون ثوابه ولا يخافون وقائعه في العاصين، فإنه تعالى سيجزي كل قوم بما كانوا يكسبون. فأنتم يا معشر المؤمنين يجزيكم على إيمانكم وصفحكم وصبركم، ثوابا جزيلا، وهم إن استمروا على تكذيبهم فلا يحل بكم ما حل بهم من العذاب الشديد والعزي»^(٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧ / ٢٥١).

(١) جامع البيان (٢٥ / ١٤٤).

(٣) تفسير الكريم الرحمن (٧ / ٢٣).

قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : من عمل من عباد الله بطاعته فانتهى إلى أمره، وانزجر لنهييه، فلنفسه عمل ذلك الصالح من العمل، وطلب خلاصها من عذاب الله، أطاع ربه لا لغير ذلك؛ لأنه لا ينفع ذلك غيره، والله عن عمل كل عامل غني ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾»، يقول: ومن أساء عمله في الدنيا بمعصيته فيها ربه، وخلافه فيها أمره ونهييه، فعلى نفسه جنى؛ لأنه أوبقها بذلك، وأكسبها به سخطه، ولم يضر أحدا سوى نفسه. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾»، يقول: ثم أنتم أيها الناس أجمعون إلى ربكم تصيرون من بعد مماتكم، فيجازي المحسن منكم بإحسانه، والمسيء بإساءته، فمن ورد عليه منكم بعمل صالح، جوزي من الثواب صالحا، ومن ورد عليه منكم بعمل سيئ، جوزي من الثواب سيئا^(١).

(١) جامع البيان (٢٥ / ١٤٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ
مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (١٦)

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾ يا محمد ﴿بَنِي إِسْرَءِيلَ
الْكِتَابَ﴾ يعني التوراة والإنجيل، ﴿وَالْحُكْمَ﴾ يعني الفهم بالكتاب، والعلم بالسنن
التي لم تنزل في الكتاب، ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ يقول: وجعلنا منهم أنبياء ورسلًا إلى الخلق،
﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ يقول: وأطعمناهم من طيبات أرزاقنا، وذلك ما أطعمهم
من المن والسلوى ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ يقول: وفضلناهم على عالمي أهل
زمانهم في أيام فرعون وعهده في ناحيتهم بمصر والشام»^(١).

قال ابن كثير: «يذكر تعالى ما أنعم به على بني إسرائيل من إنزال الكتب عليهم،
وإرسال الرسل إليهم، وجعله الملك فيهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ
الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: من المآكل والمشارب، ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى
الْعَالَمِينَ﴾ أي: في زمانهم»^(٢).

وقال السعدي: «ولقد أنعمنا على بني إسرائيل نعمًا لم تحصل لغيرهم من
الناس، وآتيناهم ﴿الْكِتَابَ﴾؛ أي: التوراة والإنجيل ﴿وَالْحُكْمَ﴾ بين الناس
﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ التي امتازوا بها وصارت النبوة في ذرية إبراهيم عليه السلام، أكثرهم من بني
إسرائيل، ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ من المآكل والمشارب والملابس، وإنزال المن
والسلوى عليهم ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي: على الخلق بهذه النعم، ويخرج من
هذا العموم اللفظي هذه الأمة، فإنهم خير أمة أخرجت للناس.

والسياق يدل على أن المراد غير هذه الأمة، فإن الله يقص علينا ما امتن به على
بني إسرائيل وميزهم عن غيرهم، وأيضًا فإن الفضائل التي فاق بها بنو إسرائيل من

(١) جامع البيان (٢٥ / ١٤٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧ / ٢٥٢).

الكتاب والحكم والنبوة وغيرها من النعوت قد حصلت كلها لهذه الأمة، وزادت عليهم هذه الأمة فضائل كثيرة، فهذه الشريعة شريعة بني إسرائيل جزء منها، فإن هذا الكتاب مهيمن على سائر الكتب السابقة، ومحمد ﷺ مصدق لجميع المرسلين^(١).

وقال الشنقيطي: «ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه فضل بني إسرائيل على العالمين، وذكر هذا المعنى في موضع آخر من كتابه، كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(٢) في الموضعين، وقوله في الدخان: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾^(٣)، وقوله في الأعراف: ﴿قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْنِيَكُمْ إِلَهُهَا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(٤).

ولكن الله - جل وعلا - بين أن أمة محمد ﷺ خير من بني إسرائيل وأكرم على الله، كما صرح بذلك في قوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(٥) الآية. فخير صيغة تفضيل، والآية نص صريح في أنهم خير من جميع الأمم، بني إسرائيل وغيرهم.

ومما يزيد ذلك إيضاحاً حديث معاوية بن حيدة القشيري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال في أمته: «أنتم توفون سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله»^(٦) وقد رواه عنه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم وهو حديث مشهور. وقال ابن كثير: حسنه الترمذي، ويروى من حديث معاذ بن جبل وأبي سعيد نحوه.

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: ولا شك في صحة معنى حديث معاوية بن حيدة المذكور رضى الله عنه؛ لأنه يشهد له النص المعصوم المتواتر في قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، وقد قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾^(٧)، وقوله: ﴿وَسَطًا﴾ أي: خياراً عدولاً.

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧ / ٢٣-٢٤) وانظر تفسير أبي السعود (٨ / ٧١).

(٢) البقرة: الآية (٤٧). (٣) الدخان: الآية (٣٢).

(٤) الأعراف: الآية (١٤٠). (٥) آل عمران: الآية (١١٠).

(٦) أخرجه أحمد (٤ / ٤٤٦-٤٤٧)، والنسائي في الكبرى (٦ / ٤٣٩ / ١١٤٣١)، والترمذي (٥ / ١١ / ٣٠٠١).

وحسنه، وابن ماجه (٢ / ١٤٣٣ / ٤٢٨٧) والحاكم (٤ / ٨٤ / ٦٩٨٧) وصححه ووافقه الذهبي.

(٧) البقرة: الآية (١٤٣).

واعلم أن ما ذكرنا من كون أمة محمد ﷺ أفضل من بني إسرائيل ، كما دلت عليه الآية والحديث المذكوران وغيرهما من الأدلة ، لا يعارض الآيات المذكورات آنفاً في تفضيل بني إسرائيل ؛ لأن ذلك التفضيل الوارد في بني إسرائيل ذكر فيهم حال عدم وجود أمة محمد ﷺ ، والمعدوم في حال عدمه ليس بشيء حتى يفضل أو يفضل عليه ، ولكنه تعالى بعد وجود أمة محمد ﷺ صرح بأنها هي خير الأمم ، وهذا واضح ؛ لأن كل ما جاء في القرآن من تفضيل بني إسرائيل ، إنما يراد به ذكر أحوال سابقة ؛ لأنهم في وقت نزول القرآن كفروا به وكذبوا كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾^(١) .

ومعلوم أن الله لم يذكر لهم في القرآن فضلاً إلا ما يراد به أنه كان في زمنهم السابق ، لا في وقت نزول القرآن . ومعلوم أن أمة محمد ﷺ لم تكن موجودة في ذلك الزمن السابق الذي هو ظرف تفضيل بني إسرائيل ، وأنها بعد وجودها ، صرح الله بأنها هي خير الأمم كما أوضحنا ، والعلم عند الله تعالى^(٢) .

* * *

(١) البقرة : الآية (٨٩) .

(٢) أضواء البيان (٧ / ٣٥١-٣٥٣) .

قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَهُمْ يَنبَأَ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا أَخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا يَنْهَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : وأعطينا بني إسرائيل واضحات من أمرنا، بتنزيلنا إليهم التوراة فيها تفصيل كل شيء ﴿فَمَا أَخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا يَنْهَهُمْ﴾ طلبا للرياسات، وتركنا منهم لبيان الله - تبارك وتعالى - في تنزيله. وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ يقول - تعالى ذكره - لنبيه محمد ﷺ: إن ربك يا محمد يقضي بين المختلفين من بني إسرائيل بغيا بينهم يوم القيامة، فيما كانوا فيه في الدنيا يختلفون بعد العلم الذي آتاهم، والبيان الذي جاءهم منه، فيفلج المحق حينئذ على المبطل بفصل الحكم بينهم»^(١).

وقال ابن كثير: «﴿وَأَتَيْنَهُمْ يَنبَأَ مِنَ الْأَمْرِ﴾ أي: حججا وبراهين وأدلة قاطعات، فقامت عليهم الحجج، ثم اختلفوا بعد ذلك من بعد قيام الحجة، وإنما كان ذلك بغيا منهم على بعضهم بعضا، ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: سيفصل بينهم بحكمه العدل، وهذا فيه تحذير لهذه الأمة أن تسلك مسلكهم، وأن تقصد منهجهم»^(٢).

وقال ابن عاشور: «وُفِّرَ على ذلك قوله: ﴿فَمَا أَخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ تفريع إدماج لمناسبته للحالة التي أريد تنظيرها، وتقدير الكلام: فاختلفوا، وما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم، فحذف المفعول لدلالة ما بعده عليه على طريقة الإيجاز؛ إذ المقصود هو التعجيب من حالهم كيف اختلفوا حين لا مظنة

(١) جامع البيان (٢٥ / ١٤٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧ / ٢٥٢ - ٢٥٣).

للاختلاف؛ إذ كان الاختلاف بينهم بعدما جاءهم العلم والمعهود بالذكر آنفاً، من الكتاب والحكم والنبوة والبيانات من الأمر، ولو اختلفوا قبل ذلك لكان لهم عذر في الاختلاف، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾^(١). وهذا الكلام كناية عن عدم التعجب من اختلاف المشركين مع المؤمنين، حيث إن المشركين ليسوا على علم ولا هدى ليعلم رسول الله ﷺ أنه ملطوف به في رسالته.

والبغي: الظلم. والمراد: أن اختلافهم عن عمد ومكابرة بعضهم لبعض، وليس عن غفلة أو تأويل، وهذا الظلم هو ظلم الحسد، فإن الحسد من أعظم الظلم؛ أي: فكذاك حال نظرائهم من المشركين، ما اختلفوا على النبي ﷺ إلا بغياً منهم عليه، مع علمهم بصدقه بدلالة إعجاز القرآن لفظاً ومعاني.

وانتصب بغياً إما على المفعول لأجله، وإما على الحال بتأويل المصدر باسم الفاعل، وعلى كلا الوجهين فالعامل فيه فعل: ﴿أَخْتَلَفُوا﴾، وإن كان منفيًا في اللفظ لأن الاستثناء أبطل النفي؛ إذ ما أريد إلا نفي أن يكون الاختلاف في وقت قبل أن يحثهم العلم، فلما استفيد ذلك بالاستثناء صار الاختلاف ثابتاً، وما عدا ذلك غير منفي.

وجملة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً، لأن خبرهم العجيب يثير سؤالاً في نفس سامعه عن جزاء الله إياهم على فعلهم، وهذا جواب فيه إجمال لتحويل ما سيُقضى به بينهم في الخير والشر، لأن الخلاف يقتضي محققاً ومبطلاً.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبْوَأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾^(٢) ﴿٩٣﴾^(٣). وقال السعدي: ﴿وَأَتَيْنَهُمْ﴾ أي: آتينا بني إسرائيل ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ أي: دلالات تبين الحق من الباطل ﴿مِنَ الْأَمْرِ﴾ القدري الذي أوصله الله إليهم. وتلك الآيات هي المعجزات التي رأوها على يد موسى عليه السلام، فهذه النعم التي أنعم الله بها على

(١) الجاثية: الآية (٢٣).

(٢) يونس: الآية (٩٣).

(٣) التحرير والتنوير (٢٥ / ٣٤٦-٣٤٧).

بني إسرائيل، تقتضي الحال أن يقوموا بها على أكمل الوجوه، وأن يجتمعوا على الحق الذي بينه الله لهم، ولكن انعكس الأمر فعاملوها بعكس ما يجب.

وافترقوا فيما أمروا بالاجتماع به ولهذا قال: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي: الموجب لعدم الاختلاف، وإنما حملهم على الاختلاف البغي من بعضهم على بعض والظلم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيميز المحق من المبطل، والذي حمله على الاختلاف الهوى أو غيره^(١).

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧ / ٢٤-٢٥).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبية محمد ﷺ: ثم جعلناك يا محمد من بعد الذي آتينا بني إسرائيل، الذين وصفت لك صفتهم ﴿عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ يقول: على طريقة وسنة ومنهاج من أمرنا الذي أمرنا به من قبلك من رسلنا ﴿فَاتَّبِعْهَا﴾ يقول: فاتبع تلك الشريعة التي جعلناها لك ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يقول: ولا تتبع ما دعاك إليه الجاهلون بالله، الذين لا يعرفون الحق من الباطل، فتعمل به، فتهلك إن عملت به..»

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ يقول -تعالى ذكره-: إن هؤلاء الجاهلين بربهم، الذين يدعونك يا محمد إلى اتباع أهوائهم، لن يغنوا عنك إن أنت اتبعت أهواءهم، وخالفت شريعة ربك التي شرعها لك من عقاب الله شيئاً، فيدفعوه عنك إن هو عاقبك، وينقذك منه.

وقوله: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ يقول: وإن الظالمين بعضهم أنصار بعض، وأعوانهم على الإيمان بالله وأهل طاعته ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: والله يلي من اتقاه بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه بكفايته، ودفاع من أراد به سوء، يقول -جل ثناؤه- لنبية عليه الصلاة والسلام فكن من المتقين، يكفك الله ما بغاك وكادك به هؤلاء المشركون، فإنه ولي من اتقاه، ولا يعظم عليك خلاف من خالف أمره وإن كثر عددهم، لأنهم لن يضرّوك ما كان الله وليك وناصرك^(١).

وقال ابن كثير: «﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ أي: اتبع ما أوحى

(١) جامع البيان (٢٥/ ١٤٦-١٤٧).

إليك من ربك لا إله إلا هو، وأعرض عن المشركين، وقال هاهنا: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ١٨ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ١٩ أي: وماذا تغني عنهم ولا يتهم لبعضهم بعضا، فإنهم لا يزيدونهم إلا خسارا ودمارا وهلاكاً، ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ، وهو تعالى يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات»^(١).

وقال ابن عاشور: «ثم للتراخي الرتبي كما هو شأنها في عطف الجمل، ولولا إرادة التراخي الرتبي لكانت الجملة معطوفة بالواو، وهذا التراخي يفيد أن مضمون الجملة المعطوفة بحرف ثم، أهم من مضمون الجملة المعطوف عليها أهمية الغرض على المقدمة والنتيجة على الدليل، وفي هذا التراخي تنويه بهذا الجعل، وإشارة إلى أنه أفضل من إيتاء بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة والبيّنات من الأمر، فنبوءة محمد ﷺ وكتابه وحكمه وبيّناته أفضل وأهدى مما أوتيته بنو إسرائيل من مثل ذلك..»

وقد بلغت هذه الجملة من الإيجاز مبلغاً عظيماً؛ إذ أفادت أن شريعة الإسلام أفضل من شريعة موسى، وأنها شريعة عظيمة، وأن الرسول ﷺ متمكن منها لا يزعه شيء عن الدأب في بيانها والدعوة إليها، ولذلك فرع عليه أمره باتباعها بقوله: ﴿فَاتَّبِعْهَا﴾ أي دُم على اتباعها، فالأمر لطلب الدوام مثل ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾^(٢).

وبين قوله: ﴿فَاتَّبِعْهَا﴾ وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ محسن المطابقة بين الأمر بالاتباع والنهي عن اتباع آخر. و﴿الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هم المشركون وأهواؤهم دين الشرك قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾^(٣).

والأهواء: جمع هوى، وهو المحبة والميل. والمعنى: أن دينهم أعمال أحبوا لم يأمر الله بها ولا اقتضتها البراهين. والخطاب للنبي ﷺ والمقصود منه: إسماع المشركين لئلا يطمعوا بمصانعة الرسول ﷺ إياهم حين يرون منه الإغضاء

(١) تفسير القرآن العظيم (٧ / ٢٥٢).

(٢) النساء: الآية (١٣٦).

(٣) الجاثية: الآية (٢٣).

عن هفواتهم وأذاهم ، وَحِينَ يَسْمَعُونَ فِي الْقُرْآنِ بِالْصَّفْحِ عَنْهُمْ كَمَا فِي آيَةِ السَّالِفَةِ ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾^(١) . وفيه أيضًا تعريض للمسلمين بأن يحذروا من أهواء الذين لا يعلمون . .

وجملة ﴿إِنَّهُمْ لَنُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ تعليل للنهي عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون ، ويتضمن تعليل الأمر باتباع شريعة الله ، فإن كونهم لا يغنون عنه من الله شيئًا ؛ يستلزم أن في مخالفة ما أمر الله من اتباع شريعته ما يوقع في غضب الله وعقابه ، فلا يغني عنه اتباع أهوائهم من عقابه . .

وعُطف على هذا التعليل تعليل آخر ، وهو ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي : إنهم ظالمون وأنت لست من الظالمين في شيء ، فلا يجوز أن تتبعهم في شيء ، وإنما يتبعهم من هم أولياؤهم . وذيل ذلك بقوله : ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ، وهو يفيد أن النبي ﷺ الله وليه ؛ لأن النبي ﷺ أول المتقين^(٢) .

قال الشنقيطي : «نهى الله - جل وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون .

وقد قدمنا في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى : ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَتَقَعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾^(٣) أنه - جل وعلا - يأمر نبيه محمداً ﷺ وينهاه ، ليشرع بذلك الأمر والنهي لأمة ، كقوله هنا : ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

ومعلوم أنه ﷺ لا يتبع أهواء الذين لا يعلمون ، ولكن النهي المذكور فيه التشريع لأمة كقوله تعالى : ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءِثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾^(٤) ، وقوله تعالى : ﴿فَلَا تُطِيعِ الْمُكْذِبِينَ﴾^(٥) ، وقوله : ﴿وَلَا تُطِيعِ كُلَّ حَلَافٍ مِّمَّهِينَ﴾^(٦) . وقوله : ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ﴾^(٧) ، وقوله : ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾^(٨) والآيات بمثل ذلك كثيرة . وقد بينا الأدلة القرآنية على أنه ﷺ يخاطب ، والمراد به التشريع لأمة في آية بني إسرائيل المذكورة .

(٢) التحرير والتنوير (٢٥ / ٣٤٧-٣٤٨) .

(٤) الإنسان : الآية (٢٤) .

(٦) القلم : الآية (١٠) .

(٨) الزمر : الآية (٦٥) .

(١) الجاثية : الآية (١٤) .

(٣) الإسراء : الآية (٢٢) .

(٥) القلم : الآية (٨) .

(٧) الإسراء : الآية (٣٩) .

وما تضمنته آية الجاثية هذه، من النهي عن اتباع أهوائهم جاء موضعاً في آيات كثيرة، كقوله تعالى في الشورى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾^(١)، وقوله تعالى في الأنعام: ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾^(٢)، وقوله تعالى في القصص: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٣)، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة. وقد بين تعالى في ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٤) أن الحق لو اتبع أهواءهم لفسد العالم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾^(٥)..

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، قد قدمنا في هذا الكتاب المبارك مراراً أن الظلم في لغة العرب أصله وضع الشيء في غير موضعه، وأن أعظم أنواعه الشرك بالله؛ لأن وضع العبادة في غير من خلق ورزق هو أشنع أنواع وضع الشيء في غير موضعه، ولذا كثر في القرآن العظيم إطلاق الظلم بمعنى الشرك، كقوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٦)، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٧)، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾^(٨)، وقوله تعالى عن لقمان: ﴿يَبْنِي لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾^(٩)، وقد ثبت في صحيح البخاري أن النبي ﷺ فسر قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾^(١٠) «بأن معناه ولم يلبسوا إيمانهم بشرك»^(١١).

(٢) الأنعام: الآية (١٥٠).

(٤) المؤمنون: الآية (١).

(٦) البقرة: الآية (٢٥٤).

(٨) الفرقان: الآية (٢٧).

(١٠) الأنعام: الآية (٨٢).

(١) الشورى: الآية (١٥).

(٣) القصص: الآية (٥٠).

(٥) المؤمنون: الآية (٧١).

(٧) يونس: الآية (١٠٦).

(٩) لقمان: الآية (١٣).

(١١) الحديث أخرجه أحمد (١/ ٣٧٨)، البخاري (٨/ ٣٧٣ / ٤٦٢٩)، مسلم (١/ ١١٤-١١٥ / ١٢٤)، الترمذي (٥/ ٢٤٥ / ٣٠٦٧). والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٤١ / ١١١٦٦)، ولفظه: عن عبد الله قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾، شق ذلك على الناس، وقالوا: يا رسول الله، فأينا لا يظلم نفسه؟ قال: (إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿يَبْنِي لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ إنما هو الشرك) ..

وما تضمنته آية الجاثية هذه من أن الظالمين بعضهم أولياء بعض، جاء مذكوراً في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في آخر الأنفال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَصَائِرِهِمْ أُولِيَائِهِمْ بَعْضٌ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (٧٣) ^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٢٩) ^(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَائِهِمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ (٣) ^(٣)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَخَذُوا مِنَ الشَّيْطَانِ أُولِيَائِهِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (٤) ^(٤)، وقوله تعالى: ﴿فَقَتِلُوا أُولِيَائِهِمُ الشَّيْطَانِ﴾ (٥) ^(٥)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أُولِيَائِهِمْ﴾ (٦) ^(٦)، وقوله: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُنَا عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُمْ﴾ (٧) ^(٧)، الآية، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾، ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه ولي المتقين، وهم الذين يمتثلون أمره ويجتنبون نهيه، وذكر في موضع آخر أن المتقين أولياؤه، فهو وليهم وهم أولياؤه؛ لأنهم يوالونه بالطاعة والإيمان، وهو يواليهم بالرحمة والجزاء، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَائَهُ اللَّهُ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٨) ^(٨)، ثم بين المراد بأوليائه في قوله: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (٩) ^(٩)، فقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ كقوله في آية الجاثية هذه: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

وقد بين تعالى في آيات من كتابه أنه ولي المؤمنين، وأنهم أولياؤه كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ (١٠) ^(١٠)، الآية، وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ (١١) ^(١١)، الآية، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ (١٢) ^(١٢)، وقوله تعالى في الملائكة: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾ (١٣) ^(١٣)، الآية (١٤).

- | | |
|--------------------------|---------------------------------|
| (١) الأنفال: الآية (٧٣). | (٢) الأنعام: الآية (١٢٩). |
| (٣) البقرة: الآية (٢٥٧). | (٤) الأعراف: الآية (٣٠). |
| (٥) النساء: الآية (٧٦). | (٦) آل عمران: الآية (١٧٥). |
| (٧) النحل: الآية (١٠٠). | (٨) يونس: الآية (٦٢). |
| (٩) يونس: الآية (٦٣). | (١٠) المائدة: الآية (٥٥). |
| (١١) محمد: الآية (١١). | (١٢) الأعراف: الآية (١٩٦). |
| (١٣) سبأ: الآية (٤١). | (١٤) أضواء البيان (٧/ ٣٥٣-٣٥٦). |

قوله تعالى: ﴿هَذَا بَصِيرَةٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ﴿٢٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : هَذَا الْكِتَابُ الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ ﴿بَصِيرَةٌ لِلنَّاسِ﴾ يُبْصِرُونَ بِهِ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ ، وَيَعْرِفُونَ بِهِ سَبِيلَ الرِّشَادِ ، وَالْبَصَائِرُ : جَمْعُ بَصِيرَةٍ . . وقوله : ﴿وَهُدًى﴾ يقول : ورشاد ﴿وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ بحقيقة صحة هذا القرآن ، وأنه تنزيل من الله العزيز الحكيم . وخصّ - جل ثناؤه - الموقنين بأنه لهم بصائر وهدى ورحمة ، لأنهم الذين انتفعوا به دون من كذب به من أهل الكفر ، فكان عليه عَمَى وله حزنًا»^(١).

وقال السعدي: «أي : هَذَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ وَالذِّكْرُ الْحَكِيمُ ﴿بَصِيرَةٌ لِلنَّاسِ﴾ أي : تحصل به التبصرة في جميع الأمور للناس فيحصل به الانتفاع للمؤمنين . ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ فيهتدون به إلى الصراط المستقيم في أصول الدين وفروعه ، ويحصل به الخير والسرور والسعادة في الدنيا والآخرة وهي الرحمة ، فتزكو به نفوسهم ، وتزداد به عقولهم ، ويزيد به إيمانهم ويقينهم ، وتقوم به الحجة على من أصر وعاند»^(٢).

قال ابن عاشور: «إن كانت الإشارة إلى الكلام المتقدم ، وما فيه من ضرب المثل بموسى وقومه ، ومن تفضيل شريعة محمد على شريعة موسى عليهما الصلاة والسلام ، والأمر بملازمة اتباعها ، والتحذير من اتباع رغائب الذين لا يعلمون ، فهذه الجملة بمنزلة التذييل لما قبلها ، والتهيئة لأغراضها ، تنبيهًا لما في طيها من عواصم عن الشك والباطل ، بمنزلة قوله تعالى بعد عدة آيات في آخر سورة الأحقاف ﴿بَلِّغْ﴾^(٣) ، وقوله في سورة الأنبياء : ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ

(١) جامع البيان (٢٥ / ١٤٧-١٤٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧ / ٢٦).

(٣) الأحقاف : الآية (٣٥).

الذِّكْرَ أَنَّ الْآرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَكِيدِينَ ﴿١٠٦﴾^(١)، وإن كانت الإشارة إلى القرآن إذ هو حاضر في الأذهان؛ كانت الجملة استثناءً أعيد بها التنويه بشأن القرآن ومتبعيه، والتعريضُ بتحقيق الذين أعرضوا عنه، وتكون مفيدة تأكيد قوله آنفاً: ﴿هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ ﴿١٠٧﴾^(٢)، وتكون الجملة المتقدمة صريحة في وعيد الذين كفروا بآياته، وهذه تعريضاً بأنهم لم يَحْظُوا بهذه البصائر، وكلا الاحتمالين رشيق، وكل بأن يكون مقصوداً حقيق . .

وإنما كان هدى لأنه طريق نفع لمن اتبع إرشاده، فاتباعه كالاقتداء للطريق الموصلة إلى المقصود، وإنما كان رحمة لأن في اتباع هديه نجاح الناس أفراداً وجماعات في الدنيا؛ لأنه نظام مجتمعهم ومناط أمنهم، وفي الآخرة لأنه سبب نوالهم درجات النعيم الأبدى، وكان بصائر لأنه يبين للناس الخير والشر، ويحرضهم على الخير ويحذرهم من الشر، ويعددهم على فعل الخير، ويوعدهم على فعل الشرور، فعمله عمل البصيرة.

وجعل البصائر للناس لأنه بيان للناس عامة، وجعل الهدى والرحمة لقوم يوقنون لأنه لا يهتدي ببيانه إلا الموقن بحقيقته، ولا يرحم به إلا من اتبعه المؤمن بحقيقته^(٣).

وقال الشنقيطي: «الإشارة في قوله: ﴿هَذَا﴾ للقرآن العظيم، والبصائر جمع بصيرة، والمراد بها البرهان القاطع الذي لا يترك في الحق لبساً كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾^(٤)؛ أي: على علم ودليل واضح. والمعنى: أن هذا القرآن براهين قاطعة، وأدلة ساطعة، على أن الله هو المعبود وحده، وأن ما جاء به محمد ﷺ حق.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن القرآن بصائر للناس؛ جاء موضعاً في مواضع آخر من كتاب الله، كقوله تعالى في أخريات الأعراف: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا

(٢) الجاثية: الآية (١١).

(١) الأنبياء: الآيتان (١٠٥-١٠٦).

(٣) التحرير والتنوير (٢٥ / ٣٤٩-٣٥١).

(٤) يوسف: الآية (١٠٨).

يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكَمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ^(١)، وقوله تعالى في الأنعام: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾^(٢)، وما تضمنته آية الجاثية من أن القرآن بصائر وهدى ورحمة؛ ذكر تعالى مثله في سورة القصص عن كتاب موسى الذي هو التوراة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَالَمٍ يَتَذَكَّرُونَ﴾^(٣). وما تضمنته آية الجاثية هذه من كون القرآن هدى ورحمة جاء موضحاً في غير هذا الموضع. أما كونه هدى فقد ذكرنا الآيات الموضحة له قريباً.

وأما كونه رحمة فقد ذكرنا الآيات الموضحة له في الكهف في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾^(٤)، وفي أولها في الكلام على قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾^(٥)، وفي فاطر في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾^(٦)، وفي الزخرف في الكلام على قوله: ﴿أَمُورٌ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾^(٧) الآية^(٨).

فائدة: قال الشنقيطي: «وفي هذه الآية الكريمة سؤال عربي معروف، وهو أن المبتدأ الذي هو قوله: ﴿هَذَا﴾ اسم إشارة إلى مذكر مفرد، والخبر الذي هو بصائر جمع مكسر مؤنث، فيقال: كيف يسند الجمع المؤنث المكسر إلى المفرد المذكر؟ والجواب: أن مجموع القرآن كتاب واحد، تصح الإشارة إليه بهذا، وهذا الكتاب الواحد يشتمل على براهين كثيرة، فصح إسناد البصائر إليه لاشتماله عليها كما لا يخفى»^(٩).

* * *

(٢) الأنعام: الآية (١٠٤).

(٤) الكهف: الآية (٦٥).

(٦) فاطر: الآية (٢).

(١) الأعراف: الآية (٢٠٣).

(٣) القصص: الآية (٤٣).

(٥) الكهف: الآية (١).

(٧) الزخرف: الآية (٣٢).

(٨) أضواء البيان (٧ / ٣٥٦-٣٥٧).

(٩) أضواء البيان (٧ / ٣٥٧).

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ﴿٢١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : أم ظنّ الذين اجتروحوا السيئات من الأعمال في الدنيا، وكذبوا رسل الله، وخالفوا أمر ربهم، وعبدوا غيره، أن نجعلهم في الآخرة، كالذين آمنوا بالله وصدقوا رسله وعملوا الصالحات، فأتاعوا الله، وأخلصوا له العبادة دون ما سواه من الأنداد والآلهة، كلا، ما كان الله ليفعل ذلك، لقد ميز بين الفريقين، فجعل حزب الإيمان في الجنة، وحزب الكفر في السعير»^(١).

قال السعدي: أي: أم حسب المسيئون المكثرون من الذنوب المقصرون في حقوق ربهم، ﴿أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بأن قاموا بحقوق ربهم، واجتنبوا مساخطه، ولم يزالوا مؤثرين رضاه على هوى أنفسهم؟ أي: أحسبوا أن يكونوا ﴿سَوَاءً﴾ في الدنيا والآخرة؟ ساء ما ظنوا وحسبوا، وساء ما حكموا به، فإنه حكم يخالف حكمة أحكم الحاكمين وخير العادلين، ويناقض العقول السليمة والفطر المستقيمة، ويضاد ما نزلت به الكتب وأخبرت به الرسل، بل الحكم الواقع القطعي أن المؤمنين العاملين الصالحات لهم النصر والفلاح، والسعادة والثواب في العاجل والآجل، كل على قدر إحسانه، وأن المسيئين لهم الغضب والإهانة، والعذاب والشقاء في الدنيا والآخرة»^(٢).

وقال ابن كثير: «يقول تعالى: لا يستوي المؤمنون والكافرون، كما قال: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾ ﴿٢١﴾»^(٣)، وقال

(١) جامع البيان (٢٥ / ١٤٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧ / ٢٧).

(٣) الحشر: الآية (٢٠).

ها هنا : ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أي : عملوها وكسبوها ﴿أَنْ يَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً تَحْتَهُمْ وَفَوْقَهُمْ﴾ أي : نساويهم بهم في الدنيا والآخرة ! ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي : ساء ما ظنوا بنا وبعدلنا أن نساوي بين الأبرار والفجار في الدار الآخرة ، وفي هذه الدار^(١) .

وقال ابن القيم : «فأنكر سبحانه هذا الحساب إنكار منبه للعقل على قبحه ، وأنه حكم سيئ والحاكم به مسيء ظالم ، ولو كان قبحه لكونه خلاف ما أخبر به ؛ لم يكن الإنكار لما اشتمل عليه من القبح اللازم من التسوية بين المحسن والمسيء المستقر قبحه في فطر العالمين كلهم ، ولا كان هنا حكم سيئ في نفسه ينكر على من حكم به»^(٢) .

وقال الألوسي : «قال ابن عطية : إن لفظها يعطي أن اجتراح السيئات هو اجتراح الكفر لمعادلته بالإيمان ، ويحتمل أن تكون المعادلة بالاجتراح وعمل الصالحات ، ويكون الإيمان في الفريقين ، ولهذا بكى الخائفون عند تلاوتها .

ورأيت كثيراً من المغرورين المستغرقين ليلهم ونهارهم بالفسق والفجور يقولون بلسان القال والحال : نحن يوم القيامة أفضل حالاً من كثير من العابدين ، وهذا منهم والعياذ بالله تعالى ضلال بعيد وغرور ما عليه مزيد»^(٣) .

وقال ابن عطية : «وهذه الآية متناولة بلفظها حال العصاة من حال أهل التقوى ، وهي موقف للعارفين فيكون عنده فيه ، وروي عن الربيع بن خيثم أنه كان يردد لها ليلة جمعاء ، وكذلك عن الفضيل بن عياض ، وكان يقول لنفسه : ليت شعري من أي الفريقين أنت ، وقال الثعلبي : كانت هذه الآية تسمى مبكاة العابدين»^(٤) .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في خوف الصحابة من هذه الآية

* عن مسروق قال : قال لي رجل من أهل مكة : هذا مقام أخيك تميم الداري ، لقد رأيته قام ليلة حتى أصبح أو قرب أن يصبح ، يقرأ آية من كتاب الله ﷻ ، فيركع ويسجد ويبكي ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

(١) تفسير القرآن العظيم (٧ / ٢٥٢) .

(٢) مدارج السالكين (١ / ٢٣٨) .

(٣) روح المعاني (٢٥ / ١٥١) .

(٤) المحرر الوجيز (٥ / ٨٥) .

سَوَاءٌ مَخِيئَتُهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١١﴾ ﴿١﴾.

* فوائد الحديث:

قال ابن القيم: «ومما ينبغي أن يعلم أن من رجا شيئاً فرجاؤه يستلزم ثلاثة أمور: أحدها: محبة ما يرجوه. الثاني: خوفه من فواته. الثالث سعيه في تحصيله بحسب الإمكان. وأما رجاء لا يقارنه شيء من ذلك؛ فهو من باب الأمانى، والرجاء شيء والأمانى شيء آخر، فكل راج خائف، والسائر على الطريق إذا خاف أسرع السير مخافة الفوات، وفي جامع الترمذي من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة»^(٢)، وهو سبحانه كما جعل الرجاء لأهل الأعمال الصالحة، فكذلك جعل الخوف لأهل الأعمال الصالحة، فعلم أن الرجاء والخوف النافع هو ما اقترن به العمل، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِثَابِتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾^(٣).

وقد روى الترمذي في جامعه عن عائشة رضى الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقلت: أهم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون؟ فقال: «لا يا ابنة الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، ويخافون أن لا يتقبل منهم، أولئك يسارعون في الخيرات»^(٤)، وقد روى من حديث أبي هريرة أيضاً.

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢/ ٥٠ / ١٢٥٠-١٢٥١)، وقال الحافظ ابن حجر في الإصابة (١/ ٣٠٥) رواه البغوي في الجعديات بإسناد صحيح إلى مسروق.

(٢) أخرجه البخاري في التاريخ (٢/ ١١١)، الترمذي (٤/ ٥٤٦ / ٢٤٥٠). وقال: «هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث أبي النضر»، الحاكم (٤/ ٣٠٧-٣٠٨)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. وانظر السلسلة الصحيحة رقم (٢٣٣٥).

(٣) المؤمنون: الآيات (٥٧-٦١).

(٤) أخرجه أحمد (٦/ ١٥٩ و ٢٠٥)، الترمذي (٥/ ٣٠٦ / ٣١٧٥)، وقال: «وقد روي هذا الحديث عن عبد الرحمن بن سعيد عن أبي حازم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحو هذا». ابن ماجه (٢/ ١٤٠٤ / ٤١٩٨)، الحاكم (٢/ ٣٩٤) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

والله سبحانه وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف، ووصف الأشقياء بالإساءة مع الأمن، ومن تأمل أحوال الصحابة رضي الله عنهم وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف، ونحن جمعنا بين التقصير بل التفريط والأمن. فهذا الصديق يقول: وددت أني شعرة في جنب عبد مؤمن. ذكره أحمد عنه.

وذكر عنه أيضًا أنه كان يمسك بلسانه ويقول: هذا الذي أوردني الموارد. وكان يبكي كثيرًا ويقول: أبكوا فإن لم تبكوا فتباكوا. وكان إذا قام إلى الصلاة كأنه عود من خشية الله ﷻ. وأتى بطائر فقلبه ثم قال: ما صيد من صيد ولا قطعت من شجرة إلا بما ضيعت من التسبيح. ولما احتضر قال لعائشة: يا بنية إنني أصبت من مال المسلمين هذه العباءة، وهذه الحلاب وهذا العبد، فأسرعي به إلى ابن الخطاب، وقال: والله لو ددت أني كنت هذه الشجرة تؤكل وتعصد. وقال قتادة: بلغني أن أبا بكر قال: ليتني خضرة تأكلني الدواب.

وهذا عمر بن الخطاب قرأ سورة الطور إلى أن بلغ قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ ^(١)، فبكى واشتد بكاءؤه حتى مرض وعادوه. وقال لابنه وهو في الموت: ويحك ضع خدي على الأرض عساه أن يرحمني، ثم قال: ويل أمني إن لم يغفر الله لي ثلاثا ثم قضى. وكان يمر بالآية في ورده بالليل، فتخيفه فيبقى في البيت أياما ويعاد، ويحسبونه مريضا. وكان في وجهه ﷺ خطان أسودان من البكاء. وقال له ابن عباس: مصر الله بك الأمصار، وفتح بك الفتوح، وفعل وفعل، فقال: وددت أني أنجو لا أجز ولا وزر.

وهذا عثمان بن عفان رضي الله عنه كان إذا وقف على القبر يبكي حتى يبل لحيته وقال: لو أنني بين الجنة والنار لا أدري إلى أيتهما يؤمر بي، لا اخترت أن أكون رمادا قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير.

وهذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وبكاؤه وخوفه، وكان يشتد خوفه من اثنتين: طول الأمل، واتباع الهوى، قال: فأما طول الأمل فينسي الآخرة، وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق، ألا وإن الدنيا قد ولت مدبرة والآخرة مقبلة، ولكل واحدة بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدا

(١) الطور: الآية (٧).

حساب ولا عمل .

وهذا أبو الدرداء رضي الله عنه كان يقول : إن أشد ما أخاف على نفسي يوم القيامة أن يقال لي : يا أبا الدرداء ! قد علمت فكيف عملت فيما علمت ؟ . وكان يقول : لو تعلمون ما أنتم لا قون بعد الموت لما أكلتم طعاما على شهوة ، ولا شربتم شرابا على شهوة ، ولا دخلتم بيتا تستظلون فيه ، ولخرجتم إلى الصعيد تضربون صدوركم وتبكون على أنفسكم ، ولوددت أني شجرة تعضد ثم تؤكل .

وهذا عبد الله بن عباس كان أسفل عينيه مثل الشراك البالي من الدموع . وكان أبو ذر يقول : ياليتني كنت شجرة تعضد ، وودت أني لم أخلق ، وعرضت عليه النفقة فقال : عندنا عنز نحلبها ، وحمير ننقل عليها ، ومحرر يخدمنا ، وفضل عبادة ، وإنني أخاف الحساب فيها .

وقرأ تميم الداري ليلة سورة الجاثية فلما أتى على هذه الآية : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ جعل يرددنها ويبكي حتى أصبح . وقال أبو عبيدة بن الجراح وددت أني كبش فذبحني أهلي ، وأكلوا لحمي ، وحسوا مرقي ، وهذا باب يطول تتبعه .

قال البخاري في صحيحه : باب خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر . وقال ابراهيم التيمي : ما عرضت قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مكذبا . وقال ابن أبي مليكة : أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه ، ما منهم أحد يقول : إنه على إيمان جبريل وميكائيل . ويذكر عن الحسن ما خافه إلا مؤمن ، ولا آمنه إلا منافق . وكان عمر بن الخطاب يقول لحذيفة : أنشدك الله ، هل سمانى لك رسول الله ﷺ ؟ يعني : في المنافقين ، فيقول : لا ولا أزكي بعدك أحدا ^(١) .

* * *

(١) الداء والدواء (٥٩-٦٤) .

قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿٢٢﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ للعدل والحق، لا لما حسب هؤلاء الجاهلون بالله، من أنه يجعل من اجترح السيئات، فعصاه وخالف أمره، كالذين آمنوا وعملوا الصالحات، في المحيا والممات، إذ كان ذلك من فعل غير أهل العدل والإنصاف، يقول - جل ثناؤه - : فلم يخلق الله السموات والأرض للظلم والجور، ولكننا خلقناهما للحق والعدل، ومن الحق أن نخالف بين حكم المسيء والمحسن، في العاجل والآجل.

وقوله: ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ يقول - تعالى ذكره - : وليثيب الله كل عامل بما عمل من عمل خلق السموات والأرض، المحسن بالإحسان، والمسيء بما هو أهله، لا لنبخس المحسن ثواب إحسانه، ونحمل عليه جرم غيره، فنعاقبه، أو نجعل للمسيء ثواب إحسان غيره فنكرمه، ولكن لنجزى كلا بما كسبت يداه، وهم لا يُظلمون جزاء أعمالهم»^(١).

وقال الألوسي معلقاً على قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ كأنه دليل على إنكار حسابانهم السابق، أو دليل على تساوي محيا كل فريق ومماته، وبيان لحكمته على تقدير كون قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ نَّحْيُهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ استثنافاً، وذلك من حيث أن خلق العالم بالحق المقتضي للعدل يستدعي انتصاف المظلوم من الظالم، والتفاوت بين المسيء والمحسن، وإذا لم يكن في المحيا كان بعد الممات حتماً ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ عطف على ﴿بِالْحَقِّ﴾ لأنه في معنى العلة، سواء كانت الباء للسببية الغائية أو الملازمة، أما على الأول فظاهر، وأما على

(١) جامع البيان (٢٥/ ١٤٩-١٥٠).

الثاني فلأن المعنى خلقها ملتبسة ومقرونة بالحكمة والصواب دون العبث والباطل ، وحاصله خلقها لأجل ذلك ، أو عطف على علة محذوفة مثل ليدل سبحانه بها على قدرته أو ليعدل ، وما موصولة أو مصدرية أي : ليجزي كل نفس بالذي كسبته أو بكسبها ﴿وَهُمْ﴾ أي : النفوس المدلول عليها بكل نفس ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص ثواب وتضعيف عذاب»^(١).

وقال ابن عطية : واللام في قوله : ﴿وَلِتُجْزَى﴾ يظهر أن تكون لام كي ، فكأن الجزاء من أسباب خلق السماوات ، ويحتمل أن تكون لام الصيرورة ؛ أي : صار الأمر فيها من حيث اهتدى بها قوم وضل عنها آخرون ؛ لأن يجازى كل أحد بعمله وبما اكتسب من خير أو شر»^(٢).

وقال ابن عاشور : «﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ضمير : ﴿وَهُمْ﴾ عائد إلى ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ ، فإن ذلك الجزاء مما اقتضاه العدل الذي جعل سبباً أو ملابساً لخلق السماوات والأرض وما فيهما ، فهو عدل ، فليس من الظلم في شيء ، فالمُجَازَى غير مظلوم ، وبالجزاء أيضاً ينتفي أثر ظلم الظالم عن المظلوم ، إذ لو ترك الجزاء لاستمر المظلوم مظلوماً»^(٣).

وقال السعدي : «أي : خلق الله السماوات والأرض بالحكمة ، وليعبد وحده لا شريك له ، ثم يحاسب بعد ذلك من أمرهم بعبادته ، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة ، هل شكروا الله تعالى وقاموا بالمأمور؟ أم كفروا فاستحقوا جزاء الكفور؟»^(٤).

* * *

(١) روح المعاني (٢٥ / ١٥١).

(٢) المحرر الوجيز (٥ / ٨٦).

(٣) التحرير والتنوير (٢٥ / ٣٥٧) بتصرف.

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٧ / ٢٨).

قوله تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾^(١)

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير : «أي : إنما ياتمر بهواه ، فمهما رآه حسنا فعله ، ومهما رآه قبيحا تركه : وهذا قد يستدل به على المعتزلة في قولهم بالتحسين والتقبيح العقليين»^(٢).

قال ابن عاشور : «لما كان الذين حسبوا أن يكونوا في الآخرة في نعمة وعزة كما كانوا في الدنيا ؛ قالوا ذلك عن غير دليل ولا نظر ، ولكن عن اتباع ما يشتهون لأنفسهم من دوام الحال الحسن ، تفرع على حسبانهم التعجيب من حالهم ، فعطف بالفاء الاستفهام المستعمل في التعجيب . . والمعنى : أن حجاجهم المسلمين مرگز على اتباع الهوى والمغالطة ، فلا نهوض لحجتهم لا في نفس الأمر ولا فيما أرادوه ، على فرض وقوع البعث من أن يكونوا آمنين من أهوال البعث ، وأنهم لا يرجى لهم اهتداء ؛ لأن الله خلقهم غير قابلين للهدى ، فلا يستطيع غيره هداهم»^(٣).

قال ابن جرير : «اختلف أهل التأويل في تأويل قوله : ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ فقال بعضهم : معنى ذلك : أفرأيت من اتخذ دينه بهواه ، فلا يهوى شيئا إلا ركه ، لأنه لا يؤمن بالله ، ولا يحرم ما حرم ، ولا يحلل ما حلل ، إنما دينه ما هويته نفسه يعمل به . . وقال آخرون : بل معنى ذلك : أفرأيت من اتخذ معبوده ما هويت عبادته نفسه في شيء . . وأولى التأويلين في ذلك بالصواب قول من قال : معنى ذلك : أفرأيت يا محمد من اتخذ معبوده هواه ، فيعبد ما هوي من شيء دون إله الحق الذي له الألوهة من كل شيء ، لأن ذلك هو الظاهر من معناه دون غيره»^(٤).

وقال القرطبي : «قال ابن عباس والحسن وقتادة : ذلك الكافر اتخذ دينه ما يهواه ، فلا يهوى شيئا إلا ركه . وقال عكرمة : أفرأيت من جعل إلهه الذي يعبد ما

(١) الجاثية : الآية (٢٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧ / ٢٦٨).

(٣) التحرير والتنوير (٢٥ / ٣٥٧-٣٥٨).

(٤) جامع البيان (٢٥ / ١٥٠).

يهواه أو يستحسنه ، فإذا استحسن شيئاً وهويه اتخذه إلها . قال سعيد بن جبير : كان أحدهم يعبد الحجر ، فإذا رأى ما هو أحسن منه رمى به وعبد الآخر . . وقيل : المعنى أفرأيت من ينقاد لهواه ومعبوده تعجيباً لذوي العقول من هذا الجهل . وقال الحسن بن الفضل : في هذه الآية تقديم وتأخير ، مجازة : أفرأيت من اتخذ هواه إلهه . وقال الشعبي : إنما سمي الهوى هوى لأنه يهوي بصاحبه في النار . وقال ابن عباس : ما ذكر الله هوى في القرآن إلا ذمه ، قال الله تعالى : ﴿ وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ فَكَلَ اللَّهُ كَلْبَهُ ﴾^(١) ، وقال تعالى : ﴿ وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا ﴾^(٢) ، وقال تعالى : ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ﴾^(٣) ، وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوْنَهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ﴾^(٤) ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾^(٥) . . وقال ﷺ : «إذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوى متبعاً ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، فعليك بخاصة نفسك ودع عنك أمر العامة»^(٦) . وقال ﷺ : «ثلاث مهلكات وثلاث منجيات : فالمهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه . والمنجيات خشية الله في السر والعلانية ، والقصد في الغنى والفقر ، والعدل في الرضا والغضب»^(٧) .

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : «إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله وعلمه ، فإن كان عمله تبعاً لهواه فيومه يوم سوء ، وإن كان عمله تبعاً لعلمه فيومه يوم صالح .

وقال الأصمعي : سمعت رجلاً يقول :

(٢) الكهف : الآية (٢٨) .

(٤) القصص : الآية (٥٠) .

(١) الأعراف : الآية (١٧٦) .

(٣) الروم : الآية (٢٩) .

(٥) ص : الآية (٢٦) .

(٦) أخرجه أبو داود (٤ / ٥١٢ / ٤٣٤١) ، والترمذي (٥ / ٢٤٠ / ٣٠٥٨) وقال : «حسن غريب» ، وابن ماجه (٢ /

١٣٣٠-١٣٣١ / ٤٠١٤) ، وصححه ابن حبان (٢ / ١٠٨-١٠٩ / ٣٨٥) من حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه .

(٧) أخرجه البزار (١ / ٥٩ / ٨٠) ، وأبو بكر الدينوري في المجالسة (٣ / ٢٥٦-٢٦٢ / ٨٩٩) ، وأبو نعيم في

الحلية (٢ / ٣٤٣) ، والقضاعي في مسند الشهاب (١ / ٢١٤-٢١٥ / ٣٢٥) ، والطبراني في الأوسط (٦ /

٢١٤ / ٥٤٤٨) ، والبيهقي في الشعب (١ / ٤٧١ / ٧٤٥) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه وقد روي من حديث

عبد الله بن عباس ، وأبي هريرة وعبد الله بن أبي أوفى ، وعبد الله بن عمر ، قال الشيخ الألباني عقب

تخريجه لهذه الشواهد : «وبالجملة فالحديث بمجموع هذه الطرق حسن على أقل الدرجات إن شاء الله

تعالى ، وبه جزم المنذري» .

إن الهوان هو الهوى قلب اسمه فإذا هويت فقد لقيت هوانا
وسئل ابن المقفع عن الهوى فقال: هوان سرقت نونه، فأخذه شاعر فنظمه
وقال:

نون الهوان من الهوى مسروقة فإذا هويت فقد لقيت هوانا
وقال آخر:

إن الهوى لهو الهوان بعينه وإذا هويت فقد تعبدك الهوى
ولعبد الله بن المبارك:

ومن البلايا للبلاء علامة ألا يرى لك عن هواك نزوع
العبد عبد النفس في شهواتها والحريشبع تارة ويجوع^(١).

وقال: «قال سهل بن عبد الله: هواؤك داؤك، وحسبك بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ ٤٠ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ٤١﴾^(٢)»^(٣).

ومعنى الهوى - يقول برهان الدين البقاعي - أنه يهوي بصاحبه في الهواء الممدود وهو الفضاء؛ أي: ينزل به عن درجة عليا إلى ما دونها، فهو في سفول ما دام تابعا له، فلذلك هو يوجب الهوان^(٤).

* * *

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٦ / ١٦٦-١٦٨).

(٢) النازعات: الآيتان (٤٠-٤١).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٦ / ١٦٨-١٦٩).

(٤) نظم الدرر (١٨ / ٩٥).

قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ، وَقَلْبِهِ، وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ،
غِشَاوَةً﴾^(١)

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وخذله عن
محجة الطريق، وسبيل الرشاد في سابق علمه على علم منه بأنه لا يهتدي، ولو
جاءته كل آية.. وقوله: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ، وَقَلْبِهِ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وطبع على
سمعه أن يسمع مواعظ الله وآي كتابه، فيعتبر بها ويتدبرها، ويتفكر فيها، فيعقل ما
فيها من النور والبيان والهدى.

وقوله: ﴿وَقَلْبِهِ﴾ يقول: وطبع أيضًا على قلبه، فلا يعقل به شيئًا، ولا يعي به
حقًا. وقوله: ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ يقول: وجعل على بصره غشاوة أن يبصر به
حجج الله، فيستدل بها على وحدانيته، ويعلم بها أن لا إله غيره»^(٢).

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ يحتمل قولين: أحدها: وأضله الله
لعلمه أنه يستحق ذلك. والآخر: وأضله الله بعد بلوغ العلم إليه، وقيام الحجة عليه.
والثاني يستلزم الأول، ولا ينعكس»^(٣).

وقال ابن عاشور: «ومعنى: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أنهم أحاطت بهم أسباب الضلالة مع
أنهم أهل علم؛ أي: عقول سليمة، أو مع أنهم بلغهم العلم بما يهديهم، وذلك
بالقرآن ودعوة النبي ﷺ إلى الإسلام.. والمعنى: أنه ضال مع ما له من صفة
العلم، فالعلم هنا من وصف من اتخذ إلهه هواه، وهو متمكن من العلم لو خلع عن
نفسه المكابرة، والميل إلى الهوى»^(٤).

* * *

(٢) جامع البيان (٢٥ / ١٥٠-١٥١).

(٤) التحرير والتنوير (٢٥ / ٣٥٨).

(١) الجاثية: الآية (٢٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٦٨).

قوله تعالى : ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾^(١)

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال السعدي : «أي : لا أحد يهديه وقد سد الله عليه أبواب الهداية ، وفتح له أبواب الغواية ، وما ظلمه الله ولكن هو الذي ظلم نفسه ، وتسبب لمنع رحمة الله عليه ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ما ينفعكم فتسلكوه ، وما يضركم فتجتنبوه»^(٢).

وقال ابن عاشور : «وهذه الآية أصل في التحذير من أن يكون الهوى الباعث للمؤمنين على أعمالهم ، ويتركوا اتباع أدلة الحق ، فإذا كان الحق محبوباً لأحد ، فذلك من التخلق بمحبة الحق تبعاً للدليل ، مثل ما يهوى المؤمن الصلاة والجماعة وقيام رمضان وتلاوة القرآن ، وفي الحديث : «أرْحَنَّا بِهَا يَا بِلَالُ»^(٣) يعني الإقامة للصلاة . . وأما اتباع الأمر المحبوب لإرضاء النفس دون نظر في صلاحه أو فساده ؛ فذلك سبب الضلال وسوء السيرة . قال عمرو بن العاصي :

إذا المرء لم يترك طعاماً يحبه	ولم ينه قلباً غاوياً حيث يَمَّمَا
فيوشك أن تلقى له الدهر سبّة	إذا ذكرت أمثالها تملأ الفما» ^(٤) .

* * *

(١) الجاثية : الآية (٢٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧ / ٢٩).

(٣) أخرجه أحمد (٥ / ٣٦٤)، وأبو داود (٢ / ٧١٥ / ٤٩٨٥)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود رقم (٤١٧١).

(٤) التحرير والتنوير (٢٥ / ٣٥٩-٣٦٠).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (٢٤)

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن قول الدهرية من الكفار، ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي: ما ثم إلا هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون، وما ثم معاد ولا قيامة، وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد، ويقولوه الفلاسفة الدهرية الإلهيون منهم، وهم ينكرون البدأة والرجعة، ويقولوه الفلاسفة الدهرية الدورية، المنكرون للصانع، المعتقدون أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه، وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى، فكابروا المعقول وكذبوا المنقول»^(١).

وقال ابن جرير: «وقوله: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ نموت نحن ونحيا أبناؤنا بعدنا، فجعلوا حياة أبنائهم بعدهم حياة لهم، لأنهم منهم وبعضهم، فكانهم بحياتهم أحياء، وذلك نظير قول الناس: ما مات من خلف ابنا مثل فلان، لأنه بحياة ذكره به كأنه حي غير ميت، وقد يحتمل وجها آخر، وهو أن يكون معناه: نحيا ونموت على وجه تقديم الحياة قبل الممات، كما يقال: قمت وقعدت، بمعنى: قعدت وقمت؛ والعرب تفعل ذلك في الواو خاصة، إذا أرادوا الخبر عن شيئين أنهما كانا أو يكونان، ولم تقصد الخبر عن كون أحدهما قبل الآخر، تقدم المتأخر حدوثاً على المتقدم حدوثه منهما أحياناً، فهذا من ذلك، لأنه لم يقصد فيه إلى الخبر عن كون الحياة قبل الممات، فقدّم ذكر الممات قبل ذكر الحياة، إذ كان القصد إلى الخبر عن أنهم يكونون مرة أحياء وأخرى أمواتاً»^(٢).

وقال أبو حيان: والظاهر أن قولهم: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ حكم على النوع بجملته من

(١) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٥٣).

(٢) جامع البيان (٢٥ / ١٥١-١٥٢).

غير اعتبار تقديم وتأخير؛ أي: تموت طائفة وتحيا طائفة، وأن المراد بالموت مفارقة الروح للجسد»^(١).

وقال الألوسي: «وقيل: أرادوا بالموت عدم الحياة السابق على نفخ الروح فيهم؛ أي: نكون نطفًا وما قبلها وما بعدها ونحيا بعد ذلك. وقيل: أرادوا بالحياة بقاء النسل والذرية مجازًا كأنهم قالوا: نموت بأنفسنا ونحيا ببقاء أولادنا وذرائنا. وقيل: أرادوا يموت بعضنا ويحيا بعض، على أن التجوز في الإسناد، وجوز أن يريدوا بالحياة على سبيل المجاز إعادة الروح لبدن آخر بطريق التناسخ، وهو اعتقاد كثير من عبدة الأصنام، ولا يخفى بعد ذلك»^(٢).

وقال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَمَا يَهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ يقول -تعالى ذكره- مخبرًا عن هؤلاء المشركين أنهم قالوا: وما يهلكنا فيفنينا إلا مرّ الليالي والأيام، وطول العمر، إنكارًا منهم أن يكون لهم ربّ يفنيهم ويهلكهم. . . وذكر أن هذه الآية نزلت من أجل أن أهل الشرك كانوا يقولون: الذي يهلكنا ويفنينا الدهر والزمان، ثم يسبون ما يفنيهم ويهلكهم، وهم يرون أنهم يسبون بذلك الدهر والزمان، فقال الله ﷻ لهم: أنا الذي أفنيكم وأهلككم، لا الدهر والزمان، ولا علم لكم بذلك. . . ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وما لهؤلاء المشركين القائلين: ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا، وما يهلكنا إلا الدهر، بما يقولون من ذلك من علم: يعني من يقين علم، لأنهم يقولون ذلك تخرصًا بغير خبر أتاهم من الله، ولا برهان عندهم بحقيقته ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ يقول -جل ثناؤه-: ما هم إلا في ظنّ من ذلك، وشكّ يخبر عنهم أنهم في حيرة من اعتقادهم حقيقة ما ينطقون من ذلك بالسنتهم»^(٣).

وقال القرطبي: «وكان المشركون أصنافًا، منهم هؤلاء، ومنهم من كان يثبت الصانع وينكر البعث، ومنهم من كان يشك في البعث ولا يقطع بإنكاره. وحدث في الإسلام أقوام ليس يمكنهم إنكار البعث خوفًا من المسلمين، فيتأولون ويرون القيامة موت البدن، ويرون الثواب والعقاب إلى خيالات تقع للأرواح بزعمهم،

(١) البحر المحيط (٨ / ٤٩).

(٢) روح المعاني (٢٥ / ١٥٣).

(٣) جامع البيان (٢٥ / ١٥٢-١٥٣).

فشر هؤلاء أضر من شر جميع الكفار، لأن هؤلاء يلبسون على الحق، ويغتر بتلبيسهم الظاهر، والمشارك المجاهر بشركه يحذرهُ المسلم»^(١).

وقال الشنقيطي: «ما تضمنته هذه الآية الكريمة من إنكار الكفار للبعث بعد الموت، جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى عنهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾^(٢) وقوله: ﴿أَعِدُّكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ﴾^(٣) هَيَّاتَ هَيَّاتَ لِمَا تُوعَدُونَ^(٤) إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾^(٥)، وقوله تعالى عنهم: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾^(٦)، وقوله تعالى عنهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظْمًا تَخِرَّةً﴾^(٧) قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾^(٨)، وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾^(٩)، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة»^(١٠).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في أن من سب الدهر فقد آذى الله

* عن سفيان بن عيينة، قال: «كان أهل الجاهلية يقولون: إنما يهلكنا الليل والنهار، هو الذي يهلكنا ويميتنا ويحيينا، قال تعالى: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ الآية، قال الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «يقول الله -جل وعلا-: «يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلب ليله ونهاره، فإذا شئت قبضتهما»^(١).

* عن أبي هريرة ﷺ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله ﷻ: يؤذيني ابن آدم يسب الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر أقلب الليل والنهار»^(٢).

(٢) الدخان: الآية (٣٥).

(٤) ق: الآية (٣).

(٦) يس: الآية (٧٨).

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٧٢ / ٢٦).

(٣) المؤمنون: الآيات (٣٧-٣٥).

(٥) النازعات: الآيات (١٢-١٠).

(٧) أضواء البيان (٣٥٨ / ٧).

(٨) أخرجه البيهقي في الكبرى (٣٦٥ / ٣)، وابن حبان (١٣ / ٢٣-٢٤ / ٥٧١٥ الإحسان)، والحاكم (٢ / ٤٥٣) وقال: «صحيح على شرطهما» ووافقه الذهبي.

(٩) أخرجه أحمد (٢ / ٢٣٨)، البخاري (٨ / ٧٣٨ / ٤٨٢٦)، واللفظ له، مسلم (٤ / ١٧٦٢ / ٢٢٤٦ [٢-٣])، أبو داود (٥ / ٤٢٣ / ٥٢٧٤)، النسائي في الكبرى (٦ / ٤٥٧ / ١١٤٨٧).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يقول الله: استقرضت عبدي فلم يقرضني، ويشتمني عبدي وهو لا يدري، يقول: وادهراه، وادهراه، وأنا الدهر»^(١).

* فوائد الأحاديث:

قال ابن عبد البر: «والمعنى: أن أهل الجاهلية كانوا يذمون الدهر في أشعارهم وأخبارهم، ويضيفون إليه كل ما يصنع الله بهم. وقد حكى الله عنهم قولهم: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾^(٢)، فنهى الله عن قولهم ذلك، ونهى رسول الله ﷺ عنه أيضاً بقوله: «لا تسبوا الدهر» يعني: لأنكم إذا سببتموه وذمتموه لما يصيبكم فيه من المحن والآفات والمصائب، وقع السب والذم على الله؛ لأنه الفاعل ذلك وحده لا شريك له؛ وهذا ما لا يسع أحدا جهله، والوقوف على معناه؛ لا يتعلق به الدهرية أهل التعطيل والإلحاد، وقد نطق القرآن، وصحت السنة بما ذكرنا؛ وذلك أن العرب كان من شأنها ذم الدهر عندما ينزل بها من المكارة، فيقولون: أصابتنا قوارع الدهر، وأبادنا الدهر، وأتى علينا الدهر»^(٣).

قال النووي: «أي لا تسبوا فاعل النوازل، فإنكم إذا سببتم فاعلها وقع السب على الله تعالى، لأنه هو فاعلها ومنزلها، وأما الدهر الذي هو الزمان فلا فعل له؛ بل هو مخلوق من جملة خلق الله تعالى، ومعنى «فإن الله هو الدهر» أي: فاعل النوازل والحوادث، وخالق الكائنات والله أعلم»^(٣).

قال ابن القيم: «في هذا ثلاث مفاصد عظيمة:

إحداها: سبه من ليس بأهل أن يسب، فإن الدهر خلق مسخر من خلق الله، منقاد لأمره، مذل لتسخيره، فسابه أولى بالذم والسب منه.

الثانية: أن سبه متضمن للشرك، فإنه إنما سبه لظنه أنه يضر وينفع، وأنه مع ذلك ظالم قد ضر من لا يستحق الضرر، وأعطى من لا يستحق العطاء، ورفع من لا يستحق الرفعة، وحرّم من لا يستحق الحرمان، وهو عند شاتميه من أظلم الظلمة، وأشعار

(١) أخرجه أحمد (٣٠٠ / ٢) واللفظ له، الحاكم (٤١٨ / ١) وصححه ووافقه الذهبي، ابن جرير في التفسير (٢٥ / ١٥٢).

(٣) شرح مسلم (٣ / ١٥).

(٢) فتح البر (١ / ٣٤٤-٣٤٥).

هؤلاء الظلمة الخونة في سبه كثيرة جدا ، وكثير من الجاهل يصرح بلعنه وتقييحه .

الثالثة : أن السب منهم إنما يقع على من فعل هذه الأفعال التي لو اتبع الحق فيها أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ، وإذا وقعت أهواؤهم ، حمدوا الدهر ، وأثنوا عليه ، وفي حقيقة الأمر ، قرب الدهر تعالى هو المعطي المانع ، الخافض الرافع ، المعز المذل ، والدهر ليس له من الأمر شيء ، فمستبهم للدهر مسبة لله ﷻ ، ولهذا كانت مؤذية للرب تعالى ، كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « قال الله تعالى : يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر » فسب الدهر دائر بين أمرين لا بد له من أحدهما : إما سبه لله ، أو الشرك به ، فإنه إذا اعتقد أن الدهر فاعل مع الله فهو مشرك ، وإن اعتقد أن الله وحده هو الذي فعل ذلك وهو يسب من فعله ، فقد سب الله»^(١) .

قال ابن عثيمين : «وسب الدهر ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول : أن يقصد الخبر المحض دون اللوم ، فهذا جائز مثل أن يقول : تعبنا من شدة حر هذا اليوم ، أو برده وما أشبه ذلك ؛ لأن الأعمال بالنيات ، واللفظ صالح لمجرد الخبر ، ومنه قول لوط عليه السلام : ﴿ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾^(٢) .

الثاني : أن يسب الدهر على أنه الفاعل ، كأن يعتقد بسبه الدهر أن الدهر هو الذي يقلب الأمور إلى الخير والشر ، فهذا شرك أكبر ؛ لأنه اعتقد أن مع الله إله يستحق أن يعبد فإنه كافر .

الثالث : أن يسب الدهر لا لاعتقاده أنه هو الفاعل ؛ بل يعتقد أن الله هو الفاعل لكن يسبه ؛ لأنه محل لهذا الأمر المكروه عنده فهذا محرم ، ولا يصل إلى درجة الشرك ؛ وذلك لأن سبه إياه لا يخلو إما أن يعتقد أن الله هو الفاعل ، فتكون حقيقة السب لله ﷻ ؛ لأن الله تعالى هو الذي يصرفه ويكون فيه ما أراد من خير أو من شر ، فليس للدهر فعل ، فسبه في الحقيقة يعود إلى سب الله ﷻ ؛ فيكون هذا محرما ، وليس بشرك ؛ لأنه لم يسب الله تعالى مباشرة»^(٣) .

(١) زاد المعاد (٢/ ٣٥٤-٣٥٥) .

(٢) هود: الآية (٧٧) .

(٣) القول المفيد (٢/ ٣٥١-٣٥٢) .

قال في تيسير العزيز الحميد: «ولفظ الأذى في اللغة لما خف أمره، وضعف أثره من الشرك والمكروه. ذكره الخطابي. قال شيخ الإسلام: وهو كما قال، وهذا بخلاف الضرر، فقد أخبر سبحانه أن العباد لا يضرّونه كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾^(١)». ^(٢).

* * *

(١) آل عمران: الآية (١٧٦).

(٢) تيسير العزيز الحميد (ص: ٦٢٦).

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبُوا
بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير رحمه الله : «يقول - تعالى ذكره - : وإذا تُتلى على هؤلاء المشركين
المكذّبين بالبعث آياتنا ، بأن الله باعث خلقه من بعد مماتهم ، فجامعهم يوم القيامة
عنده للثواب والعقاب ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ يعني : واضحات جليات ، تنفي الشك عن قلب
أهل التصديق بالله في ذلك ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾
يقول - جل ثناؤه - : لم يكن لهم حجة على رسولنا الذي يتلو ذلك عليهم إلا قولهم
له : ائتنا بآبائنا الذين قد هلكوا أحياء ، وانشرهم لنا إن كنت صادقاً فيما تتلو علينا
وتخبرنا ، حتى نصدّق بحقيقة ما تقول بأن الله باعثنا من بعد مماتنا ، ومحينا من بعد
فنائنا»^(١).

قال برهان الدين البقاعي : «وذلك استبعاد منهم لأن يقدر على جمع الجسم بعد
ما بلى ، وهم يقرون بأنه الذي خلق ذلك الجسم ابتداء ، ومن المعلوم قطعاً أن من قدر
على إنشاء شيء من العدم ؛ قدر على إعادته بطريق الأولى»^(٢).

وقال الزمخشري : «فإن قلت : لم سمى قولهم حجة وليس بحجة ؟ قلت : لأنهم
أدلوا به كما يدلي المحتج بحجته وساقوه مساقها ، فسميت حجة على سبيل التهكم .
أو لأنه في حسابهم وتقديرهم حجة . أو لأنه في أسلوب قوله : تَحِيَّةٌ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ
وَجِيعٌ ، كأنه قيل : ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة ، والمراد : نفي أن تكون لهم
حجة البتة»^(٣).

* * *

(١) جامع البيان (٢٥ / ١٥٣) .

(٢) نظم الدرر (٢٥ / ١٠٠ - ١٠١) .

(٣) الكشف (٣ / ٥١٣) .

قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٦﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو السعود: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ ابتداء ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم، لا كما تزعمون من أنكم تحيون وتموتون بحكم الدهر، ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ﴾ بعد الموت ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ للجزاء ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: في جمعكم، فإن من قدر على البدء قدر على الإعادة، والحكمة اقتضت الجمع للجزاء لا محالة، والوعد المصدق بالآيات دل على وقوعها حتماً، والإتيان بأبائهم حيث كان مزاحماً للحكمة التشريعية امتنع إيقاعه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ استدراك من قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، وهو إما من تمام الكلام المأمور به، أو كلام مسوق من جهته تعالى، تحقيقاً للحق، وتنبيهاً على أن ارتيابهم لجهلهم وقصورهم في النظر والتفكير، لا لأن فيه شائبة ريب ما^(١).

وقال ابن كثير: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فلهذا ينكرون المعاد، ويستبعدون قيام الأجساد، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۖ وَرَأَيْنَهُ قَرِيبًا﴾ ﴿٧﴾^(٢) أي: يرون وقوعه بعيداً، والمؤمنون يرون ذلك سهلاً قريباً^(٣).

* * *

(١) تفسير أبي السعود (٨ / ٧٤).

(٢) المعارج: الآيتان (٦-٧).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٥٥).

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَ يَخْسَرُ
الْمُبْطِلُونَ﴾ ﴿٢٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : ولله سلطان السموات السبع والأرض، دون ما تدعون له شريكا، وتعبدونه من دونه، والذي تدعونه من دونه من الآلهة والأنداد في ملكه وسلطانه، جارٍ عليه حكمه، فكيف يكون ما كان كذلك له شريكا؟ أم كيف تعبدونه وتتركون عبادة مالكم، ومالك ما تعبدونه من دونه؟ ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ يقول - تعالى ذكره - : ويوم تجيء الساعة التي يُنْشِرُ الله فيها الموتى من قبورهم، ويجمعهم لموقف العرض، ﴿يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ : يقول: يغبن فيها الذين أبطلوا في الدنيا في أقوالهم ودعواهم لله شريكا، وعبادتهم آلهة دونه بأن يفوز بمنزلهم من الجنة المحقون، ويبدّلوا بها منازل من النار كانت للمحقين، فجعلت لهم بمنزلهم من الجنة، ذلك هو الخسران المبين»^(١).

وقال السعدي: «يوم تَقُومُ السَّاعَةُ ويجمع الخلائق لموقف القيامة، يحصل الخسار على المبطلين، الذين أتوا بالباطل ليدحضوا به الحق، وكانت أعمالهم باطلة لأنها متعلقة بالباطل فبطلت في يوم القيامة، اليوم الذي تستبين به الحقائق، واضمحلت عنهم وفاتهم الثواب، وحصلوا على أليم العقاب»^(٢).

وقال ابن كثير: «وقال ابن أبي حاتم: قدم سفيان الثوري المدينة، فسمع المَعافري يتكلم ببعض ما يضحك به الناس، فقال له: يا شيخ، أما علمت أن لله يوما يخسر فيه المبطلون؟ قال: فما زالت تعرف في المعافري حتى لحق بالله ﷻ»^(٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧ / ٣١).

(١) جامع البيان (٢٥ / ١٥٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٥٥).

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال الشوكاني: «الخطاب لكل من يصلح له، أو للنبي ﷺ، والأمة: الملة، ومعنى جائية: مستوفزة، والمستوفز: الذي لا يصيب الأرض منه إلا ركبتاه وأطراف أنامله، وذلك عند الحساب. وقيل: معنى جائية: مجتمعة، قال الفراء: المعنى وترى أهل كل دين مجتمعين. وقال عكرمة: متميزة عن غيرها. وقال مؤرج: معناه بلغة قريش: خاضعة. وقال الحسن: باركة على الركب، والجلوس على الركب، تقول: جثا يجثو ويجثي جثوا وجثيا: إذا جلس على ركبتيه، والأول أولى، ولا ينافيه ورود هذا اللفظ لمعنى آخر في لسان العرب، وقد ورد إطلاق الجثوة على الجماعة من كل شيء في لغة العرب، ومنه قول طرفة يصف قبرين:

ترى جثوتين من تراب عليهما صفائح صمّ من صفائح منضد

وظاهر الآية أن هذه الصفة تكون لكل أمة من الأمم، من غير فرق بين أهل الأديان المتبعين للرسول وغيرهم من أهل الشرك. وقال يحيى بن سلام: هو خاص بالكفار، والأول أولى^(١).

وقال السعدي: «﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ أي: إلى شريعة نبيهم الذي جاءهم من عند الله، وهل قاموا بها فيحصل لهم الثواب والنجاة؟ أم ضيعوها فيحصل لهم الخسران؟ فأمّة موسى يدعون إلى شريعة موسى، وأمّة عيسى كذلك، وأمّة محمد كذلك، وهكذا غيرهم، كل أمة تدعى إلى شرعها الذي كلفت به، هذا أحد الاحتمالات في الآية، وهو معنى صحيح في نفسه غير مشكوك فيه، ويحتمل أن

(١) فتح القدير (٥ / ١٤).

المراد بقوله : ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ أي : إلى كتاب أعمالها وما سطر عليها من خير وشر ، وأن كل أحد يجازى بما عمله بنفسه ، كقوله تعالى : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾^(١) ويحتمل أن المعنيين كليهما مراد من الآية^(٢) .

* * *

(١) الجاثية : الآية (١٥) .

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧ / ٣١ - ٣٢) .

قوله تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٢٩)

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ أي: يستحضر جميع أعمالكم من غير زيادة ولا نقص، كقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوتِلُنَا مَا لَ هَذَا أَلْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (٤٩) (١) (٢).

قال الشوكاني: «هذا من تمام ما يقال لهم، والقائل بهذا: هم الملائكة، وقيل: هو من قول الله سبحانه؛ أي: يشهد عليكم، وهو استعارة، يقال: نطق الكتاب بكذا؛ أي: بين، وقيل: إنهم يقرؤونه فيذكرون ما عملوا، فكانه ينطق عليهم بالحق الذي لا زيادة فيه ولا نقصان، ومحل ﴿يَنْطِقُ﴾ النصب على الحال، أو الرفع على أنه خبر آخر لاسم الإشارة، وجملة: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تعليل للنطق بالحق؛ أي: نأمر الملائكة بنسخ أعمالكم؛ أي: بكتبتها، وتشيتها عليكم.

قال الواحدي: وأكثر المفسرين على أن هذا الاستنساخ من اللوح المحفوظ، فإن الملائكة تكتب منه كل عام ما يكون من أعمال بني آدم، فيجدون ذلك موافقاً لما يعملونه، قالوا: لأن الاستنساخ لا يكون إلا من أصل. وقيل المعنى: نأمر الملائكة بنسخ ما كنتم تعملون. وقيل: إن الملائكة تكتب كل يوم ما يعمل به العبد، فإذا رجعوا إلى مكانهم نسخوا منه الحسنات والسيئات، وتركوا المباحات. وقيل: إن الملائكة إذا رفعت أعمال العباد إلى الله سبحانه أمرهم أن يثبت عنده منها ما فيه ثواب وعقاب، ويسقط منها ما لا ثواب فيه ولا عقاب» (٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٥٧).

(١) الكهف: الآية (٤٩).

(٣) فتح القدير (٥ / ١٥).

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ ﴿٢٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : فأما الذين آمنوا بالله في الدنيا فوحدوه، ولم يشركوا به شيئاً، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يقول: وعملوا بما أمرهم الله به، وانتهوا عما نهاهم الله عنه ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾ يعني في جنته برحمته»^(١).
وقوله: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ أي: المفاز والنجاة والربح والفلاح الواضح البين، الذي إذا حصل للعبد حصل له كل خير، واندفع عنه كل شر»^(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الجنة من رحمة الله ﷻ

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «تحتاج الجنة والنار، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: مالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم، قال الله - تبارك وتعالى - للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشياء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابٌ أعذب من أشياء من عبادي»^(٣).

* غريب الحديث:

تَحَاجَّتْ: أي: تخاصمت.

أَوْثَرْتُ: على صيغة المجهول، بمعنى: اختصمت، من الإيثار، وهو الانفراد بالشيء.

سَقَطَهُمْ: أي: أراذلهم وأدوانهم.

(١) جامع البيان (٢٩ / ١٥٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧ / ٣٢-٣٣).

(٣) أخرجه أحمد (٢ / ٣١٤-٤٥٠)، (٣ / ٧٩)، البخاري (٨ / ٧٦٥ / ٤٨٥٠)، مسلم (٤ / ٢١٨٦ / ٢٨٤٦).

* فوائد الحديث:

قوله في الجنة: «أنت رحمتي أرحم بك من أشياء من عبادي» يقول ابن القيم رحمته: «فهذه رحمة مخلوقة مضافة إليه إضافة المخلوق بالرحمة إلى الخالق تعالى، وسماها رحمة؛ لأنها خلقت بالرحمة وللرحمة، وخص بها أهل الرحمة، وإنما يدخلها الرحماء»^(١).

* * *

(١) بدائع الفوائد (٢ / ١٨٣).

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا تُجْرِمِينَ﴾ ﴿٣١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله فيقال لهم توبيخا وتقريعا: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ وقد دلتكم على ما فيه صلاحكم، ونهتكم عما فيه ضرركم، وهي أكبر نعمة وصلت إليكم لو وفقتم لها، فاستكبرتم عنها وأعرضتم وكفرتم بها، فجئتم أكبر جناية، وأجرمتم أشد الجرم، فاليوم تجزون ما كنتم تعملون»^(١).

وقال ابن جرير: «﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا تُجْرِمِينَ﴾ يقول: وكنتم قوما تكسبون الآثام والكفر بالله، لا تصدقون بمعاد، ولا تؤمنون بثواب ولا عقاب»^(٢).

قال القرطبي: «فالمجرم من أكسب نفسه المعاصي، وقد قال الله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿٣٥﴾»^(٣) فالمجرم ضد المسلم، فهو المذنب بالكفر إذن»^(٤).

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧ / ٣٣).

(٢) جامع البيان (٢٥ / ١٥٧).

(٣) القلم: الآية (٣٥).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٦ / ١٧٦).

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّبِعِينَ﴾ ﴿٣٢﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : «يقول - تعالى ذكره - : ويقال لهم حينئذ : ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ لكم ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ الذي وعد عباده ، أنه محييهم من بعد مماتهم ، وباعثهم من قبورهم ﴿حَقٌّ وَالسَّاعَةُ﴾ التي أخبرهم أنه يقيمها لحشرهم ، وجمعهم للحساب والثواب على الطاعة ، والعقاب على المعصية ، آتية ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ يقول : لا شك فيها ، يعني في الساعة ، والهاء في قوله : ﴿فِيهَا﴾ من ذكر الساعة . ومعنى الكلام : والساعة لا ريب في قيامها ، فاتقوا الله وآمنوا بالله ورسوله ، واعملوا لما ينجيكم من عقاب الله فيها ﴿قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ تكذيباً منكم بوعد الله - جل ثناؤه - ، ورداً لخبره ، وإنكاراً لقدرته على إحيائكم من بعد مماتكم .

وقوله : ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ يقول : وقلتم ما نظن أن الساعة آتية إلا ظناً ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُتَّبِعِينَ﴾ أنها جائية ، ولا أنها كائنة»^(١) .

* * *

(١) جامع البيان (٢٥ / ١٧٥) .

قوله تعالى: ﴿وَبَدَأْ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿٣٣﴾

أقول المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : وبدا لهؤلاء الذين كانوا في الدنيا يكفرون بآيات الله سيئات ما عملوا في الدنيا من الأعمال، يقول: ظهر لهم هنالك قبائحها وشرارها لما قرؤوا كتب أعمالهم التي كانت الحفظة تنسخها في الدنيا ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ يقول: وحاك بهم من عذاب الله حينئذ ما كانوا به يستهزئون إذ قيل لهم: إن الله مُحِلُّهُ بِمَنْ كَذَبَ بِهِ عَلَى سَيِّئَاتِ مَا فِي الدُّنْيَا عَمِلُوا مِنْ الْأَعْمَالِ»^(١).

* * *

(١) جامع البيان (٢٥ / ١٥٨).

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَنُكُمْ كَمَا فُتِنْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن تَصْرِيحٍ﴾ ﴿٢٤﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السمعاني: «أي: نترككم، ومعناه: نترككم من الرحمة وإعطاء الثواب، وقيل معناه: نترككم في العذاب، فلا نخرجكم منها كما نخرج المؤمنين. وقوله: ﴿كَمَا فُتِنْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أي: كما تركتم العمل ليومكم هذا، وقوله: ﴿وَمَاؤَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن تَصْرِيحٍ﴾ أي: من يمنع عذابنا منكم»^(١).
وقال الشوكاني: «﴿وَمَاؤَاكُمُ النَّارُ﴾ أي: مسكنكم ومستقركم الذي تأوون إليه ﴿وَمَا لَكُم مِّن تَصْرِيحٍ﴾ ينصرونكم فيمنعون عنكم العذاب»^(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ترك الله الكافر يوم القيامة في عذاب النار

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «يقول الله تعالى للعبد يوم القيامة: ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل، وأذكرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى، أي ربي! فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا. فيقول: فإني أنساك كما نسيتني» الحديث^(٣).

★ فوائد الحديث:

قال أبو عيسى الترمذي: «ومعنى قوله: «اليوم أنساك» يقول: اليوم أتركك في العذاب. هكذا فسروه. قال أبو عيسى: وقد فسر بعض أهل العلم هذه الآية ﴿فَالْيَوْمَ

(١) تفسير السمعاني (٥/ ١٤٦).

(٢) فتح القدير (٥/ ١٦).

(٣) أخرجه مسلم (٤/ ٢٢٧٩-٢٢٨٠ / ٢٩٦٨)، والترمذي (٤/ ٥٣٤-٥٣٥ / ٢٤٢٨).

نَسْنَهُمْ^(١) قالوا: إنما معناه اليوم نتركهم في العذاب^(٢).
 وقال النووي: «قوله تعالى «فإني أنساك كما نسيتني» أي: أمنتك الرحمة كما
 امتنعت من طاعتي»^(٣).

* * *

(١) الأعراف: الآية (٥١).

(٢) سنن الترمذي (٤ / ٥٣٥).

(٣) شرح مسلم (١٨ / ٨٢).

قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنكُمْ اتَّخَذْتُمْ ءَايَتِ اللَّهِ هُزُوءًا وَغَرَّكُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فَأَلْيَوْمَ لَا يُخْرِجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (٣٥)

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: أي: إنما جازيناكم هذا الجزاء لأنكم اتخذتم حجج الله عليكم سخريا، تسخرون وتستهزئون بها، ﴿وَعَرَّكُمْ الدُّنْيَا﴾ أي: خدعتكم فاطمأنتم إليها، فأصبحت من الخاسرين؛ ولهذا قال: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرِجُونَ مِنْهَا﴾ أي: من النار ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: لا يطلب منهم العتبي؛ بل يعذبون بغير حساب ولا عتاب، كما تدخل طائفة من المؤمنين الجنة بغير عذاب ولا حساب^(١).

وقال السعدي: «ذلكم الذي حصل لكم من العذاب بسبب ﴿أَنكُمْ اتَّخَذْتُمْ ءَايَتِ اللَّهِ هُزُوءًا﴾ مع أنها موجبة للجد والاجتهاد، وتلقيها بالسرور والاستبشار والفرح. ﴿وَعَرَّكُمْ الدُّنْيَا﴾ بزخارفها ولذاتها وشهواتها فاطمأنتم إليها، وعملت لها، وتركتم العمل للدار الباقية. ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرِجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: ولا يمهلون ولا يردون إلى الدنيا ليعملوا صالحا^(٢).

وقال السمعاني: «﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: لا يرجعون ولا يردون إلى ما كانوا عليه من العافية، ويقال: يستقبلون فلا يقالون، ويقال: ولا هم يستعتبون؛ أي: لا يعطون العتبي، وهو طلب رضاهم ومرادهم^(٣).

وقال الألوسي: «﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: يطلب منهم أن يعتبروا ربهم سبحانه؛ أي: يزيلوا عتبه - جل وعلا -، وهو كناية عن إرضائه تعالى؛ أي: لا يطلب منهم إرضاءه ﴿لَفَوَاتِ أَوَانِهِ﴾^(٤).

* * *

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧ / ٣٤-٣٥).

(٤) روح المعاني (٢٦ / ٢).

(١) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٢٥٧).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥ / ١٤٦).

قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٦٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ﴾ على نعمه وأياديه عند خلقه، فإياه فاحمدوا أيها الناس، فإن كل ما بكم من نعمة فمنه دون ما تعبدون من دونه من آلهة ووثن، ودون ما تتخذونه من دونه ربا، وتشركون به معه ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ﴾ يقول: مالك السموات السبع، ومالك الأرضين السبع و﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يقول: مالك جميع ما فيهن من أصناف الخلق»^(١).

* * *

(١) جامع البيان (٢٥ / ١٥٩).

وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أن له الكبرياء في السموات والأرض، يعني أنه المختص بالعظمة والكمال والجلال والسلطان في السماوات والأرض، لأنه هو معبود أهل السماوات والأرض، الذي يلزمهم تكبيره وتعظيمه، وتمجيده والخضوع والذل له.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة جاء مبيناً في آيات أخر كقوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ (٨٤) وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا^(١) ، فقوله : ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ معناه أنه هو وحده الذي يعظم ويعبد في السموات والأرض ، ويكبر ويخضع له ويدل ، وقوله تعالى : ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٢) ، فقوله : ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ معناه : أن له الوصف الأكمل ، الذي هو أعظم الأوصاف ، وأكملها وأجلها في السماوات والأرض^(٣) .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في اختصاص الله ﷻ بالكبرياء

* عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة قالا : قال رسول الله ﷺ : « العز إزاره والكبرياء رداؤه ، فمن ينازعني عذبتة » (٤) .

(١) الزخرف: الآيتان (٨٤-٨٥).

(٢) الروم: الآية (٢٧).

(٣) أعضاء البيان (٧ / ٣٦١).

(٤) أخرجه مسلم (٤ / ٢٠٢٣ / ٢٦٢٠)، من حديث أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما، وأخرجه أحمد (٢ / ٢٤٨)، أبو داود (٤ / ٣٥٠ / ٤٠٩٠)، ابن ماجه (٢ / ١٣٩٧ / ٤١٧٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

★ فوائد الحديث:

قال الخطابي: «معنى هذا الكلام: أن الكبرياء والعظمة صفتان لله سبحانه
اختص بهما لا يشركه أحد فيهما، ولا ينبغي لمخلوق أن يتعاطاهما؛ لأن صفة
المخلوق التواضع والتذلل»^(١).

ولمزيد من الشرح لهذا الحديث ينظر في أواخر سورة الحشر عند قوله تعالى:
﴿الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾^(٢).

(١) معالم السنن (٤ / ١٨٢).

(٢) الحشر: الآية (٢٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الأحقاف

أغراض السورة

قال ابن عاشور: «من الأغراض التي اشتملت عليها أنها افتتحت مثل سورة (الجاثية) بما يشير إلى إعجاز القرآن للاستدلال على أنه منزل من عند الله . والاستدلال بإتقان خلق السموات والأرض على التفرد بالإلهية ، وعلى إثبات جزاء الأعمال .

والإشارة إلى وقوع الجزاء بعد البعث ، وأن هذا العالم صائر إلى فناء . وإبطال الشركاء في الإلهية . والتدليل على خلوقهم عن صفات الإلهية . وإبطال أن يكون القرآن من صنع غير الله .

وإثبات رسالة محمد ﷺ ، واستشهاد الله تعالى على صدق رسالته ، واستشهاد شاهد بني إسرائيل ، وهو عبدالله بن سلام .

والثناء على الذين آمنوا بالقرآن ، وذكر بعض خصالهم الحميدة ، وما يضادها من خصال أهل الكفر ، وحسدهم الذي بعثهم على تكذيبه .

وذكرت معجزة إيمان الجن بالقرآن .

وختمت السورة بتثبيت الرسول ﷺ .

وأقحم في ذلك معاملة الوالدين والذرية مما هو من خلق المؤمنين ، وما هو من خلق أهل الضلالة .

والعبرة بضلالهم مع ما كانوا عليه من القوة ، وأن الله أخذهم بكفرهم وأهلك أمما أخرى فجعلهم عظة للمكذبين ، وأن جميعهم لم تغن عنهم أربابهم المكذوبة .

وقد أشبهت كثيرا من أغراض سورة (الجاثية) مع تفنن^(١) .

(١) التحرير والتنوير (٢٦/٦-٧) .

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾
 حم ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
 وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ﴿٣﴾

★ غريب الآية:

أنذروا: الإنذار: الإعلام المقترن بتهديد؛ فكل إنذار إعلام وليس كل إعلام إنذاراً.

معرضون: الإعراض عن الشيء: الصدود عنه، وعدم الإقبال إليه. وأصله: من العرض، بالضم، وهو الجانب؛ لأن المعرض عن الشيء يوليّه بجانب عنقه، صادّاً عنه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير رحمه الله: «يخبر تعالى أنه نزل الكتاب على عبده ورسوله محمد -صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين- ووصف نفسه بالعزة التي لا ترام، والحكمة في الأقوال والأفعال، ثم قال: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾؛ أي: لا على وجه العبث والباطل، ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ أي: وإلى مدة معينة مضروبة لا تزيد ولا تنقص.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ﴾؛ أي: لاهون عما يراد بهم، وقد أنزل إليهم كتاب وأرسل إليهم رسول، وهم معرضون عن ذلك كله؛ أي: وسيعلمون غيب ذلك»^(١).

وقال السعدي: «هذا ثناء منه تعالى على كتابه العزيز وتعظيم له، وفي ضمن ذلك إرشاد العباد إلى الاهتداء بنوره، والإقبال على تدبر آياته، واستخراج كنوزه.

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٥٨).

ولما بين إنزال كتابه المتضمن للأمر والنهي، ذكر خلقه السموات والأرض، فجمع بين الخلق والأمر، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾^(١) كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾^(٢)، وكما قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾^(٣) خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ^(٤)، فالله تعالى هو الذي خلق المكلفين، وخلق مساكنهم، وسخر لهم ما في السموات وما في الأرض، ثم أرسل إليهم رسوله، وأنزل عليهم كتبه، وأمرهم ونهاهم، وأخبرهم أن هذه الدار دار أعمال، وممر للعمال، لا دار إقامة لا يرحل عنها أهلها، وأنهم سينتقلون منها إلى دار الإقامة والقرار، وموطن الخلود والدوام، وإنما أعمالهم التي عملوها في هذه الدار سيجدون ثوابها في تلك الدار كاملاً موفراً.

وأقام تعالى الأدلة على تلك الدار، وأذاق العباد نموذجاً من الثواب والعقاب العاجل، ليكون أدعى لهم إلى طلب المحبوب، والهرب من المرهوب^(٥).

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ يقول - تعالى ذكره -: ما أحدثنا السموات والأرض فأوجدناهما خلقاً مصنوعاً، وما بينهما من أصناف العالم إلا بالحق؛ يعني: إلا لإقامة الحق والعدل في الخلق.

وقوله: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يقول: وإلا بأجل لكل ذلك معلوم عنده يفنيه إذا هو بلغه، ويعدمه بعد أن كان موجوداً بإيجاده إياه.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ﴾ يقول - تعالى ذكره -: والذين جحدوا وحدانية الله عن إنذار الله إياهم معرضون، لا يتعظون به، ولا يتفكرون^(٥).

وقال السعدي عند قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾: «أي: لا عبثاً ولا سدى، بل ليعرف العباد عظمة خالقهما، ويستدلوا على كماله، ويعلموا أن الذي خلقهما على عظمهما، قادر على أن يعيد العباد بعد موتهم للجزاء، وأن خلقهما وبقاءهما مقدر إلى ﴿أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾».

(١) الأعراف: الآية (٥٤).

(٢) الطلاق: الآية (١٢).

(٣) النحل: الآيتان (٣٢ و٣٣).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٧/٣٧-٣٨).

(٥) جامع البيان (١/٢٦).

فلما أخبر بذلك، وهو أصدق القائلين، وأقام الدليل، وأنار السبيل، أخبر مع ذلك أن طائفة من الخلق قد أبوا إلا إعراضاً عن الحق، وصدوفاً عن دعوة الرسل، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾. وأما الذين آمنوا، فلما علموا حقيقة الحال قبلوا وصايا ربهم، وتلقوها بالقبول والتسليم، وقابلوها بالانقياد والتعظيم، ففازوا بكل خير، واندفع عنهم كل شر^(١).

قال الشنقيطي عند قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾: ما ذكره -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة من أن الكفار معرضون عما أنذرتهم به الرسل جاء موضعاً في آيات كثيرة، كقوله تعالى في (البقرة): ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٢)، وقوله في (يس): ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْنِيهِمْ مِنْ ءَايَةٍ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾^(٤)، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة^(٥).



(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٣٧-٣٨).

(٢) البقرة: الآية (٦).

(٣) يس: الآية (١٠).

(٤) الأنعام: الآية (٤)، يس: الآية (٤٦).

(٥) أضواء البيان (٧/ ٣٧١).

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرُونَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

★ غريب الآية :

شرك : نصيب .

أثارة : الأثارة من الشيء : البقية منه .

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير : « يقول - تعالى ذكره - : قل يا محمد لهؤلاء المشركين بالله من قومك : أرايتم أيها القوم الآلهة والأوثان التي تعبدون من دون الله ، أروني أي شيء خلقوا من الأرض ؛ فإن ربي خلق الأرض كلها ، فدعوتموها من أجل خلقها ما خلقت من ذلك آلهة وأرباباً ، فيكون لكم بذلك في عبادتكم إياها حجة ؛ فإن من حجتي على عبادتي إلهي ، وإفرادي له الألوهة ، أنه خلق الأرض فابتدعها من غير أصل .

وقوله : ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ يقول - تعالى ذكره - : أم لآلهتكم التي تعبدونها - أيها الناس - شرك مع الله في السموات السبع ، فيكون لكم أيضاً بذلك حجة في عبادتكموها ؛ فإن من حجتي على إفرادي العبادة لربي أنه لا شريك له في خلقها ، وأنه المنفرد بخلقها دون كل ما سواه .

وقوله : ﴿ أَتُنُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴾ يقول - تعالى ذكره - : بكتاب جاء من عند الله من قبل هذا القرآن الذي أنزل عليّ ، بأن ما تعبدون من الآلهة والأوثان خلقوا من الأرض شيئاً ، أو أن لهم مع الله شركاً في السموات ، فيكون ذلك حجة لكم على عبادتكم إياها ؛ لأنها إذا صحّ لها ذلك صحت لها الشركة في النعم التي أنتم فيها ، ووجب لها عليكم الشكر ، واستحقت منكم الخدمة ؛ لأن ذلك لا يقدر

أن يخلقه إلا الله»^(١).

قال ابن كثير: ﴿قُلْ﴾ أي: لهؤلاء المشركين العابدين مع الله غيره: ﴿أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي: أرشدوني إلى المكان الذي استقلوا بخلقه من الأرض، ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: ولا شرك لهم في السموات ولا في الأرض، وما يملكون من قطمير، إن المُلْك والتصرف كله إلا الله ﷻ، فكيف تعبدون معه غيره، وتشركون به؟ من أرشدكم إلى هذا؟ من دعاكم إليه؟ أهو أمركم به؟ أم هو شيء اقترحتموه من عند أنفسكم؟ ولهذا قال: ﴿أَتُنْفِي بِكُتُبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا﴾؛ أي: هاتوا كتابًا من كتب الله المنزلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، يأمركم بعبادة هذه الأصنام، ﴿أَوْ أَثَرَةٌ مِّنْ عَلِيمٍ﴾ أي: دليل بين على هذا المسلك الذي سلكتموه ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: لا دليل لكم نقلًا ولا عقليًا على ذلك؛ ولهذا قرأ آخرون: (أَوْ أَثَرَةٌ مِّنْ عِلْمٍ) أي: أو علم صحيح يَأْثُرُونَهُ عن أحد ممن قبلهم، كما قال مجاهد في قوله: ﴿أَوْ أَثَرَةٌ مِّنْ عَلِيمٍ﴾: أو أحد يَأْثُرُ علمًا.

وقال العوفي، عن ابن عباس: أو بينة من الأمر.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن سفيان، حدثنا صفوان بن سليم، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن ابن عباس قال سفيان: لا أعلم إلا عن النبي ﷺ: (أَوْ أَثَرَةٌ مِّنْ عِلْمٍ) قال: «الخط».

وقال أبو بكر بن عياش: أو بقية من علم. وقال الحسن البصري: ﴿أَوْ أَثَرَةٌ﴾ شيء يستخرجه فيثيره.

وقال ابن عباس، ومجاهد، وأبو بكر بن عياش أيضًا: ﴿أَوْ أَثَرَةٌ مِّنْ عَلِيمٍ﴾: يعني الخط.

وقال قتادة: ﴿أَوْ أَثَرَةٌ مِّنْ عَلِيمٍ﴾: خاصة من علم.

وكل هذه الأقوال متقاربة، وهي راجعة إلى ما قلناه، وهو اختيار ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ وأكرمه، وأحسن مثواه»^(٢).

(١) جامع البيان (٢/٢٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/٢٥٨-٢٥٩).

قال ابن جرير: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: الأثرة: البقية من علم؛ لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب... وإذا وجه ذلك إلى ما قلنا فيه من أنه بقية من علم، جاز أن تكون تلك البقية من علم الخط، ومن علم استشير من كُتب الأولين، ومن خاصة علم كانوا أوثروا به. وقد رُوي عن رسول الله ﷺ في ذلك خبر بأنه تأوله أنه بمعنى الخط، سنذكره إن شاء الله تعالى، فتأويل الكلام إذن: اتتوني أيها القوم بكتاب من قبل هذا الكتاب، بتحقيق ما سألتكم تحقيقه من الحجة على دعواكم ما تدعون لآلهتكم، أو ببقية من علم يوصل بها إلى علم صحة ما تقولون من ذلك ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم لها ما تدعون؛ فإن الدعوى إذا لم يكن معها حجة لم تُغن عن المدعى شيئاً»^(١).

قال السعدي: «أي: قل لهؤلاء الذين أشركوا بالله أوثاناً وأنداداً، لا تملك نفعا ولا ضرا، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً».

قل لهم -مبيناً عجز أوثانهم، وأنها لا تستحق شيئاً من العبادة-: أروني ماذا خلقوا من الأرض، ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ هل خلقوا من أجرام السموات شيئاً؟ هل خلقوا جبلاً؟ هل أجروا أنهاراً؟.

هل نشروا حيواناً؟ هل أنبتوا أشجاراً؟

هل كان منهم معاونة على شيء من ذلك؟ لا شيء من ذلك، بإقرارهم على أنفسهم، فضلاً عن غيرهم. فهذا دليل عقلي قاطع، على أن كل من سوى الله، لعبادته باطلة.

ثم ذكر انتفاء الدليل النقلي فقال: ﴿أَتُورَى بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا﴾ الكتاب يدعو إلى الشرك ﴿أَوْ أَثَرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ موروثة عن الرسل يأمر بذلك.

من المعلوم أنهم عاجزون أن يأتوا عن أحد من الرسل، بدليل يدل على ذلك.

بل نجزم ونتيقن أن جميع الرسل، دعوا إلى توحيد ربهم، ونهوا عن الشرك به.

وهي أعظم ما يؤثر عنهم من العلم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا

أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾^(٢).

(١) جامع البيان (٢٦/٣-٤).

(٢) النحل: الآية (٣٦).

وكل رسول قال لقومه : ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾^(١) .

فعلم أن جدال المشركين في شركهم ، غير مستندين على برهان ولا دليل ، وإنما اعتمدوا على ظنون كاذبة ، وآراء كاسدة ، وعقول فاسدة . يدلك على فسادها ، استقرار أحوالهم ، وتتبع علومهم وأعمالهم ، والنظر في حال من أفنوا أعمارهم بعبادته ، هل أفادوا شيئاً في الدنيا أو في الآخرة . ولهذا قال تعالى : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾^(٢) «(٣)» .

قال الشنقيطي : «قد ذكرنا قريباً أن قوله : ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ يتضمن البرهان القاطع على صحة معنى لا إله إلا الله ، وأن العلامة الفارقة بين المعبود بحق ، وبين غيره هي كونه خالقاً ؛ وأول سورة (الأحقاف) هذه يزيد ذلك إيضاحاً ؛ لأنه ذكر من صفات المعبود بحق أنه خلق السموات والأرض وما بينهما بالحق ؛ وذكر من المعبودات الأخرى التي عبادتها كفر . مخلد في النار أنها لا تخلق شيئاً .

فقوله تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي : هذه المعبودات التي تعبدونها من دون الله ، ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ .

فقوله : ﴿أَرُونِي﴾ يراد بها التعجيز والمبالغة في عدم خلقهم شيئاً ، وعلى أن (ما) استفهامية ، و(ذا) موصولة ، فالمعنى أروني ما الذي خلقوه من الأرض . وعلى أن (ما) و(ذا) بمنزلة كلمة واحدة يراد بها الاستفهام ، فالمعنى : أروني أي شيء خلقوه من الأرض ؟

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن من لم يخلق شيئاً في الأرض ولم يكن له شرك في السموات ، لا يصح أن يكون معبوداً بحال ، جاء موضحاً في آيات كثيرة ، كقوله تعالى في (فاطر) : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا﴾^(٤) الآية ، وقوله في (لقمان) : ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾^(٥) ، وقوله في (سبا) : ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ

(٢) الأحقاف : الآية (٥) .

(٤) فاطر : الآية (٤٠) .

(١) الأعراف : الآية (٥٩) .

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٣٨-٤٠) .

(٥) لقمان : الآية (١١) .

مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمَا مِنْ شَرِكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مَنْ ظَهِيرٌ ﴿٢١﴾ ^(١)، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة ^(٢).

وقوله تعالى: ﴿أَتَتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ قد تقدمت الآيات الموضحة له في سورة (الزخرف) عند قوله تعالى: ﴿أَمْ أَلْيَنَّاكُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ، فَهُمْ بِهِ مُتَمَسِكُونَ﴾ الآية (٢١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الأثرارة بالخط والنهي عن ذلك

* عن ابن عباس عن النبي ﷺ: ﴿أَوْ أَتَرَقَوْا مِنْ عِلْمٍ﴾ قال: «الخط» ^(٣).

* غريب الحديث:

الخط: قال الخطابي: «الخط عند العرب فيما فسرهُ ابن الأعرابي: أن يأتي الرجل العراف وبين يديه غلام، فيأمر بأن يخط في الرمل خطوطاً كثيرة وهو يقول: ابني عيان أسرعاً البيان، ثم يأمره أن يمحو منها اثنين اثنين، ثم ينظر إلى آخر ما يبقى من تلك الخطوط، فإن كان الباقي منها زوجاً فهو دليل الفلح والظفر، وإن كان فرداً فهو دليل الخيبة واليأس» ^(٤).

* عن معاوية بن الحكم السلمي أن رسول الله ﷺ قال: «كان نبي من الأنبياء يخط، فمن وافق خطه فذاك» ^(٥).

* فوائد الحديث:

قال النووي: «اختلف العلماء في معناه؛ فالصحيح أن معناه وافق خطه فهو

(١) سبأ: الآية (٢٢).

(٢) أضواء البيان (٧/ ٣٧٢-٣٧٣).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٢٢٦)، والطبراني في الكبير (١٠/ ٣٦٣/ ١٠٧٢٥)، وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ١٠٥) وقال: «رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط... ورجال أحمد للحديث المرفوع رجال الصحيح»، وأخرجه الحاكم (٢/ ٤٥٤) موقوفاً عنه وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

(٤) معالم السنن (١/ ١٩٢).

(٥) هذا جزء من حديث طويل أخرجه: أحمد (٥/ ٤٤٧)، ومسلم (١/ ٣٨١-٣٨٢/ ٥٣٧)، وأبو داود (١/ ٥٧٠-٥٧٣/ ٩٣٠)، والنسائي في الكبرى (١/ ٣٦٢/ ١١٤١).

مباح له ؛ ولكن لا طريقة لنا إلى العلم اليقيني بالموافقة ، فلا يباح ، والمقصود أنه حرام ؛ لأنه لا يباح إلا بيقين الموافقة ، وليس لنا يقين بها ، وإنما قال النبي ﷺ : «فمن وافق خطه فذاك» ، ولم يقل : هو حرام ، بغير تعليق على الموافقة ؛ لئلا يتوهم متوهم أن هذا النهي يدخل فيه ذاك النبي الذي كان يخط ، فحافظ النبي ﷺ على حرمة ذاك النبي مع بيان الحكم في حقنا ، فالمعنى أن ذلك النبي لا منع في حقه ، وكذا لو علمتم موافقته ، ولكن لا علم لكم بها»^(١) .

قال الخطابي : قوله : «فمن وافق خطه فذلك» يشبه أن يكون أراد به الزجر عنه ، وترك التعاطي له ؛ إذ كانوا لا يصادقون معنى خط ذلك النبي ؛ لأن خطه كان علماً لنبوته ، وقد انقطعت نبوته فذهبت معالمها»^(٢) .

قال القرطبي في المفهم : « قال القاضي : الأظهر من اللفظ خلاف هذا ، وتصويب خط من يوافق خطه ؛ لكن من أين تعلم الموافقة ؟ والشرع منع من التخرص وادعاء الغيب جملة ، وإنما معناه : أن من وافق خطه فذلك الذي تجدون إصابته ، لا أنه يريد إباحة ذلك لفاعله على ما تأوله بعضهم»^(٣) .

قال النووي رحمه الله : «فحصل من مجموع كلام العلماء فيه الاتفاق على النهي عنه الآن»^(٤) .

* * *

(١) شرح صحيح مسلم (٢١ / ٥) .

(٢) معالم السنن (١ / ١٩٢) .

(٣) المفهم (٢ / ١٤٢) .

(٤) شرح مسلم (٢١ / ٥) .

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفْلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾

★ غريب الآية:

حُشِرَ: الحَشَر: إخراج الجماعة عن مقرهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب ونحوها. ولا يقال الحشر إلا في جماعة، وسمي يوم القيامة: يوم الحشر، كما سمي: يوم البعث والنشر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره -: وأي عبد أضلّ من عبد يدعو من دون الله آلهة، ﴿لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يقول: لا تُجيب دعاءه أبدًا؛ لأنها حجر أو خشب أو نحو ذلك.

وقوله: ﴿وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفْلُونَ﴾ يقول - تعالى ذكره -: وآلهتهم التي يدعونهم عن دعائهم إياهم في غفلة؛ لأنها لا تسمع ولا تنطق، ولا تعقل. وإنما عني بوصفها بالغفلة، تمثيلها بالإنسان الساهي عما يقال له؛ إذ كانت لا تفهم مما يقال لها شيئًا، كما لا يفهم الغافل عن الشيء ما غفل عنه. وإنما هذا توبيخ من الله لهؤلاء المشركين لسوء رأيهم، وقُبْح اختيارهم في عبادتهم من لا يعقل شيئًا ولا يفهم، وتركهم عبادة من جميع ما بهم من نعمته، ومن به استغاثتهم عندما ينزل بهم من الحوائج والمصائب.

وقيل: من لا يستجيب له، فأخرج ذكر الآلهة وهي جماد مخرج ذكر بني آدم، ومن له الاختيار والتمييز؛ إذ كانت قد مثلتها عبدتها بالملوك والأمراء التي تخدم في خدمتهم إياها، فأجرى الكلام في ذلك على نحو ما كان جاريًا فيه عندهم»^(١).

(١) جامع البيان (٤/٢٦).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءُ وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ۝١﴾ :

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وإذا جُمع الناس يوم القيامة لموقف الحساب، كانت هذه الآلهة التي يدعونها في الدنيا لهم أعداء؛ لأنهم يتبرؤون منهم، ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وكانت آلهتهم التي يعبدونها في الدنيا بعبادتهم جاحدين؛ لأنهم يقولون يوم القيامة: ما أمرناهم بعبادتنا، ولا شعرنا بعبادتهم إيانا، تبرأنا إليك منهم يا ربنا»^(١).

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءُ وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ۝١﴾ كقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۝٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۝٨٢﴾^(٢) أي: سيخونونهم أحوج ما يكونون إليهم، وقال الخليل: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعَلَّ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَمَأْوِيكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾^(٣)»^(٤).

* * *

(١) المصدر السابق.

(٢) مريم: الآيتان (٨١ و٨٢).

(٣) العنكبوت: الآية (٢٥).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/٢٥٩).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُمْ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾

★ غريب الآية:

افتراه: أي: اختلقه وتقولاه وتخرصه كذبًا.

تفيضون: تخوضون؛ أفاض في الشيء: خاض فيه واندفع.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره -: وإذا يقرأ على هؤلاء المشركين بالله من قومك آياتنا، يعني حججنا التي احتججناها عليهم، فيما أنزلناه من كتابنا على محمد ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ يعني: واضحات نيرات، ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ يقول - تعالى ذكره -: قال الذين جحدوا وحدانية الله، وكذبوا رسوله للحق لما جاءهم من عند الله، فأنزله على رسوله ﷺ: ﴿هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ يعنون هذا القرآن خداع يخدعنا، ويأخذ بقلوب من سمعه فعل السحر ﴿مُبِينٌ﴾، يقول: يُبين لمن تأمله ممن سمعه أنه سحر مبين»^(١).

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن المشركين في كفرهم وعنادهم: أنهم إذا تلى عليهم آيات الله بينات؛ أي: في حال بيانها ووضوحها وجلالتها، يقول: ﴿هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾؛ أي: سحر واضح، وقد كذبوا وافتروا وضلوا وكفروا»^(٢).

وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُمْ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾:

(١) جامع البيان (٥/٢٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/٢٥٩).

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : أم يقولون هؤلاء المشركون بالله من قريش، افترى محمد هذا القرآن، فاخترقه وتخرّصه كذباً، قل لهم يا محمد إن افتريته وتخرّصته على الله كذباً ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي﴾ يقول: فلا تغنون عني من الله إن عاقبني على افترائي إياه، وتخرّصي عليه شيئاً، ولا تقدرّون أن تدفعوا عني سوءاً إن أصابني به.

وقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ يقول: ربي أعلم من كل شيء سواه بما تقولون بينكم في هذا القرآن، والهاء من قوله: ﴿تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ من ذكر القرآن^(١).

قال ابن كثير: «﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ﴾ يعنون محمداً ﷺ. قال الله: ﴿قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ أي: لو كذبت عليه وزعمت أنه أرسلني - وليس كذلك - لعاقبني أشد العقوبة، ولم يقدر أحد من أهل الأرض، لا أنتم ولا غيركم، أن يجيرني منه، كقوله: ﴿قُلْ إِنْ لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِداً﴾^(٢) إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ^(٣)، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولْ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾^(٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾^(٥) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ^(٦)»^(٣)؛ ولهذا قال ههنا: ﴿قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ هذا تهديد لهم، ووعد أكيد، وترهيب شديد.

وقوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾: ترغيب لهم إلى التوبة والإنابة؛ أي: ومع هذا كله إن رجعتم وتبتم، تاب عليكم وعفا عنكم، وغفر ورحم. وهذه الآية كقوله في سورة (الفرقان): ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾^(٥) قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُمْ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا^(٦)»^(٤)»^(٥).

* * *

(١) جامع البيان (٥/٢٦).

(٢) الجن: الآيات (٢٢ و ٢٣).

(٣) الحاقة: الآيات (٤٤-٤٧).

(٤) الفرقان: الآيات (٦ و ٥).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٧/٢٥٩-٢٦٠).

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَىٰ مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنَّا أَنبِئُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿٩﴾

★ غريب الآية:

بدعًا: أي: أول رسول ليس قبلي أحد. قال عدي بن زيد:
فلا أنا بدع من حوادث تعترني رجالاً غدت من بعد بؤسي بأسعد

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - لنبية محمد ﷺ: قل يا محمد لمشركي قومك من قريش: ﴿مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ يعني: ما كنت أول رسل الله التي أرسلها إلى خلقه، قد كان من قبلي له رسل كثيرة أرسلت إلى أمم قبلكم»^(١).

قال ابن كثير: «أي: لست بأول رسول طرق العالم، بل قد جاءت الرسل من قبلي، فما أنا بالأمر الذي لا نظير له حتى تستنكروني وتستبعدوا بعثتي إليكم؛ فإنه قد أرسل الله قبلي جميع الأنبياء إلى الأمم.

قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾: ما أنا بأول رسول. ولم يحك ابن جرير ولا ابن أبي حاتم غير ذلك»^(٢).

وقال الشنقيطي: «وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة، جاء موضحاً في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِّن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾^(٤) الآية، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾^(٥) الآية، وقوله تعالى: ﴿حَمْدٌ ۝ عَسَىٰ ۝ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٦٠).

(٤) الروم: الآية (٤٧).

(١) جامع البيان (٥/ ٢٦).

(٣) الرعد: الآية (٣٨).

(٥) النساء: الآية (١٦٣).

الْحَكِيمُ»^(١)، وقوله تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾^(٢) الآية، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾^(٣) الآية، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرْنَا﴾^(٤) الآية، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة»^(٥).

قال أبو عمر في «التمهيد»: «اختلف العلماء في معنى قول الله ﷻ: ﴿وَمَا أَدْرِ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾، فقال منهم قائلون: ذلك في الدنيا وأحكامها، نحو الاختبار بالجهاد والفرائض من الحدود والقصاص وغير ذلك، وقالوا: لا يجوز غير هذا التأويل؛ لأن الله قد أعلم ما يفعل به وبالمؤمنين؛ وما يفعل بالمشركين بقوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾^(٦) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ^(٧)»، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾^(٨)، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾^(٩)، وقوله: ﴿إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُهُ بِهِ﴾^(١٠). وروى وكيع عن أبي بكر الهذلي عن الحسن في قوله: «وما أدري ما يفعل بي ولا بكم». قال: في الدنيا. وقال آخرون: بل ذلك على وجهه في أمر الدنيا وفي ذنوبه وما يختم له من عمله، حتى نزلت: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، ففرح رسول الله ﷺ. وقال: هي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس، وهذا معنى تفسير قتادة والضحاك والكلبي. وروى مثله يزيد بن إبراهيم التستري عن الحسن»^(١١).

قال ابن كثير رحمه الله: «وقال أبو بكر الهذلي عن الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرِ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾، قال: أما في الآخرة فمعاذ الله، وقد علم أنه في الجنة؛ ولكن قال: لا أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا، أخرج كما أخرجت الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- من قبلي؟ أم أقتل كما قتلت الأنبياء من قبلي؟ ولا أدري أيخسف بكم أو ترمون بالحجارة؟ وهذا القول هو الذي عوّل عليه ابن

(٢) فصلت: الآية (٤٣).

(٤) الأنعام: الآية (٣٤).

(٦) الانفطار: الآيتان (١٣ و ١٤).

(٨) النساء: الآية (٤٨).

(١٠) فتح البر (٦/٣٩٣-٣٩٤).

(١) الشورى: الآيات (١-٣).

(٣) آل عمران: الآية (١٤٤).

(٥) أضواء البيان (٧/٣٧٧).

(٧) المائدة: الآية (٧٢).

(٩) الأنعام: الآية (٥٧).

جرير، وأنه لا يجوز غيره»^(١).

قال ابن جرير رحمه الله: «وأولى الأقوال في ذلك بالصحة وأشبهها بما دلّ عليه التنزيل: القول الذي قاله الحسن البصري، الذي رواه عنه أبو بكر الهذلي.

وإنما قلنا ذلك أولاً بالصواب؛ لأن الخطاب من مبتدأ هذه السورة إلى هذه الآية، والخبر خرج من الله ﷻ خطاباً للمشركين وخبراً عنهم، وتوبيخاً لهم، واحتجاجاً من الله - تعالى ذكره - لنبيه ﷺ عليهم.

فإذا كان ذلك كذلك، فمعلوم أن هذه الآية أيضاً سبيلها سبيل ما قبلها وما بعدها في أنها احتجاج عليهم، وتوبيخ لهم، أو خبر عنهم. وإذا كان ذلك كذلك، فمحال أن يقال للنبي ﷺ: قل للمشركين: ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الآخرة، وآيات كتاب الله ﷻ في تنزيله ووحيه إليه متتابعة بأن المشركين في النار مخلدون، والمؤمنون به في الجنان منعمون، وبذلك يرهبهم مرة، ويرغبهم أخرى، ولو قال لهم ذلك، لقالوا له: فعلام نتبعك إذن وأنت لا تدري إلى أي حال تصير غداً في القيامة، إلى خفض ودعة، أم إلى شدة وعذاب؛ وإنما اتبعنا إياك إن اتبعناك، وتصديقنا بما تدعونا إليه، رغبة في نعمة، وكرامة نصيبها، أو رهبة من عقوبة، وعذاب نهرب منه، ولكن ذلك كما قال الحسن، ثم بين الله لنبيه ﷺ ما هو فاعل به، وبمن كذب بما جاء به من قومه وغيرهم»^(٢).

قال الشنقيطي رحمه الله: «التحقيق إن شاء الله، أن معنى الآية الكريمة: ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في دار الدنيا، فما أدري أأخرج من مسقط رأسي أو أقتل كما فعل ببعض الأنبياء، وما أدري ما ينالني من الحوادث والأمر في تحمل أعباء الرسالة، وما أدري ما يفعل بكم أيخسف بكم، أو تنزل عليكم حجارة من السماء، ونحو ذلك. وهذا هو اختيار ابن جرير وغير واحد من المحققين.

وهذا المعنى في هذه الآية دلت عليه آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْبَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾^(٣) الآية، وقوله تعالى آمراً له ﷺ: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾^(٤) الآية.

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٦٠).

(٢) جامع البيان (٨/ ٢٦).

(٣) الأعراف: الآية (١٨٨).

(٤) الأنعام: الآية (٥٠).

وبهذا تعلم أن ما يروى عن ابن عباس وأنس وغيرهما من أن المراد، ﴿وَمَا أَدْرِ مَا يُفَعَّلُ بِي وَلَا بَكُمْ﴾ أي: في الآخرة، فهو خلاف التحقيق، كما ستري إيضاحه إن شاء الله؛ فقد روي عن ابن عباس وأنس وقتادة والضحاك وعكرمة والحسن في أحد قوليه أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرِ مَا يُفَعَّلُ بِي وَلَا بَكُمْ﴾ فرح المشركون واليهود والمنافقون، وقالوا: كيف نتبع نبياً لا يدري ما يفعل به ولا بنا؟ وأنه لا فضل له علينا، ولولا أنه ابتدع الذي يقوله من عند نفسه، لأخبره الذي بعثه بما يفعل به. فنزلت: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾^(١) فنسخت هذه الآية. وقالت الصحابة: هنيئاً لك يا رسول الله! لقد بين لك الله ما يفعل بك، فليت شعرنا ما هو فاعل بنا. فنزلت: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾^(٢) الآية، ونزلت: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً﴾^(٣).

فالظاهر أن هذا كله خلاف التحقيق، وأن النبي ﷺ لا يجهل مصيره يوم القيامة لعصمته صلوات الله وسلامه عليه، وقد قال له الله تعالى: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾^(٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى^(٥)، وأن قوله: ﴿وَمَا أَدْرِ مَا يُفَعَّلُ بِي وَلَا بَكُمْ﴾ في أمور الدنيا كما قدمنا^(٥).

قال ابن كثير: «ولا شك أن هذا هو اللائق به ﷺ؛ فإنه بالنسبة إلى الآخرة جازم أنه يصير إلى الجنة هو ومن اتبعه، وأما في الدنيا فلم يدر ما كان يؤول إليه أمره وأمر مشركي قريش إلى ماذا؟ أيؤمنون أم يكفرون فيعذبون فيستأصلون بكفرهم؟»^(٦).

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ يقول -تعالى ذكره-: قل لهم: ما أتبع فيما أمركم به، وفيما أفعله من فعل إلا وحي الله الذي يوحى إليّ، ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ يقول: وما أنا لكم إلا نذير، أنذركم عقاب الله على كفركم به، ﴿مُبِينٌ﴾ يقول: قد أبان لكم إنذاره، وأظهر لكم دعاءه إلى ما فيه نصيحتكم، يقول: فكذلك أنا»^(٧).

(١) الفتح: الآية (٢).

(٣) الأحزاب: الآية (٤٧).

(٥) أضواء البيان (٧/ ٣٧٧-٣٧٩).

(٧) جامع البيان (٨/ ٢٦).

(٢) الفتح: الآية (٥).

(٤) الضحى: الآيتان (٤ و٥).

(٦) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٦٠).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أنه لا يقطع لمعين بجنة ولا نار
إلا ما نصّ الشارع على تعيينهم

* عن أم العلاء - امرأة من نسائهم بايعت النبي ﷺ - «أخبرته أن عثمان بن مظعون طار لهم في السكنى حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين . قالت أم العلاء : فاشتكى عثمان عندنا ، فمرضته حتى توفي ، وجعلناه في أثوابه . فدخل علينا النبي ﷺ ، فقلت : رحمة الله عليك أبا السائب ، شهادتي عليك لقد أكرمك الله . فقال النبي ﷺ : وما يدريك أن الله أكرمه ؟ قالت : قلت : لا أدري ، بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، فمن ؟ قال : أما هو فقد جاءه والله اليقين ، والله إني لأرجوه الخير ، وما أدري والله - وأنا رسول الله - ما يفعل بي . قالت : فوالله لا أزكي أحدا بعده . قالت : فأحزنني ذلك ، فنمت فرأيت لعثمان عينا تجري ، فجئت رسول الله ﷺ وأخبرته ، فقال : ذلك عمله»^(١) .

* غريب الحديث:

طار لهم : أي : خرج في القرعة لهم^(٢) .

* فوائد الحديث:

قال الحافظ : «وإنما قال رسول الله ﷺ ذلك موافقة لقوله تعالى في سورة (الأحقاف) : ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَى مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ . وكان ذلك قبل نزول قوله تعالى : ﴿لِيُفَرِّكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ ؛ لأن (الأحقاف) مكية ، وسورة (الفتح) مدنية بلا خلاف فيهما ، وقد ثبت أنه ﷺ قال : «أنا أول من يدخل الجنة»^(٣) ، وغير ذلك من الأخبار الصريحة في معناه ، فيحتمل أن يحمل الإثبات في ذلك على العلم المجمل ، والنفي على الإحاطة من حيث التفصيل»^(٤) .

(١) أخرجه : أحمد (٤٣٦/٦) ، والبخاري (٣٣٥-٣٣٦/٧) واللفظ له ، والنسائي في الكبرى (٣٨٥/٤) (٧٦٣٤) .

(٢) فتح الباري (٣٣٧/٧) .

(٣) أخرجه : أحمد (١٤٤/٣) ، وابن منده في الإيمان (٨٤٦-٨٤٧/٢) ، والبيهقي في الدلائل (٤٧٩/٥) - (٤٨٠) ، والدارمي (١٩٨-١٩٩/٥٣) ، والنسائي في الكبرى (٧٦٩٠/٤٠١/٤) .

(٤) فتح الباري (١٥٠/٣) .

وقال شيخ الإسلام: «وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرِ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا يُكْرَمُ﴾ نفي لعلمه بجميع ما يُفعل به وبهم، وهذا لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى، وهذا لا ينفي أن يكون عالمًا بأنه سعيد من أهل الجنة، وإن لم يدر تفاصيل ما يجري له من الدنيا من المحن والأعمال، وما يتجدد له من الشرائع، وما يُكرم به في الآخرة من أصناف النعيم، فإنه قد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»^(١)»^(٢).

قال الشنقيطي: «فإن قيل: قد صح عن النبي ﷺ من حديث أم العلاء الأنصارية ما يدل على أن قوله: ﴿وَمَا يُفْعَلُ بِي﴾ في الآخرة، فإن حديثها في قصة وفاة عثمان بن مظعون رضي الله عنه، ودخول رسول الله ﷺ فيه، أنها قالت: رحمة الله عليك، أبا السائب شهادتي عليك لقد أكرمك الله ﷻ - تعني عثمان بن مظعون -، فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمه؟» فقلت: لا أدري بأبي أنت وأمي، فقال رسول الله ﷺ: «أما هو فقد جاءه اليقين من ربه، وإني لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ﷺ ما يُفعل بي» الحديث.

فالجواب هو ما ذكره الحافظ ابن كثير رحمه الله، فقد قال في تفسير هذه الآية الكريمة، بعد أن ساق حديث أم العلاء المذكور بالسند الذي رواه به أحمد رحمه الله انفرد به البخاري دون مسلم، وفي لفظ له: «ما أدري وأنا رسول الله ﷺ ما يُفعل به»، وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ بدليل قولها: «فأحزنني ذلك» انتهى محل الغرض منه، وهو الصواب إن شاء الله، والعلم عند الله تعالى»^(٣).

قال ابن بطال: «وقال المهلب: وفي حديث أم العلاء أنه لا يقطع على أحد من أهل القبلة بجنة ولا نار، ولكن يرجى للمحسن، ويخاف على المسيء، وأما قوله ﷺ: «والله ما أدري وأنا رسول الله ما يُفعل بي» فيحتمل أن يكون قبل أن يعلمه الله بأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وقد روي في هذا الحديث «ما يُفعل به» وهو الصواب؛ لأن رسول الله ﷺ لا يعلم من ذلك إلا ما يوحى به إليه، والله

(١) أخرجه: أحمد (٣١٣/٢)، والبخاري (٣٩١/٦)، ومسلم (٢١٧٤/٤)، والترمذي (٢٨٢٤/٥).

(٢) (٣١٩٧/٣٢٣)، وابن ماجه (١٤٤٧/٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أضواء البيان (٣٧٨-٣٧٩).

(٢) الجواب الصحيح (١٥٩-١٦٠).

الموفق للصواب .

وقال عبدالواحد : فإن قيل : هذا المعنى يعارض قوله في حديث جابر : «ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه»^(١)، قيل : لا تعارض بينهما ، وذلك أن الرسول لا ينطق عن الهوى ، فأنكر على أم العلاء قطعها على ابن مظعون ؛ إذ لم يعلم هو من أمره شيئاً ، وفي قصة جابر قال بما علمه من طريق الوحي ؛ إذ لا يجوز أن يقطع عليه السلام على مثل هذا إلا بوحي ، فسقط التعارض»^(٢) .

قال ابن كثير : «وفي هذا وأمثاله دلالة على أنه لا يقطع لمعين بالجنة إلا الذي نص الشارع على تعيينهم ، كالعشرة ، وابن سلام ، والغميصاء ، وبلال ، وسراقة ، وعبدالله بن عمرو بن حرام والد جابر ، والقراء السبعين الذين قتلوا ببئر معونة ، وزيد بن حارثة ، وجعفر ، وابن رواحة ، وما أشبه هؤلاء»^(٣) .

قال ابن أبي العز الحنفي رحمته الله شارحاً قول الطحاوي وهو يتحدث على أهل القبلة : «ولا ننزل أحداً جنة ولا ناراً ، إنا لا نقول عن أحد معين من أهل القبلة : إنه من أهل الجنة أو من أهل النار ، إلا من أخبر الصادق عليه السلام أنه من أهل الجنة ، كالعشرة عليهم السلام ، وإن كنا نقول إنه لا بد أن يدخل النار من أهل الكبائر من شاء الله إدخاله النار ، ثم يخرج منها بشفاعه الشافعين ؛ ولكننا نقف في الشخص المعين ، فلا نشهد له بجنة ولا نار إلا عن علم ؛ لأن الحقيقة باطنة ، وما مات عليه لا نحيط به ؛ لكن نرجو للمحسنين ، ونخاف على المسيئين»^(٤) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : «فلا ينبغي لأحد أن يشهد لواحد بعينه أنه في النار ؛ لإمكان أن يتوب ، أو يغفر له بحسنات ماحية ، أو مصائب مكفرة ، أو شفاعة مقبولة ، أو غير ذلك ، فهكذا الواحد من الملوك أو غير الملوك ، وإن كان صدر منه ما هو ظلم فإن ذلك لا يوجب أن نلعنه ونشهد له بالنار ، ومن دخل في ذلك كان من أهل البدع والضلال»^(٥) .

(١) أخرجه : أحمد (٢٩٨/٣) ، والبخاري (١٢٤٤/١٤٨/٣) ، ومسلم (١٩١٨/٤/٢٤٧١/١٣٠) ، والنسائي

(٢) شرح صحيح البخاري (٢٤٢/٣) .

(٤) شرح الطحاوية (ص : ٤٢٦) .

(٣) تفسير القرآن العظيم (٢٦١/٧) .

(٥) مجموع الفتاوى (٤٧٤/٤) .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكُفَرْتُمْ بِهِءِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِءِ فَتَأْمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِلَّكَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٠)

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : « يقول - تعالى ذكره - : قل - يا محمد لهؤلاء المشركين القائلين لهذا القرآن لما جاءهم : هذا سحر مبين - : ﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾ أيها القوم ﴿ إِنْ كَانَ ﴾ هذا القرآن ﴿ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ أنزله عليّ ، ﴿ وَكُفَرْتُمْ ﴾ أنتم ﴿ بِهِءِ ﴾ يقول : وكذبتم أنتم به »^(١) . قال الشنقيطي : « جواب الشرط في هذه الآية محذوف .

وأظهر الأقوال في تقديره : إن كان هذا القرآن من عند الله وكفرت به ، وجحدتموه ، فأنتم ظالمون . وكون جزاء الشرط في هذه الآية كونهم ضالين ظالمين ، بيّنه قوله تعالى في آخر (فصلت) : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِءِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ (٥٢) ^(٢) ، وقوله في آية (الأحقاف) هذه : ﴿ فَتَأْمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِلَّكَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ^(٣) .

قال ابن جرير : « وقوله : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِءِ ﴾ اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك ، فقال بعضهم : معناه : وشهد شاهد من بني إسرائيل ، وهو موسى بن عمران عليه السلام ﴿ عَلَىٰ مِثْلِهِءِ ﴾ ، يعني على مثل القرآن ، قالوا : ومثل القرآن الذي شهد عليه موسى بالتصديق : التوراة . .

وقال آخرون : عنى بقوله : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِءِ ﴾ عبد الله بن سلام ، قالوا : ومعنى الكلام : وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثل هذا القرآن بالتصديق . قالوا : ومثل القرآن التوراة ^(٤) .

وقال ابن كثير : « قال مسروق والشعبي : ليس بعبد الله بن سلام ؛ هذه الآية

(٢) فصلت : الآية (٥٢) .

(٤) جامع البيان (٩/٢٦ - ١٠) .

(١) جامع البيان (٩/٢٦) .

(٣) أضواء البيان (٣٧٩/٧) .

مكية، وإسلام عبدالله بن سلام كان بالمدينة»^(١).

قال ابن جرير: «والصواب من القول في ذلك عندنا أن الذي قاله مسروق في تأويل ذلك أشبه بظاهر التنزيل؛ لأن قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ﴾ في سياق توبيخ الله - تعالى ذكره - مشركي قريش، واحتجاجاً عليهم لنبيه ﷺ، وهذه الآية نظيرة سائر الآيات قبلها، ولم يجر لأهل الكتاب ولا لليهود قبل ذلك ذكر، فتوجه هذه الآية إلى أنها فيهم نزلت، ولا دلّ على انصراف الكلام عن قصص الذين تقدّم الخبر عنهم معنى، غير أن الأخبار قد وردت عن جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ بأن ذلك عنى به عبدالله بن سلام، وعليه أكثر أهل التأويل، وهم كانوا أعلم بمعاني القرآن، والسبب الذي فيه نزل، وما أريد به.

فتأويل الكلام إذ كان ذلك كذلك: وشهد عبدالله بن سلام، وهو الشاهد من بني إسرائيل، على مثله، يعني على مثل القرآن، وهو التوراة، وذلك شهادته أن محمداً مكتوب في التوراة أنه نبيّ تجده اليهود مكتوباً عندهم في التوراة، كما هو مكتوب في القرآن أنه نبيّ»^(٢).

قال ابن كثير: «وهذا الشاهد اسم جنس يعمّ عبدالله بن سلام وغيره؛ فإن هذه الآية مكية نزلت قبل إسلام عبدالله بن سلام. وهذه كقوله: ﴿وَإِذَا يُنَادِي عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾^(٣)، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُنَادِي عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾^(٤) وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾^(٥).

وقال الشنقيطي: «التحقيق - إن شاء الله - أن هذه الآية الكريمة جارية على أسلوب عربي معروف، وهو إطلاق المثل، على الذات نفسها، كقولهم: مثلك لا يفعل هذا، يعنون: لا ينبغي لك أنت أن تفعله.

وعلى هذا، فالمعنى: وشهد شاهد من بني إسرائيل على أن هذا القرآن وحي منزل حقاً من عند الله، لا أنه شهد على شيء آخر مماثل له. ولذا قال تعالى:

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٦٢).

(٢) جامع البيان (٢٦/ ١٢).

(٣) القصص: الآية (٥٣).

(٤) الإسراء: الآيتان (١٠٧ و ١٠٨).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٦٢).

﴿فَتَأْمَنَ وَاسْتَغْبَرْتُكُمْ﴾ .

ومما يوضح هذا : تكرار إطلاق المثل في القرآن مراداً به الذات ؛ كقوله تعالى : ﴿أَوْ مَن كَانَ مِيسًا فَأَخْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾^(١) الآية . فقوله : ﴿كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ ؛ أي : كمن هو نفسه في الظلمات . وقوله تعالى : ﴿فَإِن ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا﴾^(٢) ؛ أي : فإن آمنوا بما آمنتم به ، لا بشيء آخر مماثل له على التحقيق .

ويستأنس له بالقراءة المروية عن ابن عباس وابن مسعود : (فإن آمنوا بما آمنتم به) الآية .

والقول بأن لفظة (ما) في الآية مصدرية ، وأن المراد تشبيه الإيمان بالإيمان ؛ أي : فإن آمنوا بإيمان مثل إيمانكم فقد اهتدوا ، لا يخفى بعده .
والشاهد في الآية هو عبدالله بن سلام رضي الله عنه ، كما قال الجمهور ، وعليه فهذه الآية مدنية في سورة مكية .

وقيل : إن الشاهد موسى بن عمران عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، وقيل غير ذلك^(٣) .

قال ابن جرير : «وقوله : ﴿فَتَأْمَنَ وَاسْتَغْبَرْتُكُمْ﴾ يقول : ﴿فَتَأْمَنَ﴾ عبدالله بن سلام ، وصدق بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وبما جاء به من عند الله ، ﴿وَاسْتَغْبَرْتُكُمْ﴾ أنتم على الإيمان بما آمن به عبدالله بن سلام معشر اليهود ، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يقول : إن الله لا يوفق لإصابة الحق ، وهدى الطريق المستقيم ، القوم الكافرين الذين ظلموا أنفسهم بإيجابهم لها سخط الله بكفرهم به^(٤) .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في سبب نزول الآية ومنقبة عبدالله بن سلام رضي الله عنه

* عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال : «انطلق النبي صلى الله عليه وسلم يوماً وأنا معه حتى دخلنا كنيسة اليهود بالمدينة يوم عيد لهم ، فكرهوا دخولنا عليهم ، فقال لهم

(٢) البقرة: الآية (١٣٧) .

(٤) جامع البيان (١٢/٢٦) .

(١) الأنعام: الآية (١٢٢) .

(٣) أضواء البيان (٧/ ٣٨٠-٣٨١) .

رسول الله ﷺ: يا معشر اليهود! أروني اثني عشر رجلاً يشهدون أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله يحبط الله عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضب الذي غضب عليه. قال: فأسكتوا ما أجابه منهم أحد، ثم رد عليهم فلم يجبه أحد، ثم ثلث فلم يجبه أحد، فقال: أبستم فوالله إني لأنا الحاشر وأنا العاقب وأنا النبي المصطفى آمستم أو كذبتم. ثم انصرف وأنا معه حتى إذا كدنا أن نخرج نادى رجل من خلفنا: كما أنت يا محمداً! قال: فأقبل فقال ذلك الرجل: أي رجل تعلموني فيكم يا معشر اليهود؟ قالوا: والله ما نعلم أنه كان فينا رجل أعلم بكتاب الله منك، ولا أفقه منك، ولا من أبيك، ولا من جدك قبل أبيك، قال: فإني أشهد له بالله إنه نبي الله الذي تجدونه في التوراة. قالوا: كذبت، ثم ردوا عليه قوله، وقالوا فيه شراً. قال رسول الله ﷺ: كذبتم لن يقبل قولكم. أما آنفاً ففتشون عليه من الخير ما أثنتم، ولما آمن أكذبتموه وقلتم فيه ما قلتم، فلن يقبل قولكم، قال: فخرجنا ونحن ثلاثة: رسول الله ﷺ وأنا وعبد الله بن سلام. وأنزل الله ﷻ فيه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَثَامَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١).

★ غريب الحديث:

أديم السماء: أديم كل شيء: ظاهر جلده، وأديم السماء: ما ظهر منها.

الحاشر: الذي يحشر الناس خلفه وعلى ملته دون ملة غيره.

العاقب: يعني آخر الأنبياء. والعاقب والعقوب: الذي يخلف من كان قبله.

* عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد

يمشي على الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام، قال: وفيه نزلت هذه الآية: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾ (٢).

(١) أخرجه: أحمد (٢٥/٦)، والطبراني في الكبير (١٨/٤٦-٤٧/٨٣)، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٦/

١١٩-١٢٠/٧١٦٢)، والحاكم (٣/٤١٥-٤١٦)، على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. وذكره الهيثمي في

المجمع (٧/١٠٥-١٠٦) وقال: «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح».

(٢) أخرجه: أحمد (١/١٦٩)، والبخاري (٧/١٦٢/٣٨١٢) واللفظ له، ومسلم (٤/١٩٣٠/٢٤٨٣)، والنسائي

في الكبرى (٥/٧٠/٨٢٥٢).

* غريب الحديث:

عبد الله بن سلام: بتخفيف اللام: أي: ابن الحارث من بني قينقاع، وهم من ذرية يوسف الصديق، وكان اسم عبد الله بن سلام في الجاهلية: الحصين، فسماه النبي ﷺ عبد الله، أخرجه ابن ماجه، وكان من حلفاء الخزرج من الأنصار، أسلم أول ما دخل النبي ﷺ المدينة.. وزعم الداودي أنه كان من أهل بدر، وسبقه إلى ذلك أبو عروبة وتفرد بذلك ولا يثبت، وغلط من قال: إنه أسلم قبل وفاة النبي ﷺ بعامين، ومات عبد الله بن سلام سنة ثلاث وأربعين^(١).

وقال الذهبي: عبد الله بن سلام بن الحارث، الإمام الحبر، المشهود له بالجنة، أبو الحارث الإسرائيلي، حليف الأنصار، من خواص أصحاب النبي ﷺ^(٢).

* فوائد الحديثين:

في هذين الحديثين من الفوائد: التصريح بأن هذه الآية نزلت في عبد الله بن سلام ﷺ.

قال المباركفوري: «حديث عبد الله بن سلام هذا صريح في أن هذه الآية نزلت فيه، وحديث عوف بن مالك عند ابن حبان وحديث ابن عباس عند ابن مردويه أيضاً يدلان على أن هذه الآية نزلت في عبد الله بن سلام كما في «فتح الباري»، وهو القول الراجح»^(٣).

وقال العيني في قول سعد بن أبي وقاص في وصف عبد الله بن سلام: «وفيه نزلت» أي: وفي عبد الله بن سلام نزلت هذه الآية: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾^(٤).

قال صديق حسن خان: «والراجح أنه عبد الله بن سلام، وأن هذه الآية مدنية، لا مكية»^(٥).

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/٤١٣).

(٤) عمدة القاري (١١/٥٢٥).

(١) فتح الباري (٧/١٦٣).

(٣) تحفة الأحوذى (٩/٩٩).

(٥) فتح البيان (١٣/١٧).

قال ابن كثير: «وكذا قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وعكرمة، ويوسف بن عبد الله بن سلام، وهلال بن يساف، والسدي، والثوري، ومالك بن أنس وابن زيد أنهم كلهم قالوا: إنه عبد الله بن سلام»^(١).

وقال العيني: «وأنكره مسروق والشعبي، وقالوا: السورة مكية، يعني سورة (الأحقاف)، يعني السورة التي فيها الآية المذكورة. قال الشعبي: وأسلم عبد الله ابن سلام قبل موته، صلى الله تعالى عليه وسلم، بعامين. واختلفا في المراد بالآية، فقال مسروق: الشاهد: موسى عليه الصلاة والسلام، وقال الشعبي: هو رجل من أهل الكتاب. وأجيب: بأنه يجوز أن تكون الآية مدنية من سورة مكية. وقال صاحب (مقامات التنزيل): هذه السورة -يعني سورة (الأحقاف)- مكية، إلا آيتان مدنيتان، منهما هذه الآية. وقال ابن عباس ومقاتل: الشاهد ابن يامين، وروى السدي عن ابن عباس: أنها نزلت في عبد الله بن سلام وابن يامين، واسمه: عمير بن وهب النضري، وروى عبد بن حميد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: أن اسمه ميمون بن يامين، وفيه نزلت هذه الآية. وقال الذهبي في «تجريد الصحابة»: يامين بن يامين الإسرائيلي أسلم وكان من بني النضر، وقيل: يامين بن عمر، وقال في باب الميم: ميمون بن يامين، قال سعيد بن جبير: كان رأس اليهود بالمدينة فأسلم»^(٢).

قال الحافظ: «ولا مانع أن تكون نزلت في الجميع»^(٣).

قال الشوكاني: «وفيه دليل على أن هذه الآية مدنية، فيخصص بها عموم قولهم: إن سورة (الأحقاف) كلها مكية»^(٤).

قال ابن هبيرة: «في هذا الحديث -حديث سعد- من الفقه ما يدل على فضل عبد الله بن سلام، وما يحض على قبول أخباره؛ لأن رسول الله ﷺ قال: «إنه من أهل الجنة»، وإنما نال الجنة لأنه أقبل على الحق حين ارتد عنه أهل الكتاب، فكان في معنى شخص يكون في صف المسلمين فينكسرون فيثبت وحده، أو في صف المشركين فيُصْرَوْنَ على كفرهم، ويثبت بمفرده»^(٥).

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٦٢).

(٢) عمدة القاري (١١/ ٥٢٥).

(٣) فتح الباري (٧/ ١٦٥).

(٤) فتح القدير (٥/ ٢٧).

(٥) الإفصاح (١/ ٣٢٨-٣٢٩).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ (١)

★ غريب الآية:

إفك: كذب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى - ذكره -: وقال الذين جحدوا نبوة محمد ﷺ من يهود بني إسرائيل للذين آمنوا به، لو كان تصديقكم محمدًا على ما جاءكم به خيرًا، ما سبقتمونا إلى التصديق به، وهذا التأويل على مذهب من تأول قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ﴾ أنه معني به عبد الله بن سلام، فأما على تأويل من تأول أنه عني به مشركو قريش، فإنه ينبغي أن يوجه تأويل قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ أنه عني به مشركو قريش، وكذلك كان يتأوله قتادة» (١).

وقال ابن كثير رحمه الله: «أي: قالوا عن المؤمنين بالقرآن: لو كان القرآن خيرًا ما سبقنا هؤلاء إليه، يعنون بلالًا وعمارًا وصهيبًا وخبابًا وأشباههم وأقرانهم من المستضعفين والعبيد والإماء؛ وما ذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجاهة وله بهم عناية. وقد غلطوا في ذلك غلطًا فاحشًا، وأخطؤوا خطأً بينًا، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِن بَيْنِنَا﴾ (٢) أي: يتعجبون: كيف اهتدى هؤلاء دوننا؟! ولهذا قالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾. وأما أهل السنة والجماعة فيقولون في كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة: هو بدعة؛ لأنه لو كان خيرًا لسبقونا إليه؛ لأنهم لم يتركوا خصلة من

(١) جامع البيان (٢٦/١٢-١٣).

(٢) الأنعام: الآية (٥٣).

خصال الخير إلا وقد بادروا إليها»^(١).

وقال السعدي: «فأي دليل يدل على أن علامة الحق سبق المكذبين به للمؤمنين؟ هل هم أذكى نفوساً؟ أم أكمل عقولاً؟ أم الهدى بأيديهم؟ ولكن هذا الكلام الذي صدر منهم، يُعزّون به أنفسهم بمنزلة من لم يقدر على الشيء، ثم طفق يذمه، ولهذا قال: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَمَسِيئُلُونَ هَذَا إِنْكَ قَدِيرٌ﴾ أي: هذا السبب الذي دعاهم إليه، أنهم لما لم يهتدوا بهذا القرآن، وفاتهم أعظم المواهب، وأجل الرغائب، قدحوا فيه بأنه كذب، وهو الحق الذي لا شك فيه، ولا امتراء يعتريه»^(٢).

قال الشنقيطي: «أظهر أقوال العلماء في هذه الآية الكريمة: أن الكافرين الذين قالوا للمؤمنين: لو كان خيراً ما سبقونا إليه، أنهم كفار مكة، وأن مرادهم أن فقراء المسلمين وضعفاءهم كبلال وعمار وصهيب وخباب ونحوهم، أحقر عند الله من أن يختار لهم الطريق التي فيها الخير، وأنهم هم الذين لهم عند الله عظمة وجاه واستحقاق السبق لكل خير؛ لزعمهم أن الله أكرمهم في الدنيا بالمال والجاه، وأن أولئك الفقراء لا مال لهم ولا جاه، وأن ذلك التفضيل في الدنيا يستلزم التفضيل في الآخرة.

وهذا المعنى الذي استظهرناه في هذه الآية الكريمة تدل له آيات كثيرة من كتاب الله، وخير ما يفسر به القرآن القرآن.

أما ادعاؤهم أن ما أعطوا من المال والأولاد والجاه في الدنيا دليل على أنهم سيعطون مثله في الآخرة، وتكذيب الله لهم في ذلك، فقد جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ تُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾﴾^(٤) الآية، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٨٥﴾﴾^(٥)، مع قوله: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى﴾^(٦) الآية، وقوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذْقَنَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٦٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٤).

(٣) المؤمنون: الآيتان (٥٥ و ٥٦).

(٤) مريم: الآيات (٧٧-٧٩).

(٥) سبأ: الآية (٣٥).

(٦) سبأ: الآية (٣٧).

وَلَيْنُ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنِيتَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٥﴾ ﴿١﴾ .

وقد أوضحنا الآيات الدالة على هذا في سورة (الكهف) في الكلام على قوله تعالى : ﴿وَلَيْنُ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ ﴿٢﴾ .

وأما احتقار الكفار لضعفاء المؤمنين وفقرائهم ، وزعمهم أنهم أحقر عند الله من أن يصيبهم بخير ، وإنما هم عليه لو كان خيراً لسبقهم إليه أصحاب الغنى والجاه والولد من الكفار ، فقد دلت عليه آيات أخر ، كقوله تعالى في (الأنعام) : ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِن بَيْنِنَا﴾ ﴿٣﴾ .

فهزمة الإنكار في قوله : ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِن بَيْنِنَا﴾ ، تدل على إنكارهم أن الله يمن على أولئك الضعفاء بخير .

وقد رد الله عليهم بقوله : ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ ﴿٥٣﴾ وإذا جاءك الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴿٤﴾ الآية ، وقوله تعالى في (الأعراف) : ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿٤٨﴾ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٥﴾ ، وقوله تعالى في (ص) : ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ ﴿٦٢﴾ أَخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ ﴿٦﴾ ؛ فقد قال غير واحد : إن الرجال الذين كانوا يعدونهم من الأشرار هم ضعفاء المسلمين الذين كانوا يسخرون منهم في دار الدنيا ، ويزعمون أنهم أحقر من أن ينالهم الله بخير ؛ ويدل له قوله : ﴿أَخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا﴾ ، وسيسخر ضعفاء المسلمين في الجنة من الكفار الذين كانوا يسخرون منهم في الدنيا وهم في النار ؛ كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ ﴿٦٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ ﴿٧٠﴾ إلى قوله تعالى : ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ ﴿٧٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٧٥﴾ هَلْ تُؤِيبُ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٦﴾ ﴿٧﴾ ، وقوله تعالى : ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا

(١) فصلت : الآية (٥٠) .

(٢) الكهف : الآية (٣٦) .

(٣) الأنعام : الآية (٥٣) .

(٤) الأنعام : الآيتان (٥٣ و٥٤) .

(٥) الأعراف : الآيتان (٤٨ و٤٩) .

(٦) ص : الآيتان (٦٢ و٦٣) .

(٧) المطففين : الآيات (٢٩-٣٦) .

الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا وَيَسْعُرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴿١﴾﴾ (٢).

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ يقول - تعالى ذكره - : وإذ لم يبصروا بمحمد وبما جاء به من عند الله من الهدى، فيرشدوا به الطريق المستقيم ﴿فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيرٌ﴾ يقول: فسيقولون هذا القرآن الذي جاء به محمد ﷺ أكاذيب من أخبار الأولين قديمة، كما قال - جل ثناؤه - مخبراً عنهم: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (٣)﴾ (٤).

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ أي: بالقرآن ﴿فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ﴾ أي: كذب ﴿قَدِيرٌ﴾ أي: ماثور عن الأقدمين، فينتقصون القرآن وأهله، وهذا هو الكبر الذي قال رسول الله ﷺ: (٥).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تحريم الكبر وبيانها

* عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر». قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة، قال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس» (٦).

★ غريب الحديث:

الجمال: لغة: هو الحسن؛ يقال: جمل الرجل، يجمُل بالضم، فهو جميل، والمرأة جميلة، ويقال: جملاء، عن الكسائي (٧).
بطر الحق: دفعه وإنكاره ترفعاً وتجبّراً (٨). وقال القرطبي في «المفهم»: واطر الحق: إبطاله، من قول العرب: ذهب دمه بطراً وبطراً؛ أي: باطلاً، وقال الأصمعي: البطر: الحيرة؛ أي: يتحير عند الحق فلا يراه حقاً (٩).

(١) البقرة: الآية (٢١٢).

(٢) أضواء البيان (٧/ ٣٨١-٣٨٣).

(٣) الفرقان: الآية (٥).

(٤) جامع البيان (٢٦/ ١٣).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٦٢).

(٦) أخرجه: أحمد (١/ ٣٩٩)، ومسلم (١/ ٩٣/ ٩١)، وأبوداود (٤/ ٣٥١/ ٤٠٩١)، والترمذي (٤/ ٣١٧-٣١٨).

(٧) وقال في الموضع الأول: «حسن صحيح»، وفي الثاني: «حسن صحيح غريب».

(٨) شرح مسلم للنووي (٢/ ٧٨).

(٩) المفهم (١/ ٢٨٨).

(٩) المفهم (١/ ٢٨٨).

غمط الناس: احتقارهم واستصغارهم لما يرى من رفعتهم عليهم، وهو بالغين المعجمة والطاء المهملة، ويروى: غمص - بالصاد المهملة - في كتاب الترمذي، ومعناها واحد، يقال: غمط الناس وغمصهم: إذا احتقرهم^(١).

ذرة: تقدم.

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «هذا الحديث ورد في سياق النهي عن الكبر المعروف، وهو الارتفاع على الناس واحتقارهم ودفع الحق»^(٢).

قال الفزالي: «قد ذم الله الكبر في مواضع من كتابه، وذم كل جبار متكبر فقال تعالى: ﴿سَاصِرُفٌ عَنْ عَائِقَى الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾»^(٣)، وقال ﷺ: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾»^(٤)، وقال تعالى: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾»^(٥)، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾»^(٦)، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾»^(٧)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾»^(٨)، وذم الكبر في القرآن كثير. وقد قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر»، و«لا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان»^(٩)، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في جهنم ولا أبالي»»^(١٠)، وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: التقى عبد الله بن عمرو وعبد الله بن عمر على الصفا فتواقفا،

(١) المفهم (١/٢٨٩).

(٢) شرح مسلم (٢/٧٢).

(٣) الأعراف: الآية (١٤٦).

(٤) غافر: الآية (٣٥).

(٥) إبراهيم: الآية (١٥).

(٦) النحل: الآية (٢٣).

(٧) الفرقان: الآية (٢١).

(٨) غافر: الآية (٦٠).

(٩) أخرجه: أحمد (١/٤١٢)، ومسلم (١/٩٣/٩١ [٤٨])، وأبو داود (٤/٣٥١/٤٠٩١)، والترمذي (٤/٣١٧/١٩٩٨)، وابن ماجه (٢/١٣٩٧/٤١٧٣).

(١٠) أخرجه: أحمد (٢/٢٤٨)، وأبو داود (٤/٣٥٠-٣٥١/٤٠٩٠)، وابن ماجه (٢/١٣٩٧/٤١٧٤)، وابن حبان (الإحسان: ٢/٣٥-٣٦/٣٢٨)، والحاكم (١/٦١) وصححه على شرط مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه: مسلم (٤/٢٠٢٣/٢٦٢٠)، والبخاري في الأدب المفرد (٥٥٢) من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما.

فمضى ابن عمرو وأقام ابن عمر يبكي، فقالوا: ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن؟ فقال: هذا - يعني عبد الله بن عمرو - زعم أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر أكبه الله في النار على وجهه»^(١)، وقال ﷺ: «تحتاج الجنة والنار، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقاطهم وعجزتهم؟ فقال الله للجنة: إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشياء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي أعذب بك من أشياء، ولكل واحدة منكما ملؤها»^(٢)، وقوله ﷺ: «يحشر المتكبرون يوم القيامة في مثل صور الذر تطوهم الناس، ذرًا في مثل صور الرجال يعلوهم كل شيء من الصغار، ثم يساقون إلى سجن في جهنم يقال له: بولس، يعلوهم نار الأنيار، يسقون من طين الخبال عصارة أهل النار»^(٣).

الآثار: قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «لا يحقرن أحد أحدًا من المسلمين؛ فإن صغير المسلمين عند الله كبير». وقال وهب: لما خلق الله جنة عدن نظر إليها فقال: أنت حرام على كل متكبر. وكان الأحنف بن قيس يجلس مع مصعب بن الزبير على سريرته، فجاء يومًا ومصعب ماذ رجله فلم يقبضهما، وقعد الأحنف فزحمه بعض الزحمة، فرأى أثر ذلك في وجهه فقال: عجبًا لابن آدم يتكبر وقد خرج من مجرى البول مرتين! وقال الحسن: العجب من ابن آدم، يغسل الخراء بيده كل يوم مرة أو مرتين ثم يعارض جبار السموات! وقد قيل في: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾^(٤): هو سبيل الغائط والبول. وقد قال محمد بن الحسين بن علي: ما دخل قلب امرئ شيء من الكبر قط إلا نقص من عقله بقدر ما دخل من ذلك، قل أو كثر. وسئل سليمان عن السيئة التي لا تنفع معها حسنة، فقال: الكبر. وقال النعمان بن

(١) أخرجه: أحمد (٢/٢١٥)، وقال الهيثمي في المجمع (١/٩٨): «رواه أحمد والطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح». وأخرجه البيهقي في الشعب (٦/٢٨٠/٨١٥٤) وقال المنذري في الترغيب (٣/٣٦٦): «رواه أحمد ورواته رواة الصحيح»، وصحح إسناده العراقي في تخريج الإحياء (٣/٣٣٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/٣١٤)، والبخاري (٨/٧٦٥/٤٨٥٠)، ومسلم (٤/٢١٨٦/٢٨٤٦)، والترمذي (٤/٥٩٨-٥٩٩/٢٥٦١)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٦٨/١١٥٢٢).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/١٧٩)، والترمذي (٤/٥٦٥/٢٤٩٢)، وقال: «حسن صحيح»، والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٥٥٧)، والنسائي في الكبرى (١٠/٣٩٨/١١٨٢٧).

(٤) الذاريات: الآية (٢١).

بشير على المنبر: إن للشيطان مصالي وفخوخًا، وإن من مصالي الشيطان وفخوخه
البطر بأنعم الله، والفخر بإعطاء الله، والكبر على عباد الله، واتباع الهوى في غير
ذات الله. نسأل الله تعالى العفو والعافية في الدنيا والآخرة بمنه وكرمه»^(١).

* * *

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٣٦-٣٣٩).

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّنَذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٢﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : ومن قبل هذا الكتاب ، كتاب موسى ، وهو التوراة ، ﴿إِمَامًا﴾ لبني إسرائيل يأتّمون به ، ﴿وَرَحْمَةً﴾ لهم أنزلناه عليهم . وخرج الكلام مخرج الخبر عن الكتاب بغير ذكر تمام الخبر اكتفاء بدلالة الكلام على تمامه ؛ وتماّمه : ومن قبله كتاب موسى إمامًا ورحمة أنزلناه عليه ، وهذا كتاب أنزلناه لسانًا عربيًّا»^(١).

وقال ابن كثير: «ثم قال: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ﴾ وهو التوراة ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ﴾ ، يعني القرآن ﴿مُصَدِّقٌ﴾ ؛ أي : لما قبله من الكتب ﴿لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ ؛ أي : فصيحًا بيّنًا واضحًا ، ﴿لِّنَذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾»^(٢).

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿لِّنَذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يقول: لينذر هذا الكتاب الذي أنزلناه إلى محمد عليه الصلاة والسلام الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بالله بعبادتهم غيره.

وقوله: ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ يقول: وهو بشرى للذين أطاعوا الله فأحسنوا في إيمانهم وطاعتهم إياه في الدنيا ، فحسن الجزاء من الله لهم في الآخرة على طاعتهم إياه»^(٣).

* * *

(١) جامع البيان (١٣/٢٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/٢٦٣).

(٣) جامع البيان (١٤/٢٦).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٣) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

★ غريب الآية:

استقاموا: الاستقامة: الاعتدال على أمر الله. واستقام: أي: اعتدل واستوى.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: يقول -تعالى ذكره-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ الذي لا إله غيره، ﴿ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ على تصديقهم بذلك، فلم يخلطوه بشرك، ولم يخالفوا الله في أمره ونهيه، ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من فزع يوم القيامة وأهواله، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفوا وراءهم بعد مماتهم.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ يقول -تعالى ذكره-: هؤلاء الذين قالوا هذا القول، واستقاموا أهل الجنة وسكانها ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ يقول: ماكثين فيها أبداً، ﴿جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يقول: ثواباً منا لهم آتيناهم ذلك على أعمالهم الصالحة التي كانوا في الدنيا يعملونها^(١).

(١) جامع البيان (٢٦/١٥).

قوله تعالى: ﴿وَوَضَّيْنَا لِلْإِنْسَانِ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾

★ غريب الآية:

كُرْهًا: أي: بكره ومشقة.

فصاله: فطامه.

أوزعني: ألهمني؛ أصله من وزعت الرجل على كذا: إذا دفعته عليه.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال السعدي: «هذا من لطفه تعالى بعباده وشكره للوالدين، أن وصّى الأولاد وعهد إليهم أن يحسنوا إلى والديهم بالقول اللطيف، والكلام اللين، وبذل المال والنفقة، وغير ذلك من وجوه الإحسان.

ثم نبّه على ذكر السبب الموجب لذلك، فذكر ما تحملته الأم من ولدها وما قاسته من المكاره وقت حملها، ثم مشقة ولادتها الكبيرة، ثم مشقة الرضاع وخدمة الحضانة، وليست المذكورات مدة يسيرة، ساعة أو ساعتين، وإنما ذلك مدة طويلة قدرها ﴿ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾: للحمل تسعة أشهر ونحوها، والباقي للرضاع، هذا هو الغالب»^(١).

قال ابن كثير: «لما ذكر تعالى في الآية الأولى التوحيد له وإخلاص العبادة والاستقامة إليه، عطف بالوصية بالوالدين، كما هو مقرون في غير ما آية من القرآن، كقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وقال: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤٦/٧).

وَلَوْلَدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ^(١)، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة. وقال ههنا: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ إِحْسَانًا﴾؛ أي: أمرناه بالإحسان إليهما والحنو عليهما^(٢).

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ يقول - تعالى ذكره -: وحمل أمه إياه جنينًا في بطنها، وفصالها إياه من الرضاع، وفطمها إياه، شرب اللبن ثلاثون شهرًا»^(٣).

وقال ابن كثير: «حَمَلَتُهُ أُمُّهُ كَرْهًا﴾ أي: قاست بسببه في حال حملة مشقة وتعبًا، من وِحام وغشيان وثقل وكرب، إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة، ﴿وَوَضَعَتْهُ كَرْهًا﴾ أي: بمشقة أيضًا من الطلق وشدته، ﴿وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾.

وقد استدل علي عليه السلام بهذه الآية مع التي في (لقمان): ﴿وَفِصْلُهُ فِي عَامَيْنِ﴾^(٤)، وقوله: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾، على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، وهو استنباط قوي صحيح، ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم^(٥).

قوله: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾: قال الشنقيطي: «هذه الآية الكريمة ليس فيها بانفرادها تعرض لبيان أقل مدة الحمل، ولكنها بضميمة بعض الآيات الأخرى إليها يعلم أقل أمد الحمل؛ لأن هذه الآية الكريمة من سورة (الأحقاف) صرحت بأن أمد الحمل والفصال معًا ثلاثون شهرًا.

وقوله تعالى في (لقمان): ﴿وَفِصْلُهُ فِي عَامَيْنِ﴾، وقوله في (البقرة): ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾^(٦)، يبين أن أمد الفصال عامان، وهما أربعة وعشرون شهرًا، فإذا طرحتها من الثلاثين بقيت ستة أشهر، فتعين كونها أمدًا للحمل، وهي أقله، ولا خلاف في ذلك بين العلماء.

ودلالة هذه الآيات على أن ستة أشهر أمد للحمل هي المعروفة عند علماء

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٦٣).

(٤) لقمان: الآية (١٤).

(٦) البقرة: الآية (٢٣٣).

(١) لقمان: الآية (١٤).

(٣) جامع البيان (١٦/ ٢٦).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٦٣-٢٦٤).

الأصول بدلالة الإشارة»^(١).

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ اختلف أهل التأويل في مبلغ حد ذلك من السنين، فقال بعضهم: هو ثلاث وثلاثون سنة.. وقال آخرون: هو بلوغ الحلم..

وقد بينا فيما مضى الأشد جمع شد، وأنه تناهي قوته واستوائه. وإذا كان كذلك كانت الثلاث والثلاثون به أشبه من الحلم، لأن المرء لا يبلغ في حال حلمه كمال قواه، ونهاية شدته، فإن العرب إذا ذكرت مثل هذا من الكلام، فعطفت ببعض على بعض جعلت كلا الوقتين قريباً أحدهما من صاحبه، كما قال -جل ثناؤه-: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَيِّ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ﴾^(٢)، ولا تكاد تقول: أنا أعلم أنك تقوم قريباً من ساعة من الليل وكله، ولا أخذت قليلاً من مال أو كله، ولكن تقول: أخذت عامة مالي أو كله، فكذلك ذلك في قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ لا شك أن نسق الأربعين على الثلاث والثلاثين أحسن وأشبه، إذ كان يراد بذلك تقريب أحدهما من الآخر من النسق على الخمس عشرة أو الثماني عشرة.

وقوله: ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ ذلك حين تكاملت حجة الله عليه، وسير عنه جهالة شبابه، وعرف الواجب لله من الحق في بر والديه»^(٣).

قال ابن كثير: «﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أي: قوي وشب وارتجل، ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ أي: تناهى عقله وكمل فهمه وحلمه، ويقال: إنه لا يتغير غالباً عما يكون عليه ابن الأربعين.. ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ أي: ألهمني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَتِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ أي: في المستقبل، ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ أي: نسلي وعقبتي، ﴿إِنِّي بَتُّ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وهذا فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله ﷻ، ويعزم عليها»^(٤).

قال الشنقيطي: «ومعنى حملته ﴿كُرْهًا﴾ أنها في حال حملها به تلاقي مشقة شديدة. ومن المعلوم ما تلاقيه الحامل من المشقة والضعف إذا أثقلت وكبر الجنين

(١) أضواء البيان (٧/٣٨٦).

(٢) المزمّل: الآية (٢٠).

(٣) جامع البيان (٢٦/١٦-١٧).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/٢٦٤-٢٦٥).

في بطنها .

ومعنى ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ : أنها في حالة وضع الولد، تلاقي من ألم الطلق وكربه مشقة شديدة، كما هو معلوم .

وهذه المشاق العظيمة التي تلاقيها الأم في حمل الولد ووضعه، لا شك أنها يعظم حقها بها، ويتحتم برها، والإحسان إليها كما لا يخفى .

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من المشقة التي تعانيها الحامل، دلت عليه آية أخرى، وهي قوله تعالى في (لقمان) : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ أي : تهن به وهنًا على وهن ؛ أي : ضعفًا على ضعف ؛ لأن الحمل كلما تزايد وعظم في بطنها، ازدادت ضعفًا على ضعف^(١) .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في بر الوالدين ومنقبة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه

* عن سعد رضي الله عنه أنه نزلت فيه آيات من القرآن قال : «حلفت أم سعد أن لا تكلمه أبدًا حتى يكفر بدينه، ولا تأكل ولا تشرب، قالت : زعمت أن الله وصاك بوالديك، وأنا أمك، وأنا أمرك بهذا . قال : مكثت ثلاثًا حتى غشي عليها من الجهد، فقام ابن لها يقال له عمارة، فسقاها، فجعلت تدعو على سعد، فأنزل الله عز وجل في القرآن هذه الآية : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي﴾^(٢)، وفيها : ﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾^(٣) .

* غريب الحديث:

تقدم ما فيه من الغريب في سورة (العنكبوت) .

* فوائد الحديث:

قال القرطبي : «وصية الله تعالى بمبرة الوالدين المشركين، والإحسان إليهما

(١) أضواء البيان (٧/ ٣٨٥) .

(٢) العنكبوت : الآية (٨) .

(٣) هذا جزء من حديث طويل أخرجه : أحمد (١/ ١٨١ و ١٨٥-١٨٦)، ومسلم (٤/ ١٨٧٧-١٧٤٨) واللفظ له، والترمذي (٥/ ٣١٩/ ٣١٨٩) مختصرًا، وقال : «هذا حديث حسن صحيح» .

وإن كانا كافرين وحريصين على حمل الولد على الكفر، يدل دلالة قاطعة على عظيم حرمة الآباء وتأكد حقوقهم»^(١).

قال ابن هبيرة في «الإفصاح»: «هذا الحديث يدل على شرف سعد وعلو منزلته؛ لأن الله تعالى أنزل هذه الآيات في شأنه، فاستمرت أحكامها باقية إلى يوم القيامة تعود عليه بركاتها، ويناله من خيرها. فمن بركة هذه القصة أن الله تعالى أفتى فيها حيث كانت الوصاة قد تقدمت منه سبحانه ببر الوالدين وتتابع، وكان حق الله ﷻ أولى في عبادته، فلما اعترض هذا الحق المؤكد ما هو أوكد منه لم يكن له فضل إلا ما أنزل الله ﷻ؛ لأنه شرح الحال فقال: ﴿وَوَضَّيْنَا لِلْإِنْسَنِ بُولَدَيْهِ حُسْنًا﴾^(٢)، فأخبر سبحانه أن وصاته سبقت»^(٣).

وقد سبق شيء من هذا المعنى في سورة (العنكبوت) و(لقمان) وغيرهما.



(١) المفهم (٦/٢٨٢).

(٢) العنكبوت: الآية (٨).

(٣) الإفصاح (١/٣٦٠).

قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : يقول - تعالى ذكره - : هؤلاء الذين هذه الصفة صفتهم ، هم الذين يُتقبل عنهم ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ في الدنيا من صالحات الأعمال ، فيجازيهم به ويشيبهم عليه ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ يقول : ويصفح لهم عن سيئات أعمالهم التي عملوها في الدنيا ، فلا يعاقبهم عليها ﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ يقول : نفعل ذلك بهم فعلنا مثل ذلك في أصحاب الجنة وأهلها الذين هم أهلها . .

وقوله : ﴿وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ يقول : وعدهم الله هذا الوعد ، وعد الحق لا شك فيه أنه موفى لهم به ، الذي كانوا إياه في الدنيا يعدهم الله تعالى ، ونُصب قوله : ﴿وَعَدَ الصِّدْقِ﴾ لأنه مصدر خارج من قوله : ﴿نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ ، وإنما أخرج من هذا الكلام مصدر وعد وعدًا ؛ لأن قوله : ﴿نَقَبَلُ عَنْهُمْ﴾ ، ﴿وَنَتَجَاوَزُ﴾ وعد من الله لهم ، فقال : ﴿وَعَدَ الصِّدْقِ﴾ ، على ذلك المعنى^(١) .

قال ابن كثير : «أي : هؤلاء المتصفون بما ذكرنا ، التائبون إلى الله ، المنيبون إليه ، المستدركون ما فات بالتوبة والاستغفار ، هم الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ، ويتجاوز عن سيئاتهم ، فيغفر لهم الكثير من الزلل ، ويتقبل منهم اليسير من العمل ، ﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ أي : هم في جملة أصحاب الجنة ، وهذا حكمهم عند الله كما وعد الله من تاب إليه وأناب ، ولهذا قال : ﴿وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾»^(٢) .

* * *

(١) جامع البيان (٢٦/ ١٨-١٩) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٦٥) .

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ أَفِ لَكُمْ أَنْ أُخْرِجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾﴾

* غريب الآية:

أف: اسم فعل بمعنى: أتضجر؛ أي: قذراً لكمما ونتنًا.

خلت: تقدمت ومضت.

يستغيثان: يطلبان الغوث من الله؛ والغوث يقال في النصره؛ أي: يدعوان الله له بالهداية، أو يستغيثان بالله من كفره.

أساطير: جمع أسطورة، وهي القصة. وغلب إطلاقها على القصة الباطلة أو المكذوبة، كما يقال: خرافة، والمعنى: أحاديثهم وما سطره مما لا أصل له.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «هذا نعت من الله - تعالى ذكره - نعت ضالّ به كافر، وبوالديه عاق، وهما مجتهدان في نصيحتته ودعائه إلى الله، فلا يزيده دعاؤهما إياه إلى الحق، ونصيحتهما له إلا عتوّاً وتمرداً على الله، وتمادياً في جهله، يقول الله - جل ثناؤه -: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ﴾ أن دعواه إلى الإيمان بالله، والإقرار ببعث الله خلقه من قبورهم، ومجازاته إياهم بأعمالهم: ﴿أَفِ لَكُمْ﴾ يقول: قذراً لكمما ونتنًا ﴿أَتَعْدَانِي أَنْ أُخْرِجَ﴾ يقول: أتعدانني أن أخرج من قبري من بعد فنائي وبلائي فيه حيّاً»^(١).

وقال ابن كثير: «لما ذكر تعالى حال الداعين للوالدين البارّين بهما، وما لهم عنده من الفوز والنجاة، عطف بحال الأشقياء العاقين للوالدين فقال: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ أَفِ لَكُمْ﴾ - وهذا عام في كل من قال هذا، ومن زعم أنها نزلت في

(١) جامع البيان (٢٦/١٩).

عبدالرحمن بن أبي بكر فقوله ضعيف ؛ لأن عبدالرحمن بن أبي بكر أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه ، وكان من خيار أهل زمانه .

وروى العوفي ، عن ابن عباس : أنها نزلت في ابن لأبي بكر الصديق . وفي صحة هذا نظر ، والله أعلم .

وقال ابن جريج ، عن مجاهد : نزلت في عبدالله بن أبي بكر . وهذا أيضا قاله ابن جريج .

وقال آخرون : عبدالرحمن بن أبي بكر . وقاله السدي . وإنما هذا عام في كل من عقر والديه ، وكذب بالحق ، فقال لوالديه : ﴿ أَفِ لَكُمْآ ﴾ عقهما^(١) .

قال ابن جرير : « وقوله : ﴿ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي ﴾ يقول : أتعداني أن أبعث وقد مضت قرون من الأمم قبلي ، فهلكوا ، فلم يبعث منهم أحدا ، ولو كنت مبعوثا بعد وفاتي كما تقولان ، لكان قد بعث من هلك قبلي من القرون ، ﴿ وَهُمَا يَسْتَفِثَانِ اللَّهَ ﴾ ، يقول - تعالى ذكره - : ووالداه يستصرخان الله عليه ، ويستغيثانه عليه أن يؤمن بالله ويقر بالبعث ، ويقولان له : ﴿ وَيَلَكْ ءَامِنْ ﴾ ؛ أي : صدق بوعد الله ، وأقر أنك مبعوث من بعد وفاتك ؛ ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ ﴾ الذي وعد خلقه أنه باعثهم من قبورهم ، ومخرجهم منها إلى موقف الحساب لمجازاتهم بأعمالهم ﴿ حَقٌّ ﴾ لا شك فيه ، فيقول عدو الله مجيبا لوالديه ، وردا عليهما نصيحتهما ، وتكذيبا بوعد الله : ما هذا الذي تقولان لي وتدعواني إليه من التصديق بأني مبعوث من بعد وفاتي من قبري ، إلا ما سطره الأولون من الناس من الأباطيل ، فكتبوه ، فأصبتماه أنتما فصدقتما^(٢) .

وقال ابن كثير : « وقوله : ﴿ أَتَعْدَانِي أَنْ أُخْرَجَ ﴾ أي : أبعث ﴿ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي ﴾ ؛ أي : قد مضى الناس فلم يرجع منهم مخبر ، ﴿ وَهُمَا يَسْتَفِثَانِ اللَّهَ ﴾ ؛ أي : يسألان الله فيه أن يهديه ويقولان لولدهما : ﴿ وَيَلَكْ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ . قال الله : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمْرِ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴾^(٣) ؛ أي : دخلوا في زمرة أشباههم وأضرابهم من الكافرين الخاسرين أنفسهم وأهلهم يوم القيامة^(٤) .

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/٢٦٦) .

(٢) جامع البيان (٢٦/١٩-٢٠) .

(٣) الأحقاف : الآية (١٨) .

(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/٢٦٧) .

وقال الشنقيطي: «التحقيق إن شاء الله أن (الذي) في قوله: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ﴾ بمعنى (الذين)، وأن الآية عامة في كل عاق لوالديه مكذب [بالبعث].

والدليل من القرآن على أن (الذي) بمعنى (الذين)، وأن المراد به العموم، أن (الذي) في قوله: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ﴾ مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ الآية؛ والإخبار عن لفظة (الذين) في قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ بصيغة الجمع، صريح في أن المراد بـ(الذي) العموم، لا الأفراد؛ وخير ما يفسر به القرآن القرآن.

وبهذا الدليل القرآني تعلم أن قول من قال في هذه الآية الكريمة: إنها نازلة في عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ليس بصحيح، كما جازمت عائشة رضي الله عنها بطلانه.

وفي نفس آية (الأحقاف) هذه دليل آخر واضح على بطلانه، وهو أن الله صرح بأن الذين قالوا تلك المقالة حق عليهم القول، وهو قوله: ﴿وَلَكِنَّ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾^(١).

ومعلوم أن عبدالرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه أسلم وحسن إسلامه، وهو من خيار المسلمين وأفاضل الصحابة، رضي الله عنه.

وغاية ما في هذه الآية الكريمة هو إطلاق (الذي) وإرادة (الذين)، وهو كثير في القرآن وفي كلام العرب؛ لأن لفظ (الذي) مفرد، ومعناها عام لكل ما تشمله صلتها، وقد تقرر في علم الأصول أن الموصلات كـ(الذي) و(التي) وفروعهما من صيغ العموم، كما أشار له في مراقي السعود بقوله:

صيغة كل أو الجميع وقد تلا الذي التي الفروع

فمن إطلاق (الذي) وإرادة (الذين) في القرآن هذه الآية الكريمة من سورة (الأحقاف)، وقوله تعالى في سورة (البقرة): ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾^(٢) الآية؛ أي: كمثل الذين استوقدوا؛ بدليل قوله: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يَبْصُرُونَ﴾ بصيغة الجمع في الضمائر الثلاثة التي هي: ﴿بِنُورِهِمْ﴾، ﴿وَتَرَكَهُمْ﴾،

(١) السجدة: الآية (١٣).

(٢) البقرة: الآية (١٧).

والواو في ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾ ، وقوله تعالى في البقرة أيضا : ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾^(١) ، وقوله في (الزمر) : ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾^(٢) ، وقوله في (التوبة) : ﴿وَخُضِّمٌ كَالَّذِي خَاضُوا﴾^(٣) ؛ أي : كالذين خاضوا ؛ بناءً على أنها موصولة لا مصدرية ، ونظير ذلك من كلام العرب قول أشهب بن رميلة :

فإن الذي حانت بفلج دماؤهم هم القوم كل القوم يا أم خالد
وقول عدیل بن الفرخ العجلي :
وبت أساقي القوم إخوتي الذي غوايتهم غيبي ورشدهم رشدي
وقول الراجز :

يا رب عبس لا تبارك في أحد في قائم منهم ولا في من قعد
إلا الذي قاموا بإطراف المسد^(٤) .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في نفي نزول الآية في عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه

* عن يوسف بن ماهك قال : «كان مروان على الحجاز استعمله معاوية ، فخطب فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه ، فقال له عبدالرحمن بن أبي بكر شيئا ، فقال : خذوه فدخل بيت عائشة فلم يقدرُوا عليه ، فقال مروان : إن هذا الذي أنزل الله فيه : ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَلَدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي﴾ ، فقالت عائشة من وراء الحجاب : ما أنزل الله فينا شيئا من القرآن ، إلا أن الله أنزل عذري^(٥) .

* فوائد الحديث :

أفاد الحديث ادعاء مروان ومحاولته إنزال الآية في عبدالرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه والصاقها به كرد فعل منه لما واجهه عبدالرحمن وأسمعه ما يكره ، فأكذبت عائشة رضي الله عنها

(١) البقرة : الآية (٢٦٤) .

(٢) الزمر : الآية (٣٣) .

(٣) التوبة : الآية (٦٩) .

(٤) أضواء البيان (٧/ ٣٨٧-٣٨٨) .

(٥) أخرجه البخاري (٨/ ٧٤٠ / ٤٨٢٧) .

ونفت نفياً قاطعاً أن تكون الآية نزلت في عبدالرحمن؛ قال ابن حجر في «الفتح»: «نفي عائشة أن تكون نزلت في عبدالرحمن وآل بيته أصح إسناداً، وأولى بالقبول»^(١).

والعجب - يقول ابن حجر - «مما أورده الطبري من طريق العوفي عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في عبدالرحمن بن أبي بكر، وقد تعقبه الزجاج فقال: الصحيح أنها نزلت في الكافر العاق، وإلا فعبدالرحمن قد أسلم فحسن إسلامه وصار من خيار المسلمين، وقد قال الله في هذه الآية: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾»^(٢) إلى آخر الآية، فلا يناسب ذلك عبدالرحمن»^(٣).

* * *

(١) فتح الباري (٨/٧٤٢).

(٢) الأحقاف: الآية (١٨).

(٣) فتح الباري (٨/٧٤٢).

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ
مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ
أَعْمَلَهُمْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾

★ غريب الآية:

حَقَّ: أي: وجب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : هؤلاء الذين هذه الصفة صفتهم، الذين
وجب عليهم عذاب الله، وحلت بهم عقوبته وسخطه، فيمن حلّ به عذاب الله على
مثل الذي حلّ بهؤلاء من الأمم الذين مضوا قبلهم من الجن والإنس، الذين كذبوا
رسل الله، وعتوا عن أمر ربهم.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾ يقول - تعالى ذكره - : إنهم كانوا المغبونين
بيعهم الهدى بالضلال، والنعيم بالعقاب»^(١).

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ بعد قوله: ﴿وَالَّذِي قَالَ﴾ دليل على ما ذكرناه
من أنه جنس يعم كل من كان كذلك. وقال الحسن وقتادة: هو الكافر الفاجر العاق
لوالديه المكذب بالبعث»^(٢).

قال السعدي: «والخسران: فوات رأس مال الإنسان. وإذا فقد رأس ماله،
فالأرباح من باب أولى وأحرى.

فهم قد فاتهم الإيمان، ولم يحصلوا شيئاً من النعيم، ولا سلموا من عذاب
الجحيم»^(٣).

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ يقول - تعالى ذكره - :

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٦١).

(١) جامع البيان (٢٦/ ٢٠).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٠).

ولكل هؤلاء الفريقين : فريق الإيمان بالله واليوم الآخر ، والبرّ بالوالدين ، وفريق الكفر بالله واليوم الآخر ، وعقوق الوالدين اللذين وصف صفتهم ربنا ﷻ في هذه الآيات منازل ومراتب عند الله يوم القيامة ، ﴿مِمَّا عَمِلُوا﴾ يعني من عملهم الذي عملوه في الدنيا من صالح وحسن وسيء يجازيهم الله به . .

قال ابن زيد في قوله : ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ قال : درج أهل النار يذهب سفالاً ، ودرج أهل الجنة يذهب علواً ، ﴿وَلِيُوفِّيَهُمْ أُعْمَلُهُمْ﴾ يقول -جل ثناؤه- : وليعطي جميعهم أجور أعمالهم التي عملوها في الدنيا ، المحسن منهم بإحسانه ما وعد الله من الكرامة ، والمسيء منهم بإساءته ما أعدّه من الجزاء ، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ يقول : وجميعهم لا يظلمون : لا يجازى المسيء منهم إلا عقوبة على ذنبه ، لا على ما لم يعمل ، ولا يحمل عليه ذنب غيره ، ولا يبخس المحسن منهم ثواب إحسانه^(١) .

* * *

(١) جامع البيان (٢٦ / ٢٠) .

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدْهَبْتُمْ طِبِّيتَكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَأَسْتَمَنَّعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ ﴿٢٠﴾

★ غريب الآية:

الهُون: الهوان والذل والصغار.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «أي: يقال لهم ذلك تقريرًا وتوبيخًا. وقد تورّع عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن كثير من طيبات المآكل والمشارب، وتنزه عنها، ويقول: أخاف أن أكون كالذين قال الله تعالى لهم وقرعهم: ﴿أَدْهَبْتُمْ طِبِّيتَكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَأَسْتَمَنَّعْتُمْ بِهَا﴾».

وقال أبو مجلز: ليتفقّدن أقوام حسنات كانت لهم في الدنيا، فيقال لهم: ﴿أَدْهَبْتُمْ طِبِّيتَكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا﴾.

وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾، فجوزوا من جنس عملهم، فكما نعموا أنفسهم واستكبروا عن اتباع الحق، وتعاطوا الفسق والمعاصي، جازاهم الله بعذاب الهون، وهو الإهانة والخزي والآلام الموجهة، والحسرات المتتابعة، والمنازل في الدركات المفضعة، أجارنا الله من ذلك كله»^(١).

وقال الشنقيطي: «معنى الآية الكريمة أنه يقال للكفار يوم يعرضون على النار: ﴿أَدْهَبْتُمْ طِبِّيتَكُمْ﴾».

فقوله: يعرضون على النار: قال بعض العلماء: معناه: يباشرون حرها؛ كقول العرب: عرضهم على السيف: إذا قتلهم به، وهو معنى معروف في كلام العرب.

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٦٨).

وقد ذكر تعالى مثل ما ذكر هنا في قوله: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ وهذا يدل على أن المراد بالعرض مباشرة العذاب لقوله: ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِثَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾^(٢)؛ لأنه عرض عذاب.

وقال بعض العلماء: معنى عرضهم على النار هو تقريبهم منها، والكشف لهم عنها، حتى يروها، كما قال تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ﴾^(٣) الآية، وقال تعالى: ﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾^(٤).

وقال بعض العلماء: في الكلام قلب، وهو مروي عن ابن عباس وغيره. قالوا: والمعنى: ويوم تعرض النار على الذين كفروا قالوا؛ وهو كقول العرب: عرضت الناقة على الحوض، يعنون: عرضت الحوض على الناقة؛ ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾^(٥).

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: هذا النوع الذي ذكره من القلب في الآية، كقلب الفاعل مفعولاً، والمفعول فاعلاً، ونحو ذلك اختلف فيه علماء العربية، فمنعه البلاغيون إلا في التشبيه، فأجازوا قلب المشبه مشبهاً به والمشبه به مشبهاً بشرط أن يتضمن ذلك نكتة وسراً لطيفاً، كما هو المعروف عندهم في مبحث التشبيه المقلوب. وأجازه كثير من علماء العربية.

والذي يظهر لنا أنه أسلوب عربي نطقت به العرب في لغتها، إلا أنه يحفظ ما سمع منه، ولا يقاس عليه، ومن أمثلته في التشبيه قول الراجز:

ومنهل مغبرة أرجاؤه كأن لو أرضه سماؤه

أي: كأن سماءه لون أرضه، وقول الآخر:

وبدا الصباح كأن غرته وجه الخليفة حين يمتدح

لأن أصل المراد تشبيه وجه الخليفة بغرة الصباح، فقلب التشبيه؛ ليوهم أن

(١) الأحقاف: الآية (٣٤).

(٢) غافر: الآيتان (٤٥ و ٤٦).

(٣) الكهف: الآية (٥٣).

(٤) الفجر: الآية (٢٣).

(٥) الكهف: الآية (١٠٠).

الفرع أقوى من الأصل في وجه الشبه .

وقالوا : ومن أمثلته في القرآن : ﴿وَأَيُّنَّهُ مِنْ أَلْكُؤُزٍ مَّا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْمُصْبَكَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾^(١) ؛ لأن العصبه من الرجال هي التي تنوء بالمفاتيح ؛ أي : تنهض بها بمشقة وجهه ؛ لكثرتها وثقلها ، وقوله تعالى : ﴿فَعَمِيَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ﴾^(٢) أي : عموا عنها . ومن أمثلته في كلام العرب قول كعب بن زهير :

كَأَنَّ أَوْبَ ذِرَاعِيهَا إِذَا عَرَقَتْ وَقَدْ تَلْفَعُ بِالْقُورِ الْعَسَاقِيلَ

لأن معنى قوله : تلفع : لبس اللفاح ، وهو اللحاف ، والقور : الحجارة العظام ، والعساquil : السراب . والكلام مقلوب ؛ لأن القور هي التي تلتحف بالعساquil ، لا العكس ، كما أوضحه لبيد في معلقته بقوله :

فَبِتِلْكَ إِذْ رَقَصَ اللُّوَامِعُ بِالضُّحَى وَاجْتَابَ أَرْدِيَةَ السَّرَابِ إِكَامَهَا

فصرح بأن الإكام التي هي الحجارة اجتابت ؛ أي : لبست أودية السراب . والأردية : جمع رداء ؛ وهذا النوع من القلب وإن أجاز به بعضهم فلا ينبغي حمل الآية عليه ؛ لأنه خلاف الظاهر ، ولا دليل عليه يجب الرجوع إليه . وظاهر الآية جارٍ على الأسلوب العربي الفصيح ، كما أوضحه أبو حيان في «البحر المحيط»^(٣) .

قال أبو حيان : ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ﴾ أي : يعذب بالنار ، كما يقال : عرض على السيف : إذا قتل به ، والعرض : المباشرة ، كما تقول : عرضت العود على النار ؛ أي : باشرت به النار . وقال الزمخشري : ويجوز أن يراد عرض النار عليهم ؛ من قولهم : عرضت الناقة على الحوض ، يريدون عرض الحوض عليها ، فقلبوا . ويدل عليه تفسير ابن عباس : «يجاء بهم إليها ، فيكشف لهم عنها» انتهى .

ولا ينبغي حمل القرآن على القلب ؛ إذ الصحيح في القلب أنه مما يضطر إليه في الشعر . وإذا كان المعنى صحيحًا واضحًا مع عدم القلب ، فأى ضرورة تدعو إليه ؟ وليس في قولهم : عرضت الناقة على الحوض ، ولا في تفسير ابن عباس ما يدل

(٢) القصص : الآية (٦٦) .

(١) القصص : الآية (٧٦) .

(٣) أضواء البيان (٧/ ٣٩٠-٣٩٢) .

على القلب؛ لأن عرض الناقة على الحوض، وعرض الحوض على الناقة، كل منهما صحيح؛ إذ العرض أمر نسبي يصح إسناده لكل واحد من الناقة والحوض»^(١).

قال السعدي: «يذكر تعالى حال الكفار عند عرضهم على النار حين يوبخون ويقرعون، فيقال لهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيْبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ حيث اطمأنتم إلى الدنيا، واغتررتم بلذاتها، ورضيتم بشهواتها، وألهتكم طيباتها عن السعي لآخرتكم، وتمتعتم تمتع الأنعام السارحة، فهي حظكم من آخرتكم، ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ أي: العذاب الشديد، الذي يهينكم ويفضحكم بما كنتم تقولون على الله غير الحق؛ أي: تنسبون الطريق الضالة التي أنتم عليها إلى الله، وإلى حكمه، وأنتم كذبة في ذلك، ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ أي: تكبرون عن طاعته، فجمعوا بين قول الباطل، والعمل بالباطل، والكذب على الله بنسبته إلى رضاه، والقذح في الحق، والاستكبار عنه، فعوقبوا أشد العقوبة»^(٢).

قال الشنقيطي: «واعلم أن للعلماء كلامًا كثيرًا في هذه الآية قائلين: إنها تدل على أنه ينبغي التقشف والإقلال من التمتع بالماكل والمشارب والملابس ونحو ذلك، وأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يفعل ذلك خوفًا منه أن يدخل في عموم من يقال لهم يوم القيامة: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيْبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ الآية. والمفسرون يذكرون هنا آثارًا كثيرة في ذلك، وأحوال أهل الصفة وما لاقوه من شدة العيش.

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: التحقيق إن شاء الله في معنى هذه الآية: هو أنها في الكفار، وليست في المؤمنين الذين يتمتعون باللذات التي أباحها الله لهم؛ لأنه تعالى ما أباحها لهم ليذهب بها حسناتهم.

وإنما قلنا: إن هذا هو التحقيق؛ لأن الكتاب والسنة الصحيحة دالان عليه، والله تعالى يقوله: ﴿فَإِنْ لَنْتَزَعْنَهُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾^(٣) الآية.

أما كون الآية في الكفار، فقد صرح الله تعالى به في قوله: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيْبَاتِكُمْ﴾ الآية.

والقرآن والسنة الصحيحة قد دلا على أن الكافر إن عمل عملاً صالحاً مطابقاً

(١) البحر المحيط (٦٣/٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥١/٧).

(٣) النساء: الآية (٥٩).

للشرع، مخلصًا فيه لله، كالكافر الذي يبرّ والديه، ويصل الرحم، ويقري الضيف، وينفس عن المكروب، ويعين المظلوم، يبتغي بذلك وجه الله، يثاب بعمله في دار الدنيا، خاصة بالرزق والعافية ونحو ذلك، ولا نصيب له في الآخرة.

فمن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾^(٢).

وقد قيّد تعالى هذا الثواب الدنيوي المذكور في الآيات بمشيئته وإرادته، في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٧﴾﴾^(٣).

وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث أنس أن النبي ﷺ قال: «إن الله لا يظلم مؤمنًا حسنة يعطي بها في الدنيا ويجزي بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسناته ما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزي بها» هذا لفظ مسلم في صحيحه. وفي لفظ له عن رسول الله ﷺ: «إن الكافر إذا عمل حسنة أطعم بها طعمة في الدنيا، وأما المؤمن فإن الله يدخر له حسناته في الآخرة، ويعقبه رزقًا في الدنيا على طاعته»^(٤). فهذا الحديث الثابت عن النبي ﷺ فيه التصريح بأن الكافر يجازى بحسناته في الدنيا فقط، وأن المؤمن يجازى بحسناته في الدنيا والآخرة معًا. وبمقتضى ذلك يتعين تعيينًا لا محيص عنه أن الذي أذهب طيباته في الدنيا واستمتع بها هو الكافر؛ لأنه لا يجزى بحسناته إلا في الدنيا خاصة.

وأما المؤمن الذي يجزى بحسناته في الدنيا والآخرة معًا، فلم يذهب طيباته في الدنيا؛ لأن حسناته مدخرة له في الآخرة، مع أن الله تعالى يشبه بها في الدنيا كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢١﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴿٢٢﴾﴾^(٥)، فجعل المخرج من الضيق له ورزقه من حيث لا يحتسب ثوابًا في الدنيا، وليس

(٢) الشورى: الآية (٢٠).

(١) هود: الآيتان (١٥ و ١٦).

(٣) الإسراء: الآية (١٨).

(٤) أخرجه: أحمد (١٢٣/٣)، ومسلم (٢٨٠٨/٤/٢١٦٢).

(٥) الطلاق: الآيتان (٣ و ٢).

ينقص أجر تقواه في الآخرة.

والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة، وعلى كل حال فالله جل وعلا أباح لعباده على لسان نبيه ﷺ الطيبات في الحياة الدنيا، وأجاز لهم التمتع بها، ومع ذلك جعلها خاصة بهم في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ، وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾^(١).

فدل هذا النص القرآني أن تمتع المؤمنين بالزينة والطيبات من الرزق في الحياة الدنيا لم يمنعهم من اختصاصهم بالتنعم بذلك يوم القيامة، وهو صريح في أنهم لم يذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا.

ولا ينافي هذا أن من كان يعاني شدة الفقر في الدنيا كأصحاب الصفة، يكون لهم أجر زائد على ذلك؛ لأن المؤمنين يؤجرون، بما يصيبهم في الدنيا من المصائب والشدائد، كما هو معلوم^(٢).

قال أبو حيان: «وهذه الآية محرصة على التقلل من الدنيا، وترك التنعم فيها، والأخذ بالتقشف، وما يجتزي به رمق الحياة عن رسول الله في ذلك ما يقتضي التأسي به. وعن عمر في ذلك أخبار تدل على معرفته بأنواع الملاذ، وعزة نفسه الفاضلة عنها. أتظنون أنا لا نعرف خفض العيش؟ ولو شئت لجعلت أكباداً وصلاءً وصلاتق، ولكن أستبقي حسناني؛ فإن الله ﷻ وصف أقواماً فقال: ﴿أَذْهَبَتْكُمْ طَبِيبَتُكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ﴾، والصلاء: الشواء، والصفار: المتخذ من الخردل والزبيب، والصلاتق: الخبز الرقاق العريض. قال ابن عباس: وهذا من باب الزهد، وإلا فالآية نزلت في كفار قريش^(٣).

وقال الشنقيطي: «وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ أي: عذاب الهون، وهو الذل والصغار.

وقوله تعالى: ﴿يَمَّا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَيَمَّا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾، (الباء) في قوله: ﴿يَمَّا كُنْتُمْ﴾ سببية، و(ما) مصدرية؛ أي: تجزون عذاب الهون بسبب كونكم مستكبرين في الأرض، وكونكم فاسقين.

(١) الأعراف: الآية (٣٢).

(٢) أضواء البيان (٧/ ٣٩٣-٣٩٥).

(٣) البحر المحيط (٨/ ٦٣).

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من كون الاستكبار في الأرض والفسق من أسباب عذاب الهون، وهو عذاب النار، جاء موضحاً في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾^(٢) الآية^(٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في بيان أن كل لذة وشهوة قضاه المرء في الدنيا في ما له مندوحة عنها فهو استعجال له من نعيم الآخرة وأنه لو ترك ذلك لادخر له في الآخرة

* عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «... ثم رفعت بصري في بيته، فوالله ما رأيت فيه شيئاً يرد البصر غير أهبة ثلاث، فقلت: ادع الله فليوسع على أمتك؛ فإن فارس والروم وسع عليهم وأعطوا الدنيا وهم لا يعبدون الله. وكان متكئاً، فقال: أوفي شك أنت يا بن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا...»^(٤).

* غريب الحديث:

أهبة: الأهبة، بفتح الهمزة والهاء وبضمهما أيضاً، بمعنى الأهب، والهاء فيه للمبالغة، وهو جمع إهاب على غير قياس، وهو الجلد قبل الدباغ. وقيل: هو الجلد مطلقاً دبغ أو لم يدبغ. والذي يظهر أن المراد به هنا جلد شرع في دبغه ولم يكمل؛ لقوله في رواية سماك بن الوليد: «إذا أفيق معلق»، والأفيق بوزن عظيم: الجلد الذي لم يتم دباغه^(٥).

* فوائد الحديث:

قال الطبري: «وفيه الإبانة عن أن كل لذة وشهوة قضاه المرء في الدنيا فيما له مندوحة عنها، فهو استعجال بذلك من نعيم الآخرة الذي لو لم يستعجله في الدنيا

(١) الزمر: الآية (٦٠).

(٢) السجدة: الآية (٢٠).

(٣) أضواء البيان (٧/ ٣٩٥-٣٩٦).

(٤) أخرجه: أحمد (٣٤/١)، والبخاري (٥/ ١٤٦/ ٢٤٦٨) واللفظ له، ومسلم (٢/ ١١٠٥-١١١٣/ ١٤٧٩)،

والترمذي (٥/ ٣٩١/ ٣٣١٨) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٦٦/ ٩١٥٧)، وهو جزء

(٥) فتح الباري (٩/ ٣٦٠).

من حديث طويل.

كان مدخوراً له في الآخرة، وذلك لقوله ﷺ لعمر: «أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا»، فأخبر أن ما أوتيته فارس والروم من نعيم الدنيا تعجيل من الله لهم نظير ما ادخر لأهل ولايته عنده؛ فكره لأمته أن تؤتى مثل ما أوتي فارس والروم على سبيل التلذذ والتنعيم، فأما على صرفه في وجهه وتفريقه في سبيله التي أمر الله بوضعه فيها، فلا شك في فضل ذلك وشرف منزلته؛ إذ هو من منازل الامتحان والصبر على المحن، مع أن الشكر على النعم أفضل من الصبر على الضراء وحدها^(١).

قال ابن العربي: «من حسن معاش المرء ألا يسترسل على الشهوة دائماً؛ فإنه إذا اعتادها ففقدتها لم يستطع الصبر عنها، فإما أن يتكلف ما لا يجوز، وإما أن يقيم معذب النفس، هذا إذا قام بحققها، وأما إن قصر فيه مثل أن يشبع، فلا يطيع أو يبيت شبعاناً أو جاره طياناً، فقد صار ذلك في حد المعصية وخرج عن باب المباح وفي مثله يقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ يريد: فلم تطيعوا ولم تواسوا»^(٢).

قال البيهقي: «قال الحلبي رحمه الله: وهذا الوعيد من الله تعالى وإن كان للكفار الذين يقدمون على الطيبات المحظورة، ولذلك قال: ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾، فقد يحسن مثله على المنهمكين في الطيبات المباحة؛ لأن من تعودها مالت نفسه إلى الدنيا فلم يؤمن أن يرتكب في الشهوات والملاذ، وكلما أجاب نفسه إلى واحدة منها دعت إلى غيرها، فيصير إلى أن لا يمكنه عصيان نفسه في هوى قط، وينسد باب العبادة دونه، فإذا آل الأمر به إلى هذا لم يبعد أن يقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾، فلا ينبغي أن تعود النفس ما يميل بها إلى الشره ثم يصعب تداركها، ولترض من أول الأمر على السداد؛ فإن ذلك أهون من أن يضرب على الفساد، ثم يجتهد في إعادتها إلى الصلاح»^(٣).

وقد تقدم هذا المعنى في سورة (الزخرف) الآية (٣٥).

* * *

(١) شرح صحيح البخاري لأبن بطل (٧/٣١٣-٣١٤).

(٢) القبس (٣/١١٢٢).

(٣) شعب الإيمان (٥/٣٥). وانظر الجامع لأحكام القرآن (١٦/٢٠٢-٢٠٣) و(٧/١٩٨)، وجامع العلوم الحكم

(٢/١٨٦-٢٠٢)، والاستذكار (٢٦/٣٤٦-٣٥١).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ كُنَّا أَهْلًا عَادَ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ
النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ
يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ
الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا أَلِمْ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي
أَرِنَكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

★ غريب الآية:

لِنَأْفِكَنَّ: لتصرفنا وتزيلنا. قال عروة بن أذينة:

إن تك عن أحسن الصنعة مأفوكاً ففي آخرين قد أفكوا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - لنبه محمد ﷺ: «واذكر يا محمد لقومك
الرادين عليك ما جئتهم به من الحق هوذا أخوا عاد؛ فإن الله بعثك إليهم كالذي بعثه
إلى عاد، فخوفهم أن يحلّ بهم من نقمة الله على كفرهم ما حلّ بهم إذ كذبوا رسولنا
هوذا إليهم، إذ أنذر قومه عادًا بالأحقاف. والأحقاف: جمع حقف، وهو من
الرمل ما استطال، ولم يبلغ أن يكون جبلاً..»

واختلف أهل التأويل في الموضع الذي به هذه الأحقاف؛ فقال بعضهم: هي
جبل بالشام.. وقال آخرون: بل هي وادي بين عُمان ومهرة.. وقال آخرون: هي
أرض.. وقال آخرون: هي رمال مشرفة على البحر بالشحر.. وأولى الأقوال في
ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تبارك وتعالى أخبر أن عادًا أنذرهم أخوهم هود
بالأحقاف، والأحقاف ما وصفت من الرمال المستطيلة المشرفة.. قال ابن زيد:
الأحقاف: الرمل الذي يكون كهيئة الجبل تدعوه العرب الحقف، ولا يكون أحقافاً
إلا من الرمل، قال: وأخو عاد هود. وجائز أن يكون ذلك جبلاً بالشام. وجائز أن
يكون وادياً بين عمان وحضرموت. وجائز أن يكون الشحر وليس في العلم به أداء

فرض، ولا في الجهل به تضييع واجب، وأين كان فصفته ما وصفنا من أنهم كانوا قومًا منازلهم الرمال المستعلية المستطيلة»^(١).

قال الشنقيطي: «أبهم جل وعلا في هذه الآية الكريمة أخا عاد ولم يعينه، ولكنه بين في آيات أخرى أنه هود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، كقوله تعالى: ﴿وَالِئِنْ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا﴾^(٢) في سورة (الأعراف)، وسورة (هود) وغير ذلك من المواضع»^(٣).

قال ابن جرير: «﴿وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ» يقول -تعالى ذكره-: وقد مضت الرسل بإنذار أممها (من بين يديه) يعني: من قبل هود (ومن خلفه) يعني: ومن بعد هود.. ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ يقول: لا تشركوا مع الله شيئًا في عبادتكم إياه، ولكن أخلصوا له العبادة، وأفردوا له الألوهة، إنه لا إله غيره، وكانوا فيما ذكر أهل أوثان يعبدونها من دون الله..

وقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يقول -تعالى ذكره- مخبرًا عن قيل هود لقومه: إني أخاف عليكم أيها القوم بعبادتكم غير الله عذاب الله في يوم عظيم، وذلك يوم يعظم هوله، وهو يوم القيامة»^(٤).

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾:

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن النبي هودًا نهى قومه أن يعبدوا غير الله، وأمرهم بعبادته تعالى وحده، وأنه خوفهم من عذاب الله إن تمادوا في شركهم به. وهذان الأمران اللذان تضمنتهما هذه الآية جاءا موضحين في آيات آخر.

أما الأول منهما ففي قوله تعالى: ﴿وَالِئِنْ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ في سورة (الأعراف) وسورة (هود) ونحو ذلك من الآيات.

وأما خوفه عليهم العذاب العظيم فقد ذكره في (الشعراء) في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٦﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَيْنَ ﴿١٣٧﴾ وَحَنَّتِ وَعُيُونٍ ﴿١٣٨﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٩﴾ وهو يوم القيامة»^(٥).

(٢) الأعراف: الآية (٦٥)، هود: الآية (٥٠).

(٤) جامع البيان (٢٦/٢٤).

(٦) أضواء البيان (٧/٣٩٦-٣٩٧).

(١) جامع البيان (٢٦/٢٢-٢٤) بتصرف.

(٣) أضواء البيان (٧/٣٩٦).

(٥) الشعراء: الآيات (١٣٢-١٣٥).

وقوله: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَّفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَإِنَّا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٢٢) قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : قالت عاد لهود - إذ قال لهم : لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم - : أجئتنا يا هود لتصرفنا عن عبادة آلِهتنا إلى عبادة ما تدعوننا إليه ، وإلى اتباعك على قولك ؟ . . قال ابن زيد في قوله : ﴿أَجِئْنَا لِنَتَّفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ قال : لتزيلنا ، وقرأ : ﴿إِن كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ (١) قال : تضلنا وتزيلنا وتأفكنا ، ﴿فَأِنَّا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من العذاب على عبادتنا ما نعبد من الآلهة إن كنت من أهل الصدق في قوله وعداته» (٢) .

قال الشنقيطي : «قوله تعالى : ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَّفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَإِنَّا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٢٢) :

معنى قوله تعالى : ﴿لِنَتَّفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَإِنَّا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ؛ أي : لتصرفنا عن عبادتها إلى عبادة الله وحده .
وقد تضمنت هذه الآية الكريمة أمرين :

أحدهما : إنكار عاد على هود أنه جاءهم ، ليركوا عبادة الأوثان ، ويعبدوا الله وحده .

والثاني : أنهم قالوا له : ائتنا بما تعدنا من العذاب وعجله لنا إن كنت صادقاً فيما تقول ؛ عناداً منهم وعتواً .

وهذان الأمران جاءا موضحين في غير هذا الموضع ، كقوله تعالى في (الأعراف) : ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَإِنَّا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٧٠) ﴿٣﴾ (٤) .

قال ابن كثير : «وقوله : ﴿وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ يعني : وقد أرسل الله إلى من حول بلادهم من القرى مرسلين ومنذرين ، كقوله : ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ (٥) ، وكقوله : ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ (٦٣) إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا

(٢) جامع البيان (٢٦/٢٤-٢٥) .

(٤) أضواء البيان (٢٦/٣٩٧) .

(١) الفرقان : الآية (٤٢) .

(٣) الأعراف : الآية (٧٠) .

(٥) البقرة : الآية (٦٦) .

لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴿١﴾ أي: قال لهم هود ذلك، فأجابه قومه قائلين: ﴿أَحْسَنَّا لِمَا فَعَلْنَا﴾ أي: لتصدقنا ﴿عَنْ ءَالِهَتِنَا فَإِنَّا بِمَا تَعِدُّنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ استعجلوا عذاب الله وعقوبته، استبعاداً منهم وقوعه، كقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ ﴿٢﴾ ﴿٣﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَعْلِمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرِنَكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ ﴿١٣﴾ قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : قال هود لقومه عاد: ﴿إِنَّمَا أَعْلِمُ﴾ بوقت مجيء ما أعدكم به من عذاب الله على كفركم به عند الله، لا أعلم من ذلك إلا ما علمني ﴿وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ يقول: وإنما أنا رسول إليكم من الله، مبلغ أبلغكم عنه ما أرسلني به من الرسالة ﴿وَلَكِنِّي أَرِنَكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ مواضع حظوظ أنفسكم، فلا تعرفون ما عليها من المصرة بعبادتكم غير الله، وفي استعجال عذابه» ﴿٤﴾.

قال ابن كثير: «﴿قَالَ إِنَّمَا أَعْلِمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: الله أعلم بكم إن كنتم مستحقين لتعجيل العذاب فيفعل ذلك بكم، وأما أنا فمن شأني أني أبلغكم ما أرسلت به، ﴿وَلَكِنِّي أَرِنَكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ أي: لا تعقلون ولا تفهمون» ﴿٥﴾.

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾: ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن نبي الله هوداً قال لقومه: إنه يبلغهم ما أرسل به إليهم؛ لأنه ليس عليه إلا البلاغ، وهذا المعنى جاء مذكوراً في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في (الأعراف): ﴿قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ ﴿٦﴾، وقوله تعالى في سورة (هود): ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ ﴿٧﴾ الآية ﴿٨﴾.

* * *

(١) فصلت: الآيتان (١٣ و ١٤).

(٢) الشورى: الآية (١٨).

(٣) أضواء البيان (٧/ ٣٩٨).

(٤) جامع البيان (٢٦/ ٢٥).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٦٩).

(٦) الأعراف: الآيتان (٦٧ و ٦٨).

(٧) هود: الآية (٥٧).

(٨) أضواء البيان (٧/ ٣٩٨).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا
بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾

* غريب الآية:

عارضًا: العارض: السحاب يأخذ في عرض السماء. والعرب تسمي السحاب الذي يُرى في بعض أقطار السماء عشيًا، ثم يصبح من الغد قد استوى، وحبا بعضه إلى بعض: عارضًا؛ وذلك لعارضه في بعض أرجاء السماء حين نشأ؛ كما قال الأعشى:

يا من يرى عارضًا قد بت أرمقه كأنما البرق في حافاته الشعل

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: «أي: لما رأوا العذاب مستقبلهم، اعتقدوا أنه عارض ممطر، ففرحوا واستبشروا، وقد كانوا محلين محتاجين إلى المطر، قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: هو العذاب الذي قلتم: ﴿فَأَنَّا يَمَّا تَعَدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾»^(١).

وقال ابن جرير: «وقوله: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾: يقول -تعالى ذكره- مخبرًا عن قيل نبيه ﷺ هود لقومه لما قالوا له عند رؤيتهم عارض العذاب، قد عرض لهم في السماء هذا عارض ممطرنا نحيا به، ما هو بعارض غيث، ولكنه عارض عذاب لكم، بل هو ما استعجلتم به: أي: هو العذاب الذي استعجلتم به، فقلتم: ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين، ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾»^(٢).

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٦٩).

(٢) جامع البيان (٢٦/ ٢٦).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في خوفه ﷺ من الآيات التي عذبت بها الأمم السابقة أن تعذب بها أمته

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعًا ضاحكًا حتى أرى منه لهواته، إنما كان يتبسم، قالت: وكان إذا رأى غيمًا أو ريحًا عرف ذلك في وجهه. فقالت: يا رسول الله! أرى الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرفت في وجهك الكراهية. قالت: فقال: يا عائشة! وما يؤمنني أن يكون فيه عذاب؟ قد عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: هذا عارض ممطرنا»^(١).

★ غريب الحديث:

مستجمعًا: المستجمع: المجد في الشيء القاصد له^(٢).

لهواته: بالتحريك: جمع لهاة، وهي اللحم الحمراء المعلقة على الحنك^(٣).

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان النبي ﷺ إذا عصفت الريح قال: اللهم إني أسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به. قالت: وإذا تخيلت السماء تغير لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا مطرت سُري عنه، فعرفت ذلك في وجهه، قالت عائشة: فسألته، فقال: لعله يا عائشة كما قال قوم عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطَرْنَا﴾»^(٤).

★ غريب الحديث:

سُري عنه: بضم المهملة وتشديد الراء بلفظ المجهول؛ أي: كشف عنه ما خالطه من الوجع^(٥).

(١) أخرجه: أحمد (٦٦/٦)، والبخاري (٧٤٢-٧٤٣/٨)، ومسلم (٦١٦-٦١٧/٢)، وأبو داود (٣٢٩-٣٣٠/٥)، والترمذي (٣٢٥٧/٥)، وابن ماجه (١٢٨٠-١٢٨١/٢)، وشرح النووي على صحيح مسلم (١٧٤/٦).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٧٤/٦).

(٣) أخرجه: مسلم (٦١٦/٢)، واللفظ له وأخرج الشطر الأول منه: الترمذي (٣٤٤٩/٥) وقال: «هذا حديث حسن»، والنسائي في الكبرى (١٠٧٧٦/٦).

(٥) عمدة القاري (٥٦١/١٠).

تخيلت السماء: السماء ههنا بمعنى السحاب. وتخيلت: إذا ظهر في السحاب أثر المطر^(١).

* عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «نُصِرْتُ بالصَّبا، وأهلكت عاد بالدَّبُور»^(٢).

* غريب الحديث:

الصَّبا: بفتح الصاد مقصورة، وهي الريح الشرقية^(٣).

الدَّبُور: بفتح الدال، وهي الريح الغربية^(٤).

* عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: «بعث علي رضي الله عنه إلى النبي ﷺ بذهيبة، فقسمها بين الأربعة: الأقرع بن حابس الحنظلي ثم المجاشعي، وعيينة بن بدر الفزاري، وزيد الطائي ثم أحد بني نبهان، وعلقمة بن علاثة العامري أحد بني كلاب، فغضبت قريش والأنصار قالوا: يعطي صناديد أهل نجد ويدعنا، قال: إنما أتألفهم، فأقبل رجل غائر العينين، مشرف الوجنتين، ناتئ الجبين، كث اللحية، مخلوق، فقال: اتق الله يا محمد! فقال: من يطع الله إذا عصيت؟ أيا مني الله على أهل الأرض، ولا تأمنوني؟! فسأله رجل قتله - أحسبه خالد بن الوليد - فمنعه، فلما ولى قال: إن من ضئضىء هذا - أو في عقب هذا - قوم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان، لئن أنا أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد»^(٥).

* عن أبي وائل عن رجل من ربيعة قال: «قدمت المدينة فدخلت على رسول الله ﷺ، فذكرت عنده وافد عاد، فقلت: أعوذ بالله أن أكون مثل وافد عاد، قال رسول الله ﷺ: وما وافد عاد؟ قال: فقلت: على الخير سقطت، إن عادًا لما أقحطت بعثت قَيْلًا، فنزل على بكر بن معاوية، فسقاه الخمر، وغنته الجرادتان، ثم

(١) شرح الطيبي (٤/١٣٢٦).

(٢) أخرجه: أحمد (١/٢٢٨)، والبخاري (٦/٣٧٦/٣٣٤٣)، ومسلم (٢/٦١٧/٩٠٠)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٩٧/١١٦١٧).

(٣) المنهاج للنووي (٦/١٧٣).

(٤) المصدر نفسه.

(٥) أخرجه: أحمد (٣/٦٨)، والبخاري (٦/٤٦٣/٣٣٤٤)، ومسلم (٢/٧٤١/١٠٦٤)، وأبو داود (٥/١٢١-١٢٢/٤٧٦٤)، والنسائي (٧/١٣٤-١٣٥/٤١١٢).

خرج يريد جبال مهرة، فقال: اللهم إني لم آتكم لمريض فأداويه، ولا لأسير فأفاديه، فاسق عبدك ما كنت مسقيه، واسق معه بكر بن معاوية، يشكر له الخمر التي سقاه، فرفع له سحابات، فقيل له: اختر إحداهن، فاختر السوداء منهن، فقيل له: خذها رمادًا رمدًا، لا تذر من عاد أحدًا، وذكر أنه لم يرسل عليهم من الريح إلا قدر هذه الحلقة يعني حلقة الخاتم، ثم قرأ: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ (٤١) مَا نَذُرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ (١) الآية (٢).

★ غريب الحديث:

على الخير سقطت: أي: على العارف بقصة وافد عاد وقعت، وهو مثل سائر للغرب (٣).

أقحطت: بصيغة المجهول، يقال: أقحط القوم: إذا انقطع عنهم المطر (٤).
قَيْلاً: بفتح القاف وسكون وباللام: اسم وافد عاد، كما في رواية أحمد (٥): «فبعثوا وافداً لهم يقال له: قَيْل» (٦).

الجرادتان: هما مغنيتان كانتا بمكة في الزمن الأول مشهورتان بحسن الصوت والغناء (٧).

رمادًا رمدًا: بالكسر: المتناهي في الاحتراق والدقة، كما يقال: ليلٌ أَلِيلٌ ويومٌ أيَّومٌ، إذا أرادوا المبالغة (٨).

★ فوائد الأحاديث:

قد تقدم الكلام على هذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ﴾ الآية (٥٧) من سورة (الأعراف).
وفيه من الفوائد غير ما تقدم:

(١) الذاريات: الآيتان (٤١ و ٤٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٨١/ ٤٨٢)، والترمذي (٥/ ٣٦٤/ ٣٦٥/ ٣٢٧٣) واللفظ له، وسكت عنه. قال الألباني في «السلسلة الضعيفة» (١٢٢٨) بعد أن ذكر الحديث: «وهذا سند حسن».

(٣) تحفة الأحوذى (٦/ ١١٣).

(٤) تحفة الأحوذى (٩/ ١١٣).

(٥) (٣/ ٤٨٢).

(٦) تحفة الأحوذى (٩/ ١١٣/ ١١٤).

(٧) المصدر نفسه (٩/ ١١٤).

(٨) المصدر نفسه (٩/ ١١٤).

- «ما كان عليه رسول الله ﷺ من التعظيم لله ﷻ، والوجل من وقوع بأسه سبحانه على الناس، وشفقته ﷺ عليهم، وشدة اليقين بأن كل ما يقع في الكون إنما هو من أمر الله تعالى، ولا شك أن القلب إذا كان عامراً بالإيمان، مستنيراً بالهداية، مملوءاً باليقين، كانت معرفته بالله تامة وخشيته من بأسه كبيرة، ووجله من تحول نعمته، وفجاءة نقمته عظيمة، وفيها أن تبدل الأحوال في الكون من الريح المفاجئة أو البرق والرعد ونحو ذلك إنما هو آيات يرسلها الله تعالى لتخويف عباده، ليستقيموا على الطاعة، وينتبهوا من الغفلة، قال الله تعالى: ﴿وَمَا تُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخَوِيفًا﴾^(١)»^(٢).

- جواز «الإخبار عن الأمم الماضية وأهلها»^(٣).

- قال أبو بكر بن العربي: «سؤال رسول الله ﷺ عن خبر وافد عاد لهذا البكري، - ويقال الكلابي، والأول أصح - دليل على جواز سماع أخبار الأمم الماضية من غير الرسول ممن لا يتعلق في الشريعة من غير تحريف ولا تبديل»^(٤).

- وقال الحافظ معلقاً على حديث أبي سعيد الخدري: «والغرض منه هنا قوله: «لئن أنا أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد» أي: قتلاً لا يبقى منهم أحداً؛ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾^(٥)، ولم يرد أنه يقتلهم بالآلة التي قتلت بها عاد بعينها، ويحتمل أن يكون من الإضافة إلى الفاعل ويراد به القتل الشديد القوي، إشارة إلى أنهم موصوفون بالشدة والقوة ويؤيده أنه وقع في طريق أخرى: «قتل ثمود»^(٦).

- قال ابن كثير معلقاً على حديث وافد عاد: «هكذا أورد هذا الحديث وهذه القصة عند تفسير هذه القصة غير واحد من المفسرين، كابن جرير وغيره، وقد يكون هذا السياق لإهلاك عاد الآخرة؛ فإن فيما ذكره ابن إسحاق وغيره ذكر لمكة، ولم تُبن إلا بعد إبراهيم الخليل حين أسكن فيها هاجر وابنه إسماعيل، فنزلت جرهم

(١) الإسراء: الآية (٥٩).

(٢) قاله في إهداء الديباجة (٥/٢٣٦)، وانظر المفهم (٢/٥٤٧).

(٣) قاله ابن بطال في شرح صحيح البخاري (٣/٢٥).

(٤) عارضة الأحوذني (١٢/١٦٢-١٦٣). (٥) الحاقة: الآية (٨).

(٦) فتح الباري (٦/٤٦٥).

عندهم ، كما سيأتي ، وعاد الأولى قبل الخليل ، وفيه ذكر معاوية بن بكر وشعره ، وهو من الشعر المتأخر عن زمان عاد الأولى ، لا يشبه كلام المتقدمين ، وفيه أن في تلك السحابة شرر نار ، وعاد الأولى إنما أهلكوا بريح صرصر . .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ٢٤ ﴾ ، فالظاهر أن عادًا هذه هي عاد الأولى ؛ فإن سياقها شبيه بسياق قوم هود ، وهم الأولى ، ويحتمل أن يكون المذكورون في هذه القصة هم عاد الثانية ، ويدل عليه ما ذكرنا وما سيأتي من الحديث عن عائشة رضي الله عنها ، وأما قوله : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمِطِرُنَا ٢٥ ﴾ ؛ فإن عادًا لما رأوا هذا العارض وهو الناشئ في الجو كالسحاب ، ظنوه سحاب مطر ، فإذا هو سحاب عذاب ، اعتقدوه رحمة فإذا هو نقمة ، رجوا فيه الخير فنالوا منه غاية الشر ؛ قال الله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ ٢٦ ﴾ أي : من العذاب ، ثم فسره بقوله : ﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ٢٧ ﴾ يحتمل أن ذلك العذاب هو ما أصابهم من الريح الصرصر العاتية الباردة الشديدة الهبوب ، التي استمرت عليهم سبع ليال بآيامها الثمانية ، فلم تبق منهم أحدًا ، بل تتبعتهم حتى كانت تدخل عليهم كهوف الجبال والغيان ، فتلفهم وتخرجهم وتهلكهم ، وتدمر عليهم البيوت المحكمة ، والقصور المشيدة ، فكما منوا بقوتهم وشدتهم ، وقالوا : ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ٢٨ ﴾ ^(١) ، سلط الله عليهم ما هو أشد منهم قوة وأقدر عليهم ، وهو الريح العقيم ، ويحتمل أن هذه الريح أثارت في آخر الأمر سحابة ظن من بقي منهم أنها سحابة فيها رحمة بهم وغيث لمن بقي منهم ، فأرسلها الله عليهم شررًا ونارًا ، كما ذكره غير واحد ، ويكون هذا كما أصاب أصحاب الظلة من أهل مدين ، وجمع لهم بين الريح الباردة وعذاب النار ، وهو أشد ما يكون من العذاب بالأشياء المختلفة المتضادة مع الصيحة التي ذكرها في سورة ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ١ ﴾ ، والله أعلم .

. . وظاهر الآية أنهم رأوا عارضًا ، والمفهوم منه لمعة السحاب ، كما دل عليه حديث الحارث بن حسان البكري أن جعلناه مفسرًا لهذه القصة ، وأصرح منه في ذلك ما رواه مسلم في صحيحه حيث قال : حدثنا أبو الطاهر حدثنا ابن وهب

سمعت ابن جريج يحدثنا عن عطاء بن أبي رباح عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: اللهم إني أسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به. قالت: وإذا عُبِّت^(١) السماء تغير لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا مطرت سُري عنه، فعرفت ذلك عائشة، فسألته فقال: لعله يا عائشة كما قال قوم عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطَرْنَا﴾» رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث ابن جريج.

طريق أخرى قال الإمام أحمد: حدثنا هارون بن معروف أنبأنا عبد الله بن وهب أنبأنا عمرو وهو ابن الحارث أن أبا النضر حدثه عن سليمان بن يسار عن عائشة أنها قالت: «ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعًا ضاحكًا قط حتى أرى منه لهواته؛ إنما كان يتبسم. وقالت: كان إذا رأى غيمًا أو ريحًا عرف ذلك في وجهه، قالت: يا رسول الله! الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرف في وجهك الكراهية، فقال: يا عائشة! ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب؛ قد عذب قوم نوح بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: هذا عارض ممطرنا»، فهذا الحديث كالصریح في تغاير القصتين كما أشرنا إليه أولاً، فعلى هذا تكون القصة المذكورة في سورة (الأحقاف) خبرًا عن قوم عاد الثانية، وتكون بقية السياقات في القرآن خبرًا عن عاد الأولى، والله أعلم بالصواب»^(٢).

* * *

(١) أي: انتشرت فيها السحب.

(٢) البداية والنهاية (١/ ١٢١-١٢٣).

قوله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾
كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾

★ غريب الآية:

تدمر: التدمير: الإهلاك؛ أي: تخرب كل شيء، وترمي بعضه على بعض
فتهلكه؛ قال الشاعر:

وكان لهم كبكر ثمود لما رعى ظهراً فدمرهم دماراً

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ يقول -تعالى ذكره-:
تخرب كل شيء، وترمي بعضه على بعض فتهلكه.. وإنما عنى بقوله: (تدمر كل
شيء بأمر ربها) مما أرسلت بهلاكه، لأنها لم تدمر هوداً ومن كان آمن به..

وقوله: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾ يقول: فأصبح قوم هود وقد هلكوا
وفنوا، فلا يرى في بلادهم شيء إلا مساكنهم التي كانوا يسكنونها..

وقوله: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: كما جزينا عاداً
بكفرهم بالله من العقاب في عاجل الدنيا، فأهلكناهم بعذابنا، كذلك نجزي القوم
الكافرين بالله من خلقنا، إذ تمادوا في غيهم وطفوا على ربهم»^(١).

قال ابن كثير: «أي: تخرب ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ من بلادهم مما من شأنه الخراب، ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أي: بإذن الله لها في ذلك، كقوله: ﴿مَا نَذُرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّيْمِ﴾^(٢)؛ أي: كالشيء البالي. ولهذا قال: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾؛
أي: قد بادوا كلهم عن آخرهم ولم تبق لهم باقية، ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾؛
أي: هذا حكمنا فيمن كذب رسلنا، وخالف أمرنا»^(٣).

(١) جامع البيان (٢٦/٢٧).

(٢) الذاريات: الآية (٤٢).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/٢٦٩).

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِن مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا
وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا
يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾

★ غريب الآية:

مَكَّنَاهُمْ : أي : ملكناهم وقويناهم . والتمكين : إعطاء المَكِنَّة ، وهي القدرة
والقوة .

حَاقَ بِهِمْ : أي : أحاط بهم .

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : يقول - تعالى ذكره - لكفار قريش : «ولقد مَكَّنَّا أيها القوم عادة
الذين أهلكناهم بكفرهم فيما لم نمكنكم فيه من الدنيا ، وأعطيناهم منها الذي لم
نعطكم منهم من كثرة الأموال ، وبسطة الأجسام ، وشدة الأبدان . .

وقوله : ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا﴾ يسمعون به مواعظ ربهم ، ﴿وَأَبْصَرًا﴾ يبصرون بها
حجج الله ، ﴿وَأَفْئِدَةً﴾ يعقلون بها ما يسرهم وينفعهم ، ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا
أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ يقول : فلم ينفعهم ما أعطاهم من السمع والبصر
والفؤاد إذ لم يستعملوها فيما أعطوها له ، ولم يعملوها فيما ينجيهم من عقاب الله ،
ولكنهم استعملوها فيما يقربهم من سخطه ﴿إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ يقول : إذ
كانوا يكذبون بحجج الله وهم رُسُلُه ، وينكرون نبوتهم ، ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يقول : وعاد عليهم ما استهزؤوا به ، ونزل بهم ما سخروا به ، فاستعجلوا
به من العذاب ، وهذا وعيد من الله جل ثناؤه لقريش ، يقول لهم : فاحذروا أن يحلّ
بكم من العذاب على كفركم بالله وتكذيبكم رسله ، ما حلّ بعاد ، وبادروا بالتوبة قبل
النقمة»^(١) .

(١) جامع البيان (٢٦ / ٢٨) .

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ولقد مكنا الأمم السالفة في الدنيا من الأموال والأولاد، وأعطيناهم منها ما لم نعطكم مثله ولا قريباً منه، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: وأحاط بهم العذاب والنكال الذي كانوا يكذبون به ويستبعدون وقوعه؛ أي: فاحذروا أيها المخاطبون أن تكونوا مثلهم، فيصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب في الدنيا والآخرة»^(١).

قال السعدي: «﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ أي: مكناهم في الأرض، ينالون طيباتها، ويتمتعون بشهواتها، وعمّرناهم عمراً، يتذكّر فيه من تذكّر، ويتعظ فيه المهتدي.

أي: ولقد مكنا عادةً كما مكناكم يا هؤلاء المخاطبون؛ أي: فلا تحسبوا أن ما مكناكم فيه، مختص بكم، وأنه سيدفع عنكم من عذاب الله شيئاً. بل غيركم أعظم منكم تمكيناً، فلم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم ولا جنودهم من الله شيئاً.

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً﴾ أي: لا قصور في أسماعهم ولا أبصارهم ولا أذهانهم، حتى يقال: إنهم تركوا الحق جهلاً منهم، وعدم تمكن من العلم به، ولا خلل في عقولهم، ولكن التوفيق بيد الله.

﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ لا قليل ولا كثير.

﴿إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على توحيده، وإفراده بالعبادة.

﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: نزل بهم العذاب الذي يكذبون بوقوعه، ويستهزئون بالرسل الذين حذروهم منه»^(٢).

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾.

لفظة (إن) في هذه الآية الكريمة فيها للمفسرين ثلاثة أوجه، يدل استقراء القرآن على أن واحداً منها هو الحق، دون الاثنين الآخرين.

قال بعض العلماء: (إن) شرطية وجزاء الشرط محذوف، والتقدير: إن مكناكم فيه طغيتم وبغيتم.

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٧١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٥٥).

وقال بعضهم : (إن) زائدة بعد (ما) الموصولة حملاً لـ (ما) الموصولة على (ما) النافية ؛ لأن (ما) النافية تزداد بعدها لفظة (إن) كما هو معلوم .

كقول ثقيلة بنت الحرث والنضر العبدرية :

أبلغ بها ميئاً بأن تحية ما إن نزل بها النجائب تخفق
وقول دريد بن الصمة في الخنساء :

ما إن رأيت ولا سمعت به كالיום طالى أينق جرب

فـ(إن) زائدة بعد (ما) النافية في البيتين ، وهو كثير ، وقد حملوا على ذلك (ما) الموصولة فقالوا : تزداد بعدها (إن) كآية (الأحقاف) هذه . وأنشد لذلك الأخفش :

يرجى المرء ما إن لا يراه وتمرض دون أدناه الخطوب

أي : يُرجى المرء الشيء الذي لا يراه ، و(إن) زائدة ، وهذان هما الوجهان اللذان لا تظهر صحة واحد منهما ؛ لأن الأول منهما فيه حذف وتقدير ، والثاني منهما فيه زيادة كلمة . وكل ذلك لا يصار إليه إلا بدليل يجب الرجوع إليه .

أما الوجه الثالث الذي هو الصواب إن شاء الله ، فهو أن لفظة (إن) نافية بعد (ما) الموصولة ؛ أي : ولقد مكّناهم في الذي مكّناكم فيه من القوة في الأجسام ، وكثرة الأموال والأولاد ، والعدد .

وإنما قلنا : إن القرآن يشهد لهذا القول لكثرة الآيات الدالة عليه ، فإن الله جل وعلا في آيات كثيرة من كتابه يهدد كفار مكة بأن الأمم الماضية كانت أشد منهم بطشاً وقوة ، وأكثر منهم عددًا ، وأموالاً ، وأولادًا ، فلما كذبوا الرسل ، أهلكهم الله ليخافوا من تكذيب النبي ﷺ أن يهلكهم الله بسببه ، كما أهلك الأمم التي هي أقوى منهم ، كقوله تعالى في المؤمن : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاتَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(١) .

وقوله فيها أيضًا : ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاتَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾^(٢) الآية .

(١) غافر : الآية (٨٢) .

(٢) غافر : الآية (٢١) .

وقوله تعالى في (الروم): ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾^(١) الآية.

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة (الزخرف) في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾^(٢) ﴿٨﴾^(٣).

* * *

(١) الروم: الآية (٩).

(٢) الزخرف: الآية (٨).

(٣) أضواء البيان (٧/٣٩٨-٤٠٠).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٢٧) فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءِلهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾

★ غريب الآية:

صَرَّفْنَا: بيَّنا. وأصل معنى التصريف: التغيير والتبديل؛ لأنه مشتق من الصرف، وهو الإبعاد، وكُنِيَ به هنا عن التبيين والتوضيح؛ لأن تعدد أنواع الأدلة يزيد المقصود وضوحًا.

قُرْبَانًا: القربان في الأصل: كل ما يتقرب به إلى الله ﷻ من طاعة أو نسك.

والجمع: قرابين.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - لكفار قريش محذرهم بأسه وسطوته، أن يحل بهم على كفرهم ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا﴾ أيها القوم من القرى ما حول قريبتكم، كحجر ثمود وأرض سدوم ومأرب ونحوها، فأندرنا أهلها بالمثلات، وخربنا ديارها، فجعلناها خاوية على عروشها.

وقوله: ﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ﴾ يقول: ووعظناهم بأنواع العظات، وذكرناهم بضروب من الذكر والحجج، وبيننا لهم ذلك. . قال ابن زيد في قوله: ﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ﴾ قال: بيَّناها ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يقول: ليرجعوا عما كانوا عليه مقيمين من الكفر بالله وآياته. وفي الكلام متروك ترك ذكره استغناءً بدلالة الكلام عليه، وهو: فأبوا إلا الإقامة على كفرهم، والتمادي في غيِّهم، فأهلكناهم، فلن ينصرهم منّا ناصر؛ يقول جل ثناؤه: فلولا نصر هؤلاء الذين أهلكتناهم من الأمم الخالية قبلهم أو ثانهم وآلهتهم التي اتخذوا عبادتها قربانًا يتقربون بها فيما زعموا إلى ربهم منّا إذ جاءهم بأسنا، فتنقذهم من عذابنا إن كانت تشفع لهم عند ربهم كما يزعمون، وهذا

احتجاج من الله لنبيه محمد ﷺ على مشركي قومه ، يقول لهم : لو كانت آلهتكم التي تعبدون من دون الله تغني عنكم شيئاً ، أو تنفعكم عند الله كما تزعمون أنكم إنما تعبدونها ، لتقربكم إلى الله زلفى ، لأغنت عمن كان قبلكم من الأمم التي أهلكتها بعبادتهم إياها ، فدفعَتْ عنها العذاب إذا نزل ، أو لشفعت لهم عند ربهم ، فقد كانوا من عبادتها على مثل الذي عليه أنتم ، ولكنها ضررتهم ولم تنفعهم : يقول - تعالى ذكره - : ﴿ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ﴾ يقول : بل تركتهم آلهتهم التي كانوا يعبدونها ، فأخذت غير طريقهم ، لأن عبادتها هلكت ، وكانت هي حجارة أو نحاساً ، فلم يصبها ما أصابهم ، ودعوها فلم تجبهم ولم تغثهم ، وذلك ضلالها عنهم ، ﴿ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ ﴾ ، يقول ﷻ : هذه الآلهة التي ضلَّت عن هؤلاء الذين كانوا يعبدونها من دون الله عند نزول بأس الله بهم ، وفي حال طمعهم فيها أن تغيثهم ، فخذلتهم ، هو إفكهم : يقول : هو كذبهم الذي كانوا يكذبون ، ويقولون به هؤلاء آلهتنا ﴿ وَمَا كَانُوا يَفْقَرُونَ ﴾ ، يقول : وهو الذي كانوا يفترون ، فيقولون : هي تقربنا إلى الله زلفى ، وهي شفاعونا عند الله . وأخرج الكلام مخرج الفعل ، والمعني المفعول به ، ف قيل : وذلك إفكهم ، والمعني فيه : المأفوك به لأن الإفك إنما هو فعل الآفك ، والآلهة مأفوك بها^(١) .

قال ابن كثير : « وقوله : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى ﴾ يعني أهل مكة ، قد أهلك الله الأمم المكذبة بالرسول مما حولها كعاد ، وكانوا بالأحقاف بحضرموت عند اليمن ، وثمود وكانت منازلهم بينهم وبين الشام ، وكذلك سبأ وهم أهل اليمن ، ومدين وكانت في طريقهم وممرهم إلى غزة ، وكذلك بحيرة قوم لوط ، كانوا يمرّون بها أيضاً .

وقوله : ﴿ وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ ﴾ ؛ أي : بيناها ووضحناها ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ﴿ ٢٧ ﴾ فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً إلهة ﴾ ؛ أي : فهلاً نصرهم عند احتياجهم إليهم ، ﴿ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ﴾ ؛ أي : بل ذهبوا عنهم أحوج ما كانوا إليهم ، ﴿ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ ﴾ ؛ أي : كذبهم ، ﴿ وَمَا كَانُوا يَفْقَرُونَ ﴾ ؛ أي : وافتراؤهم في اتخاذهم إياهم آلهة ، وقد خابوا وخسروا في عبادتهم لها ، واعتمادهم عليها^(٢) .

(١) جامع البيان (٢٦/٢٨-٢٩) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/٢٧١-٢٧٢) .

وقال السعدي: «يحذر تعالى مشركي العرب وغيرهم، بإهلاك الأمم المكذبين، الذين هم حول ديارهم، بل كثير منهم في جزيرة العرب، كعاد وثمود ونحوهم، وأن الله تعالى صرف لهم الآيات؛ أي: نوّعها من كل وجه، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عما هم عليه من الكفر والتكذيب، فلما لم يؤمنوا، أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، ولم تنفعهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء، ولهذا قال هنا: ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾ أي: يتقربون إليهم، ويتألهونهم لرجاء نفعهم.

﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ فلم يجيبوهم، ولا دفعوا عنهم، ﴿وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَرُونَ﴾ من الكذب، الذي يمينون به أنفسهم، حيث يزعمون أنهم على الحق، وأن أعمالهم ستنفعهم، فضلت وبطلت»^(١).

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥٦/٧).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾

★ غريب الآية:

صرفنا إليك: وجهنا إليك وبعثنا.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير رحمه الله: «يقول - تعالى ذكره - مقرّعا كفار قريش بكفرهم بما آمنت به الجن: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ ذكر أنهم صرفوا إلى رسول الله ﷺ بالحادث الذي حدث من رجمهم بالشهب»^(١).

قال السعدي: «كان الله تعالى قد أرسل رسوله محمداً ﷺ إلى الخلق، إنسهم وجنهم، وكان لا بد من إبلاغ الجميع لدعوة النبوة والرسالة.

فالإنس، يمكنه - عليه الصلاة والسلام - دعوتهم وإنذارهم، وأما الجن، فصرفهم الله إليه بقدرته، وأرسل إليه ﴿نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا﴾ أي: وصّى بعضهم بعضاً بذلك، ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ وقد وعوه، وأثر ذلك فيهم، ﴿وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ﴾ نصّحاً منهم لهم، وإقامة لحجة الله عليهم، وقبضهم الله معونة لرسوله ﷺ في نشر دعوته في الجن»^(٢).

قال ابن كثير: «فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ أي: طائفة من الجن

(١) جامع البيان (٢٦/٣٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/٥٦-٥٧).

﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا﴾ ؛ أي : استمعوا ، وهذا أدب منهم . .
 وقوله : ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ أي : فرغ ؛ كقوله : ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ﴾^(١) ، ﴿فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾^(٢) ، ﴿فَإِذَا قُضِيَتْهُنَّ نَسَسَكُنَّكُمْ﴾^(٣) ، ﴿وَلَوَّا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾^(٤) أي : رجعوا إلى قومهم فأنذروهم ما سمعوه من رسول الله ﷺ ، كقوله : ﴿لِيَنْفَقَهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾^(٥) .

وقد استدل بهذه الآية على أنه في الجن نُذُرٌ ، وليس فيهم رسل : ولا شك أن الجن لم يبعث الله منهم رسولا ؛ لقوله : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾^(٦) ، وقال : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾^(٧) ، وقال عن إبراهيم الخليل : ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾^(٨) .

فكل نبي بعثه الله بعد إبراهيم فمن ذريته وسلالته ، فأما قوله تعالى في سورة (الأنعام) : ﴿يَمَعَشَرِ الْإِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾^(٩) ، فالمراد من مجموع الجنسين ، فيصدق على أحدهما وهو الإنس ، كقوله : ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَاتُ﴾^(١٠) أي : أحدهما^(١١) . ثم إنه تعالى فسر إنذار الجن لقومهم فقال مخبرا عنهم : ﴿قَالُوا يَنْقُومُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ ، ولم يذكروا عيسى ؛ لأن عيسى ﷺ أنزل عليه الإنجيل فيه مواعظ وترقيقات وقليل من التحليل والتحريم ، وهو في الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة ، فالعمدة هو التوراة ؛ فلهذا قالوا : أنزل من بعد موسى . وهكذا قال ورقة بن نوفل ، حين أخبره النبي ﷺ بقصة نزول جبريل ﷺ عليه أول مرة ، فقال : «بَخْ بَخْ ، هذا الناموس الذي كان يأتي موسى ، يا ليتني أكون فيها جذعا»^(١٢) .

(٢) فصلت : الآية (١٢) .

(٤) التوبة : الآية (١٢٢) .

(٦) الفرقان : الآية (٢٠) .

(٨) الأنعام : الآية (١٣٠) .

(١) الجمعة : الآية (١٠) .

(٣) البقرة : الآية (٢٠٠) .

(٥) يوسف : الآية (١٠٩) .

(٧) العنكبوت : الآية (٢٧) .

(٩) الرحمن : الآية (٢٢) .

(١٠) وقد تقدم هذا المعنى في سورة (الأنعام) : الآية (١٣٠) .

(١١) أخرجه : أحمد (٢٣٢-٢٣٣) ، والبخاري (٧١٥/٨-٤٩٥٣-٤٩٥٤) ، ومسلم (١٣٩/١-١٤٠/١٦٠) .

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ؛ أي : من الكتب المنزلة قبله على الأنبياء . وقولهم : ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ أي : في الاعتقاد والإخبار ، ﴿وَالْإِلَّهِ طَرِيقَ مُسْتَقِيمٍ﴾ في الأعمال ؛ فإن القرآن يشتمل على شيئين : خبر وطلب ، فخبيره صدق ، وطلبه عدل ، كما قال : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾^(١) ، وقال : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾^(٢) ، فالهدى هو : العلم النافع ، ودين الحق : هو العمل الصالح . وهكذا قالت الجن : ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ في الاعتقادات ، ﴿وَالْإِلَّهِ طَرِيقَ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي : في العمليات^(٣) .

قال الشنقيطي : «ذكر الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة من سورة (الأحقاف) ، أنه صرف إلى النبي ﴿نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ ، والنفر دون العشرة ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ وأنهم لما حضروه ، قال بعضهم لبعض : ﴿أَنصِتُوا﴾ أي : اسكتوا مستمعين ، وأنه لما قضي ؛ أي : انتهى النبي ﷺ من قراءته ﴿وَلَوْ﴾ أي : رجعوا إلى قومهم من الجن في حال كونهم ﴿مُنْذِرِينَ﴾ أي : مخوفين لهم من عذاب الله إن لم يؤمنوا بالله ، ويجيبوا داعيه محمداً ﷺ . وأخبروا قومهم أن هذا الكتاب الذي سمعوه يتلى ، المنزل من بعد موسى ، يهدي إلى الحق ، وهو ضد الباطل ، وإلى طريق مستقيم ؛ أي : لا اعوجاج فيه .

وقد دل القرآن العظيم أن استماع هؤلاء النفر من الجن ، وقولهم ما قالوا عن القرآن كله وقع ولم يعلم به النبي ﷺ ، حتى أوحى الله ذلك إليه ، كما قال تعالى في القصة بعينها ، مع بيانها وبسطها ، بتفصيل الأقوال التي قالتها الجن ، بعد استماعهم القرآن العظيم : ﴿قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝﴾^(٤) إلى آخر الآيات^(٥) .

قال ابن كثير : ﴿يَقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ فيه دلالة على أنه تعالى أرسل محمداً صلوات الله وسلامه عليه إلى الثقلين الإنس والجن حيث دعاهم إلى الله ، وقرأ عليهم السورة التي فيها خطاب الفريقين ، وتكليفهم ووعدهم ووعيدهم ، وهي سورة (الرحمن) ؛ ولهذا قال : ﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾ .

(١) الأنعام : الآية (١١٥) .

(٢) التوبة : الآية (٣٣) .

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٨٥-٢٨٦) .

(٤) الجن : الآيتان (١ و ٢) .

(٥) أضواء البيان (٧/ ٤٠٠-٤٠١) .

وقوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ قيل: إن (من) ههنا زائدة، وفيه نظر؛ لأن زيادتها في الإثبات قليل، وقيل: إنها على بابها للتبغيض، ﴿وَيُجْزِكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ أي: ويقيكم من عذابه الأليم.

وقد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الجن المؤمنين لا يدخلون الجنة، وإنما جزاء صالحهم أن يجاروا من عذاب النار يوم القيامة؛ ولهذا قالوا هذا في هذا المقام، وهو مقام تبجح ومبالغة، فلو كان لهم جزاء على الإيمان أعلى من هذا لأوشك أن يذكروه. والحق أن مؤمنهم كمؤمني الإنس يدخلون الجنة، كما هو مذهب جماعة من السلف، وقد استدل بعضهم لهذا بقوله ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّ إِنْشُ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾^(١)، وفي هذا الاستدلال نظر، وأحسن منه قوله -جل وعلا-: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ ۖ فِيهَا أَلَاءٌ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ﴾^(٢)، فقد امتنّ تعالى على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة، وقد قابلت الجن هذه الآية بالشكر القولي أبلغ من الإنس فقالوا: «ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد»، فلم يكن تعالى ليمتنّ عليهم بجزاء لا يحصل لهم، وأيضاً فإنه إذا كان يجازي كافرهم بالنار وهو مقام عدل فلأن يجازي مؤمنهم بالجنة، وهو مقام فضل، بطريق الأولى والأحرى. ومما يدل أيضاً على ذلك عموم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾^(٣) وما أشبه ذلك من الآيات. وقد أفردت هذه المسألة في جزء على حدة، ولله الحمد والمنة. وهذه الجنة لا يزال فيها فضل حتى ينشئ الله تعالى لها خلفاء، أفلا يسكنها من آمن به وعمل صالحاً، وما ذكره ههنا من الجزاء على الإيمان من تكفير الذنوب والإجارة من العذاب الأليم هو يستلزم دخول الجنة؛ لأنه ليس في الآخرة إلا الجنة أو النار، فمن أجبر من النار دخل الجنة لا محالة، ولم يرد معنا نص صريح ولا ظاهر عن الشارع أن مؤمني الجن لا يدخلون الجنة وإن أجبروا من النار، ولو صح لقلنا به، والله أعلم. وهذا نوح عليه السلام يقول لقومه: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾^(٤)، ولا خلاف أن مؤمني قومه في الجنة، فكذلك هؤلاء، وقد حكى فيهم أقوال غريبة، فعن عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه أنهم لا يدخلون بحبوة الجنة، وإنما يكونون في ربضها وحولها

(١) الرحمن: الآية (٥٦).

(٢) الرحمن: الآيتان (٤٦ و٤٧).

(٣) الكهف: الآية (١٠٧).

(٤) نوح: الآية (٤).

وفي أرجائها . ومن الناس من زعم أنهم في الجنة يراهم بنو آدم ولا يرون بني آدم بعكس ما كانوا عليه في الدار الدنيا ، ومن الناس من قال : لا يأكلون في الجنة ولا يشربون ، وإنما يلهمون التسبيح والتحميد والتقديس عوضاً عن الطعام والشراب كالملائكة ؛ لأنهم من جنسهم . وكل هذه الأقوال فيها نظر ، ولا دليل عليها^(١) .

قال السعدي : «لما مدحوا القرآن ، وبيّنوا محله ومرتبته ، دعوهم إلى الإيمان به ، فقالوا : ﴿يَقُومَنَّ أَجِبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ أي : الذي لا يدعو إلا إلى ربه ، لا يدعوكم إلى غرض من أغراضه ، ولا هوى ، وإنما يدعوكم إلى ربكم ليثيبكم ويزيل عنكم كل شر ومكروه ، ولهذا قالوا : ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ، وإذا أجارهم من العذاب الأليم فما ثم بعد ذلك إلا النعيم ، فهذا جزاء من أجاب داعي الله .

﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ ؛ فإن الله على كل شيء قدير ، فلا يفوته هارب ولا يغالبه مغالب ، ﴿وَلَيْسَ لَكُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ، وأي ضلال أبلغ من ضلال من نادته الرسل ووصلت إليه النذر ، بالآيات البينات والحجج المتواترات ، فأعرض واستكبر؟!«^(٢) .

قال ابن كثير : «ثم قال مخبراً عنهم : ﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي : بل قدرة الله شاملة له ومحيطة به ، ﴿وَلَيْسَ لَكُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ أي : لا يجيرهم منه أحد ، ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ وهذا مقام تهديد وترهيب ، فدعوا قومهم بالترغيب والترهيب ، ولهذا نجع في كثير منهم ، وجاؤوا إلى رسول الله ﷺ وفوداً وفوداً»^(٣) .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذكر أخبار الجن

* عن معن بن عبد الرحمن قال : سمعت أبي قال : «سألت مسروقاً : من أذن النبي ﷺ بالجن ليلة استمعوا القرآن؟ فقال : حدثني أبوك -يعني عبدالله- أنه أذنت بهم شجرة»^(٤) .

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/٢٨٦-٢٨٧) .

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/٥٨) .

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/٢٨٧) .

(٤) أخرجه : البخاري (٧/٢١٦/٣٨٥٩) ، ومسلم (١/٣٣٣/٤٤٩ [١٥٣]) .

★ غريب الحديث:

آذنته : أي : أعلمته بهم .

★ فوائد الحديث:

«في هذا الحديث دلالة على نبوته ﷺ، وأن الشجرة أعلمته باستماع الجن لقراءته، فهي في ذلك بعض أعوانه ﷺ»^(١).

قال ابن العربي : «وقد كانت الحجارة تكلم النبي ﷺ والشجر وتسلم عليه، وكانت تلك فضيلة زاد بها على سليمان بن داود في تكلم الجن والبهائم»^(٢).

* عن عامر قال : «سألت علقمة : هل كان ابن مسعود شهد مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال فقال علقمة : أنا سألت ابن مسعود فقلت : هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال : لا ، ولكننا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، ففقدناه، فالتمسناه في الأودية والشعاب، فقلنا : استطير أو اغتيل ، قال : فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء، قال فقلنا : يا رسول الله! فقدناك فطلبناك فلم نجدك، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فقال : أتاني داعي الجن، فذهبت معه، فقرأت عليهم القرآن، قال : فانطلق بنا، فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد، فقال : لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً، وكل بعرة علف لدوابكم. فقال رسول الله ﷺ : فلا تستنجوا بهما ؛ فإنهما طعام إخوانكم»^(٣).

★ غريب الحديث:

استطير : طارت به الجن .

اغتيل : قتل سرًا . والغيلة : هي القتل في خفية .

★ فوائد الحديث:

قال ابن العربي : «في الحديث فوائد منها : أن الجن أسلمت حين سمعت

(٢) عارضة الأحوذى (١٢/١٤٣).

(١) الإفصاح (٢/٢٨).

(٣) أخرجه : أحمد (١/٤٣٦)، ومسلم (١/٣٣٢/٤٥٠) واللفظ له، والترمذي (٥/٣٥٦-٣٥٧/٣٢٥٨) وقال :

«حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/٤٩٩/١١٦٢٣)، وأبوداود (١/٦٧/٨٥) مختصراً.

القرآن، فدل ذلك على وجودهم، وحياتهم، وإيمانهم، وكفرهم، ودعائهم إلى الدين؛ خلافاً للفلاسفة والقدرية الذين أنكروا ذلك كله.

ومنها: وهي المسألة الغارة للأغمار وطائفة ممن ينتسب إلى أهل الأدب تنكر أكل الجن وإن أقروا بوجودهم، وأكلهم صحيح، وشربهم صحيح، ووطؤهم صحيح، فأما المؤمن منهم فطعامه ما ذكر اسم الله عليه، والروث علف دوابهم، وأما الكافر فطعامه ما لم يذكر اسم الله عليه^(١).

قال القرطبي: «وقوله: «ذكر اسم الله عليه» أي: على تذكيتة، ويحتمل على أكله، والأول أولى»^(٢).

وقال أيضاً: «وقوله: «وسألوه الزاد» أي: ما يحل لهم من الزاد ولدوابهم، فأجابهم بقوله: «لكم كل عظم، وكل بعرة لعلف دوابكم» أي: هذان محلل لكم، ويحتمل أن يكونوا سألوه أن يدعو لهم بالبركة في أرزاقهم وفي علف دوابهم، ويدل على هذا قوله: «يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً»، وفي كتاب مسلم: قال رسول الله ﷺ: «دعوت الله ألا يَمروا بعظم إلا وجدوه أوفر ما كان وأسمنه» أي: بالنسبة إلى تغذيتهم ونيلهم. وهل نيلهم من ذلك شم أو لحس؟ كل ذلك ممكن، وقد قيل بكل واحد منهما»^(٣).

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن وما رآهم. انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب، قالوا: ما ذاك إلا من شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء، فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها، فمر النفر الذين أخذوا نحو تهامة - وهو بنخل عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر - فلما سمعوا القرآن استمعوا له. وقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء، فرجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا! ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ ﴿يَهْدِي

(١) عارضة الأحوذى (١٢/١٤٣-١٤٤).

(٢) المفهم (٧/٤٢١-٤٢٢).

(٣) المفهم (٧/٤٢١).

إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ نَبِيَّهُ ﷺ: ﴿قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾^(١).

* عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «كان الجن يصعدون إلى السماء يسمعون فيها الوحي، فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها تسعاً، فأما الكلمة فتكون حقاً، وأما ما زادوا فيكون باطلاً، فلما بعث رسول الله ﷺ منعوا مقاعدهم، فذكروا ذلك لإبليس، ولم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك، فقال لهم إبليس: ما هذا إلا من أمر قد حدث في أرض، فبعث جنوده فوجدوا رسول الله ﷺ قائماً يصلي بين جبلين أراه قال بمكة فأتوه فأخبروه، فقال: هذا الذي حدث في الأرض»^(٢).

★ فوائد الحديثين:

قال القرطبي: «قول ابن عباس رضي الله عنه: «ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم» يعني: لم يقصدهم بالقراءة عليهم، وإنما قرأ النبي ﷺ في الصلاة لأصحابه، لكن لما تفرقت الشياطين في الأرض يطلبون السبب الحائل بينهم وبين ما كانوا يسترقون من السمع صادف هذا النفر من الجن النبي ﷺ بسوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه فاستمعوا له، فقالوا: ما أخبر الله به عنهم: ﴿قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا»^(٣). وقيل: كان عدد هؤلاء النفرا اثني عشرة، وقيل: تسعة، وقيل: سبعة. وعلى هذا فالنبي ﷺ ما علم باستماع الجن ولا رآهم ولا كلمهم، وإنما أوحى الله تعالى إليه فعلم ذلك لما أنزل عليه القرآن بذلك، وهذا بخلاف حديث ابن مسعود؛ فإن مقتضاه أن النبي ﷺ خرج بعبد الله بن مسعود معه، فجاءه داعي الجن، فانطلق النبي ﷺ نحو حراء، فقرأ عليهم القرآن فآمنوا وأسلموا، فهذه قضية أخرى، وجن آخرون»^(٤).

قال ابن كثير: «رواية ابن عباس تقتضي أن رسول الله ﷺ لم يشعر بحضورهم في هذه المرة، وإنما استمعوا قراءته، ثم رجعوا إلى قومهم، ثم بعد ذلك وفدوا إليه

(١) أخرجه: أحمد (٢٥٢/١)، والبخاري (٧٧٣/٢)، ومسلم (٤٤٩/٣٣١/١) واللفظ له، والترمذي (٥/

٣٩٧/٣٣٢٣) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٤٩٩/٦/١١٦٢٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٢٧٤/١)، والترمذي (٣٣٢٤/٣٩٨/٥) وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (١١٦٢٦/٥٠٠/٦).

(٤) المفهم (٤١٨-٤١٩/٧).

(٣) الجن: الآيتان (٢-١).

أرسالاً قومًا بعد قوم، وفوجًا بعد فوج.. وأما ما رواه البخاري ومسلم عن معن بن عبد الرحمن قال: سمعت أبي يقول: سألت مسروقًا: من آذن النبي ﷺ ليلة استمعوا القرآن؟ فقال: حدثني أبوك -يعني ابن مسعود رضي الله عنه- أنه آذنته بهم شجرة. فيحتمل أن يكون هذا في المرة الأولى، ويكون إثباتًا مقدمًا على نفي ابن عباس رضي الله عنهما، ويحتمل أن يكون في الأولى ولكن لم يشعر بهم حال استماعهم حتى آذنته بهم الشجرة؛ أي: أعلمته باجتماعهم، والله أعلم. ويحتمل أن يكون هذا في بعض المرات المتأخرات، والله أعلم. قال الحافظ البيهقي: وهذا الذي حكاه ابن عباس رضي الله عنهما إنما هو أول ما سمعت الجن قراءة رسول الله ﷺ وعلمت حاله، وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم، ولم يرهم، ثم بعد ذلك أتاه داعي الجن فقرأ عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله ﷻ، كما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه^(١).

ثم قال بعد ذكر رواية ابن مسعود وطرقها: «فهذه الطرق كلها تدل على أنه ﷺ ذهب إلى الجن قصدًا فتلاً عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله ﷻ، وشرع الله تعالى لهم على لسانه ما هم محتاجون إليه في ذلك الوقت. وقد يحتمل أن أول مرة سمعوه يقرأ القرآن لم يشعر بهم، كما قاله ابن عباس رضي الله عنهما، ثم بعد ذلك وفدوا إليه كما رواه ابن مسعود رضي الله عنه^(٢)».

قال ابن هبيرة: «في هذا الحديث دليل على أن رسول الله ﷺ بعث إلى الجن والإنس؛ وكذا ينبغي أن يعتقد»^(٣).

قال القرطبي: «والحاصل من الكتاب والسنة: العلم القطعي بأن الجن والشياطين موجودون متعبدون بالأحكام الشرعية على النحو الذي يليق بخلقهم وأحوالهم، وأن نبينا محمدًا ﷺ رسول إلى الإنس والجن أجمعين، فمن دخل في دينه وآمن به فهو من المؤمنين ومعهم في الدنيا والآخرة، والجنة مستقر المؤمنين. ومن كذب وصد عنه فهو الشيطان المبعد عن المؤمنين في الدنيا والآخرة، والنار مستقر الكافرين أبد الآبدين»^(٤).

قال شيخ الإسلام: «ومما يجب أن يعلم أن الله بعث محمدًا ﷺ إلى جميع

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/١٦٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/١٦٩).

(٣) الإفصاح (٢/١٠٦).

(٤) المفهم (٧/٤٢٠).

الإنس والجن، فلم يبق إنسي ولا جني إلا وجب عليه الإيمان بمحمد ﷺ واتباعه، فعليه أن يصدقه فيما أخبر، ويطيعه فيما أمر، ومن قامت عليه الحجة برسالة فلم يؤمن به فهو كافر، سواء كان إنسيًا أو جنيًا. ومحمد ﷺ مبعوث إلى الثقلين باتفاق المسلمين، وقد استمعت الجن القرآن، وولّوا إلى قومهم منذرين، لما كان النبي ﷺ يصلي بأصحابه ببطن نخلة لما رجع من الطائف، وأخبره الله بذلك في القرآن بقوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ۖ﴾ (٢٩) قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ، يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجَزِّكُم مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَكُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴿١﴾.

قال ابن القيم رحمه الله: «الجن مأمورون منهيون، داخلون تحت شرائع الأنبياء، وهذا مما لا خلاف فيه بين الأمة، وأن نبينا بعث إليهم كما بعث إلى الإنس، كما لا خلاف بينهما أن مسيئهم مستحق للعقاب. وإنما اختلف علماء الإسلام في المسلم منهم، هل يدخل الجنة؟ فالجمهور على أن محسنهم في الجنة، كما أن مسيئهم في النار، وقيل: بل ثوابهم سلامتهم من الجحيم، وأما الجنة فلا يدخلها أحد من أولاد إبليس، وإنما هي لبني آدم وصالح ذريته خاصة. وحكي هذا القول عن أبي حنيفة رحمه الله تعالى» (٢).

قال ابن القيم: «وأما حكم مؤمنهم في الدار الآخرة، فجمهور السلف والخلف على أنهم في الجنة. وترجم على ذلك البخاري في صحيحه فقال: (باب ثواب الجن وعقابهم لقوله تعالى: ﴿يَمْعَشَرُ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي﴾ (٣) الآية بخسًا نقصًا، قال مجاهد: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَالًا﴾ (٤) قال كفار قريش: الملائكة بنات الله، وأمهااتهم بنات سروات الجن. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ ستحضر للحساب. ثم ذكر حديث أبي سعيد: «إذا كنت في غنمك أو باديتك فأذنت بالصلاة، فارفع صوتك بالنداء؛ فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة» سمعته

(١) مجموع الفتاوى (١١/٣٠٣-٣٠٤).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/١٨٩).

(٣) الأنعام: الآية (١٣٠).

(٤) الصافات: الآية (١٥٨).

من رسول الله ﷺ^(١). هذا ما ذكره في الباب.

وقد ذهب جمهور الناس إلى أن مؤمنهم في الجنة. وحكي عن أبي حنيفة وغيره أن ثوابهم نجاتهم من النار، واحتج لهذا بقوله تعالى حكاية عنهم: ﴿يَقُومَنَّا أَجِبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ الآية، فجعل غاية ثوابهم إجماعهم من العذاب الأليم. وأما الجمهور فقالوا: مؤمنهم في الجنة كما أن كافرهم في النار. ثم اختلفوا فأطلق أكثر الناس دخول الجنة ولم يقيدوه. وقال سهل بن عبد الله: يكونون في ربض الجنة، يراهم المؤمنون من حيث لا يرونهم.

فهذه مذاهب الناس في أحكامهم في الآخرة، وأما أحكامهم في الدنيا فاختلف الناس هل هم مكلفون بالأمر والنهي، أم هم مضطرون على أفعالهم؟ على قولين حكاهما أبو الحسن الأشعري في كتاب «المقالات»^(٢) له فقال: واختلف الناس في الجن هل هم مكلفون، أم مضطرون؟ فقال قائلون من المعتزلة وغيرهم: هم مأمورون منهيون وقد أمروا ونهوا وهم مختارون. وزعم زاعمون أنهم مضطرون. قلت: الصواب الذي عليه جمهور أهل الإسلام أنهم: مأمورون منهيون مكلفون بالشريعة الإسلامية. وأدلة القرآن والسنة على ذلك أكثر من أن تحصر. فإضافة هذا القول إلى المعتزلة بمنزلة أن يقال: ذهبت المعتزلة إلى القول بمعاد الأبدان، ونحو ذلك مما هو من أقوال سائر أهل الإسلام. وقال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمْرِ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾^(٣) الآية، فأخبر أن منهم من حق عليه القول؛ أي: وجب عليه العذاب وأنه خاسر، ولا يكون ذلك إلا في أهل التكليف المستوجبين العقاب بأعمالهم. ثم قال بعد ذلك: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ أي: في الخير والشر يوفونها ولا يظلمون شيئاً من أعمالهم، وهذا ظاهر جداً في ثوابهم وعقابهم، وأن مسيئتهم كما يستحق العذاب بإساءته فمحسنهم يستحق الدرجات بإحسانه، ولكل درجات مما عملوا، فدل ذلك لا محالة أنهم كانوا مأمورين بالشرائع، متعبدین بها في الدنيا، ولذلك استحقوا الدرجات بأعمالهم في الآخرة في الخير والشر، وقال الله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا

(١) أخرجه: أحمد (٣/٣٥)، والبخاري (٦/٤٢٢/٢٣٩٦)، والنسائي (٢/٢٣٩-٢٤٠/٦٤٣)، وابن ماجه (١/

(٢) مقالات الإسلاميين (٢/١٢٧).

(٢٣٩-٢٤٠/٧٢٣).

(٣) الأحقاف: الآية (١٨).

لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ ﴿١﴾
 الآية، ومعنى الآية: إن الله قىض للمشركين - أي سبب لهم - قرناء من الشياطين
 يزينون لهم ما بين أيديهم وما خلفهم من التكذيب بالآخرة وما فيها من الثواب
 والعقاب، وقيل عكس هذا وأن ما بين أيديهم هو ترغيبهم في الدنيا وحرصهم
 عليها، وما خلفهم هو التكذيب بالآخرة. وقال الحسن: ما بين أيديهم: هو حب ما
 كان عليه آبائهم من الشرك وتكذيب الرسل، وما خلفهم: تكذيبهم بالبعث وما
 بعده. وفي الآية قول رابع: وهو أن التزيين كله راجع إلى أعمالهم فزينوا لهم ما بين
 أيديهم: أعمالهم التي عملوها، وما خلفهم: الأعمال التي هم عازمون عليها ولما
 يعملوها بعد، وكأن لفظ التزيين بهذا القول أليق. ومن جعل ما خلفهم: هو
 الآخرة، لم يستقم قوله إلا بإضمار؛ أي: زينوا لهم التكذيب بالآخرة، ومع هذا
 فهو قول مستقيم ظاهر؛ فإنهم زينوا لهم ترك العمل لها والاستعداد للقاءها، ولهذا
 كان عليه جمهور أهل التفسير، حتى لم يذكر البغوي غيره، وحكاة عن الزجاج فقال
 الزجاج: سببنا لهم قرناء نظراء من الشياطين حتى أضلوهم فزينوا لهم ما بين أيديهم
 من أمر الدنيا حتى آثروه على الآخرة، وما خلفهم من أمر الآخرة فدعوهم إلى
 التكذيب به وإنكار البعث.

والمقصود أن قوله تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾ أي: وجب عليهم العذاب مع أمم قد مضت من قبلهم
 من الجن والإنس، ففي هذا دليل على تكليف الثقلين وتعلق الأمر والنهي بهم،
 وكذلك تعلق الثواب والعقاب بهم، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشَرُ الْجِنَّ
 قَدْ اسْتَكْرَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي
 أَجَلْتَ لَنَا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾^(٢) وهذا صريح في تكليفهم، فإن هذا
 القول يقال للجن في القيامة، فيذكر الإنس استمتاع بعضهم ببعض في الدنيا، وذلك
 الاستمتاع هو ما بين الجن والإنس من طاعتهم إياهم في معصية الله، وعبادتهم لهم
 دون الله، ليستعينوا بهم على شهواتهم وأغراضهم. فإنهم كانوا يستوحونهم
 ويعوذون بهم ويذبحون لهم وبأسمائهم ويوالونهم من دون الله كما هو شأن أكثر

(١) فصلت: الآية (٢٥).

(٢) الأنعام: الآية (١٢٨).

المشركين من أولياء الشيطان . فهذا هو استمتاع بعضهم ببعض ، ولهذا يقول تعالى للملائكة يوم القيامة - وقد جمع العابدين والمعبودين - : ﴿ أَهْؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ (٢٩) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ^(١) فهو لاء عباد الجن وأولياء الشياطين . وأكثرهم يعلم ذلك ويرضى به لما ينال به من المتعة بمعبوده . وكثير منهم ملبوس عليه ، فهو يعبد الشيطان ولا يشعر . وقد أشار زيد بن عمرو بن نفيل في شعره إلى هذا الشرك بالجن فقال :

حنانيك إن الجن كانت رجاءهم وأنت إلهي ربنا ورجاؤنا

ولهذا يقولون في القيامة : ﴿ رَبَّنَا اسْتَمِعْ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلِّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا ﴾ قال الله تعالى : ﴿ النَّارُ مَثْوًى لَكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ ، فهذا خطاب للصنفين ، وهو صريح في اشتراكهم في التكليف ، كما هو صريح في اشتراكهم في العذاب . وهو كثير في القرآن . ومما يدل على تكليفهم أيضا قوله تعالى : ﴿ يَكْمَشِرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ كَافِرِينَ ﴾ ^(٢) فلما اعترفوا بأنهم كانوا كافرين ، وشهدوا على أنفسهم بالكفر ، دل ذلك على تكليفهم وتوجه الخطاب إليهم .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنَّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا ﴾ إلى قوله : ﴿ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ فهذا يدل على تكليفهم من وجوه متعددة : أحدها : أن الله سبحانه وتعالى صرفهم إلى رسوله يستمعون القرآن ليؤمنوا به ويأتمروا بأوامره وينتھوا عن نواهيه .

الثاني : أنهم ولوا إلى قومهم منذرين . والإنذار هو الإعلام بالخوف بعد انعقاد أسبابه ، فعلم أنهم منذرون لهم بالنار إن عصوا الرسول .

الثالث : أنهم أخبروا أنهم سمعوا القرآن وعقلوه وفهموه وأنه يهدي إلى الحق ، وهذا القول منهم يدل على أنهم عالمون بموسى وبالكتاب المنزل عليه ، وأن القرآن مصدق له وأنه هاد إلى صراط مستقيم : وهذا يدل على تمكنهم من العلم الذي تقوم به الحجة ، وهم قادرون على امثال ما فيه ، والتكليف إنما يستلزم العلم والقدرة .

(١) سبا : الآيتان (٤٠ و ٤١) .

(٢) الأنعام : الآية (١٣٠) .

الرابع : إنهم قالوا لقومهم : ﴿ يَقْوَمْنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ ﴾ وهذا صريح في أنهم مكلفون بمأمورين بإجابة الرسول ، وهي تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر .

الخامس : أنهم قالوا : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ والمغفرة لا تكون إلا عن ذنب وهو مخالفة الأمر .

السادس : أنهم قالوا : ﴿ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ والذنب مخالفة الأمر .

السابع : أنهم قالوا : ﴿ وَيُجْزِكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ وهذا يدل على أن من لم يستجب منهم لداعي الله لم يجره من العذاب الأليم . وهذا صريح في تعلق الشريعة الإسلامية بهم .

الثامن : أنهم قالوا : ﴿ وَمَنْ لَا يُحِبِّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءٌ ﴾ وهذا تهديد شديد لمن تخلف عن إجابة داعي الله منهم . وقد استدل بها على أنهم كانوا متعبدین بشريعة موسى كما هم متعبدون بشريعة محمد وهذا ممكن . والآية لا تستلزمه ولكن قوله تعالى : ﴿ يَمَعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ ﴾ الآية ، يدل على أن الجن كانوا متعبدین بشرائع الرسل قبل محمد ﷺ ، والآيات المتقدمة تدل على ذلك أيضا .

وعلى هذا فيكون اختصاص النبي ﷺ بالبعثة إلى الثقلين هو اختصاصه بالبعثة إلى جميعهم لا إلى بعضهم ، ومن قبله كان يُبعث إلى طائفة مخصوصة . وأيضا فقد قال تعالى عن نبيه سليمان : ﴿ وَمَنْ أَلْجَىٰ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ (١) وهذا محض التكليف . وقد تقدم قوله حكاية عنهم : ﴿ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ لِيَجْهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ (٢) وقد صح أن رسول الله ﷺ قرأ عليهم القرآن وأنهم سألوه الزاد لهم ولدوابهم ، فجعل لهم كل عظم ذكر اسم الله عليه ، وكل بكرة علف لدوابهم . ونهانا عن الاستنجاء بهما . ولو لم يكن في هذا إلا قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (٣) ، وقد أخبر أنه يعذب كفرة الجن لكفى به حجة على أنهم مكلفون باتباع الرسل . ومما يدل على أنهم مأمورون منهيون بشريعة الإسلام ما تضمنته سورة (الرحمن) ، فإنه سبحانه

(٢) الجن : الآيتان (١٤ و ١٥) .

(١) سبا : الآية (١٢) .

(٣) الإسراء : الآية (١٥) .

وتعالى ذكر خلق النوعين في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ (١) و﴿خَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ﴾ (٢) ثم خاطب النوعين بالخطاب المتضمن لاستدعاء الإيمان منهم، وإنكار تكذيبهم بالآية، وترغيبهم في وعده، وتخويفهم من وعيده، وتهديدهم بقوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيَّةَ الثَّقَلَانِ﴾ (٣) وتخويفهم من عواقب ذنوبهم، وأنه لعلمه بها لا يحتاج أن يسألهم عنها سؤال استعلام، بل يُعرف المجرمون منهم بسيماهم فيؤخذ بنواصيهم والأقدام، ثم ذكر عقاب الصنفين وثوابهم. وهذا كله صريح في أنهم هم المكلفون المأمورون المنهيون المثابون المعاقبون. وفي الترمذي من حديث محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، فقرأ عليهم سورة (الرحمن) من أولها إلى آخرها فسكتوا، فقال: «لقد قرأتها على الجن ليلة الجن وكانوا أحسن مردوداً منكم: كنت كلما أتيت على آية ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: لا شيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد» (٤). وهذا يدل على ذكائهم وفطنتهم ومعرفتهم بمؤنة الخطاب، وعلمهم أنهم مقصودون به. وقوله في هذه السورة: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيَّةَ الثَّقَلَانِ﴾ وعيد للصنفين المكلفين بالشرائع، قال قتادة: معناه: فراغ الدنيا وانقضاؤها، ومجيء الآخرة والجزاء فيها، والله سبحانه لا يشغله شيء عن شيء. والفراغ في اللغة على وجهين: فراغ من الشغل، وفراغ بمعنى القصد. وهو في هذا الموضع بالمعنى الثاني، وهو قصد لمجازاتهم بأعمالهم يوم الجزاء، وقوله: ﴿يَنْمَقِشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا﴾ (٥) فيها قولان: أحدهما: إن استطعتم أن تنفذوا ما في السموات والأرض علماً - أي أن تعلموا ما فيهما - فاعلموه، ولن تعلموه إلا بسلطان؛ أي: إلا ببينة من الله. وعلى هذا فالنفوذ ههنا نفوذ علم الثقلين في السموات والأرض. الثاني: إن استطعتم أن تخرجوا عن قهر الله ومحل سلطانه ومملكته بنفوذكم من أقطار السموات والأرض وخروجكم عن محل حكم الله وسلطانه فافعلوا، ومعلوم أن هذا من الممتنع عليكم، فإنكم تحت

(١) الرحمن: الآيتان (١٤ و ١٥).

(٢) الرحمن: الآية (٣١).

(٣) أخرجه: الترمذي (٣٧٢-٣٧٣/٥)، والحاكم (٤٧٣/٢) وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم

يخرجاه»، ووافقه الذهبي، وهو في السلسلة الصحيحة (٢١٥٠).

(٤) الرحمن: الآية (٣٣).

سلطاني وفي محل ملكي وقدرتي أين كنتم . وقال الضحاك : معنى الآية : إن استطعتم أن تهربوا عند الموت فاهربوا فإنه مدركم . وهذه الأقوال على أن يكون الخطاب لهم بهذا القول في الدنيا . وفي الآية تقرير آخر ، وهو أن يكون هذا الخطاب لهم بهذا القول في الآخرة إذا أحاطت الملائكة بأقطار الأرض وأحاط سراق النار بالآفاق ، فهرب الخلائق ، فلا يجدون مهرباً ولا منفذاً كما قال تعالى : ﴿ وَيَقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّادِ ﴾ (٣٢) يَوْمَ تُولُونَ مُدْبِرِينَ ^(١) قال مجاهد : فارين غير معجزين ، وقال الضحاك : إذا سمعوا زفير النار ندّوا هرباً ، فلا يأتون قطراً من الأقطار إلا وجدوا الملائكة صفوفاً ، فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهِمْ ﴾ ^(٢) وقوله تعالى : ﴿ يَمْعَشَرُ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا ﴾ وهذا القول أظهر . والله أعلم . فإذا بُدِءَ الخلائق ولوا مدبرين ، يقال لهم : ﴿ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا ﴾ أي : إن قدرتم أن تتجاوزوا أقطار السموات والأرض فتعجزوا ربكم حتى لا يقدر على عذابكم فافعلوا . وكأن ما قبل هذه الآية وما بعدها يدل على هذا القول ، فإن قبلها : ﴿ سَنَفْرُغُ ﴾ الآية ، وهذا في الآخرة ، وبعدها : ﴿ فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾ (٣٧) وهذا في الآخرة . وأيضاً فإن هذا خطاب لجميع الإنس والجن ، فإنه أتى فيه بصيغة العموم وهي قوله تعالى : ﴿ يَمْعَشَرُ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ ﴾ فلا بد أن يشترك الكل في سماع هذا الخطاب ومضمونه . وهذا إنما يكون إذا جمعهم الله في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر . وقال تعالى : ﴿ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ ﴾ ولم يقل : إن استطعتما ، لإرادة الجماعة كما في آية أخرى : ﴿ يَمْعَشَرُ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ أَلَمْ يَأْتِكُمْ ﴾ ^(٤) ، وقال تعالى : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا ﴾ ^(٥) ولم يقل : يرسل عليكم ؛ لإرادة الصنفين ؛ أي : لا يختص به صنف ، بل يرسل ذلك على الصنفين معاً . وهذا وإن كان مراداً بقوله تعالى : ﴿ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ ﴾ فخطاب الجماعة في ذلك بلفظ الجمع أحسن ؛ أي : من استطاع منكم . وحسن الخطاب بالتثنية في قوله تعالى : ﴿ عَلَيْكُمَا ﴾ أمر آخر ، وهو موافقة رؤوس الآي ، فاتصلت التثنية بالتثنية . وفيه التسوية بين

(١) غافر : الآيتان (٣٢ و ٣٣) .

(٣) الرحمن : الآية (٣٧) .

(٥) الرحمن : الآية (٣٥) .

(٢) الحاقة : الآية (١٧) .

(٤) الأنعام : الآية (١٣٠) .

الصنفين في العذاب بالتنصيص عليهما فلا يحتمل اللفظ إرادة أحدهما . والله أعلم .
قال ابن عباس : «الشواظ : اللهب الذي لا دخان فيه ، والنحاس : الدخان الذي لا
لهب فيه» . وقوله تعالى : ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُشْئِلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ (٢٩) «^(١) فأضاف
الذنوب إلى الثقلين ، وهذا دليل على أنهما سُويَا في التكليف .

واختلف في هذا السؤال المنفي ؛ ف قيل : هو وقت البعث والمصير إلى
الموقف ، لا يسألون حينئذ ويسألون بعد إطالة الوقوف واستشفاعهم إلى الله أن
يحاسبهم ويريحهم من مقامهم ذلك . وقيل : المنفي سؤال الاستعلام والاستخبار ،
لا سؤال المحاسبة والمجازاة ؛ أي : قد علم الله ذنوبهم فلا يسألهم عنها سؤال من
يريد علمها ، وإنما يحاسبهم عليها .

(فصل)

فإذا علم تكليفهم بشرائع الأنبياء ومطالبتهم بها ، وحشرهم يوم القيامة للثواب
والعقاب ، علم أن محسنهم في الجنة كما أن مسيئهم في النار ، وقد دل على ذلك
قوله تعالى حكاية عن مؤمنهم : ﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْمَدَىءَ آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ﴾ (٢)
الآية ، وبهذه الحجة احتج البخاري . ووجه الاحتجاج بها أن البخس المنفي هو
نقصان الثواب ، والرهق : الزيادة في العقوبة على ما عمل ، فلا ينقص من ثواب
حسناته ، ولا يزداد في سيئاته . ونظير هذا قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ
مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ (٣) أي : لا يخاف زيادة سيئاته ولا نقصان
حسناته . وأيضاً قد قال تعالى في سورة (الرحمن) : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ (٤)
فِيَأْتِيءُ آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) ﴿^(٤) ، وذكر ما في الجنتين إلى قوله تعالى : ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّ
إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ (٥) ، وهذا يدل على أن ثواب محسنهم الجنة من
وجوه : أحدها : أن (مَنْ) من صيغ العموم ، فتتناول كل خائف . الثاني : أنه رتب
الجزاء المذكور على خوف مقامه ، فدل على استحقاقه به . وقد اختلف في إضافة
المقام إلى الرب : هل هي من إضافة المصدر إلى فاعله أو إلى مفعوله ؟ على قولين :

(١) الرحمن : الآية (٣٩) .

(٢) الجن : الآية (١٣) .

(٣) طه : الآية (١١٢) .

(٤) الرحمن : الآية (٥٦) .

(٥) الرحمن : الآيتان (٤٦ و٤٧) .

أحدهما : أن المعنى : ولمن خاف مقامه بين يدي ربه ، فعلى هذا هو إضافة المصدر إلى المفعول . والثاني : أن المعنى : ولمن خاف مقام ربه عليه واطلاعه عليه ، فهو من باب إضافة المصدر إلى فاعله ، وكذلك القولان في قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (١) ونظيره قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ (٢) ، فهذه ثلاثة مواضع . وقد يقال : الراجع هو الأول ، وإن المعنى : خاف مقامه بين يدي ربه لوجوه :

أحدها : أن طريقة القرآن في التخويف أن يخوفهم بالله وبالיום الآخر ، فإذا خوّفهم به علق الخوف به لا بقيامه عليهم ؛ كقوله تعالى : ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ (٣) ، وقوله تعالى : ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ (٤) ، وقوله تعالى : ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ (٥) ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (٦) ففي هذا كله لم يذكر خشية مقامه عليهم ، وإنما مدحهم بخوفه وخشيته . وقد يذكر الخوف متعلقاً بعذابه كقوله تعالى : ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ (٧) ، وأما خوف مقامه عليهم فهو وإن كان كذلك فليس طريقة القرآن .

والثاني : أن هذا نظير قوله تعالى : ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ (٨) ، فخوفهم أن يحشروا إليه هو خوفهم من مقامهم بين يديه . والقرآن يفسر بعضه بعضاً .

الثالث : أن خوف مقام العبد بين يدي ربه في الآخرة لا يكون إلا ممن يؤمن بلقائه وبالיום الآخر وبالبعث بعد الموت . وهذا هو الذي يستحق الجنتين المذكورتين ، فإنه لا يؤمن بذلك حق الإيمان إلا من آمن بالرسل ، وهو من الإيمان بالغيب الذي جاءت به الرسل . وأما مقام الله على عبده في الدنيا واطلاعه عليه وقدرته عليه فهذا يقرّ به المؤمن والكافر والبر والفاجر ، وأكثر الكفار يخافون جزاء الله لهم في الدنيا لما عاينوه من مجازاة الظالم بظلمه والمحسن بإحسانه ، وأما مقام العبد بين يدي ربه في الآخرة فلا يؤمن به إلا المؤمن بالرسل .

(٢) إبراهيم : الآية (١٤) .

(٤) البينة : الآية (٨) .

(٦) الملك : الآية (١٢) .

(٨) الأنعام : الآية (٥١) .

(١) النازعات : الآية (٤٠) .

(٣) آل عمران : الآية (١٧٥) .

(٥) النحل : الآية (٥٠) .

(٧) الإسراء : الآية (٥٧) .

فإن قيل : إذا كان المعنى أنه خاف مقام ربه عليه في الآخرة بالجزاء فقد استوى التقديران ، فمن أين رجحتم أحدهما ؟ قيل : التخويف بمقام العبد بين يدي ربه أبلغ من التخويف بمقام الرب على العبد ، ولهذا خوفنا تعالى في قوله : ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١) ، ولأنه مقام مخصوص مضاف إلى الله وذلك في يوم القيامة ، بخلاف مقام الله على العبد فإنه كل وقت . وأيضاً فإنه لا يقال لقدرة الله على العبد وإطلاعه عليه وعلمه به : مقام الله ، ولا هذا من المألوف إطلاقه على الرب . وأيضاً فإن المقام في القرآن والسنة إنما يطلق على المكان كقوله : ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾^(٢) ، وقوله تعالى : ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾^(٣) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ ، وقوله تعالى : ﴿خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾^(٤) ، والمقصود أن قوله تعالى : ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾^(٥) يتناول الصنفين من وجوه ، تقدم منها وجهان . الثالث : قوله عقيب هذا الوعد : ﴿فَيَأْتِيَهُمْ الْآلَاءُ رِيكًا تُكَذِّبَانِ﴾^(٦) . الرابع : أنه ذكر في وصف نسائهم أنهم ﴿لَمْ يَطْمِئُنْ بِإِنْسٍ قَبْلَهُمْ وَلَا بَآنٌ﴾ ، وهذا - والله أعلم - معناه : أنه لم يطمث نساء الإنس إنس قبلهم ، ولا نساء الجن جن قبلهم . ومما يدل على أن ثوابهم الجنة قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾^(٧) أَوْلَيْكَ لَهُمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ^(٨) ، وأمثال هذه من العمومات ، وقد ثبت أن منهم المؤمنين ، فيدخلون في العموم ، كما أن كافرهم يدخل في الكافرين المستحقين للوعيد . ودخول مؤمنهم في آيات الوعد أولى من دخول كافرهم في آيات الوعيد ؛ فإن الوعد فضله ، والوعيد عدله ، وفضله من رحمته وهي تغلب غضبه . وأيضاً فإن دخول عاصيهم النار إنما كان لمخالفته أمر الله ، فإذا أطاع الله أدخل الجنة . وأيضاً فإنه لا دار للمكلفين سوى الجنة والنار ، وكل من لم يدخل النار من المكلفين فالجنة مثواه . وأيضاً فقد ثبت أنهم إذا أجابوا داعي الله غفر لهم وأجارهم من عذابه ، وكل من غفر له دخل الجنة ولا بد ، وليس فائدة المغفرة إلا الفوز بالجنة والنجاة من النار . وأيضاً فإنه قد ثبت أن الرسول مبعوث إليهم ، وأنهم مكلفون باتباعه ، وأن مطيعهم لله ورسوله مع

(١) المطففين : الآية (٦) .

(٢) الإسراء : الآية (٧٩) .

(٣) الدخان : الآيتان (٢٥ و ٢٦) .

(٤) الكهف : الآيتان (٣٠ و ٣١) .

(٥) مريم : الآية (٧٣) .

الذين أنعم الله عليهم، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ (٦٩) ^(١)، وقد أخبر سبحانه عن ملائكته حملة العرش ومن حولهم أنهم يستغفرون للذين آمنوا، وأنهم يقولون: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ (٧٠) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ ^(٢)، فدل على أن كل مؤمن غفر الله له ووقاه عذاب الجحيم فقد وعده الجنة. وقد ثبت في حق مؤمنهم الإيمان ومغفرة الذنب ووقاية النار كما تقدم، فتعين دخولهم الجنة، والله أعلم. وإذا ثبت تكليفهم بانقسامهم إلى المسلمين والكفار والصالحين ودون ذلك، فهم في الموازنة على نحو طبقات الإنس المتقدمة، إلا أنهم ليس فيهم رسول، وأفضل درجاتهم درجة الصالحين؛ ولو كان لهم درجة أفضل منها لذكروها؛ فقد دل القرآن على انقسامهم إلى ثلاثة أقسام: صالحين، ودونهم، وكفار. وزاد عليهم الإنس بدرجة الرسالة والنبوة ودرجة المقربين، والله أعلم ^(٣).

* * *

(٢) غافر: الآيتان (٧ و٨).

(١) النساء: الآية (٦٩).

(٣) طريق الهجرتين (ص: ٤١٨-٤٢٧).

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ
يَخْلُقْهُنَّ يَقْدِرْ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾

* غريب الآية:

لم يَعْ: لم يضعف ولم يعجز. وأصل الإعياء: العجز.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: أولم ينظر هؤلاء المنكرون إحياء الله خلقه من بعد وفاتهم، وبعثه إياهم من قبورهم بعد بلائهم، القائلون لأبائهم وأمهاتهم: ﴿أَفِ لَكُمَا أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾ فلم يبعثوا بأبصار قلوبهم، فيروا ويعلموا أن الله الذي خلق السموات السبع والأرض، فابتدعهن من غير شيء، ولم يعي بإنشائهن، فيعجز عن اختراعهن وإحداثهن، ﴿يَقْدِرْ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ فيخرجهم من بعد بلائهم في قبورهم أحياء كهيئتهم قبل وفاتهم»^(١).

وقال ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أي: هؤلاء المنكرون للبعث يوم القيامة، المستبعدون لقيام الأجساد يوم المعاد، ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ﴾؛ أي: ولم يكره خلقهن، بل قال لها: (كوني) فكانت، بلا ممانعة ولا مخالفة، بل طائعة مجيبة خائفة وجللة، أفليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟ كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧﴾^(٢). ولهذا قال: ﴿بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾»^(٣).

وقال ابن جرير: «وقوله: ﴿بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقول -تعالى ذكره-: بلى، يقدر الذي خلق السموات والأرض على إحياء الموتى؛ أي: الذي خلق ذلك على كل شيء شاء خلقه، وأراد فعله، ذو قدرة لا يعجزه شيء أراده، ولا يعييه شيء

(٢) غافر: الآية (٥٧).

(١) جامع البيان (٢٦/٣٥).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/٢٨٧-٢٨٨).

أراد فعله ، فيعييه إنشاء الخلق بعد الفناء ؛ لأن من عجز عن ذلك فضعيف ، فلا ينبغي أن يكون إلهاً من كان عمّا أراد ضعيفاً»^(١) .

قال الشنقيطي : «قد قدمنا الآيات الموضحة لهذه الآية ، وأنها من الآيات الدالة على البعث في (البقرة) و(النحل) و(الجاثية) ، وغير ذلك من المواضع . . و(الباء) في قوله : ﴿بِقَدْرِ﴾ يسوغه أن النفي متناول لـ(أنّ) فما بعدها ، فهو في معنى : أليس الله بقادر؟

ويوضح ذلك قوله بعد : ﴿بِكُلِّ﴾ مقررًا لقدرته على البعث وغيره»^(٢) .

* * *

(١) جامع البيان (٣٦/٢٦) .

(٢) أضواء البيان (٤٠٨/٧) .

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَيْنَا قَالَفَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ويوم يعرض هؤلاء المكذبون بالبعث، وثواب الله عباده على أعمالهم الصالحة، وعقابه إياهم على أعمالهم السيئة، على النار، نار جهنم، يقال لهم حينئذ: أليس هذا العذاب الذي تعدّبونه اليوم، وقد كنتم تكذبون به في الدنيا بالحق؟ توبيخاً من الله لهم على تكذيبهم به، كان في الدنيا، ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَيْنَا﴾ يقول: فيجيب هؤلاء الكفرة من فورهم بذلك، بأن يقولوا: بلى، هو الحق والله، ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ يقول: فقال لهم المقرر بذلك: فذوقوا عذاب النار الآن بما كنتم تجحدونه في الدنيا، وتنكرونه، وتأبون الإقرار إذا دُعيتُم إلى التصديق به»^(١).

وقال ابن كثير: «ثم قال متهدّداً ومتوعّداً لمن كفر به: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾؛ أي: يقال لهم: أما هذا حق؟ أفسحر هذا؟ أم أنتم لا تبصرون؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَيْنَا﴾ أي: لا يسعهم إلا الاعتراف، ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾»^(٢).

وقال السعدي: «يخبر تعالى عن حال الكفار الفظيعة عند عرضهم على النار التي كانوا يكذبون بها، وأنهم يوبّخون، ويقال لهم: ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ فقد حضرتموه وشاهدتموه عياناً؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَيْنَا﴾ فاعترفوا بذنبهم، وتبين كذبهم، ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: عذاباً لازماً دائماً، كما كان كفرهم صفة لازمة»^(٣).



(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/٢٨٨).

(١) جامع البيان (٢٦/٣٦).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/٥٩).

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَّغٌ فُهِلَ يُهْلَكُ إِلَّا أَلْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٢٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - لنبية محمد ﷺ، مثبته على المضى لما قلده من عبء الرسالة، وثقل أحمال النبوة ﷺ، وأمره بالالتساء في العزم على النفوذ لذلك بأولي العزم من قبله من رسله الذين صبروا على عظيم ما لقوا فيه من قومهم من المكارة، ونالهم فيه منهم من الأذى والشدائد، ﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد على ما أصابك في الله من أذى مكذبيك من قومك الذين أرسلناك إليهم بالإنذار ﴿كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ على القيام بأمر الله، والانتهاء إلى طاعته من رسله الذين لم ينههم عن النفوذ لأمره، ما نالهم فيه من شدة. وقيل: إن أولي العزم منهم، كانوا الذين امتحنوا في ذات الله في الدنيا بالمحن، فلم تزدتهم المحن إلا جدًا في أمر الله، كنوح وإبراهيم وموسى ومن أشبههم»^(١).

وقال ابن كثير: «ثم قال تعالى أمرًا رسوله بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه: ﴿كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾؛ أي: على تكذيب قومهم لهم. وقد اختلفوا في تعداد أولي العزم على أقوال، وأشهرها أنهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وخاتم الأنبياء كلهم محمد ﷺ، قد نص الله على أسمائهم من بين الأنبياء في آيتين من سورتي (الأحزاب) و(الشورى). وقد يحتمل أن يكون المراد بأولي العزم جميع الرسل، وتكون (من) في قوله: ﴿مِنَ الرُّسُلِ﴾ لبيان الجنس، والله أعلم»^(٢).

قال الشنقيطي: «اختلف العلماء في المراد بأولي العزم من الرسل في هذه الآية

(١) جامع البيان (٣٧/٢٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/٢٨٨).

الكريمة اختلافًا كثيرًا.

وأشهر الأقوال في ذلك أنهم خمسة، وهم الذين قدمنا ذكرهم في (الأحزاب) و(الشورى)، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام. وعلى هذا القول فالرسل الذين أمر رسول الله ﷺ أن يصبر كما صبروا أربعة، فصار هو ﷺ خامسهم.

واعلم أن القول بأن المراد بأولي العزم جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأن لفظة (من) في قوله: ﴿مِنَ الرُّسُلِ﴾ بيانية يظهر أنه خلاف التحقيق، كما دل على ذلك بعض الآيات القرآنية كقوله تعالى: ﴿فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾^(١) الآية، فأمر الله جل وعلا نبيه في آية (القلم) هذه بالصبر، ونهاه عن أن يكون مثل يونس؛ لأنه هو صاحب الحوت، وكقوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾^(٢) الآية (القلم) وآية (طه) المذكورتان كلتاهما تدل على أن أولي العزم من الرسل الذين أمر النبي ﷺ بأن يصبر كصبرهم ليسوا جميع الرسل، والعلم عند الله تعالى^(٣).

قال السعدي: «أمر تعالى رسوله أن يصبر على أذية المكذبين المعادين له، وأن لا يزال داعيًا لهم إلى الله، وأن يقتدي بصبر أولي العزم من المرسلين، سادات الخلق، أولي العزائم والهمم العالية، الذين عظم صبرهم، وتم يقينهم، فهم أحق الخلق بالأسوة بهم، والقفو لآثارهم، والاهتداء بمنارهم.

فامتثل ﷺ لأمر ربه، فصبر صبرًا لم يصبره نبي قبله، حتى رماه المعادون له عن قوس واحدة، وقاموا جميعًا بصدده عن الدعوة إلى الله، وفعلوا ما يمكنهم من المعاداة والمحاربة، وهو ﷺ لم يزل صاعدًا بأمر الله، مقيمًا على جهاد أعداء الله، صابرًا على ما يناله من الأذى، حتى مكّن الله له في الأرض، وأظهر دينه على سائر الأديان، وأمته على الأمم، فصلى الله عليه وسلم تسليمًا^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾:

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ يقول: ولا تستعجل عليهم

(١) القلم: الآية (٤٨).

(٢) طه: الآية (١١٥).

(٣) أضواء البيان (٧/٤٠٨).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٧/٥٩-٦٠).

بالعذاب، يقول: لا تعجل بمسألتك ربك ذلك لهم؛ فإن ذلك نازل بهم لا محالة»^(١).

وقال ابن كثير: «أي: لا تستعجل لهم حلول العقوبة بهم؛ كقوله: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمْ قَلِيلًا﴾^(٢)، وكقوله: ﴿فَهَلْ الْكَافِرِينَ أَهْلُكُمْ رُيْدًا﴾^(٣)»^(٤).

قال الشنقيطي: «نهى الله نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يستعجل العذاب لقومه؛ أي: يدعو الله عليهم بتعجيله لهم، فمفعول ﴿تَسْتَعْجِلْ﴾ محذوف، تقديره: العذاب؛ كما قاله القرطبي، وهو الظاهر.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من النهي عن طلب تعجيل العذاب لهم جاء موضعاً في آيات أخر، كقوله تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمْ قَلِيلًا﴾^(٥)، وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ الْكَافِرِينَ أَهْلُكُمْ رُيْدًا﴾^(٦)؛ فإن قوله: ﴿وَمَهَلْهُمْ قَلِيلًا﴾، وقوله: ﴿فَهَلْ الْكَافِرِينَ أَهْلُكُمْ رُيْدًا﴾^(٧) موضع لمعنى قوله: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾.

والمراد بالآيات: نهيه ﷺ عن طلب تعجيل العذاب لهم؛ لأنهم معذبون، لا محالة عند انتهاء المدة المحددة للإمهال، كما يوضحه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعْدُ لَهُمْ عَذَابًا﴾^(٨)، وقوله تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾^(٩)، وقوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ﴾^(١٠) الآية، وقوله تعالى: ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾^(١١) متع قليل ثم مأونهم جهنم وبئس المهاد^(١٢)، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾^(١٣) متع في الدنيا ثم إلتنا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون^(١٤) إلى غير ذلك من الآيات»^(١٥).

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ﴾:

قال ابن جرير: «يقول: كأنهم يوم يرون عذاب الله الذي يعدهم أنه منزله بهم،

(١) جامع البيان (٣٧/٢٦).

(٣) الطارق: الآية (١٧).

(٥) مريم: الآية (٨٤).

(٧) البقرة: الآية (١٢٦).

(٩) يونس: الآيتان (٦٩ و٧٠).

(١٠) أضواء البيان (٧/٤٠٨-٤٠٩).

(٢) المزمّل: الآية (١١).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/٢٨٨).

(٦) لقمان: الآية (٢٤).

(٨) آل عمران: الآيتان (١٩٦ و١٩٧).

لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من نهار ؛ لأنه ينسيهم شدة ما ينزل بهم من عذابه ، قدر ما كانوا في الدنيا لَبِثُوا ، ومبلغ ما فيها مكثوا من السنين والشهور ، كما قال -جل ثناؤه- : ﴿ قُلْ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴾ (١) ﴿ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلُ الْعَادِينَ ﴾ (٢) .

قال ابن كثير : « كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ ﴾ كقوله : ﴿ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى ﴾ (٣) ، وكقوله : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ (٤) « (٥) . قوله تعالى : ﴿ بَلِّغْ ﴾ :

قال ابن جرير : « وقوله : ﴿ بَلِّغْ ﴾ فيه وجهان : أحدهما : أن يكون معناه : لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ذلك لبث بلاغ ، بمعنى : ذلك بلاغ لهم في الدنيا إلى أجلهم ، ثم حذفت (ذلك لبث) ، وهي مرادة في الكلام ؛ اكتفاء بدلالة ما ذكر من الكلام عليها . والآخر : أن يكون معناه : هذا القرآن والتذكير بلاغ لهم وكفاية ، إن فكروا واعتبروا فتذكروا » (٦) .

قال الشنقيطي : « التحقيق إن شاء الله أن أصوب القولين في قوله : ﴿ بَلِّغْ ﴾ أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره : هذا بلاغ ؛ أي : هذا القرآن بلاغ من الله إلى خلقه . ويدل لهذا قوله تعالى في سورة (إبراهيم) : ﴿ هَذَا بَلِّغُ لِلنَّاسِ لِئَذْرَأُ بِهِ ﴾ (٧) ، وقوله في (الأنبياء) : ﴿ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَكِيدِينَ ﴾ (٨) ، وخير ما يفسر به القرآن القرآن .

والبلاغ اسم مصدر ، بمعنى التبليغ ، وقد علم باستقراء اللغة العربية أن (الفعال) يأتي كثيراً بمعنى (التفعل) ، كبَلِّغُه بلاغًا : أي تبليغًا ، وكَلِّمُه كلامًا ؛ أي : تكليمًا ، وطلَّقها طلاقًا ، وسَرَّحها سراحًا ، وبيَّنه بيانًا . كل ذلك بمعنى (التفعل) ؛ لأن (فعل) مضعفة العين ، غير معتلة اللام ولا مهموزته ، قياس مصدرها : التفعل . وما جاء

(١) المؤمنون : الآيتان (١١٢-١١٣) .

(٣) النازعات : الآية (٤٦) .

(٥) تفسير القرآن العظيم (٧/٢٨٨) .

(٧) إبراهيم : الآية (٥٢) .

(٢) جامع البيان (٣٧/٢٦) .

(٤) يونس : الآية (٤٥) .

(٦) جامع البيان (٣٨/٢٦) .

(٨) الأنبياء : الآية (١٠٦) .

منه على خلاف ذلك يحفظ ولا يقاس عليه ، كما هو معلوم في محله .
أما القول بأن المعنى : وذلك اللبث بلاغ ، فهو خلاف الظاهر كما ترى ، والعلم
عند الله تعالى^(١) .

قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ :

قال ابن جرير : « يقول - تعالى ذكره - : فهل يهلك الله بعذابه إذا أنزله إلا القوم
الذين خالفوا أمره ، وخرجوا عن طاعته وكفروا به . ومعنى الكلام : وما يهلك الله
إلا القوم الفاسقين »^(٢) .

وقال ابن كثير : « أي : لا يهلك على الله إلا هالك ؛ وهذا من عدله تعالى أنه
لا يعذب إلى من يستحق العذاب »^(٣) .

* * *

(١) أضواء البيان (٧ / ٤١٠) .

(٢) جامع البيان (٣٨ / ٢٦) .

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧ / ٢٨٨) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة محمد

أغراض السورة

قال ابن عاشور: «معظم ما في هذه السورة التحريض على قتال المشركين، وترغيب المسلمين في ثواب الجهاد. افتتحت بما يثير حنق المؤمنين على المشركين؛ لأنهم كفروا بالله، وصدوا عن سبيله؛ أي: دينه. وأعلم الله المؤمنين بأنه لا يسدد المشركين في أعمالهم، وأنه مصلح المؤمنين، فكان ذلك كفالة للمؤمنين بالنصر على أعدائهم. وانتقل من ذلك إلى الأمر بقتالهم، وعدم الإبقاء عليهم. وفيها وعد المجاهدين بالجنة، وأمر المسلمين بمجاهدة الكفار، وأن لا يدعوهم إلى السلم، وإنذار المشركين بأن يصيبهم ما أصاب الأمم المكذبين من قبلهم. ووصف الجنة ونعيمها، ووصف جهنم وعذابها. ووصف المنافقين وحال اندهاشهم إذا نزلت سورة فيها الحوض على القتال، وقلة تدبرهم القرآن، وموالاتهم المشركين.

وتهديد المنافقين بأن الله ينبيء رسوله ﷺ بسماهم، وتحذير المسلمين من أن يروج عليهم نفاق المنافقين. وختمت بالإشارة إلى وعد المسلمين بنوال السلطان، وحذرهم إن صار إليهم الأمر من الفساد والقطيعة»^(١).

ومن مقاصدها أيضًا يقول البقاعي: «التقدم إلى المؤمنين في حفظ حظيرة الدين، بإدامة الجهاد للكفار، حتى يلزموهم الصغار، أو يبطلوا ضلالهم، كما أضل الله أعمالهم، لاسيما أهل الردة الذين فسقوا عن محيط الدين إلى أودية الضلال المبين، والتزام هذا الخلق الشريف، إلى أن تضع الحرب أوزارها، بإسلام أهل الأرض كلهم، بنزول عيسى عليه السلام.

(١) التحرير والتنوير (٧٢/٢٦).

وعلى ذلك دل اسمها ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لأن من المعلوم أن من صدك عن سبيلك قاتلته، وأنت إن لم تقاتله كنت مثله .

واسمها (محمد) واضح في ذلك ؛ لأن الجهاد كان خلقه ﷺ، إلى أن توفاه الله تعالى، وهو نبي الملحمة ؛ لأنه لا يكون حمد، وثم نوع ذم . . ومتى كان كفٌّ عن أعداء الله، كان ذمٌّ .

وأوضح أسمائها في هذا المقصد : (القتال)، فإن من المعلوم أنه لأهل الضلال^(١) .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في فضيلة سورة (محمد ﷺ)

* عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قرأ بهم في المغرب : ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلَهُمْ﴾ ^(٢) .

* فوائد الحديث:

في هذا الحديث من الفوائد : «البيان بأن القراءة في صلاة المغرب ليس بشيء محصور لا تجوز الزيادة عليه»^(٣) .

* * *

(١) مصاعد النظر (٢/٤٨٦-٤٨٧) .

(٢) أخرجه : الطبراني في الكبير (١٢/٣٧٢/١٣٣٨٠)، وفي الصغير (١/٧٤/١١١)، وصححه ابن حبان (الإحسان ٥/١٤٣/١٨٣٥)، وذكره الهيثمي في المجمع (٢/١١٨) وقال : «رواه الطبراني في الثلاثة، ورجاله رجال الصحيح» .

(٣) من كلام ابن حبان في صحيحه (٥/١٤٣) .

قوله تعالى: ﴿يَسْمِ اللَّهَ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ
الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ ﴿١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : الذين جحدوا توحيد الله، وعبدوا غيره، وصدّوا من أراد عبادته والإقرار بوحدانيته، وتصديق نبيه محمد ﷺ عن الذي أراد من الإسلام والإقرار والتصديق ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ يقول: جعل الله أعمالهم ضلالاً على غير هدى وغير رشاد؛ لأنها عملت في سبيل الشيطان، وهي على غير استقامة»^(١).

قال ابن عاشور: «صُدِّرَ التحريض على القتال بتوطئة لبيان غضب الله على الكافرين؛ لكفرهم وصدّهم الناس عن دين الله، وتحقيق أمرهم عند الله، ليكون ذلك مثيراً في نفوس المسلمين حنقاً عليهم وكراهية، فتثور فيهم همة الإقدام على قتال الكافرين، وعدم الاكتراث بما هم فيه من قوة، حين يعلمون أن الله يخذل المشركين وينصر المؤمنين، فهذا تمهيد لقوله: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(٢). وفي الابتداء بالموصول والصلة المتضمنة كُفِرَ الذين كفروا ومناوأتهم لدين الله؛ تشويق لما يرد بعده من الحكم المناسب للصلة، وإيماء بالموصول وصلته إلى علة الحكم عليه بالخبر، أي لأجل كفرهم وصدّهم، وبراعة استهلال للغرض المقصود. والكفر: الإشرak بالله كما هو مصطلح القرآن حيثما أطلق الكفر مجرداً عن قرينة إرادة غير المشركين. وقد اشتملت هذه الجملة على ثلاثة أوصاف للمشركين. وهي: الكفر، والصد عن سبيل الله، وضلال الأعمال الناشئ عن إضلال الله إياهم. والصد عن سبيل: هو صرف الناس عن متابعة دين الإسلام، وصرفهم أنفسهم عن سماع دعوة الإسلام بطريق الأولى. وأضيف السبيل إلى الله

(١) جامع البيان (٣٨/٢٦).

(٢) محمد: الآية (٤).

لأنه الدين الذي ارتضاه الله لعباده ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَسْلَمُ﴾^(١). واستعير اسم السبيل للدين؛ لأن الدين يوصل إلى رضى الله كما يوصل السبيل السائر فيه إلى بغيته. ومن الصد عن سبيل الله صدهم المسلمين عن المسجد الحرام، قال تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾^(٢). ومن الصد عن المسجد الحرام: إخراجهم الرسول ﷺ والمؤمنين من مكة، وصدهم عن العمرة عام الحديبية. ومن الصد عن سبيل الله: إطعامهم الناس يوم بدر ليثبتوا معهم ويكثروا حولهم. ومن الصد عن سبيل الله صدهم الناس عن سماع القرآن: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾^(٣).

والإضلال: الإبطال والإضاعة، وهو يرجع إلى الضلال. وأصله: الخطأ للطريق المسلك للوصول إلى مكان يراد وهو يستلزم المعاني الأخر. وهذا اللفظ رقيق الموقع هنا؛ لأن الله أبطل أعمالهم التي تبدو حسنة، فلم يشبههم عليها من صلة رحم، وإطعام جائع، ونحوهما، ولأن من إضلال أعمالهم أن كان غالب أعمالهم عبثاً وسيئاً، ولأن من إضلال أعمالهم أن الله خيب سعيهم، فلم يحصلوا منه على طائل، فانهزموا يوم بدر، وذهب إطعامهم الجيش باطلاً، وأفسد تدبيرهم وكيدهم للرسول ﷺ، فلم يشفوا غليلهم يوم أحد، ثم توالى انهزاماتهم في المواقع كلها، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلِبُونَ﴾^(٤)^(٥).

* * *

(١) آل عمران: الآية (١٩).

(٢) الحج: الآية (٢٥).

(٣) فصلت: الآية (٢٦).

(٤) الأنفال: الآية (٣٦).

(٥) التحرير والتنوير (٢٦/٧٢-٧٤).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ ﴿٢﴾

★ غريب الآية:

كفر: محا وأزال.

بالهم: البال: الشأن والحال. ويطلق على القلب؛ أي: العقل وما يخطر للمرء من التفكير.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : والذين صدّقوا الله وعملوا بطاعته، واتبعوا أمره ونهيه، ﴿وَأَمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ يقول: وصدّقوا بالكتاب الذي أنزل الله على محمد، ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ يقول: محا الله عنهم بفعلهم ذلك سيئ ما عملوا من الأعمال، فلم يؤاخذهم به، ولم يعاقبهم عليه، ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ يقول: وأصلح شأنهم وحالهم في الدنيا عند أوليائه، وفي الآخرة بأن أورثهم نعيم الأبد والخلود الدائم في جنانه»^(١).

قال ابن عاشور: «هذا مقابل فريق الذين كفروا وهو فريق الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وإيراد الموصول وصلته للإيماء إلى وجه بناء الخبر وعلته؛ أي: لأجل إيمانهم الخ كفر عنهم سيئاتهم. وقد جاء في مقابلة الأوصاف الثلاثة التي أثبتت للذين كفروا بثلاثة أوصاف ضدها للمسلمين وهي: الإيمان مقابل الكفر، والإيمان بما نزل على محمد ﷺ مقابل الصد عن سبيل الله، وعمل الصالحات مقابل بعض ما تضمنه ﴿أَصْلَحَ أَعْمَالَهُمْ﴾ و﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ مقابل بعض آخر مما تضمنه ﴿أَصْلَحَ أَعْمَالَهُمْ﴾ ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ مقابل بقية ما تضمنه ﴿أَصْلَحَ أَعْمَالَهُمْ﴾. وزيد في جانب المؤمنين التنويه بشأن القرآن بالجملة المعترضة قوله: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾، وهو

(١) جامع البيان (٢٦/٣٨-٣٩).

نظير لوصفه بسبيل الله في قوله: ﴿وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ، وعبر عن الجلالة هنا بوصف الربّ زيادة في التنويه بشأن المسلمين على نحو قوله: ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾^(١) ، فلذلك لم يقل: وصدوا عن سبيل ربهم. وتكفير السيئات غفرانها لهم، فإنهم لما عملوا الصالحات؛ كفر الله عنهم سيئاتهم التي اقترفوها قبل الإيمان، وكفر لهم الصغائر، وكفر عنهم بعض الكبائر بمقدار يعلمه إذا كانت قليلة في جانب أعمالهم الصالحات كما قال تعالى: ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾^(٢) . . وإصلاح البال يجمع إصلاح الأمور كلها؛ لأن تصرفات الإنسان تأتي على حسب رأيه، فالتوحيد أصل صلاح بال المؤمن، ومنه تنبعث القوى المقاومة للأخطاء والأوهام التي تلبس بها أهل الشرك، وحكاها عنهم القرآن في مواضع كثيرة. والمعنى: أقام أنظارهم وعقولهم، فلا يفكرون إلا صالحًا، ولا يتدبرون إلا ناجحًا^(٣).

قال الشنقيطي: «ما ذكره - جل وعلا - هنا في أول هذه السورة الكريمة، من أنه يبطل أعمال الكافرين، ويبقى أعمال المؤمنين؛ جاء موضحًا في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾^(٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٥) ، وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾^(٦) ، وقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾^(٧) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾^(٨) .

وقال أيضًا: «وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ ، قال فيه ابن كثير: هو عطف خاص على عام، وهو دليل على أنه شرط في صحة الإيمان، بعد بعثته ﷺ، أهمنه.

ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مَرِيقَةٍ

(٢) التوبة: الآية (١٠٢).

(٤) هود: الآيتان (١٥ و ١٦).

(٦) الفرقان: الآيتان (٢٣ و ٢٤).

(١) محمد: الآية (١١).

(٣) التحرير والتنوير (٢٦ / ٧٤ - ٧٦).

(٥) الشورى: الآية (٢٠).

(٧) أضواء البيان (٧ / ٤١٤ - ٤١٥).

مَنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ^(١).

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ جملة اعتراضية تتضمن شهادة الله بأن هذا القرآن المنزل على هذا النبي الكريم ﷺ هو الحق من الله، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾^(٢)، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(٣) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ^(٤)، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾^(٥) الآية، وقال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾^(٦) الآية، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة^(٧).

قال الرازي: «قد ذكرنا مرارًا أن الله تعالى كلما ذكر الإيمان والعمل الصالح، رتب عليهما المغفرة والأجر كما قال: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾^(٨)، وقال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾^(٩)، وقلنا بأن المغفرة ثواب الإيمان والأجر على العمل الصالح...؛ فنقول ههنا جزاء ذلك قوله: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ إشارة إلى ما يثيب على الإيمان، وقوله: ﴿وَأَصْلَحَ بِأَلْفِهِمْ﴾ إشارة إلى ما يثيب على العمل الصالح^(١٠).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان صفة رد العاطس على من شمته

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إذا عطس أحدكم فليقل: الحمد لله، وليقل له أخوه أو صاحبه: يرحمك الله، فإذا قال له: يرحمك الله، فليقل: يهديكم الله ويصلح بالكم»^(١١).

★ فوائد الحديث:

قال ابن بطال: «اختلف السلف أيضًا في الرد على المشمت، فقالت طائفة:

(١) هود: الآية (١٧).

(٢) الأنعام: الآية (٦٦).

(٣) الحاقة: الآيتان (٥٠ و ٥١).

(٤) النساء: الآية (١٧٠).

(٥) الحج: الآية (٥٠).

(٦) العنكبوت: الآية (٧).

(٧) مفتاح الغيب (٣٩/٢٨).

(٨) أخرجه: أحمد (٣٥٣/٢)، والبخاري (١٠/٧٤١-٧٤٢/٦٢٢٤)، وأبو داود (٥٠٣٣/٢٩٠/٥)، والنسائي

في الكبرى (٦/٦٦-٦٧/١٠٠٦٠).

يقول: «يهديكُم الله ويصلح بالكم»، على حديث أبي هريرة، روي ذلك عن أبي هريرة. وكان الشعبي يقول: «يهديكُم الله». وأنكرت طائفة أن يقول: «يهديكُم الله ويصلح بالكم»، واختارت أن يقول: «يغفر الله لنا ولكم»، روي ذلك عن ابن مسعود وابن عمر وأبي وائل والنخعي وهو قول الكوفيين^(١).

قال الحافظ: «وذكر الطبري أن الذين منعوا من جواب التشميت بقول: «يهديكُم الله ويصلح بالكم» احتجوا بأنه تشميت اليهود كما تقدمت الإشارة إليه من تخريج أبي داود من حديث أبي موسى، قال: ولا حجة فيه؛ إذ لا تضاد بين خبر أبي موسى وخبر أبي هريرة -يعني حديث الباب-؛ لأن حديث أبي هريرة في جواب التشميت، وحديث أبي موسى في التشميت نفسه. وأما ما أخرجه البيهقي في الشعب عن ابن عمر قال: «اجتمع اليهود والمسلمون، فعطس النبي ﷺ، فشتمته الفريقان جميعاً، فقال للمسلمين: يغفر الله لكم ويرحمنا وإياكم. وقال لليهود: يهديكُم الله ويصلح بالكم»^(٢). فقال: تفرد به عبد الله بن عبد العزيز بن أبي رواد عن أبيه عن نافع، وعبد الله ضعيف. واحتج بعضهم بأن الجواب المذكور مذهب الخوارج؛ لأنهم لا يرون الاستغفار للمسلمين، وهذا منقول عن إبراهيم النخعي، وكل هذا لا حجة فيه بعد ثبوت الخبر بالأمر به. قال البخاري بعد تخريجه في «الأدب المفرد»: وهذا أثبت ما يروى في هذا الباب»^(٣).

وقال الطبري: «لا وجه لقول من أنكر «يهديكُم الله ويصلح بالكم»؛ لأن الأخبار بذلك عن النبي ﷺ أثبت من غيرها»^(٤).

قال ابن بطلال: «وقال مالك والشافعي: إن شاء أن يقول: «يهديكُم الله ويصلح بالكم»، أو «يغفر الله لكم» لا بأس بذلك كله..»

واحتج الطحاوي لقول مالك بقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِحَيٍّ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾^(٥)، فإذا قال جواب قوله «يرحمكم الله»: «يغفر لكم»، فقد رد مثل ما حياه به، وإذا قال: «يهديكُم الله ويصلح بالكم» فقد حياه بأحسن مما حياه؛ لأن

(١) شرح البخاري (٣٦٨/٩).

(٢) شعب الإيمان (٩٣٥٢/٣١/٧).

(٣) فتح الباري (٧٤٣/١٠).

(٤) شرح ابن بطلال على البخاري (٣٦٩/٩).

(٥) النساء: الآية (٨٦).

المغفرة إنما هي ستر الذنوب، والرحمة ترك العقاب عليها، ومن حصلت له الهداية وكان مهديًا، كان بعيدًا من الذنوب، ومن أصلح باله فحاله فوق حال المغفور له، فكان ذلك أولى^(١).

قال ابن القيم: «وأمر العاطس أن يدعو لسامعه ويشمته بالمغفرة والهداية وإصلاح البال، فيقول: «يغفر الله لنا ولكم» أو «يهديكم الله ويصلح بالكم»، فأما الدعاء بالهداية فلما أنه اهتدى إلى طاعة الرسول، ورغب عما كان عليه أهل الجاهلية، فدعا له أن يثبت الله عليها، ويهديه إليها. وكذلك الدعاء بإصلاح البال، وهي حكمة جامعة لصلاح شأنه كله، وهي من باب الجزاء على دعائه لأخيه بالرحمة، فناسب أن يجازيه بالدعاء له بإصلاح البال^(٢).

قال المناوي: «اعترض بأن الدعاء بالهداية للمسلم تحصيل الحاصل وهو محال، ومنع بأنه ليس المراد بالدعاء وبالهداية ما هو متلبس به من الإيمان، بل معرفة تفاصيل أجزائه وإعانتته على أعماله، وكل مؤمن يحتاج إلى ذلك في كل طرفة عين، ومن ثم أمر الله أن يسأله الهداية في كل ركعة من الصلاة: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٣).

* * *

(١) المصدر السابق.

(٢) مفتاح دار السعادة (٣/٣٥٧).

(٣) فيض القدير (١/٣٠٤).

قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ﴾ ﴿٣٦﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : «يقول - تعالى ذكره - : هذا الذي فعلنا بهذين الفريقين من إضلالنا أعمال الكافرين ، وتكفيرنا عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ؛ جزاء منا لكل فريق منهم على فعله . أما الكافرون فأضللنا أعمالهم ، وجعلناها على غير استقامة وهدى ؛ بأنهم اتبعوا الشيطان فأطاعوه ، وهو الباطل . .

وأما المؤمنون فكفرنا عنهم سيئاتهم ، وأصلحنا لهم حالهم ؛ بأنهم اتبعوا الحق الذي جاءهم من ربهم ، وهو محمد ﷺ ، وما جاءهم به من عند ربه من النور والبرهان . ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ﴾ ، يقول ﷺ : كما بينت لكم أيها الناس فعلي بفريق الكفر والإيمان ، كذلك نمثل للناس الأمثال ، ونشبه لهم الأشباه ، فلحق بكل قوم من الأمثال أشكالا»^(١) .

وقال ابن عاشور : «والمعنى كهذا التبيين يبين الله للناس أحوالهم ، فلا يبقوا في غفلة عن شؤون أنفسهم ، محجوبين عن تحقق كنههم بحجاب التعود ؛ لئلا يختلط الخبيث بالطيب ، ولكي يكونوا على بصيرة في شؤونهم ، وفي هذا إيماء إلى وجوب التوسم لتمييز المنافقين عن المسلمين حقاً ، فإن من مقاصد السورة التحذير من المنافقين»^(٢) .

قال الشنقيطي : «وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن اختلاف الأعمال ، يستلزم اختلاف الثواب ، لا يتوهم استواءهما إلا الكافر الجاهل ، الذي يستوجب الإنكار عليه ، جاء موضحاً في آيات أخر ، كقوله تعالى : ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْجَاهِلِينَ﴾ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ . . وقوله تعالى : ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا

(١) جامع البيان (٢٦ / ٣٩ - ٤٠) .

(٢) التحرير (٢٦ / ٧٧) .

(٣) القلم : الآيتان (٣٥ و ٣٦) .

الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ^(١) ، وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْنُهُمْ وَمَا تَنْهَاهُمْ عَنْ مَعَاتِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢٩﴾ ^(٢)﴾ ^(٣) .

* * *

(١) ص: الآية (٢٨).

(٢) الجاثية: الآية (٢١).

(٣) أضواء البيان (٤١٦/٧).

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَسْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا
الْوُثَاقَ فَمَا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءٌ حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآنْصَرَّ
مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّبَلَاؤٍ بَعْضِكُمْ بِبَعْضٍ﴾

★ غريب الآية:

أثخنتموهم: أكثرتم فيهم القتل. يقال: أثخن في الأرض إثنخانا: سار إلى
العدو وأوسع قتلاً. وأثخنه الجراح: أضعفته.
الوثاق: اسم لما يوثق به كالقيد والحبل.
أوزارها: أثقالها. وأصل الوزر: الثقل. وهي السلاح والآلات.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - لفريق الإيمان به: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾
بالله ورسوله من أهل الحرب، فاضربوا رقابهم.
وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَسْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوُثَاقَ﴾ يقول: حتى إذا غلبتموهم وقهرتم من لم
تضربوا رقبته منهم، فصاروا في أيديكم أسرى ﴿فَشُدُّوا الْوُثَاقَ﴾ يقول: فشدوهم في
الوثاق كيلا يقتلوكم، فيهربوا منكم.
وقوله: ﴿فَمَا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءٌ﴾ يقول: فإذا أسرتموهم بعد الإثنخان، فإما أن تمنوا
عليهم بعد ذلك بإطلاقكم إياهم من الأسر، وتحرروهم بغير عوض ولا فدية، وإما أن
يفادوكم فداءً بأن يعطوكم من أنفسهم عوضاً حتى تطلقوهم، وتخلوا لهم السبيل»^(١).
قال الشنقيطي: «وما تضمنته هذه الآية من الأمر بقتل الكفار حتى يثخنهم
المسلمون، ثم بعد ذلك يأسروهم، جاء موضحاً في غير هذا الموضع، كقوله
تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾^(٢) الآية، وقد أمر

(١) جامع البيان (٢٦/٤٠).

(٢) الأنفال: الآية (٦٧).

تعالى بقتلهم في آيات أخر كقوله تعالى : ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾^(١) الآية ، وقوله : ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾^(٢) ، وقوله تعالى : ﴿وَقَتِّلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾^(٣) الآية ، وقوله : ﴿فَإِنَّمَا تَثَقَفْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِدَ بِهَمَّ مَنْ خَلَفَهُمْ﴾^(٤) الآية^(٥) .

قال ابن كثير : «والظاهر أن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر ؛ فإن الله سبحانه عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأسارى يومئذ ليأخذوا منهم الفداء ، والتقلل من القتل يومئذ فقال : ﴿مَا كَانَتْ لِيَنِّي أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُشْخَبَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ٧ ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ٨﴾^(٦)»^(٧) .

قال ابن جرير : «واختلف أهل العلم في قوله : ﴿حَقَّ إِذَا اتَّخَذْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاكَ فَإِمَّا مِمَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ ، فقال بعضهم : هو منسوخ نسخه قوله : ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾^(٨) ، وقوله : ﴿فَإِنَّمَا تَثَقَفْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِدَ بِهَمَّ مَنْ خَلَفَهُمْ﴾ . .

وقال آخرون : هي محكمة وليست بمنسوخة ، وقالوا : لا يجوز قتل الأسير ، وإنما يجوز المنّ عليه والفداء . .

والصواب من القول عندنا في ذلك أن هذه الآية محكمة غير منسوخة ؛ وذلك أن صفة الناسخ والمنسوخ ما قد بيّنا في غير موضع في كتابنا أنه ما لم يجز اجتماع حكميهما في حال واحدة ، أو ما قامت الحجة بأن أحدهما ناسخ الآخر . وغير مستنكر أن يكون جعل الخيار في المنّ والفداء والقتل إلى الرسول ﷺ ، وإلى القائمين بعده بأمر الأمة ، وإن لم يكن القتل مذكورًا في هذه الآية ؛ لأنه قد أذن بقتلهم في آية أخرى ، وذلك قوله : ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ . . الآية ، بل ذلك كذلك ؛ لأن رسول الله ﷺ كذلك كان يفعل فيمن صار أسيرًا في يده من أهل الحرب ، فيقتل بعضًا ، ويفادي ببعض ، ويمنّ على بعض ، مثل يوم بدر قتل عقبة بن

(١) التوبة : الآية (٥) .

(٢) الأنفال : الآية (١٢) .

(٣) التوبة : الآية (٣٦) .

(٤) الأنفال : الآية (٥٧) .

(٥) أضواء البيان (٧/٤١٨) .

(٦) الأنفال : الآيتان (٦٧ و٦٨) .

(٧) تفسير القرآن العظيم (٧/٤٠٧) .

(٨) التوبة : الآية (٥) .

أبي مُعيط وقد أُتي به أسيرًا ، وقتل بني قريظة ، وقد نزلوا على حكم سعد ، وصاروا في يده سلمًا ، وهو على فدائهم والمن عليهم قادر ، وفادى بجماعة أسارى المشركين الذين أسروا ببدر ، ومنّ على ثمامة بن أثال الحنفي ، وهو أسير في يده ، ولم يزل ذلك ثابتًا من سيره في أهل الحرب من لدن أذن الله له بحربهم إلى أن قبضه إليه ﷺ دائماً ذلك فيهم ، وإنما ذكر - جل ثناؤه - في هذه الآية المن والفداء في الأسارى ، فخصّ ذكرهما فيها ؛ لأن الأمر بقتلهما والإذن منه بذلك قد كان تقدم في سائر آي تنزيله مكرراً ، فأعلم نبيه ﷺ بما ذكر في هذه الآية من المن والفداء ماله فيهم مع القتل . وقوله : ﴿ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ : يقول - تعالى ذكره - : فإذا لقيتم الذين كفروا فا ضربوا رقابهم ، وافعلوا بأسراهم ما بينت لكم ، حتى تضع الحرب أثامها وأثقال أهلها ، المشركين بالله لن يتوبوا إلى الله من شركهم ، فيؤمنوا به وبرسله ، ويطيعوه في أمره ونهيه ، فذلك وضع الحرب أوزارها . وقيل : ﴿ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ والمعنى : حتى تلقي الحرب أوزار أهلها . وقيل : معنى ذلك : حتى يضع المحارب أوزاره . .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ ﴾ : يقول - تعالى ذكره - : هذا الذي أمرتكم به أيها المؤمنون من قتل المشركين إذا لقيتموهم في حرب ، وشدهم وثاقاً بعد قهرهم وأسرههم ، والمن والفداء ، ﴿ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ هو الحق الذي ألزمكم ربكم ، ولو يشاء ربكم لانتصر من هؤلاء المشركين الذين بين هذا الحكم فيهم بعقوبة منه لهم عاجلة ، وكفاكم ذلك كله ، ولكنه - تعالى ذكره - كره الانتصار منهم ، وعقوبتهم عاجلاً إلا بأيديكم أيها المؤمنون ﴿ لَيَبْلُوَنَّكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ يقول : ليختبركم بهم ، فيعلم المجاهدين منكم والصابرين ، ويبلوهم بكم ، فيعاقب بأيديكم من شاء منهم ، ويتعظ من شاء منهم بمن أهلك بأيديكم من شاء منهم حتى ينيب إلى الحق^(١) .

قال ابن عاشور : «لم يذكر في هذه الآية جواز الاسترقاق ، وهو الأصل في الأسرى ، وهو يدخل في المنّ إذا اعتبر المنّ شاملاً لترك القتل ، ولأن مقابلة المنّ بالفداء تقتضي أن الاسترقاق مشروع . وقد روى ابن القاسم وابن وهب عن مالك : أن المنّ من العتق^(٢) .

(١) جامع البيان (٢٦ / ٤٠ - ٤٣) .

(٢) التحرير والتنوير (٢٦ / ٨١) .

قال الشنقيطي: «لم يختلف المسلمون في جواز الملك بالرق. ومعلوم أن سببه أسر المسلمين الكفار في الجهاد، والله تبارك وتعالى في كتابه يعبر عن الملك بالرق بعبارة هي أبلغ العبارات في تأكيد ثبوت ملك الرقيق، وهي ملك اليمين؛ لأن ما ملكته يمين الإنسان فهو مملوك له تمامًا، وتحت تصرفه تمامًا، كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾^(١) وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ﴾^(٢) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَلِأَنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾^(٣) في سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٤) و﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ وقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبْنِعُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ﴾^(٥) الآية، وقوله: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾^(٦)، وقوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾^(٧) الآية، وقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنْ أَحَلَّلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾^(٨) الآية، وقوله: ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾^(٩)، وقوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَيِّئَتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾^(١٠)، وقوله: ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَأْدِ رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾^(١١)، وقوله: ﴿هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ﴾^(١٢) الآية.

فالمراد بملك اليمين في جميع هذه الآيات كلها الملك بالرق، والأحاديث والآيات بمثل ذلك يتعذر حصرها، وهي معلومة، فلا ينكر الرق في الإسلام إلا مكابر أو ملحد، أو من لا يؤمن بكتاب الله ولا بسنة رسوله.

ومن المعلوم أن كثيرًا من أجلاء علماء المسلمين ومحدثيهم الكبار كانوا أرقاء مملوكين، أو أبناء أرقاء مملوكين، فهذا محمد بن سيرين كان أبوه سيرين عبدًا لأنس بن مالك، وهذا مكحول كان عبدًا لامرأة من هذيل فأعتقته. ومثل هذا أكثر

(١) النساء: الآية (٣).

(٢) المؤمنون: الآيتان (٦٥ و٦٦)، المعارج: الآيتان (٢٩ و٣٠).

(٣) النور: الآية (٣٣).

(٤) النساء: الآية (٣٦).

(٥) الأحزاب: الآية (٥٢).

(٦) الأحزاب: الآية (٥٠).

(٧) النور: الآية (٣١).

(٨) النساء: الآية (٢٥).

(٩) النحل: الآية (٧١).

(١٠) الروم: الآية (٢٨).

من أن يحصى كما هو معلوم .

واعلم أن ما يدعيه بعض من المتعصبين لنفي الرق في الإسلام من أن آية القتال هذه دلت على نفي الرق من أصله ؛ لأنها أوجبت واحداً من أمرين لا ثالث لهما ، وهما المن والفداء فقط فهو استدلال ساقط من وجهين :

أحدهما : أن فيه استدلالاً بالآية على شيء لم يدخل فيها ، ولم تناوله أصلاً ، والاستدلال إن كان كذلك فسقوطه كما ترى .

وإيضاح ذلك أن هذه الآية التي فيها تقسيم حكم الأسارى إلى من وفداء ، لم تناول قطعاً إلا الرجال المقاتلين من الكفار ؛ لأن قوله : ﴿ فَضْرَبَ الرِّقَابِ ﴾ ، وقوله : ﴿ حَقٌّ إِذَا أَنْتَضَمُوهُمْ ﴾ صريح في ذلك كما ترى . وعلى إثنان هؤلاء المقاتلين رتب بـ (الفاء) قوله : ﴿ فَشَدُّوا الْوَتَاكَ ﴾ الآية .

فظهر أن الآية لم تناول أنثى ولا صغيراً البتة .

ويزيد ذلك إيضاحاً أن النهي عن قتل نساء الكفار وصبيانهم ثابت عن النبي ﷺ ، وأكثر أهل الرق في أقطار الدنيا إنما هو من النساء والصبيان . ولو كان الذي يدعي نفي الرق من أصله يعترف بأن الآية لا يمكن أن يستدل بها على شيء غير الرجال المقاتلين ؛ لقصر نفي الرق الذي زعمه على الرجال الذين أسروا ، في حال كونهم مقاتلين ، ولو قصره على هؤلاء ، لم يمكنه أن يقول بنفي الرق من أصله كما ترى .

الوجه الثاني : هو ما قدمنا من الأدلة على ثبوت الرق في الإسلام^(١) .

قال ابن العربي : «اعلموا وفقكم الله : أن هذه الآية من أمهات الآيات ومحكماتها . أمر الله سبحانه فيها بالقتال ، وبين كيفيته ، كما بينه في قوله تعالى : ﴿ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾^(٢) حسبما تقدم بيانه في (الأنفال) ؛ فإذا تمكّن المسلم من عنق الكافر أجهز عليه ، وإذا تمكّن من ضرب يده التي يدفع بها عن نفسه ويتناول بها قتال غيره فعل ذلك به ؛ فإن لم يتمكن إلا ضرب فرسه التي يتوصل بها إلى مراده فيصير حينئذ راجلاً مثله أو دونه ، فإن كان فوقه قصد مساواته ،

(١) أضواء البيان (٧/٤١٩-٤٢١) .

(٢) الأنفال : الآية (١٢) .

وإن كان مثله قصد حفظه، والمطلوب نفسه، والمآل إعلاء كلمة الله تعالى»^(١).
 قال القاسمي: «تُسَنّ دعوة الكفار إلى الإسلام قبل القتال لمن بلغته الدعوة؛ قطعاً لحجته. ويحرم القتال قبلها لمن لم تبلغه الدعوة؛ لحديث بُريدة بن الحُصيب قال: «كان النبي ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أو جيش، أمره بتقوى الله تعالى في خاصة نفسه، وبمن معه من المسلمين. وقال: إذا لقيت عدوك من المشركين، فادعهم إلى إحدى ثلاث، فإن هم أجابوك إليها فاقبل منهم، وكُف عنهم: ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم، وكُف عنهم. فإن هم أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية، فإن أجابوك فاقبل منهم وكُف عنهم. فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم»^(٢) رواه مسلم.

وقيد الإمام ابن القيم وجوب الدعوة واستحبابها بما إذا قصدهم المسلمون. أما إذا كان الكفار قاصدين المسلمين بالقتال؛ فللمسلمين قتالهم من غير دعوة، دفعاً عن نفوسهم وحریمهم. وأمرُ الجهاد موكول إلى الإمام واجتهاده؛ لأنه أعرف بحال الناس، وبحال العدو، ونكايتهم وقربهم وبعدهم - كما في «شرح الإقناع»^(٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان حكم أسير الحرب، والدلالة على أن الجهاد ماض إلى يوم القيامة تحت راية كل بر وفاجر من أهل القبلة

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «بعث النبي ﷺ خيلاً قبل نجد، فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه رضي الله عنه فقال: ماذا عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي خير يا محمد! إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكرك، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت. فترك حتى كان الغد، ثم قال له: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: ما قلت لك: إن تنعم تنعم على شاكرك.

(١) أحكام القرآن (٤/ ١٧٠١-١٧٠٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٣٥٢/٥)، ومسلم (٣/ ١٣٥٦-١٣٥٨/ ١٧٣١)، وأبو داود (٣/ ٨٣-٨٥/ ٢٦١٢)، والترمذي (٤/ ١٣٨-١٣٩/ ١٦١٧)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٣٢-٢٣٣/ ٨٧٦٥)، وابن ماجه (٢/ ٩٥٣-٩٥٤/ ٢٨٥٨) عن بُريدة رضي الله عنه.

(٣) محاسن التأويل (١٥/ ٤٥).

فتركه حتى كان بعد الغد، فقال: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي ما قلت لك، فقال: أطلقوا ثمامة. فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل، ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، يا محمد! والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلي من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلي، والله ما كان من دين أبغض إلي من دينك، فأصبح دينك أحب الدين إلي، والله ما كان من بلد أبغض إلي من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد إلي، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟ فبشره رسول الله ﷺ، وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة قال له قائل: صبوت؟ قال: لا والله، ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ﷺ، ولا والله لا يأتكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي ﷺ»^(١).

★ غريب الحديث:

صبوت: يقال: صبأ الرجل: إذا خرج من دين إلى دين.

★ فوائد الحديث:

قال البغوي: «فيه دليل على جواز المن على الكافر إطلاقه بغير مال»^(٢).
قال الكرمانى: «قال المهلب: السنة في مثل قصة ثمامة أن يقتل، أو يستعبد، أو يفادى به، أو يمن عليه، فحبسه النبي ﷺ حتى يرى أي الوجوه أصلح للمسلمين في أمره»^(٣).

قال الخرقى: «وإذا سبى الإمام فهو مخير، إن رأى قتلهم، وإن رأى منّ عليهم وأطلقهم بلا عوض، وإن رأى أطلقهم على مال يأخذه منهم، وإن رأى فادى بهم، وإن رأى استرقهم، أي ذلك رأى فيه نكاية للعدو، وحظاً للمسلمين، فعل»^(٤).
قال ابن قدامة: «وجملته أن من أسر من أهل الحرب على ثلاثة أضرب:

أحدها: النساء والصبيان، فلا يجوز قتلهم، ويصيرون رقيقاً للمسلمين بنفس

(١) أخرجه: أحمد (٢٤٧-٢٥٢)، والبخاري (٨/١٠٩/٤٣٧٢)، ومسلم (٣/١٣٨٦/١٧٦٤)، وأبو داود (٣/١٢٩/٢٦٧٩)، والنسائي (١/١٠٩-١١٠/١٨٩).

(٢) شرح السنة (١١/٨٢). (٣) شرح البخاري (١٠/٢٢٠).

(٤) المغني (١٣/٤٤).

السبي؛ لأن النبي ﷺ «نهى عن قتل النساء والولدان»^(١) متفق عليه. وكان فعله الصلاة والسلام يسترقهم إذا سباهم.

الثاني: الرجال من أهل الكتاب والمجوس الذين يُقَرَّون بالجزية، فيتخير الإمام فيهم بين أربعة أشياء: القتل، والمن بغير عوض، والمفاداة بهم، واسترقاقهم.

الثالث: الرجال من عبدة الأوثان وغيرهم ممن لا يُقَرَّ بالجزية، فيتخير الإمام فيهم بين ثلاثة أشياء: القتل، أو المن، والمفاداة، ولا يجوز استرقاقهم. وعن أحمد جواز استرقاقهم، وهو مذهب الشافعي.

وبما ذكرنا في أهل الكتاب قال الأوزاعي والشافعي وأبو ثور. وعن مالك كمذهبنا. وعنه: لا يجوز المن بغير عوض؛ لأنه لا مصلحة فيه، وإنما يجوز للإمام فعل ما فيه المصلحة. وحكي عن الحسن وعطاء وسعيد بن جبيرة كراهة قتل الأسرى. وقالوا: لو من عليه أو فاداه كما صنع بأسارى بدر، ولأن الله تعالى قال: ﴿فَشُدُّوا أَلْوَتَاكَ فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءٌ﴾، فخير بعد الأسر بين هذين لا غير. وقال أصحاب الرأي: إن شاء ضرب أعناقهم، وإن شاء استرقهم لا غير، ولا يجوز من ولا فداء؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ بعد قوله: ﴿فَأِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءٌ﴾.

وكان عمر بن عبدالعزيز وعياض بن عقبة يقتلان الأسارى. ولنا على جواز المن والفداء قول الله تعالى: ﴿فَأِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءٌ﴾، وأن النبي ﷺ من على ثمانية بن أثال، وأبي عزة الشاعر، وأبي العاص بن الربيع، وقال في أسارى بدر: «لو كان مطعم بن عدي حيًا، ثم سألتني في هؤلاء النتنى، لأطلقتهم له»^(٢). وفادى أسارى بدر، وكانوا ثلاثة وسبعين رجلًا، كل رجل منهم بأربعمائة، وفادى يوم بدر رجلًا برجلين، وصاحب العضباء برجلين. وأما القتل؛ فلأن النبي ﷺ قتل رجال بني

(١) أخرجه: أحمد (٩١/٢)، والبخاري (١٨٣/٦)، ومسلم (١٣٦٤/٣)، وأبو داود (١٢١/٣)، والترمذي (٢٦٦٨)، والنسائي في الكبرى (٨٦١٨/٥)، وابن ماجه (٩٤٧/٢)، (٢٨٤١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه: أحمد (٨٠/٤)، والبخاري (٢٩٨-٢٩٩/٦)، وأبو داود (٢٦٨٩/٣)، من حديث جبيرة بن مطعم رضي الله عنه.

قريظة، وهم بين الستمائة والسبعمائة، وقتل يوم بدر النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط صبراً، وقتل أبا عزة يوم أحد. وهذه قصص عمّت واشتهرت، وفعلها النبي ﷺ مرات، وهو دليل على جوازها. ولأن كل خصلة من هذه الخصال قد تكون أصلح في بعض الأسرى، فإن منهم من له قوة ونكاية في المسلمين، وبقاؤه ضرر عليهم، فقتله أصلح، ومنهم الضعيف الذي له مال كثير، ففداؤه أصلح، ومنهم حسن الرأي في المسلمين، يُرجى إسلامه بالمنّ عليه، أو معونته للمسلمين بتخليص أسراهم، والدفع عنهم، فالمنّ عليه أصلح، ومنهم من يُنتفع بخدمته، ويُؤمن شرّه، فاسترقاقه أصلح، كالنساء والصبيان، والإمام أعلم بالمصلحة، فينبغي أن يفوّض ذلك إليه. وقوله تعالى: ﴿فَأَقْضُوا الشَّرْكَاءَ﴾ عام لا يُنسخ به الخاص، بل ينزل على ما عدا المخصوص، ولهذا لم يحرموا استرقاقه، فأما عبدة الأوثان، ففي استرقاقهم روايتان: إحداهما: لا يجوز. وهو مذهب الشافعي. وقال أبو حنيفة: يجوز في العجم دون العرب، بناءً على قوله في أخذ الجزية منهم. ولنا أنه كافر لا يُقرّ بالجزية، فلم يُقرّ بالاسترقاق كالمرتد، وقد ذكرنا الدليل عليه. إذا ثبت هذا، فإن هذا تخيير مصلحة واجتهاد، لا تخيير شهوة، فمتى رأى المصلحة في خصلة من هذه الخصال، تعيّن عليه، ولم يجز العدول عنها، ومتى تردّد فيها، فالقتل أولى. قال مجاهد في أميرين؛ أحدهما يقتل الأسرى: هو أفضل. وكذلك قال مالك. وقال إسحاق: الإثخان أحبّ إليّ، إلا أن يكون معروفاً يطمع به في الكثير»^(١).

قال ابن الجوزي: «في هذا الحديث أن هذا الرجل لم يُسلم من تحت الأسر لعزة نفسه، وكأن رسول الله ﷺ أحسّ منه بذلك فقال: «أطلقوه»، فلما أطلق أسلم»^(٢).

قال القاضي عياض: «وفي تكرار النبي ﷺ عليه السؤال أياماً ثلاثة طمعاً في إسلامه، واستئلاً لمثله من أشرف الناس؛ ليسلموا فيتبعهم من وراءهم، ثم تركه هو الإجابة حتى منّ عليه دليل على صحة يقينه وعلو همته، وأنه لم يسلم على القسر

(١) المغني (١٣/٤٤-٤٧).

(٢) كشف المشكل (٣/٤١٦).

والقهر، أو من اختياره وطيب نفسه»^(١).

قال العيني: «فيه جواز ربط الأسير في المسجد. وقال القرطبي: يمكن أن يقال: ربطه بالمسجد لينظر حسن صلاة المسلمين واجتماعهم عليها فيأنس لذلك. قلت: يوضح هذا ما رواه ابن خزيمة في صحيحه عن عثمان بن أبي العاص: أن وفد ثقيف لما قدموا أنزلهم النبي ﷺ المسجد ليكون أرق لقلوبهم. وقال جبير بن مطعم فيما ذكره أحمد رحمه الله: «دخلت المسجد والنبي ﷺ يصلي المغرب، فقرأ بـ(الطور)، فكأنما صدع قلبي حين سمعت القرآن»^(٢). وقيل: يمكن أن يكون ربطه بالمسجد؛ لأنه لم يكن لهم موضع يربط فيه إلا المسجد»^(٣).

* عن سلمة بن نفيل الكندي رحمه الله قال: «كنت جالساً عند رسول الله ﷺ فقال رجل: يا رسول الله! أذال الناس الخيل ووضعوا السلاح وقالوا: لا جهاد، قد وضعت الحرب أوزارها. فأقبل رسول الله ﷺ بوجهه وقال: كذبوا، الآن الآن جاء القتال، ولا يزال من أمتي أمة يقاتلون على الحق، ويزيغ الله لهم قلوب أقوام ويرزقهم منهم حتى تقوم الساعة، وحتى يأتي وعد الله، والخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، وهو يوحى إلي أني مقبوض غير ملبث، وأنتم تتبعوني أفناداً يضرب بعضكم رقاب بعض، وعقر دار المؤمنين الشام»^(٤).

* غريب الحديث:

أذال الناس الخيل: الإذالة بالذال المعجمة: الإهانة؛ أي: هانوها واستخفوا بها بقلّة الرغبة فيها. وقيل: أراد أنهم وضعوا أداة الحرب عنها وأرسلوها. يزيغ: من أزاغ: إذا مال. والغالب استعماله في الميل عن الحق إلى الباطل. ملبث: اسم مفعول من ألّبه غيره أو لبّته بالتشديد.

(١) الإكمال (٩٩/٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٨٣/٤)، والبخاري (٧٧٦/٨)، ومسلم (٤٦٣/٣٣٨/١)، وأبو داود (٥٠٨/١) (٨١١)، والنسائي (٩٨٦/٥٠٩/٢)، وابن ماجه (٨٣٢/٢٧٢/١) عن جبير بن مطعم.

(٣) عمدة القاري (٥١٦/٣).

(٤) أخرجه: أحمد (١٠٤/٤)، والنسائي (٥٢٤-٥٢٥/٦)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٩٣٥) على شرط مسلم، وأخرجه: ابن حبان (الإحسان ١٦/٢٩٦-٢٩٧/٧٣٠٧) من حديث النواس بن سمعان. وذكره ابن كثير (٢٩١/٧) وقال: «والمحفوظ أنه من رواية سلمة بن نفيل».

أفنادًا : بالفاء والنون والذال المهملة ؛ أي : جماعات متفرقين جمع فند .
عقر : بضم العين وفتحها ؛ أي : أصلها وموضعها .

★ فوائد الحديث :

قال ابن كثير : « وهذا يقوي القول بعدم النسخ ، كأنه شرع هذا الحكم في الحرب إلى أن لا يبقى حرب »^(١) .

قوله : « الآن الآن جاء القتال » :

قال السندي : « التكرار للتأكيد ، والعامل في الظرف « جاء القتال » أي : شرع الله القتال الآن ، فكيف يرفع عنهم سريعًا . أو المراد : بل الآن اشتد القتال ؛ فإنهم قبل ذلك كانوا في أرضهم ، واليوم جاء وقت الخروج إلى الأرض البعيدة . ويحتمل أن الأول متعلق بمقدار ؛ أي : افعلوا ما ذكرت الآن »^(٢) .

قوله : « ويزيغ الله لهم قلوب أقوام . . » :

قال السندي : « والمراد : يميل الله تعالى لهم ؛ أي : لأجل قتالهم وسعادتهم ، قلوب أقوام عن الإيمان إلى الكفر ؛ ليقاتلوهم ويأخذوا مالهم . ويحتمل على بعد أن المراد يميل الله تعالى قلوب أقوام إليهم ليعينهم على القتال ، ويرق الله تعالى أولئك الأقوام المعينين من هؤلاء الأمة بسبب إحسان هؤلاء إلى أولئك ، فالمراد بالأمة الرؤساء ، وبالأقوام الأتباع ، وعلى الأول المراد بالأمة المجاهدون من المؤمنين ، وبالأقوام الكفرة ، والله تعالى أعلم »^(٣) .

قال ابن عبد البر : « وقد استدل جماعة من العلماء بأن الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة تحت راية كل بر وفاجر من الأئمة بهذا الحديث ؛ لأنه قد ورد الذم فيمن ارتبطها واحتبسها رياءً وفخرًا ، ونواءً لأهل الإسلام »^(٤) .

قال في « طرح التثريب » : « وفيه بشرى ببقاء الجهاد إلى يوم القيامة ، والمراد قربها وأشراطها القريبة كيأجوج ومأجوج ، وأنه لا يبقى بعد وفاة عيسى عليه الصلاة والسلام جهاد ، والله أعلم »^(٥) .

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٩١) طبعة دار الشعب . (٢) حاشية سنن النسائي (٦/ ٥٢٤) .

(٣) المصدر نفسه . (٤) فتح البر (٨/ ٣٣) .

(٥) (٧/ ٢٣٤-٢٣٥) .

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: «لما كان من شأن القتال أن يقتل كثير من المؤمنين؛ قال: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: لن يذهبها؛ بل يكثرها وينميها ويضاعفها، ومنهم من يجري عليه عمله في طول برزخه»^(١).

وقال ابن عاشور: «هذا من مظاهر بلوى بعضهم ببعض، وهو مقابل ما في قوله: ﴿فَضْرَبَ الرِّقَابَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَمَّا فِدَاءٌ﴾»^(٢)؛ فإن ذلك من مظاهر إهانة الذين كفروا، فذكر هنا ما هو من رفعة الذين قاتلوا في سبيل الله من المؤمنين بعناية الله بهم.

وجملة: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إلخ؛ عطف على جملة: ﴿فَإِذَا لَقِيتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضْرَبَ الرِّقَابَ﴾ الآية؛ فإنه لما أمرهم بقتال المشركين؛ أعقب الأمر بوعده الجزاء على فعله»^(٣).

وقال السعدي: «﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لهم ثواب جزيل، وأجر جميل، وهم الذين قاتلوا من أمروا بقتالهم، لتكون كلمة الله هي العليا. فهؤلاء لن يضل الله أعمالهم؛ أي: لن يحبطها ويبطلها، بل يتقبلها وينميها لهم، ويظهر من أعمالهم نتائجها، في الدنيا والآخرة»^(٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل الشهادة في سبيل الله

* عن المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له في أول دفعة، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منها خير من

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٩٢).

(٢) محمد: الآية (٤).

(٣) التحرير والتنوير (٢٦/ ٨٣).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٦٥).

الدنيا وما فيها ، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ، ويشفع في سبعين من أقاربه»^(١).

★ غريب الحديث:

تاج: التاج: هو ما يصاغ للملوك من الذهب والجواهر ، وقد توجته : إذا ألبسته التاج .

الوقار: الحلم والرزانة .

★ فوائد الحديث:

قال أبو بكر بن العربي : «أما المغفرة له في أول دفعة ، يعني ساعة يقتل ، وقد تقدم وصف المغفرة . وأما قوله : «ويرى مقعده» صح أنه يصل إلى الجنة ، ويعلق منها ويأكل ويشرب ، فإما أن يكون في منزله فتكون الرؤية ساعة يقتل ، والأكل منه ساعة يرفع ويصل إليه ، وإما أن يأكل من غير درجة حتى ينتهي إليها يوم القيامة ، وينجى من عذاب القبر ، وهي فائدة عظيمة . والمعنى فيه : أنه قد صدق الله بإهلاك نفسه ، وثبت في موضع الزلل ، فأغني عن ذلك التثبيت ، وسائر ذلك فضل من الله»^(٢).

قال القاري : «وينبغي أن يحمل قوله : «ويرى مقعده» على أنه عطف تفسير لقوله : «يفقر له» لئلا تزيد الخصال على ست ، ولئلا يلزم التكرار في قوله : «ويجاء من عذاب القبر» أي : يحفظ ويؤمن ؛ إذ الإجارة مندرجة في المغفرة إذا حملت على ظاهرها ، «ويؤمن من الفرع الأكبر» فيه إشارة إلى قوله تعالى : ﴿لَا يَخْزَنُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ﴾^(٣) ، قيل : هو عذاب النار . وقيل : العرض عليها . وقيل : هو وقت يؤمر أهل النار بدخولها . وقيل : ذبح الموت ، فيأس الكفار عن التخلص من النار بالموت . وقيل : وقت إطباق النار على الكفار . وقيل : النفخة الأخيرة لقوله : ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾^(٤)»^(٥).

(١) أخرجه : أحمد (١٣١/٤) ، والترمذي (١٦٦٣/٤) واللفظ له ، وقال : «هذا حديث حسن صحيح غريب» ، وابن ماجه (٩٣٥-٩٣٦/٢٧٩٩) . وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة (٣٢١٣) .
(٢) عارضة الأحوذى (١٣٩/٧) .
(٣) الأنبياء : الآية (١٠٣) .
(٤) النمل : الآية (٨٧) .
(٥) المرقاة (١٨٩/٤) المكتبة الإسلامية .

وقوله : «ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين» :

قال القاري : «في التقييد بالثنتين والسبعين إشارة إلى أن المراد به التحديد لا التكثير ، ويحمل على أن هذا أقل ما يعطى ، ولا مانع من التفضيل بالزيادة عليها»^(١) .
وبالجملة ففي الحديث : «بيان عظيم منزلة الشهيد عند ربه ، وبيان ما أعد الله له من النعيم والإكرام ؛ فمغفرة ذنوبه عند قتله في سبيل الله ، وتبشير بمقامه ومكانته في الجنة ، وإجارتته من عذاب القبر ، وأمنه من الفزع الأكبر يوم الحشر ، وتحليته بحلة الإيمان ، فيذوق من حلاوته أعظم وأتم مما كان يذوق من حلاوته في الدنيا ، وتزويجه من الحور العين ، وتشفيحه في سبعين من أقاربه : ألوان النعيم والتكريم وحسن الجزاء من الله الكريم لعباده المجاهدين في سبيله ، فما أعظمها من منزلة ، وما أكرمها من مرتبة»^(٢) .

* عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «يفخر للشهيد كل ذنب إلا الدين»^(٣) .

* فوائد الحديث :

قال القاضي عياض : «وقوله : «إلا الدين» فيه تنبيه على أن حقوق الآدميين والتبعات التي للعباد لا تكفرها الأعمال الصالحة ، وإنما تكفر ما بين العبد وربّه ، ويكون هذا فيمن له بقضاء ما عليه من الدين وأتلفه على ربه عن علم أو عزة من ذمته وملائته ، واستدانه في غير واجب ، وتحذيراً وتشديداً لمن يسارع لإتلاف أموال الناس بهذا الوجه»^(٤) .

قال القرطبي : «وذكره الدين تنبيه على ما في معناه من تعلق حقوق الغير بالذمم ، كالغصب وأخذ المال بالباطل وقتل العمد وجراحه ، وغير ذلك من التبعات ، فإن كل هذا أولى بأن لا يغفر بالجهاد من الدين ، لكن هذا كله إذا امتنع من أداء الحقوق مع تمكنه منه ، وأما إذا لم يجد للخروج من ذلك سبيلاً ، فالمرجو من كرم الله تعالى إذا صدق في قصده ، وصحت توبته أن يرضي الله تعالى خصومه عنه ، كما قد جاء نصاً

(٢) إهداء الديباجة (٤/ ٧٢-٧٣) .

(١) المصدر نفسه .

(٣) أخرجه : أحمد (٢/ ٢٢٠) ، ومسلم (٣/ ١٥٠٢/ ١٨٨٦) .

(٤) إكمال المعلم (٦/ ٣٠٣) .

في حديث أبي سعيد الخدري المشهور في هذا^(١)، وقد دل على صحة ما ذكرناه قوله ﷺ: «لتؤدّن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة..»^(٢) الحديث، وسيأتي إن شاء الله تعالى. ولا يلتفت إلى قول من قال: إن هذا الذي ذكره من الدين إنما كان قبل قوله ﷺ: «من ترك ديناً أو ضياعاً فعليّ..»^(٣) الحديث. يشير بذلك إلى أن ذلك المعنى منسوخ، فإنه قول باطل مفسوخ؛ فإن المقصود من هذا الحديث بيان أحكام الديون في الدنيا، وذلك: أنه كان من أحكامها دوام المطالبة وإن كان الإعسار. وقال بعض الرواة: إن الحر كان يباع في الدين. وامتنع النبي ﷺ من الصلاة على من مات وعليه دينار ولم يجد وفاء له. فهذه الأحكام وأشباهها هي التي يمكن أن تنسخ، والحديث الأول لم يتعرض لهذه الأحكام. وإنما تعرض لمغفرة الذنوب فقط. هذا إذا قلنا: إن هذا ناسخ. فأما إذا حققنا النظر فيه فلا يكون ناسخاً، وإنما غايته: أن تحمل النبي ﷺ على مقتضى كرم خلقه عن المعسر دينه، وسد ضيعة الضائع. وقد دل على ذلك قوله ﷺ في هذا الحديث بعينه: «أنا أولى بكل مؤمن من نفسه، وأنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم»^(٤)، فعلى هذا يكون هذا التحمل خصوصاً به، أو من جملة تبرعاته لما وسع الله عليه، وعلى المسلمين. وقد قيل في معنى هذا الحديث: إن معنى ذلك: أن النبي ﷺ قام بذلك من مال الخمس والفىء ليبين أن للغارمين ولأهل الحاجة حقاً في بيت مال المسلمين، وإن الناظر لهم يجب عليه القيام بذلك لهم، والله تعالى أعلم^(٥).

(١) لعله يقصد الحديث الذي أخرجه أبو داود (١٩٥/٢-١٩٦/١٥٥٥) عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: «دخل رسول الله ﷺ ذات يوم المسجد، فإذا هو برجل من الأنصار يقال له أبو أمامة، فقال: يا أبا أمامة! مالي أراك جالساً في المسجد في غير وقت الصلاة؟ قال: هموم لزممتني وديون يا رسول الله! قال: أفلا أعلمك كلاماً إذا أنت قلته أذهب الله ﷻ همك، وقضى عنك دينك؟ قال: قلت: بلى يا رسول الله! قال: قل إذا أصبحت وإذا أمسيت: اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال. قال: ففعلت ذلك، فأذهب الله ﷻ همي، وقضى عني ديني». وضعفه الشيخ الألباني في ضعيف أبي داود (٣٣٣)، وضعيف الترغيب (١١٤١).

(٢) أخرجه: أحمد (٢٣٥/٢)، ومسلم (٢٥٨٢/٤/١٩٩٧)، والترمذي (٢٤٢٠/٥٣٠/٤) عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه: أحمد (٢٩٦/٣)، ومسلم (٨٦٧/٥٩٢/٢)، وأبو داود (٢٩٥٦/٣٦٢-٣٦١/٣)، والترمذي (٤/٣٦٧-٣٦٨/١٩٦١) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ.

(٤) هو حديث جابر الذي تقدمت الإشارة إليه آنفاً.

(٥) المفهم (٧١٣-٧١٤/٣).

* عن أبي موسى رضي الله عنه قال : « جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ! ما القتال في سبيل الله ؟ فإن أحدنا يقاتل غضباً ويقاتل حمية ، فرفع إليه رأسه - قال : وما رفع إليه رأسه إلا أنه كان قائماً - فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، فهو في سبيل الله ﷻ »^(١).

★ فوائد الحديث:

تقدم شرح غريبه وبيان فوائده عند قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِذَا انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ الآية (٣٩) من سورة (الأنفال). والغرض منه هنا بيان : « أن الفضل الذي ورد في المجاهدين في سبيل الله يختص بمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا »^(٢).

(١) أخرجه : أحمد (٣٩٢/٤)، والبخاري (١٢٣/٢٢٦/١)، ومسلم (١٩٠٤/١٥١٢/٣)، والترمذي (١٥٣/٤) - (١٦٤٦/١٥٤)، وابن ماجه (٢٧٨٣/٩٣١/٢).
(٢) قاله النووي في المنهاج (٤٣/١٣).

قوله تعالى : ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ ﴿٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير : «وقوله : ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ أي : إلى الجنة ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ ﴿١﴾» (٢).

قال السعدي : «﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ إلى سلوك الطريق الموصلة إلى الجنة ، ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ أي : حالهم وأمورهم ، وثوابهم يكون صالحاً كاملاً لا نكد فيه ، ولا تنغيص بوجه من الوجوه» (٣).

قال ابن القيم : «فهذه هداية بعد قتلهم ، ف قيل : المعنى : سيهديهم إلى طريق الجنة ، ويصلح حالهم في الآخرة بإرادة خصومهم وقبول أعمالهم . وقال ابن عباس : سيهديهم إلى أرشد الأمور ، ويعصمهم أيام حياتهم في الدنيا . واستشكل هذا القول ؛ لأنه أخبر عن المقتولين في سبيله بأنهم سيهديهم . واختاره الزجاج وقال : يصلح بالهم في المعاش وأحكام الدنيا . قال : وأراد به : يجمع لهم خير الدنيا والآخرة . وعلى هذا القول فلا بد من حمل قوله : ﴿قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ على معنى يصح معه إثبات الهداية وإصلاح البال» (٤).

وقال - في معرض ذكره للآيات الدالة على أن الحسنه الثانية قد تكون من ثواب الحسنه الأولى - : «وأما قوله : ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾ ﴿١﴾ سيهديهم ويصليح بالهم» فيحتمل أن لا يكون من هذا ، وتكون الهداية في الآخرة إلى طريق الجنة ؛ فإنه رتب هذا الجزاء على قتلهم ، ويحتمل أن يكون منه ، ويكون قوله : ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ ﴿٥﴾ إخباراً منه سبحانه عما يفعله بهؤلاء الذين قتلوا في سبيله

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٠٩).

(٤) شفاء العليل (١/ ٢٢٣).

(١) يونس : الآية (٩).

(٣) تفسير الكريم الرحمن (٧/ ٦٥).

قبل أن قتلوا ، وأتى به بصيغة المستقبل ؛ إعلامًا منه بأنه يحدد له كل وقت نوعًا من أنواع الهداية وإصلاح البال شيئًا بعد شيء . فإن قلت : فكيف يكون ذلك المستقبل خبرًا عن الذين قتلوا ؟ قلت : الخبر قوله : ﴿ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَلَهُمْ ﴾ أي : أنه لا يبطلها عليهم ، ولا يترهم إياها ، هذا بعد أن قتلوا ، ثم أخبر سبحانه خبرًا مستأنفًا عنهم أنه سيهديهم ويصلح بالهم ؛ لما علم أنهم سيقتلون في سبيله ، وأنهم بذلوا أنفسهم له ، فلهم جزاءآن : جزاء في الدنيا بالهداية على الجهاد ، وجزاء في الآخرة بدخول الجنة ، فيرد السامع كل جملة إلى وقتها لظهور المعنى وعدم التباسه ، وهو في القرآن كثير ، والله أعلم^(١) .

* * *

(١) شفاء العليل (٢/٢٥) .

قوله تعالى: ﴿وَيَدْخُلُهُمُ الْجَنَّةُ عَرَفَهَا هُمْ﴾ ﴿٦﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: عرفهم بها، وهداهم إليها.

قال مجاهد: يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم، وحيث قسم الله لهم منها، لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا، لا يستدلون عليها أحداً. وروى مالك عن ابن زيد بن أسلم نحو هذا.

وقال محمد بن كعب: يعرفون بيوتهم إذا دخلوا الجنة، كما تعرفون بيوتكم إذا انصرفتم من الجمعة»^(١).

وقال ابن عاشور: «ومعنى ﴿عَرَفَهَا هُمْ﴾: أنه وصفها لهم في الدنيا، فهم يعرفونها بصفاتها، فالجملة حال من الجنة، أو المعنى: هداهم إلى طريقها في الآخرة، فلا يترددون في أنهم داخلونها، وذلك من تعجيل الفرح بها. وقيل: ﴿عَرَفَهَا﴾: جعل فيها عرفاً؛ أي: ريحاً طيباً، والتطيب من تمام حسن الضيافة»^(٢).

وقال الرازي: «وكان الله تعالى عند حشرهم يهديهم إلى طريق الجنة، ويلبسهم في الطريق خلع الكرامة، وهو إصلاح البال، ﴿وَيَدْخُلُهُمُ الْجَنَّةُ﴾، فهو على ترتيب الوقوع»^(٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في بيان أن معرفة المؤمن بمنزله في الجنة أكثر من معرفته بمنزله في الدنيا

* عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إذا خلس المؤمنون من النار، حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار، فيتقاصون مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/٣١٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/٨٤).

(٣) تفسير الرازي (٢٨/٤٩).

إذا نقوا وهذبوا، أذن لهم بدخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده؛ لأحدهم بمسكنه في الجنة أدل بمنزله كان في الدنيا»^(١).

★ غريب الحديث:

إذا خلاص المؤمنون من النار: أي: نجوا من السقوط فيها بعد ما جازوا على الصراط.

حبسوا بقنطرة: قال الحافظ: «الذي يظهر أنها طرق الصراط مما يلي الجنة، ويحتمل أن تكون من غيره بين الصراط والجنة»^(٢).

فيتقاصون: بتشديد المهملة: يتفاعلون من القصاص، المراد تتبع ما بينهم من المظالم وإسقاط بعضها ببعض.

حتى إذا نقوا وهذبوا: بضم النون وبضم الهاء وهما بمعنى التمييز والتخليص من السيئات.

أدل: من الدلالة؛ أي: الهداية والإرشاد.

★ فوائد الحديث:

قوله: «فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم بمسكنه في الجنة أدل بمنزله كان في الدنيا»:

قال ابن الملك: «وهذا من قبيل (الكحل في عين زيد أحسن منه في عين عمرو) يعني: عرفانه بمنزله في الجنة يكون أكثر من عرفان منزله في الدنيا»^(٣).

قال ابن بطال: «وإنما عرفوا منازلهم في الجنة بتكرير عرضها عليهم بالغداة والعشي؛ فقد أخبرنا عليه السلام: أن المؤمن إذا كان من أهل الجنة عرض عليه مقعده منها بالغداة والعشي. فيقال له: «هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة»^(٤)»^(٥).

(١) أخرجه: أحمد (١٣/٣)، البخاري (٥/١٢١/٢٤٤٠).

(٢) فتح الباري (٥/١٢٢). (٣) مبارك الأزهار (٢/٦١٤).

(٤) أخرجه: أحمد (١٦/٢)، والبخاري (٦/٣٩١/٣٢٤٠)، ومسلم (٤/٢١٩٩/٢٨٦٦)، والترمذي (٣/٣٨٤/١٠٧٢).

والنسائي (٤/٤١٢-٤١٣/٢٠٦٩)، وابن ماجه (٢/١٤٢٧/٤٢٧٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٥) شرح البخاري (٦/٥٦٩).

قال القرطبي: «لا تعارض بين قوله ﷺ: «لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة» وبين قول عبد الله بن سلام: إن الملائكة تدلهم على طريق الجنة يميناً وشمالاً؛ فإن هذا يكون فيمن لم يحبس على قنطرة ولم يدخل النار، فيخرج منها فيطرح على باب الجنة. وقد يحتمل أن يكون ذلك في الجميع، فإذا وصلت بهم الملائكة إلى باب الجنة؛ كان كل أحد منهم أعرف بمنزله في الجنة وموضعه فيها منه بمنزله كان في الدنيا، والله أعلم»^(١).

* * *

(١) التذكرة (٢/ ٥٥)، وانظر الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٢٣٠-٢٣١).

قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (٧)

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله! إن تنصروا الله ينصركم بنصركم رسول الله محمدًا ﷺ على أعدائه من أهل الكفر به، وجهادكم إياهم معه، لتكون كلمته العليا ينصركم عليهم، ويظفركم بهم؛ فإنه ناصر دينه وأوليائه... وقوله: ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ يقول: ويقوّكم عليهم، ويجرّثكم حتى لا تولوا عنهم، وإن كثر عددهم، وقلّ عددكم»^(١).

وقال ابن عاشور: «لما ذكر أنه لو شاء الله لانتصر منهم علم منه أن ما أمر به المسلمون من قتال الكفار إنما أراد منه نصر الدين بخضد شوكة أعدائه الذين يصدون الناس عنه، أتبعه بالترغيب في نصر الله والوعد بتكفل الله لهم بالنصر إن نصروه، وبأنه خاذل الذين كفروا بسبب كراهيتهم ما شرعه من الدين.

فالجملّة استئناف ابتدائي لهاته المناسبة. وافتتح الترغيب بندايتهم بصلة الإيمان اهتمامًا بالكلام، وإيماءً إلى أن الإيمان يقتضي منهم ذلك، والمقصود تحريضهم على الجهاد في المستقبل بعد أن اجتنوا فائدته مشاهدة يوم بدر»^(٢).

قال الشنقيطي: «ذكر الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن المؤمنين إن نصروا ربهم، نصرهم على أعدائهم، وثبت أقدامهم؛ أي: عصمهم من الفرار والهزيمة.

وقد أوضح هذا المعنى في آيات كثيرة، وبين في بعضها صفات الذين وعدهم بهذا النصر، كقوله تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُٓ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(٣)، ثم بين صفات الموعودين بهذا النصر في قوله تعالى بعده: ﴿الَّذِينَ إِذَا مَكَتَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ

(١) جامع البيان (٢٦/٤٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/٨٤).

(٣) الحج: الآية (٤٠).

الْأُمُورِ^(١)، وكقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(٣) الآية، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿٧٨﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾^(٤)، إلى غير ذلك من الآيات. وقوله تعالى في بيان صفات من وعدهم بالنصر في الآيات المذكورة: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ﴾ الآية، يدل على أن الذين لا يقيمون الصلاة ولا يؤتون الزكاة، ولا يأمرُونَ بالمعروف ولا ينهون عن المنكر؛ ليس لهم وعد من الله بالنصر ألبتة، فمثلهم كمثّل الأجير الذي لم يعمل لمستأجره شيئاً، ثم جاءه يطلب منه الأجرة.

فالذين يرتكبون جميع المعاصي ممن يتسمون باسم المسلمين، ثم يقولون: إن الله سينصرنا مفررون؛ لأنهم ليسوا من حزب الله الموعودين بنصره كما لا يخفى. ومعنى نصر المؤمنين لله: نصرهم لدينه وكتابه، وسعيهم وجهادهم في أن تكون كلمته هي العليا، وأن تقام حدوده في أرضه، وتمثّل أوامره وتجتنب نواهيه، ويحكم في عبادته بما أنزل على رسوله ﷺ^(٥).

* * *

(١) الحج: الآية (٤١).

(٢) الروم: الآية (٤٧).

(٣) غافر: الآية (٥١).

(٤) الصافات: الآيات (١٧١-١٧٣).

(٥) أضواء البيان (٧/٤٢٢-٤٢٣).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾ ⑧ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
كَرَهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالُهُمْ ⑨

★ غريب الآية:

تَعَسَا: أي: هلاكًا وشقاءً. وأصل التعس: السقوط والعتار. يقال: أتعسه الله؛ أي: كَبَّه: وهو أن يخرّ على وجهه. والنكس خلافه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره -: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله، فجحدوا توحيدَهُ، ﴿فَتَعَسَا لَهُمْ﴾ يقول: فخرّياً لهم، وشقاءً، وبلاءً..

وقوله: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ يقول: وجعل أعمالهم معمولة على غير هدى ولا استقامة؛ لأنها عملت في طاعة الشيطان، لا في طاعة الرحمن..

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرَهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ يقول - تعالى ذكره -: هذا الذي فعلنا بهم من الإتعاس وإضلال الأعمال، من أجل أنهم كرهوا كتابنا الذي أنزلناه إلى نبينا محمد ﷺ وسخطوه، فكذبوا به، وقالوا: هو سحر مبين.

وقوله: ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ يقول: فأبطل أعمالهم التي عملوها في الدنيا، وذلك عبادتهم الآلهة، لم ينفعهم الله بها في الدنيا ولا في الآخرة، بل أوبقهم بها، فأصلاهم سعيًا، وهذا حكم الله جل جلاله في جميع من كفر به من أجناس الأمم، كما قال قتادة^(١).

وقال ابن عطية: «وقوله تعالى: ﴿كَرَهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ يريد القرآن. وقوله: ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ يقتضي أن أعمالهم في كفرهم التي هي بر مقيدة محفوظة، ولا خلاف أن الكافر له حفظة يكتبون سيئاته.

(١) جامع البيان (٢٦/٤٥-٤٦).

واختلف الناس في حسناتهم ، فقالت فرقة : هي ملغاة يثابون عليها بنعم الدنيا فقط . وقالت فرقة : هي محصاة من أجل ثواب الدنيا ، ومن أجل أنه قد يسلم فينضاف ذلك إلى حسناته في الإسلام ، وهذا أحد التأويلين في قول النبي ﷺ لحكيم بن حزام : «أسلمت على ما سلف لك من خير»^(١) . فقوم قالوا : تأويله : أسلمت على أن يعد لك ما سلف من خير ، وهذا هو التأويل الذي أشرنا إليه . وقالت فرقة معناه : أسلمت على إسقاط ما سلف لك من خير ؛ إذ قد ثوبت عليه بنعم دنياك . وذكر الطبري أن أعمالهم التي أخبر في هذه الآية بحبطها : عبادتهم الأصنام وكفرهم . ومعنى (أحبط) : جعلها من العمل الذي لا يزكو ولا يعتد به ، فهي لذلك كالذي أحبط»^(٢) .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في وعيد من قصر عمله على الدنيا واشتغل بها عن الواجبات وإحباط أعمال الكافرين

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «تَعَس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة ، إن أعطي رضي ، وإن لم يعط لم يرض»^(٣) .

*** غريب الحديث:**

عبد الدينار : أي : طالبه الحريص على جمعه ، القائم على حفظه ، فكأنه لذلك خادمه وعبده .

القطيفة : كساء له خمل ؛ أي : الذي يعمل لها ويهتم بتحصيلها .

الخميصة : ثوب خز أو صوف معلم ، وقيل : لا تسمى خميصة إلا أن تكون سوداء معلمة ، وكانت من لباس الناس قديماً ، وجمعها : الخمائص . وقيل : الخميصة : كساء مربع لها أعلام أو خطوط .

*** فوائد الحديث:**

قال الحافظ : «فيه إشارة إلى الدعاء عليه بما يشبطه عن السعي والحركة ، وسوغ

(٢) المحرر الوجيز (٥/١١٢) .

(١) يأتي تخريجه ضمن أحاديث الباب .

(٣) أخرجه : البخاري (٦/١٠١/٢٨٨٦) ، وابن ماجه (٢/١٣٨٥-١٣٨٦/٤١٣٥) .

الدعاء عليه كونه قصر عمله على جمع الدنيا واشتغل بها عن الذي أمر به من التشاغل بالواجبات والمندوبات»^(١).

قال الطيبي: «قيل: خص العبد بالذكر ليؤذن بانغماسه في محبة الدنيا وشهواتها، كالأسير الذي لا خلاص له عن أسرته. ولم يقل: مالك الدينار أو جامع الدينار؛ لأن المذموم من الدنيا الزيادة على قدر الحاجة، لا قدر الحاجة»^(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «جماع الشر: الغفلة والشهوة، فالغفلة عن الله والدار الآخرة تسد باب الخير الذي هو الذكر واليقظة. والشهوة تفتح باب الشر والسهو والخوف، فيبقى القلب مغموراً فيما يهواه ويخشاه، غافلاً عن الله، رائداً غير الله، ساهياً عن ذكره، قد اشتغل بغير الله، قد انفرط أمره، قد ران حب الدنيا على قلبه، كما روي في صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميصة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، إن أعطي رضي، وإن منع سخط» جعله عبد ما يرضيه وجوده ويسخطه فقده، حتى يكون عبد الدرهم وعبد ما وصف في هذا الحديث، والقطيفة هي التي يجلس عليها فهو خادمها كما قال بعض السلف: البس من الثياب ما يخدمك، ولا تلبس منها ما تكن أنت تخدمه، وهي كالبساط الذي تجلس عليه، والخميصة هي التي يرتدي بها، وهذا من أقل المال. وإنما نبه به النبي ﷺ على ما هو أعلى منه، فهو عبد لذلك: فيه أرباب متفرقون، وشركاء متشاكسون. ولهذا قال: «إن أعطي رضي، وإن منع سخط» فما كان يرضي الإنسان حصوله ويسخطه فقده فهو عبده؛ إذ العبد يرضى باتصاله بهما، ويسخط لفقدهما. والمعبود الحق الذي لا إله إلا هو، إذا عبده المؤمن وأحبه؛ حصل للمؤمن بذلك في قلبه إيمان، وتوحيد ومحبة وذكر وعبادة فيرضى بذلك، وإذا منع من ذلك غضب»^(٣).

* عن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله! أرايت أموراً كنت أتحنث بها في الجاهلية من عتاقة وصلة رحم؛ هل لي فيها أجر؟ فقال النبي ﷺ: «أسلمت

(٢) شرح الطيبي (١٠/٣٢٧٤).

(١) فتح الباري (١١/٣٠٧).

(٣) مجموع الفتاوى (١٠/٥٩٧-٥٩٨).

على ما أسلفت من خير»^(١).

★ غريب الحديث:

التحنت: التعبد.

عتاقة: مصدر عتق يعتق عِتْقًا وَعِتَاقًا وَعِتَاقَةً: العبد: خرج من الرق.

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «وأما قوله ﷺ: «أسلمت على ما أسلفت من خير» فاختلف في معناه، فقال الإمام أبو عبد الله المازري رَحِمَهُ اللهُ: ظاهره خلاف ما تقتضيه الأصول؛ لأن الكافر لا يصح منه التقرب، فلا يثاب على طاعته، ويصح أن يكون مطيعًا غير متقرب؛ كمنظيره في الإيمان، فإنه مطيع فيه من حيث كان موافقًا للأمر، والطاعة عندنا موافقة الأمر، ولكنه لا يكون متقربًا؛ لأن من شرط المتقرب أن يكون عارفًا بالمتقرب إليه، وهو في حين نظره لم يحصل له العلم بالله تعالى بعد. فإذا تقرر هذا علم أن الحديث متأول، وهو يحتمل وجوهًا: أحدها: أن يكون معناه: اكتسبت طباغًا جميلة، وأنت تنتفع بتلك الطباغ في الإسلام، وتكون تلك العادة تمهيدًا لك ومعونة على فعل الخير.

والثاني: معناه: اكتسبت بذلك ثناءً جميلًا، فهو باق عليك في الإسلام.

والثالث: أنه لا يبعد أن يزداد في حسناته التي يفعلها في الإسلام، ويكثر أجره؛ لما تقدم له من الأفعال الجميلة. وقد قالوا في الكافر: إذا كان يفعل الخير فإنه يخفف عنه به، فلا يبعد أن يزداد هذا في الأجور. هذا آخر كلام المازري رَحِمَهُ اللهُ.

قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللهُ: وقيل: معناه: ببركة ما سبق لك من خير هداك الله تعالى إلى الإسلام، وأن من ظهر منه خير في أول أمره؛ فهو دليل على سعادة آخره، وحسن عاقبته. هذا كلام القاضي.

وذهب ابن بطال وغيره من المحققين إلى أن الحديث على ظاهره، وأنه إذا أسلم الكافر ومات على الإسلام؛ يثاب على ما فعله من الخير في حال الكفر، واستدلوا بحديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أسلم الكافر فحسن

(١) أخرجه: أحمد (٤٠٢/٣)، والبخاري (٥١٧/٤)، ومسلم (١١٣/١).

إسلامه ؛ كتب الله تعالى له كل حسنة زلفها ، ومحا عنه كل سيئة زلفها ، وكان عمله بعد الحسنه بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، والسيئة بمثلها إلا أن يتجاوز الله سبحانه وتعالى»^(١) . ذكره الدارقطني في غريب حديث مالك ، ورواه عنه من تسع طرق ، وثبت فيها كلها أن الكافر إذا حسن إسلامه ؛ يكتب له في الإسلام كل حسنة عملها في الشرك . قال ابن بطال رحمه الله تعالى بعد ذكره الحديث : ولله تعالى أن يتفضل على عباده بما شاء ، لا اعتراض لأحد عليه . قال : وهو كقوله ﷺ لحكيم بن حزام رضي الله عنه : «أسلمت على ما أسلفت من خير» والله أعلم .

وأما قول الفقهاء : (لا يصح من الكافر عبادة ، ولو أسلم لم يعتد بها) ؛ فمرادهم : أنه لا يعتد له بها في أحكام الدنيا ، وليس فيه تعرض لثواب الآخرة . فإن أقدم قائل على التصريح بأنه إذا أسلم لا يثاب عليها في الآخرة ؛ رد قوله بهذه السنة الصحيحة ، وقد يعتد ببعض أفعال الكفار في أحكام الدنيا ؛ فقد قال الفقهاء : إذا وجب على الكافر كفارة ظهار أو غيرها ، فكفر في حال كفره ؛ أجزاء ذلك ، وإذا أسلم لم تجب عليه إعادتها»^(٢) .

* * *

(١) أخرجه : البخاري (١/١٣٣/٤١) تعليقا بصيغة الجزم ، والنسائي (٨/٤٨٠/٥٠١٣) موصولا .

(٢) شرح صحيح مسلم (٢/١٢١-١٢٢) .

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا﴾ ﴿١٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : أفلم يسر هؤلاء المكذبون محمداً ﷺ، المنكرون ما أنزل عليه من الكتاب في الأرض سفراً؟ وإنما هذا توبيخ من الله لهم؛ لأنهم قد كانوا يسافرون إلى الشام، فيرون نقمة الله التي أحلها بأهل حجر وثمود، ويرون في سفرهم إلى اليمن ما أحل الله بسبأ، فقال لنبيه عليه الصلاة والسلام وللمؤمنين به: أفلم يسر هؤلاء المشركون سفراً في البلاد، فينظروا كيف كان عاقبة تكذيب الذين من قبلهم؛ من الأمم المكذبة رسلها، الرادة نصائحها، ألم نهلكها فندمر عليها منازلها ونخربها، فيتعظوا بذلك، ويحذروا أن يفعل الله ذلك بهم في تكذيبهم إياه، فينسيبوا إلى طاعة الله في تصديقك؟ ثم توعدهم - جل ثناؤه -، وأخبرهم إن هم أقاموا على تكذيبهم رسوله، أنه مُجَلَّ بهم من العذاب ما أحل بالذين كانوا من قبلهم من الأمم، فقال: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا﴾، يقول: وللكافرين من قريش المكذبين رسول الله ﷺ من العذاب العاجل، أمثال عاقبة تكذيب الأمم الذين كانوا من قبلهم رسلهم على تكذيبهم رسوله محمداً ﷺ»^(١).

وقال أبو السعود: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أقعدوا في أماكنهم فلم يسيروا فيها ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم المكذبة؛ فإن آثار ديارهم تنبئ عن أخبارهم.

وقوله تعالى: ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ استئناف مبني على سؤال نشأ من الكلام، كأنه قيل: كيف كان عاقبتهم؟ فقيل: استأصل الله تعالى عليهم ما اختص بهم من أنفسهم وأهليهم وأموالهم. يقال: دمره: أهلكه، ودمر عليه: أهلك عليه ما يختص به.

(١) جامع البيان (٤٦/٢٦).

﴿وَالْكَافِرِينَ﴾ أي : ولهؤلاء الكافرين السائرين بسيرتهم ﴿أَمْثَلُهَا﴾ : أمثال عواقبهم أو عقوباتهم ؛ لكن لا على أن لهؤلاء أمثال ما لأولئك وأضعافه ؛ بل مثله ، وإنما جمع باعتبار مماثلته لعواقب متعددة حسب تعدد الأمم المعذبة . وقيل : يجوز أن يكون عذابهم أشد من عذاب الأولين وقد قتلوا وأسروا بأيدي من كانوا يستخفونهم ويستضعفونهم ، والقتل بيد المثل أشد ألمًا من الهلاك بسبب عام . وقيل : المراد بالكافرين : المتقدمون ؛ بطريق وضع الظاهر موضع الضمير ، كأنه قيل : دمر الله عليهم في الدنيا ولهم في الآخرة أمثالها^(١) .

* * *

(١) تفسير أبي السعود (٨ / ٩٤) .

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ (١)

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : هذا الفعل الذي فعلنا بهذين الفريقين : فريق الإيمان، وفريق الكفر، من نصرتنا فريق الإيمان بالله، وتشببتنا أقدامهم، وتدميرنا على فريق الكفر، ﴿بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يقول : من أجل أن الله ولي من آمن به، وأطاع رسوله . . وقد ذكر لنا أن ذلك في قراءة عبدالله : (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا) وأن التي في (المائدة) التي هي في مصاحفنا ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾^(١) : (إِنَّمَا مَوْلَاكُمْ اللَّهُ) في قراءته . وقوله : ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ يقول : وبأن الكافرين بالله لا ولي لهم، ولا ناصر»^(٢).

قال ابن عاشور: «اسم الإشارة منصرف إلى مضمون قوله : ﴿وَالْكَافِرِينَ أَمْثَلُهُا﴾ بتأويل : ذلك المذكور؛ لأنه يتضمن وعيداً للمشركين بالتدمير، وفي تدميرهم انتصار للمؤمنين على ما لقوا منهم من الأضرار، فأفيد أن ما توعدهم الله به مسبب على أن الله نصير الذين آمنوا، وهو المقصود من التعليل، وما بعده تميم . .

قوله : ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ أفاد شيئين : أن الله لا ينصرهم، وأنه إذا لم ينصرهم فلا ناصر لهم، وأما إثبات المولى للمشركين في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ﴾ إلى قوله : ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ﴾^(٣) فذلك المولى بمعنى آخر، وهو معنى : المالك والرب، فلا تعارض بينهما»^(٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في بيان أن من أسمائه سبحانه اسم (المولى)

* عن البراء رضي الله عنه قال : «لقينا المشركين يومئذ، وأجلس النبي ﷺ جيشاً من

(١) المائدة: الآية (٥٥).

(٢) جامع البيان (٤٧/٢٦).

(٣) يونس : الآيات (٢٨-٣٠).

(٤) التحرير والتنوير (٢٦/٨٨-٨٩).

الرماة، وأمر عليهم عبد الله وقال: لا تبرحوا، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهوروا علينا فلا تعينونا، فلما لقينا هربوا، حتى رأيت النساء يشتدْنَ في الجبل، رفعن عن سوقهن قد بدت خلاخلهن فأخذوا يقولون: الغنيمة الغنيمة، فقال عبد الله: عهد إلي النبي ﷺ أن لا تبرحوا، فأبوا، فلما أبوا صرف وجوههم، فأصيب سبعون قتيلاً، وأشرف أبو سفيان فقال: أفي القوم محمد؟ فقال: لا تجيبوه، فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ قال: لا تجيبوه، فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء قتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا. فلم يملك عمر نفسه فقال: كذبت يا عدو الله، أبقى الله عليك ما يخزيك، قال أبو سفيان: اعل هبل. فقال النبي ﷺ: أجيبوه، قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: الله أعلى وأجل. قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم. فقال النبي ﷺ: أجيبوه، قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم. قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، وتجدون مثله لم أمر بها ولم تسؤني^(١).

* غريب الحديث:

لا تبرحوا: أي: لا تغادروا أماكنكم؛ يقال: برح برحاً وبراحاً وبروحاً: زال. ويقال في الاستمرار: ما برح يفعل كذا. ظهرنا: الظهور: الظفر بالشيء، والاطلاع عليه. يشتدْنَ: أي: يسرعن المشي؛ يقال: اشتدَّ في مشيه: إذا أسرع. صرف وجوههم: أي: تحيروا، فلم يدروا أين يتوجهون. اعل هبل: أي: ظهر دينك. وقيل: زاد علواً. أو المراد: أعلى من كل شيء. سجال: بكسر المهملة وتخفيف الجيم؛ أي: مرة لنا ومرة علينا. وأصله أن المستقين بالسجل يكون لكل واحد منهم سجل.

مُثْلَة: بضم الميم وسكون المثلة ويجوز فتح أوله. يقال: مثلت بالحيوان أمثلاً به مثلاً: إذا قطعت أطرافه وشوّهت به. ومثلت بالقتيل: إذا جدعت أنفه أو أذنه أو

(١) أخرجه: أحمد (٢٩٣/٤)، والبخاري (٤٠٤٣/٧) واللفظ له، وأبو داود (٢٦٦٢/٣)، والنسائي في الكبرى (١١٠٧٩/٦).

مذاكيره أو شيئاً من أطرافه .

★ فوائد الحديث:

قال ابن الجوزي: «وقوله: «اللَّهُ مولانا ولا مولى لكم» فإن قيل: أليس الله ﷻ مولى الخلق كلهم؟ فالجواب: أن المولى ههنا بمعنى الولي . فالله سبحانه وتعالى يتولى المؤمنين بالنصرة والإعانة ويخذل الكفار»^(١).

قال البيهقي في معرض ذكره للأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه ﷻ: «ومنها (الولي)، قال الله ﷻ: ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾^(٢). . قال الحلিমى: الولي هو الوالي: ومعناه: مالك التدبير، ولهذا يقال للمقيم على اليتيم: ولي اليتيم، وللأمير: الوالي. قال أبو سليمان: والولي أيضاً: الناصر ينصر عباده المؤمنين، قال الله ﷻ: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾^(٣)، وقال ﷻ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾^(٤)، المعنى: لا ناصر لهم. . ومنها: (المولى)، قال الله ﷻ: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾^(٥). قال الحلímى: في معنى (المولى): إنه المأمول منه النصر والمعونة؛ لأنه هو المالك، ولا مفزع للمملوك إلا مالكة»^(٥).

قال في «النهج الأسنى»: «من آثار الإيمان بهذين الاسمين: أن الله -جل وعلا- ولي الذين آمنوا؛ أي: نصيرهم وظهرهم، ينصرهم على عدوهم، وكفى به ولياً ونصيراً؛ فهو السميع لدعائهم وذكرهم، القريب منهم، يعتزون به، ويستنصرونه في قتالهم.

ثم ذكر حديث البراء وقال: وفي هذه الغزوة تنبيه للمسلمين، وتحذير لهم ولمن بعدهم، وعبرة لمن يعتبر على مر العصور؛ أنه بقدر ما يوافق المسلم كتاب ربه وسنة نبيه قولاً وعملاً واعتقاداً، تكون له النصرة والمعونة من الله جل شأنه، وما حصلت تلك الهزيمة في أحد إلا بسبب معصية الرماة ومخالفتهم لأمر نبيهم ﷺ بترك

(١) كشف المشكل (٢/ ٢٥٥).

(٢) الشورى: الآية (٢٨).

(٣) البقرة: الآية (٢٥٧).

(٤) الحج: الآية (٧٨).

(٥) الأسماء والصفات (١/ ١٧٤-١٧٥) مكتبة السوادى.

أماكنهم على الجبل ، بعد أن رأوا بشائر النصر وهرعوا إلى الغنيمة»^(١).

قال ابن القيم رحمه الله : «والمقصود أن بحسب متابعة الرسول تكون العزة والكفاية والنصرة ، كما أنه بحسب متابعتة تكون الهداية والفلاح والنجاة ، فالله سبحانه علق سعادة الدارين بمتابعتة ، وجعل شقاوة الدارين في مخالفتة ، فلا تباعه الهدى والأمن والفلاح والعزة ، والكفاية والنصرة ، والولاية والتأييد ، وطيب العيش في الدنيا والآخرة ، ولمخالفيه الذلة والصغار ، والخوف والضلال ، والخذلان والشقاء في الدنيا والآخرة»^(٢).

وقال : «خص أهل السعادة بالهداية دون غيرهم ، فهذه مسألة اختلف الناس فيها ، وطال الحجاج من الطرفين ، وهي أنه هل لله على الكافر نعمة أم لا ؟ فمن ناف محتج بهذه وبقوله : ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾^(٣) ، فخص هؤلاء بالإنعام ، فدل على أن غيرهم غير منعم عليه ، ولقوله لعباده المؤمنين : ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا أَنْ تَكُونَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَيُزِيلُوا عَنْكُمْ أَنْعَامَ اللَّهِ إِنَّهُمْ كُنُوا عَلَى الْكُفْرِ كَوِينًا﴾^(٤) ، وبأن الإنعام ينافي الانتقام والعقوبة ، فأى نعمة على من خلق للعذاب الأبدي ؟ ومن مثبت محتج بقوله : ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾^(٥) ، وقوله لليهود : ﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾^(٦) ، وهذا خطاب لهم في حال كفرهم ، وبقوله في سورة (النحل) التي عدد فيها نعمه المشتركة على عباده من أولها إلى قوله : ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾^(٧) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾^(٧).

وهذا نص صريح لا يحتمل صرفاً ، واحتجوا بأن البر والفاجر والمؤمن والكافر كلهم يعيش في نعمة الله ، وكل أحد مقر لله تعالى بأنه إنما يعيش في نعمته ، وهذا معلوم بالاضطرار عند جميع أصناف بني آدم إلا من كابر وجحد حق الله تعالى وكفر بنعمته .

(١) النهج الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى (٢/ ٤٧-٤٨).

(٢) زاد المعاد (١/ ٣٧).

(٣) النساء : الآية (٦٩).

(٤) البقرة : الآية (١٥٠).

(٥) إبراهيم : الآية (٣٤).

(٦) البقرة : الآية (٤٠).

(٧) النحل : الآيات (٨١-٨٣).

وفصل الخطاب في المسألة: أن النعمة المطلقة مختصة بأهل الإيمان، لا يشركهم فيها سواهم، ومطلق النعمة عام للخلقة كلهم برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، فالنعمة المطلقة التامة هي المتصلة بسعادة الأبد وبالنعيم المقيم، فهذه غير مشتركة، ومطلق النعمة عام مشترك. فإذا أراد النافي سلب النعمة المطلقة للكافر أخطأ، وإن أراد إثبات مطلق النعمة أصاب. وبهذا تتفق الأدلة، ويزول النزاع، ويتبين أن كل واحد من الفريقين معه خطأ وصواب، والله الموفق للصواب»^(١).

* * *

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٢٢-٢٣).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ (١٢)

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال السعدي: «لما ذكر تعالى أنه ولي المؤمنين؛ ذكر ما يفعل بهم في الآخرة، من دخول الجنات التي تجري من تحتها الأنهار، التي تسقي تلك البساتين الزاهرة، والأشجار الناظرة المثمرة، لكل زوج بهيج، وكل فاكهة لذيدة.

ولما ذكر أن الكافرين لا مولى لهم؛ ذكر أنهم وُكِلُوا إلى أنفسهم، فلم يتصفوا بصفات المروءة، ولا الصفات الإنسانية، بل نزلوا عنها دركات، وصاروا كالأنعام، التي لا عقل لها ولا فضل، بل جلّ همهم ومقصدهم التمتع بلذات الدنيا وشهواتها، فترى حركاتهم الظاهرة والباطنة دائرة حولها، غير متعدية لها إلى ما فيه الخير والسعادة، ولهذا كانت النار مَثْوًى لهم؛ أي: منزلاً معداً، لا يخرجون منها، ولا يفتر عنهم من عذابها»^(١).

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ له الألوهة التي لا تنبغي لغيره، ﴿يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ورسوله بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار، يفعل ذلك بهم تكرامة على إيمانهم به وبرسوله. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ يقول -جل ثناؤه-: والذين جحدوا توحيد الله، وكذبوا رسوله ﷺ يتمتعون في هذه الدنيا بحطامها ورياشها وزينتها الفانية الدارسة، ويأكلون فيها غير مفكرين في المعاد، ولا معتبرين بما وضع الله لخلقه من الحجج المؤدية لهم إلى علم توحيد الله ومعرفة صدق رسله، فمثلهم في أكلهم ما يأكلون فيها من غير علم منهم بذلك وغير معرفة، مثل الأنعام من البهائم المسخرة التي لا همة لها إلا في الاعتلاف دون غيره، ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ يقول -جل ثناؤه-: والنار نار جهنم مسكن

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/٦٩).

لهم وماوى، إليها يصيرون من بعد مماتهم»^(١).

قال ابن عاشور: «بيّن الله أن من ولايته المؤمنين أن يعطيهم النعيم الخالد بعد النصر في الدنيا، وأن ما أعطاه الكافرين في الدنيا لا عبرة به؛ لأنهم مسلوبون من فهم الإيمان، فحظهم من الدنيا أكل وتمتع، كحظ الأنعام، وعاقبتهم في عالم الخلود العذاب، فقوله: ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ في معنى قوله في سورة (آل عمران): ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ۚ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾^(٢)»^(٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذم الأكل الذي لا يشبع

* عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «المؤمن يأكل في معي واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء»^(٤).

★ غريب الحديث:

مِعيّ: المِعى: مقصور، بكسر الميم والتنوين، ويجمع على أمعاء، وهي المصارين، وتثنيته معيان.

★ فوائد الحديث:

قال ابن عبد البر: «هذا الحديث دليل على ذم الأكل الذي لا يشبع، وأنها خلة مذمومة، وصفة غير محمودة، وأن القلة من الأكل أحمد وأفضل، وصاحبها عليها ممدوح، وإن كان الأمر كله لله، وبيده وخلقه وصنعه لا شريك له، والحمد لله رب العالمين»^(٥).

قال الحافظ: «واختلف في معنى الحديث، فقليل: ليس المراد به ظاهره، وإنما هو مثل ضرب للمؤمن وزهده في الدنيا، والكافر وحرصه عليها، فكان المؤمن لتقلله

(١) جامع البيان (٤٧/٢٦).

(٢) آل عمران: الآية (١٩٦ و١٩٧).

(٣) التحرير والتنوير (٨٩/٢٦).

(٤) أخرجه: أحمد (٢١/٢)، والبخاري (٩/٦٦٩/٥٣٩٤)، ومسلم (٣/١٦٣١/٢٠٦٠)، والترمذي (٤/٢٣٤-

٢٣٥/١٨١٨)، والنسائي في الكبرى (٤/١٧٨/٦٧٧١)، وابن ماجه (٢/١٠٨٤/٣٢٥٧).

(٥) فتح البر (٩/٤٢٢).

من الدنيا يأكل في معى واحد، والكافر لشدة رغبته فيها واستكثاره منها يأكل في سبعة أمعاء، فليس المراد حقيقة الأمعاء ولا خصوص الأكل، وإنما المراد التقلل من الدنيا والاستكثار منها، فكأنه عبر عن تناول الدنيا بالأكل وعن أسباب ذلك بالأمعاء، ووجه العلاقة ظاهر. وقيل: المعنى: أن المؤمن يأكل الحلال، والكافر يأكل الحرام، والحلال أقل من الحرام في الوجود، نقله ابن التين. ونقل الطحاوي نحو الذي قبله عن أبي جعفر بن أبي عمران فقال: حمل قوم هذا الحديث على الرغبة في الدنيا، كما تقول: فلان يأكل الدنيا أكلاً؛ أي: يرغب فيها ويحرص عليها، فمعنى «المؤمن يأكل في معى واحد»؛ أي: يزهد فيها فلا يتناول منها إلا قليلاً، «والكافر في سبعة» أي: يرغب فيها فيستكثر منها. وقيل: المراد حض المؤمن على قلة الأكل إذا علم أن كثرة الأكل صفة الكافر؛ فإن نفس المؤمن تنفر من الاتصاف بصفة الكافر، ويدل على أن كثرة الأكل من صفة الكفار قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَنَفَّسُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾.

وقيل: بل هو على ظاهره. ثم اختلفوا في ذلك على أقوال:

أحدها: أنه ورد في شخص بعينه، واللام عهدية لا جنسية، جزم بذلك ابن عبد البر فقال: لا سبيل إلى حمله على العموم؛ لأن المشاهدة تدفعه، فكم من كافر أقل أكلاً من مؤمن وعكسه، وكم من كافر أسلم فلم يتغير مقدار أكله، قال: وحديث أبي هريرة يدل على أنه ورد في رجل بعينه، ولذلك عقب به مالك الحديث المطلق، وكذا البخاري، فكأنه قيل: هذا إذا كان كافراً كان يأكل في سبعة أمعاء، فلما أسلم عوفي وبورك له في نفسه، فكفاه جزء من سبعة أجزاء مما كان يكفيه وهو كافر، اهـ.

وقد سبقه إلى ذلك الطحاوي في «مشكل الآثار» فقال: قيل: إن هذا الحديث كان في كافر مخصوص، وهو الذي شرب حلاب سبع شياه، قال: وليس للحديث عندنا محمل غير هذا الوجه، والسابق إلى ذلك أولاً أبو عبيدة، وقد تعقب هذا الحمل بأن ابن عمر راوي الحديث فهم منه العموم، فلذلك منع الذي رآه يأكل كثيراً من الدخول عليه، واحتج بالحديث. ثم كيف يتأتى حمله على شخص بعينه مع ما تقدم من ترجيح تعدد الواقعة، ويورد الحديث المذكور عقب كل واحدة منها في حق الذي وقع له نحو ذلك.

القول الثاني: أن الحديث خرج مخرج الغالب، وليست حقيقة العدد مرادة، قالوا: تخصيص السبعة للمبالغة في التكثير؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾^(١)، والمعنى: أن من شأن المؤمن التقليل من الأكل؛ لاشتغاله بأسباب العبادة، ولعلمه بأن مقصود الشرع من الأكل ما يسد الجوع، ويمسك الرمق، ويعين على العبادة، ولخشيته أيضًا من حساب ما زاد على ذلك، والكافر بخلاف ذلك كله؛ فإنه لا يقف مع مقصود الشرع، بل هو تابع لشهوة نفسه، مسترسل فيها، غير خائف من تبعات الحرام، فصار أكل المؤمن -لما ذكرته- إذا نسب إلى أكل الكافر كأنه بقدر السبع منه، ولا يلزم من هذا اطراده في حق كل مؤمن وكافر، فقد يكون في المؤمنين من يأكل كثيرًا، إما بحسب العادة، وإما لعارض يعرض له من مرض باطن أو لغير ذلك، ويكون في الكفار من يأكل قليلًا، إما لمراعاة الصحة على رأي الأطباء، وإما للرياضة على رأي الرهبان، وإما لعارض كضعف المعدة. قال الطيبي: ومحصل القول أن من شأن المؤمن الحرص على الزهادة والاقتناع بالبلغة، بخلاف الكافر، فإذا وجد مؤمن أو كافر على غير هذا الوصف لا يقدح في الحديث. ومن هذا قوله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾^(٢) الآية، وقد يوجد من الزاني نكاح الحرة، ومن الزانية نكاح الحر.

القول الثالث: أن المراد بالمؤمن في هذا الحديث التام الإيمان؛ لأن من حسن إسلامه وكمل إيمانه؛ اشتغل فكره فيما يصير إليه من الموت وما بعده، فيمنعه شدة الخوف وكثرة الفكر والإشفاق على نفسه من استيفاء شهوته، كما ورد في حديث لأبي أمامة رفعه: «من كثر تفكره قلّ طعمه، ومن قلّ تفكره كثر طعمه، وقسا قلبه»^(٣)، ويشير إلى ذلك حديث أبي سعيد الصحيح: «إن هذا المال حلوة خضرة، فمن أخذه بإشراف نفس كان كالذي يأكل ولا يشبع»^(٤)، فدل على أن المراد بالمؤمن من يقتصد في مطعمه، وأما الكافر فمن شأنه الشره، فيأكل بالنهم كما تأكل البهيمة، ولا يأكل بالمصلحة لقيام البنية، وقد رد هذا الخطابي وقال: قد ذكر عن

(١) لقمان: الآية (٢٧).

(٢) النور: الآية (٣).

(٣) حديث موضوع ذكره ابن الجوزي في الموضوعات (٣/٤٨-٤٩). وانظر السلسلة الضعيفة (٩٠).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/٩١)، والبخاري (١١/٢٩٣/٦٤٢٧)، ومسلم (٢/٧٢٧/١٠٥٢)، والنسائي (٥/٩٤-٩٥).

غير واحد من أفاضل السلف الأكل الكثير ، فلم يكن ذلك نقصاً في إيمانهم .
 الرابع : أن المراد أن المؤمن يسمي الله تعالى عند طعامه وشرابه ، فلا يشركه الشيطان ، فيكفيه القليل ، والكافر لا يسمي ، فيشركه الشيطان كما تقدم تقريره قبل ، وفي صحيح مسلم في حديث مرفوع : «إن الشيطان يستحل الطعام إن لم يُذكر اسم الله تعالى عليه»^(١) .

الخامس : أن المؤمن يقل حرصه على الطعام ، فيبارك له فيه ، وفي مأكله فيشبع من القليل ، والكافر طامع البصر إلى المأكل كالأنعام ، فلا يشبعه القليل ، وهذا يمكن ضمه إلى الذي قبله ، ويجعلان جواباً واحداً مركباً .

السادس : قال النووي : المختار : أن المراد أن بعض المؤمنين يأكل في معنى واحد ، وأن أكثر الكفار يأكلون في سبعة أمعاء ، ولا يلزم أن يكون كل واحد من السبعة مثل معنى المؤمن ، اهـ . ويدل على تفاوت الأمعاء ما ذكره عياض عن أهل التشريح : أن أمعاء الإنسان سبعة : المعدة ، ثم ثلاثة أمعاء بعدها متصلة بها : البواب ، ثم الصائم ، ثم الرقيق ، والثلاثة رقاق ، ثم الأعور ، والقولون ، والمستقيم ، وكلها غلاظ . فيكون المعنى : أن الكافر لكونه يأكل بشراهة لا يشبعه إلا ملء أمعائه السبعة ، والمؤمن يشبعه ملء معنى واحد . .

السابع : قال النووي : يحتمل أن يريد بالسبعة في الكافر صفات ؛ هي الحرص والشره وطول الأمل والطمع وسوء الطبع والحسد وحب السمن ، وبالواحد في المؤمن سد خلته .

الثامن : قال القرطبي : شهوات الطعام سبع : شهوة الطبع ، وشهوة النفس ، وشهوة العين ، وشهوة الفم ، وشهوة الأذن ، وشهوة الأنف ، وشهوة الجوع ، وهي الضرورية التي يأكل بها المؤمن ، وأما الكافر فيأكل بالجميع . ثم رأيت أصل ما ذكره في كلام القاضي أبي بكر بن العربي ملخصاً ، وهو أن الأمعاء السبعة كناية عن الحواس الخمس والشهوة والحاجة . قال العلماء : يؤخذ من الحديث الحض على التقليل من الدنيا ، والحث على الزهد فيها ، والقناعة بما تيسر منها ، وقد كان

(١) أخرجه : أحمد (٣٨٣/٥) ، ومسلم (٢٠١٧/١٥٩٧/٣) ، وأبو داود (٣٧٦٦/١٣٩/٤) ، والنسائي في الكبرى (٦٧٥٤/١٧٣/٤) من حديث حذيفة رضي الله عنه .

العقلاء في الجاهلية والإسلام يتمدحون بقلّة الأكل، ويذمون كثرة الأكل، كما تقدم في حديث أم زرع أنها قالت في معرض المدح لابن أبي زرع: «ويشبعه ذراع الجفرة»^(١)، وقال حاتم الطائي:

فلإنك إن أعطيت بطنك سؤله وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا^(٢).

* * *

(١) أخرجه: البخاري (٣١٧/٩-٣١٨/٥١٨٩)، ومسلم (١٨٩٦-١٩٠٢/٢٤٤٨)، والنسائي في الكبرى (٥/

٣٥٤-٩١٣٨) عن عائشة رضي الله عنها في حديث أم زرع الطويل.

(٢) فتح الباري (٩/٦٧٢-٦٧٤).

قوله تعالى : ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ ﴿١٣﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير : «هذا تهديد شديد ووعيد أكيد لأهل مكة في تكذيبهم لرسول الله ﷺ، وهو سيد المرسلين وخاتم الأنبياء، فإذا كان الله ﷻ قد أهلك الأمم الذين كذبوا الرسل قبله بسببهم، وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء، فماذا ظن هؤلاء أن يفعل الله بهم في الدنيا والأخرى؟ فإنه رفع عن كثير منهم العقوبة في الدنيا لبركة وجود الرسول نبي الرحمة، فإن العذاب يوفّر على الكافرين به في معادهم، ﴿يُضَعَّفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾^(١)»^(٢).

قال ابن عاشور : «والمراد بالقرية : أهلها، بقرينة قوله : ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾، وإنما أجري الإخبار على القرية وضميرها لإفادة الإحاطة بجميع أهلها وجميع أحوالهم، وليكون لإسناد إخراج الرسول إلى القرية كلها وقع من التبعة على جميع أهلها، سواء منهم من تولى أسباب الخروج ومن كان ينظر ولا ينهى، قال تعالى : ﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ دِيَارِهِمْ وَظَاهَرُوا عَلَيْنَا إِخْرَاجَهُمْ﴾^(٣). وهذا إطناب في الوعيد؛ لأن مقام التهديد والتوبيخ يقتضي الإطناب، فمفاد هذه الآية مؤكد لمفاد قوله : ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا﴾، فحصل توكيد ذلك بما هو مقارب له من إهلاك الأمم ذوات القرى والمدن بعد أن شمل قوله : ﴿الَّذِينَكَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من كان من أهل القرى، وزاد هنا التصريح بأن الذين من قبلهم كانوا أشد قوة منهم؛ ليفهموا أن إهلاك هؤلاء هيّن على الله؛ فإنه لما كان التهديد السابق تهديداً بعذاب السيف من قوله : ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ الآيات، قد يلقي في نفوسهم غروراً فتعذر استئصالهم بالسيف وهم ما هم من المنعة، وأنهم تمنعهم

(١) هود: الآية (٢٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/٣١١-٣١٢).

(٣) الممتحنة: الآية (٩).

قريتهم مكة وحرمتها بين العرب ، فلا يقعدون عن نصرتهم ، فربما استخفوا بهذا الوعيد ، ولم يستكينوا لهذا التهديد ، فأعلمهم الله أن قرى كثيرة كانت أشد قوة من قريتهم ؛ أهلكهم الله فلم يجدوا نصيرًا . وبهذا يظهر الموقع البديع للتفريع في قوله : ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ وزاد أيضًا إجراء الإضافة في قوله : ﴿قَرَيْنِكَ﴾ ، ووصفها بـ ﴿الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ﴾ لما تفيده إضافة القرية إلى ضمير الرسول ﷺ من تعبير أهلها بمذمة القطيعة ، ولما تؤذن به الصلة من تعليل إهلاكهم بسبب إخراجهم الرسول ﷺ من قريته ، قال تعالى : ﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾^(١) . وفرع على الإخبار بإهلاك الله إياهم الإخبار بانتفاء جنس الناصر لهم ؛ أي : المنقذ لهم من الإهلاك . والمقصود : التذكير بأن أمثال هؤلاء المشركين لم يجدوا دافعًا يدفع عنهم الإهلاك ، وذلك تعريض بتأييس المشركين من إلقاء ناصر ينصرهم في حربهم للمسلمين ؛ قطعًا لما قد يخالج نفوس المشركين أنهم لا يغلبون لتظاهر قبائل العرب معهم ، ولذلك حزبوا الأحزاب في وقعة الخندق . وضمير ﴿لَهُمْ﴾ عائد إلى ﴿مِن قَرِيَةٍ﴾ ؛ لأن المراد بالقرى أهلها . والمعنى : أهلكناهم إهلاكًا لا بقاء معه لشيء منهم ؛ لأن بقاء شيء منهم نصر لذلك الباقي بنجاته من الإهلاك»^(٢) .

قال الشنقيطي : «وما تضمنته هذه الآية الكريمة من إخراج كفار مكة للنبي ﷺ منها ؛ بينه في غير هذا الموضع ، كقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾^(٣) الآية ، وقوله تعالى : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾^(٤) .

وقد أخرجوه فعلاً بمكرهم المذكور ، وبين - جل وعلا - أن النبي ﷺ وأصحابه الذين أخرجوا من ديارهم لا ذنب لهم يستوجبون به الإخراج إلا الإيمان بالله ، كما قال تعالى : ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾^(٥) ، وقال تعالى : ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾^(٦) أي : يخرجون الرسول وإياكم لأجل إيمانكم بربكم .

(٢) التحرير والتنوير (٢٦ / ٩٠ - ٩٢) .

(٤) الأنفال : الآية (٣٠) .

(٦) الممتحنة : الآية (١) .

(١) البقرة : الآية (١٩١) .

(٣) الممتحنة : الآية (١) .

(٥) الحج : الآية (٤٠) .

وقال تعالى في إخراجهم له: ﴿أَلَا تَقْبَلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾^(١) الآية، إلى غير ذلك من الآيات^(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الخروج من مكة وسكناها

* عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أن عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهري أخبره: أنه سمع النبي ﷺ وهو واقف بالحزورة في سوق مكة يقول: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله ﷻ، ولولا أنني أخرجت منك ما خرجت»^(٣).

* غريب الحديث:

الحزورة: على وزن القسورة: موضع بمكة، وقيل: بتشديد الراء، والحزورة في الأصل: التل الصغير؛ سميت بذلك لأنه كان هناك تل صغير. وقيل: سبب تسميتها بذلك غير هذا، والله أعلم.

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لمكة: «ما أطيبك من بلد، وأحبك إلي، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك»^(٤).

* عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ لما أخبر ورقة بن نوفل بنزول الوحي قال ورقة: يا ليتني فيها جذعاً! ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: «أو مخرجي هم؟» قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا^(٥).

* من فوائد الأحاديث:

قال القاري في قوله: «ولولا أنني أخرجت منك ما خرجت»: «فيه دلالة على أنه لا ينبغي للمؤمن أن يخرج من مكة إلا أن يخرج منها حقيقة أو حكمًا، وهو الضرورة

(١) التوبة: الآية (١٣).

(٢) أضواء البيان (٧/٤٢٤).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/٣٠٥)، والترمذي (٥/٦٧٩/٣٩٢٥) وقال: «حسن غريب صحيح»، والنسائي في الكبرى (٢/٤٧٩/٤٢٥٢)، وابن ماجه (٢/١٠٣٧/٣١٠٨)، وصححه ابن حبان (٩/٢٢/٣٧٠٨)، والحاكم (٣/٧) ووافقه الذهبي.

(٤) أخرجه: الترمذي (٥/٦٧٩-٦٨٠/٣٩٢٦) وقال: «حسن صحيح غريب من هذا الوجه»، وصححه ابن حبان (٩/٢٣/٣٧٠٩)، والحاكم (١/٣٨٦) ووافقه الذهبي.

(٥) أخرجه: أحمد (٦/٢٣٢-٢٣٣)، والبخاري (١/٢٨-٢٩/٣)، ومسلم (١/١٣٩-١٤٢/١٦٠).

الدينية أو الدنيوية، ولذا قيل: الدخول فيها سعادة، والخروج منها شقاوة^(١).
 وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «واستبعد النبي ﷺ أن يخرجوه؛ لأنه لم يكن فيه سبب يقتضي الإخراج؛ لما اشتمل عليه من مكارم الأخلاق التي تقدم من خديجة وصفها^(٢). وقد استدل ابن الدغنة بمثل تلك الأوصاف على أن أبا بكر لا يخرج^(٣)»^(٤).

انظر تمة فوائده في سورة (الشورى) الآية (٧).

* * *

(١) المرقاة (٦٠٣/٥).

(٢) يعني قولها: واللّه ما يخزيك اللّه أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

(٣) أخرجه: أحمد (١٩٨/٦)، والبخاري (٥٩٩-٦٠٠/٢٢٩٧)، وأبو داود (٤٠٨٣/٣٤٣/٤) مختصراً عن عائشة رضي الله عنها، وفيه عند البخاري: أن ابن الدغنة وجد أبا بكر خارجاً فردّه وقال لكفار قريش: إن أبا بكر لا يخرج مثله ولا يُخرج، أخرجون رجلاً يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكلّ، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق!؟

(٤) فتح الباري (٣٥/١).

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ ﴿١٤﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : ﴿أَفَمَنْ كَانَ﴾ على برهان وحجة وبيان ﴿مِّن﴾ أمر ﴿رَّبِّهِ﴾ والعلم بوحداثيته ، فهو يعبد على بصيرة منه ، بأن له رباً يجازيه على طاعته إياه الجنة ، وعلى إساءته ومعصيته إياه النار ، ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ يقول : كمن حسن له الشيطان قبيح عمله وسيئه ، فأراه جميلاً ، فهو على العمل به مقيم ، ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ يقول : واتبعوا ما دعتهم إليه أنفسهم من معصية الله وعبادة الأوثان ، من غير أن يكون عندهم بما يعملون من ذلك برهان وحجة . وقيل : إن الذي عني بقوله : ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ نبينا عليه الصلاة والسلام ، وإن الذي عني بقوله : ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ هم المشركون»^(١).

قال ابن عاشور: «الاستفهام مستعمل في إنكار المماثلة التي يقتضيها حرف التشبيه .

والمقصود من إنكار المشابهة بين هؤلاء وهؤلاء هو تفضيل الفريق الأول ، وإنكار زعم المشركين أنهم خير من المؤمنين ؛ كما ظهر ذلك عليهم في مواطن كثيرة كقوله : ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾^(٢) ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾^(٣) ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوَكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾^(٤).

والمراد بالموصولين فريقان كما دل عليه قوله في أحدهما : ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ . . . وفي التعبير بوصف الرب وإضافته إلى ضمير الفريق تنبيه على زلفى الفريق الذي تمسك بحجة الله .

(٢) الأحقاف : الآية (١١) .

(٤) المؤمنون : الآية (١١٠) .

(١) جامع البيان (٤٨/٢٦) .

(٣) المطففين : الآية (٣٢) .

ومعنى وصف البينة بأنها من الله : أن الله أرشدهم إليها وحرك أذهانهم فامتثلوا وأدركوا الحق ، فالحجة حجة في نفسها ، وكونها من عند الله تزكية لها ، وكشف للتردد فيها وإتمام لدلالاتها ، كما يظهر الفرق بين أخذ العلم عن متضلع فيه ، وأخذه عن مستضعف فيه وإن كان مصيباً .

وهذا الفريق هم المؤمنون ، وهم ثابتون على الدين واثقون بأنهم على الحق . فلا جرم يكون لهم الفوز في الدنيا ؛ لأن الله يستر لهم أسبابه ، فإن قاتلوا كانوا على ثقة بأنهم على الحق ، وأنهم صائرون إلى إحدى الحسنين فقويت شجاعتهم ، وإن سالموا عُنوا بتدبير شأنه وما فيه نفع الأمة والدين ، فلم يألوا جهداً في حسن أعمالهم ، وذلك من آثار أن الله أصلح بالهم وهداهم .

والفريق الذي زين له سوء عمله هم المشركون ، فإنهم كانوا في أحوال السوأى من عبادة الأصنام والظلم والعدوان وارتكاب الفواحش ، فلما نبههم الله لفساد أعمالهم بأن أرسل إليهم رسولاً بين لهم صالح الأعمال وسيئاتها ؛ لم يدركوا ذلك ورأوا فسادهم صلاحاً ، فتزينت أعمالهم في أنظارهم ولم يستطيعوا الإقلاع عنها ، وغلب إلفهم وهواهم على رأيهم ، فلم يعبؤوا باتباع ما هو صلاح لهم في العاجل والآجل ، فذلك معنى قوله : ﴿ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ بإيجاز .

وبني فعل ﴿ زُيِّنَ ﴾ للمجهول ليشمل المزيين لهم من أئمة كفرهم ، وما سولته لهم أيضاً عقولهم الآفنة من أفعالهم السيئة اغتراراً بالإلف ، أو اتباعاً للذات العاجلة أو لجلب الرئاسة ؛ أي : زين له مزيين سوء عمله ، وفي هذا البناء إلى المجهول تنبيه لهم أيضاً ليرجعوا إلى أنفسهم فيتأملوا فيمن زين لهم سوء أعمالهم .

ولما كان تزيين أعمالهم لهم يبعثهم على الدأب عليها ، كان يتولد من ذلك إلفهم بها وولعهم بها ، فتصير لهم أهواء لا يستطيعون مفارقتها ؛ أعقب بقوله : ﴿ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ .

والفرق بين الفريقين بين للعاقل المتأمل ، بحيث يحق أن يُسأل عن مماثلة الفريقين سؤال من يعلم انتفاء المماثلة ، ويُنكر على من عسى أن يزعمها .

والمراد بانتفاء المماثلة الكناية عن التفاضل ، والمقصود بالفضل ظاهر ، وهو الفريق الذي وقع الثناء عليه^(١) .

(١) التحرير والتنوير (٢٦/٩٢-٩٤) .

وقال أبو السعود: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ تقرير لتباين حالي فريقَي المؤمنين والكافرين، وكون الأولين في أعلى عليين، والآخرين في أسفل سافلين، وبيان لعل ما لكل منهما من الحال. والهمزة للإنكار، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام، وقد قرئ بدونها. و﴿مِّن﴾ عبارة عن المؤمنين المتمسكين بأدلة الدين، وجعلها عبارة عن النبي عليه الصلاة والسلام، أو عنه وعن المؤمنين لا يساعده النظم الكريم، على أن الموازنة بينه عليه الصلاة والسلام وبينهم مما يأباه منصبه الجليل. والتقدير: أليس الأمر كما ذكر، فمن كان مستقرًا على حجة ظاهرة، وبرهان نير، من مالك أمره ومربيّه، وهو القرآن الكريم وسائر المعجزات والحجج العقلية، ﴿كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ من الشرك وسائر المعاصي، مع كونه في نفسه أقبح القبائح، ﴿وَاتَّبَعُوا﴾ بسبب ذلك التزيين ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ الزائغة، وانهمكوا في فنون الضلالات، من غير أن يكون لهم شبهة توهم صحة ما هم عليه، فضلًا عن حجة تدلّ عليه^(١).

قال ابن كثير: «يقول: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ أي: على بصيرة ويقين في أمر الله ودينه، بما أنزل الله في كتابه من الهدى والعلم، وبما جبله الله عليه من الفطرة المستقيمة، ﴿كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ و﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: ليس هذا كهذا، كقوله: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾^(٢)، وكقوله: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾^(٣)»^(٤).

* * *

(١) تفسير أبي السعود (٨/ ٩٥).

(٢) الرعد: الآية (١٩).

(٣) الحشر: الآية (٢٠).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣١٢).

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ (١٥)

★ غريب الآية:

مثل: المثل والمثل: بمعنى واحد، كالشبه والشبه.
آسن: يقال: آسن الماء يأسن ويأسن أسونا: إذا تغيرت رائحته.
حميماً: حاراً شديد الحرارة.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : صفة الجنة التي وعدها المتقون، وهم الذين اتقوا في الدنيا عقابه بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه، ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ يقول - تعالى ذكره - في هذه الجنة التي ذكرها أنهار من ماء غير متغير الريح . . . وقوله: ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ﴾ يقول - تعالى ذكره - : وفيها أنهار من لبن لم يتغير طعمه؛ لأنه لم يحلب من حيوان فيتغير طعمه بالخروج من الضروع، ولكنه خلقه الله ابتداءً في الأنهار، فهو بهيئته لم يتغير عما خلقه عليه.
وقوله: ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ يقول: وفيها أنهار من خمر لذة للشاربين يلتذون بشربها . . .

وقوله: ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ يقول: وفيها أنهار من عسل قد صُفّي من القذى، وما يكون في عسل أهل الدنيا قبل التصفية، وإنما أعلم - تعالى ذكره - عباده بوصفه ذلك العسل بأنه مصفى أنه خلق في الأنهار ابتداءً سائلاً جاريًا سيل الماء واللبن المخلوقين فيها، فهو من أجل ذلك مصفى، قد صفاه الله من الأقذاء التي تكون في عسل أهل الدنيا الذي لا يصفو من الأقذاء إلا بعد التصفية؛ لأنه كان في شمع

فصُفِّي منه . وقوله : ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ يقول -تعالى ذكره- : ولهؤلاء المتقين في هذه الجنة من هذه الأنهار التي ذكرنا من جميع الثمرات التي تتكون على الأشجار ، ﴿وَمَقْفَرَةٌ مِنْ رِيبِهِمْ﴾ يقول : وعفو من الله لهم عن ذنوبهم في الدنيا ، ثم تابوا منها ، وصفح منه لهم عن العقوبة عليها . وقوله : ﴿كَمَنْ هُوَ خَلِيدٌ فِي النَّارِ﴾ يقول -تعالى ذكره- : آمن هو في هذه الجنة التي صفتها ما وصفنا ، كمن هو خالد في النار . وابتدئ الكلام بصفة الجنة ، ف قيل : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ ولم يقل : آمن هو في الجنة . ثم قيل بعد انقضاء الخبر عن الجنة وصفتها : ﴿كَمَنْ هُوَ خَلِيدٌ فِي النَّارِ﴾ . وإنما قيل ذلك كذلك ، استغناء بمعرفة السامع الكلام ، ولدلالة قوله : ﴿كَمَنْ هُوَ خَلِيدٌ فِي النَّارِ﴾ على معنى قوله : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ . وقوله : ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ يقول -تعالى ذكره- : وسقي هؤلاء الذين هم خلود في النار ماء قد انتهى حره ، ﴿فَقَطَّعَ﴾ ذلك الماء من شدة حره ﴿أَمْعَاءَ حُمْرٍ﴾^(١) .

قال ابن عاشور : «وهذه الأصناف الخمسة المذكورة في الآية كانت من أفضل ما يتنافسون فيه ، ومن أعز ما يتيسر الحصول عليه ، فكيف الكثير منها ، فكيف إذا كان منها أنهار في الجنة . وتناول هذه الأصناف من التفكك الذي هو تنعم أهل اليسار والرفاهية . وقد ذكر هنا أربعة أشربة هي أجناس أشربتهم ، فكانوا يستجيدون الماء الصافي ؛ لأن غالب مياههم من الغدران والأحواض بالبادية تمتلئ من ماء المطر أو من مرور السيول ، فإذا استقرت أياماً أخذت تتغير بالطحلب ، وبما يدخل فيها من الأيدي والدلاء وشرب الوحوش ، وقليل البلاد التي تكون مجاورة الأنهار الجارية . وكذلك اللبن كانوا إذا حلبوا وشربوا أبقوا ما استفضلوه إلى وقت آخر ؛ لأنهم لا يحلبون إلا حلبة واحدة أو حلبتين في اليوم ، فيقع في طعم اللبن تغير .

فأما الخمر فكانت قليلة عزيزة عندهم لقلة الأعناب في الحجاز إلا قليلاً في الطائف ، فكانت الخمر تجتلب من بلاد الشام ومن بلاد اليمن ، وكانت غالية الثمن ، وقد ينقطع جلبها زماناً في فصل الشتاء لعسر السير بها في الطرق ، وفي أوقات الحروب أيضاً خوف انتهابها . والعسل هو أيضاً من أشربتهم ، قال تعالى في النحل : ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾^(٢) والعرب يقولون : سقاه عسلاً ،

(١) جامع البيان (٢٦/٤٩-٥٠) .

(٢) النحل : الآية (٦٩) .

ويقولون: أطعمه عسلًا. وكان العسل مرغوبًا فيه يجتلب من بلاد الجبال ذات النبات المستمر. فأما الثمرات فبعضها كثير عندهم كالتمر، وبعضها قليل كالرمان^(١).

قال ابن القيم: «ذكر سبحانه هذه الأجناس الأربعة، ونفى عن كل واحد منها الآفة التي تعرض له في الدنيا، فآفة الماء أن يأسن ويأجن من طول مكثه، وآفة اللبن أن يتغير طعمه إلى الحموضة وأن يصير قارصًا، وآفة الخمر كراهة مذاقها المنافي في اللذة وشربها، وآفة العسل عدم تصفيته، وهذا من آيات الرب تعالى أن تجري أنهار من أجناس لم تجر العادة في الدنيا بإجرائها، ويجريها في غير أخدود، وينفي عنها الآفات التي تمنع كمال اللذة بها، كما ينفي عن خمر الجنة جميع آفات خمر الدنيا من الصداع والغول والإنزاف وعدم اللذة، فهذه خمس آفات من آفات خمر الدنيا..»

فإن قيل: فقد وصف سبحانه الأنهار بأنها جارية، ومعلوم أن الماء الجاري لا يأسن، فما فائدة قوله: ﴿غَيْرَ آسِنٍ﴾؟ قيل: الماء الجاري وإن كان لا يأسن، فإنه إذا أخذ منه شيء وطال مكثه أسن، وماء الجنة لا يعرض له ذلك ولو طال مكثه ما طال.

وتأمل اجتماع هذه الأنهار الأربعة التي هي أفضل أشربة الناس، فهذا لشربهم وطهورهم، وهذا لقوتهم وغذائهم، وهذا للذتهم وسرورهم، وهذا لشفائهم ومنفعتهم، والله أعلم^(٢).

قال الشنقيطي: «أنهار الماء وأنهار الخمر التي ذكرها الله في هذه الآية بين بعض صفاتها في آيات أخرى، كقوله تعالى: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾^(٣) في آيات كثيرة، وقوله: ﴿وَمَاءٌ مَسْكُوبٌ﴾^(٤)، وقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ﴾^(٥)، وقوله: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾^(٦)، وقد بين تعالى من صفات خمر الجنة أنها لا تسكر شاربيها، ولا تسبب له الصداع الذي هو وجع الرأس في آيات من

(١) التحرير والتنوير (٩٦/٢٦).

(٢) حادي الأرواح (ص: ١٢٢-١٢٣).

(٣) البقرة: الآية (٢٥).

(٤) الواقعة: الآية (٣١).

(٥) المرسلات: الآية (٤١).

(٦) الغاشية: الآية (١٢).

كتابه، كقوله تعالى: ﴿لَا يَصْدَعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ﴾ (١٩) ﴿١﴾، وقوله: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ (٤٧) ﴿٢﴾ ﴿٣﴾.

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ كقوله: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمْنِينَ﴾ (٥٥) ﴿٤﴾ وقوله: ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ (٥٢) ﴿٥﴾ ﴿٦﴾.

وقال الشنقيطي: «هذه الآية الكريمة تدل على تعدد الأنهار مع تعدد أنواعها. وقد جاءت آية أخرى يوهم ظاهرها أنه نهر واحد، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَّاقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ (٥٤) ﴿٧﴾ ﴿٨﴾.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة أنهار الجنة

* عن حكيم بن معاوية عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة بحر الماء، وبحر العسل، وبحر اللبن، وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار بعد» (٩).

* فوائد الحديث:

قال الطيبي: «يريد بالبحر مثل دجلة والفرات ونحوهما، وبالنهر مثل نهر معقل حيث تشقق من أحدهما، ثم تشقق منه الجداول» (١٠).

قال القاري: «الظاهر أن المراد بالبحار المذكورة هي أصول الأنهار المسطورة في القرآن، كما قال تعالى: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾. وقوله: «ثم تشقق»، بحذف إحدى التاءين؛ أي: تفرق الأنهار إلى الجداول بعد تحقق الأنهار إلى بساتين الأبرار، وتحت قصور الأخيار، على أنه قد يقال: المراد بالبحار هي الأنهار، وإنما سميت أنهاراً لجريانها، بخلاف بحار الدنيا؛ فإن الغالب منها أنها في محل القرار» (١١).

(١) الواقعة: الآية (١٩).

(٣) أضواء البيان (٧/٤٢٥).

(٥) الرحمن: الآية (٥٢).

(٧) القمر: الآية (٥٤).

(٩) أخرجه: أحمد (٥/٥)، والترمذي (٤/٦٠٣/٢٥٧١) وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(١٠) شرح الطيبي (١١/٣٥٧٢).

(٢) الصافات: الآية (٤٧).

(٤) الدخان: الآية (٥٥).

(٦) تفسير القرآن العظيم (٧/٣١٤).

(٨) دفع إيهام الاضطراب (ص: ٢٢٩).

(١١) المرقاة (٩/٦١٦).

قال المناوي: «وخص هذه الأنهار بالذكر لكونها أفضل أشربة النوع الإنساني؛ فالماء لريّهم وطهورهم، والعسل لشفائهم ونفعهم، واللبن لقوتهم وغذائهم، والخمر لذتهم وسرورهم. وقدم الماء لأنه حياة النفوس، وثنى بالعسل؛ لأنه شفاء للناس، وثلث باللبن لأنه الفطرة، وختم بالخمرة إشارة إلى أن من حرمه في الدنيا لا يحرمه في الآخرة»^(١).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «من آمن بالله وبرسوله، وأقام الصلاة، وصام رمضان، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، جاهد في سبيل الله، أو جلس في أرضه التي ولد فيها. فقالوا: يا رسول الله! أفلا نبشر الناس؟ قال: إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتهم الله فاسألوه الفردوس؛ فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة - أراه قال: وفوقه عرش الرحمن - ومنه تفجر أنهار الجنة»^(٢).

* غريب الحديث:

الفردوس: الفردوس: هو البستان الذي فيه الكرم والأشجار، والجمع: فراديس، ومنه جنة الفردوس.

تفجر: بصيغة المجهول؛ أي: تشقق وتجري أنهار الجنة.

* فوائد الحديث:

قوله: «وفوقه عرش الرحمن»:

قال الحافظ: «والضمير في قوله: «وفوقه» للفردوس. وقال ابن التين: بل هو راجع إلى الجنة كلها. وتعقب بما في آخر الحديث هنا، ومنه «تفجر أنهار الجنة»؛ فإن الضمير للفردوس جزماً، ولا يستقيم أن يكون للجنان كلها، وإن كان وقع في رواية الكشميهني «ومنها تفجر» لأنها خطأ؛ فقد أخرج الإسماعيلي عن الحسن وسفيان عن إبراهيم بن المنذر شيخ البخاري فيه بلفظ: «ومنه»، بالضمير المذكر»^(٣).

(١) فيض القدير (٢/٤٦٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/٣٣٥)، والبخاري (٦/١٣/٢٧٩٠)، والترمذي (٤/٥٨٢/٢٥٢٩) مختصراً.

(٣) فتح الباري (١٣/٥٠٩).

قال القاري: «هذا يدل على أن الفردوس فوق جميع الجنان، ولذا قال ﷺ تعليمًا للأمة، وتعظيمًا للهمة: «فإذا سألتكم الله فاسألوه الفردوس»^(١).

قوله: «ومنه تفجر أنهار الجنة»:

قال ابن الملك: «وهي أربعة مذكورة في قوله تعالى: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ المراد منها أصول أنهار الجنة»^(٢).

وفي هذا الحديث من الفوائد: «الحث على ما يحصل به أقصى درجات الجنان، وهي الفردوس الأعلى؛ من المجاهدة مع العدو والنفس والشيطان، وإليه الإشار بقوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾»^(٣).

وفيه أن «أنهار الجنة تتفجر من أعلاها، ثم تنحدر نازلة إلى أقصى درجات»^(٤).

وقال الحافظ: «وفيه عظم الجنة وعظم الفردوس منها»^(٥).

قلت: وفي الحديث فوائد غير ما ذكر هنا قد تقدم استيفاء بيانها عند قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الآية (٧٢) من سورة (التوبة) فلتراجع.

* عن أبي وائل شقيق بن سلمة قال: «جاء رجل يقال له نهيك بن سنان إلى عبد الله فقال: يا أبا عبد الرحمن! كيف تقرأ هذا الحرف؟ ألفاً تجده أم ياءً: من ماء غير آسن أو من ماء غير ياسن؟ قال فقال عبد الله: وكل القرآن قد أحصيت غير هذا؟ قال: إني لأقرأ (المفصل) في ركعة. فقال عبد الله: هذا كهذا الشعر؟ إن أقواماً يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع، إن أفضل الصلاة الركوع والسجود، إني لأعلم النظائر التي كان رسول الله ﷺ يقرن بينهما: سورتين في كل ركعة، ثم قام عبد الله فدخل علقمة في إثره، ثم خرج فقال: قد

(٢) مبارق الأزهار (١/ ٣١٤).

(١) المرقاة (٩/ ٥٨٤).

(٣) قاله الطيبي في الكاشف (٨/ ٢٦٢٣).

(٤) قاله ابن القيم في حادي الأرواح (ص: ١٢٣).

(٥) فتح الباري (٦/ ١٦).

أخبرني بها»^(١).

★ غريب الحديث:

أحصيت: من أحصى الشيء: إذا عدّه.

هَذَا: بفتح الهاء وبالدال المعجمة المنونة، ومعناه: سرعة القراءة بغير تأمل كما ينشد الشعر. وأصل الهذ: سرعة الدفع.

لا يجاوز تراقيهم: التراقي: جمع ترقوة، وهي العظم الذي بين ثغرة النحر والعاتق، وهما ترقوتان من الجانبين، ووزنها فعلوة بالفتح، والمعنى: أن قراءتهم لا يرفعها الله ولا يقبلها، فكأنها لم تتجاوز حلقهم. وقيل: المعنى أنهم لا يعملون بالقرآن، ولا يثابون على قراءته، فلا يحصل لهم غير القراءة.

النظائر: جمع نظيرة: وهي المثل والشبه في الأشكال والأخلاق والأفعال والأقوال. أراد اشتباه بعضها ببعض في الطول. والنظير: المثل في كل شيء.

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «قوله للذي سأل ابن مسعود عن آسن: «كل القرآن قد أحصيته غير هذا الحرف» هذا محمول على أنه فهم منه أنه غير مسترشد في سؤاله؛ إذ لو كان مسترشدًا لوجب جوابه، وهذا ليس بجواب»^(٢).

(١) أخرجه: أحمد (٣٨٠/١)، والبخاري (١٠٨/٩-١٠٩/١٠٤٣)، ومسلم (٨٢٢/٥٦٣/١) واللفظ له، والترمذي (٦٠٢/٤٩٨/٢)، والنسائي (١٠٠٤/٥١٧-٥١٦/٢).

(٢) شرح صحيح مسلم (٩١/٦).

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۖ﴾ ﴿١٦﴾

★ غريب الآية:

أهواءهم: الأهواء: جمع هوى، وهو ما تميل إليه النفس من الباطل. سمي بذلك لأنه يهوي بصاحبه في النار.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : ومن هؤلاء الكفار يا محمد ﴿مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾، وهو المنافق، فيستمع ما تقول فلا يعيه ولا يفهمه؛ تهاونا منه بما تتلو عليه من كتاب ربك، وتغافلاً عما تقوله وتدعو إليه من الإيمان، ﴿حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾ قالوا إعلماً منهم لمن حضر معهم مجلسك من أهل العلم بكتاب الله، وتلاوتك عليهم ما تلوت، وقيل لك لهم ما قلت إنه لن يُصغوا أسما عنهم لقولك وتلاوتك: ﴿مَاذَا قَالَ﴾ لنا محمد ﴿آنِفًا﴾؟»^(١).

قال ابن عاشور: «وسياق الكلام يدل على ذم هذا السؤال لقوله عقبه: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، فهو سؤال ينبئ عن مذمة سائليه، فإن كان سؤالهم حقيقة أنباء عن قلة وعيهم لما يسمعون من النبي ﷺ، فهم يستعيدونه من الذين علموه، فلعل استعادتهم إياه لقصد أن يتدارسوه إذا خلوا مع إخوانهم؛ ليختلقوا مغامر يهيئونها بينهم، أو أن يجيبوا من يسألهم من إخوانهم عما سمعوه في المجلس الذي كانوا فيه. ويجوز أن يكون السؤال على غير حقيقته ناوین به الاستهزاء، يظهر للؤمنين اهتمامهم باستعادة ما سمعوه، ويقولون لإخوانهم: إنما نحن مستهزئون، أو أن يكون سؤالهم تعريضاً بأنهم سمعوا كلاماً لا يستبين المراد منه؛ لإدخال الشك في نفوس من يحسون منهم الرغبة في حضور مجالس النبي ﷺ؛

(١) جامع البيان (٢٦/٥٠).

تعريضاً لقلة جدوى حضورها .

ويجوز أن تكون الآية أشارت إلى حادثة خاصة ذكر فيها النبي ﷺ المنافقين وأحوالهم، وعلم الذين كانوا حاضرين منهم أنهم المعنيون بذلك، فأرادوا أن يسألوا سؤال استطلاع؛ هل شعر أهل العلم بأن أولئك هم المعنيون، فيكون مفعول ﴿يَسْمَعُ﴾ محذوفاً للعلم به عند النبي ﷺ^(١).

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾: يقول - تعالى ذكره - هؤلاء الذين هذه صفتهم هم القوم الذين ختم الله على قلوبهم، فهم لا يهتدون للحق الذي بعث الله به رسوله عليه الصلاة والسلام، ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ يقول: ورفضوا أمر الله، واتبعوا ما دعتهم إليه أنفسهم، فهم لا يرجعون مما هم عليه إلى حقيقة ولا برهان، وسوى - جل ثناؤه - بين صفة هؤلاء المنافقين وبين المشركين، في أن جميعهم إنما يتبعون فيما هم عليه من فراقهم دين الله، الذي ابتعث به محمداً ﷺ أهواءهم، فقال في هؤلاء المنافقين: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾، وقال في أهل الكفر به من أهل الشرك: ﴿كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾^(٢)»^(٣).

وقال شيخ الإسلام: «إنه ذم من لم يكن حظه من السماع إلا سماع الصوت دون فهم المعنى واتباعه، فقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عَمِيٌّ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾^(٥)، وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْمَعُ إِلَيْكَ حَقًّا إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾^(٦) وأمثال ذلك»^(٦).

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٠٠-١٠١).

(٢) محمد: الآية (١٤).

(٤) البقرة: الآية (١٧١).

(٦) مجموع الفتاوى (٥/ ١٥٨).

(٣) جامع البيان (٢٦/ ٥١).

(٥) الفرقان: الآية (٤٤).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ ١٧

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال الرازي: «لما بين الله تعالى أن المنافق يستمع ولا ينتفع، ويستعيد ولا يستفيد؛ بين أن حال المؤمن المهتدي بخلافه، فإنه يستمع فيفهم، ويعمل بما يعلم، والمنافق يستعيد، والمهتدي يفسر ويعيد، وفيه فائدتان:

إحداهما: ما ذكرنا من بيان التباين بين الفريقين.

وثانيهما: قطع عذر المنافق، وإيضاح كونه مذموم الطريقة، فإنه لو قال ما فهمته لغموضه وكونه معمى، يرد عليه ويقول: ليس كذلك، فإن المهتدي فهم واستنبط لوازمه وتوابعه، فذلك لعماء القلوب، لا لخفاء المطلوب»^(١).

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وأما الذين وفقهم الله لاتباع الحق، وشرح صدورهم للإيمان به وبرسوله؛ من الذين استمعوا إليك يا محمد؛ فإن ما تلوته عليهم وسمعوه منك ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾ يقول: زادهم الله بذلك إيماناً إلى إيمانهم، وبياناً لحقيقة ما جئتهم به من عند الله إلى البيان الذي كان عندهم. وقد ذكر أن الذي تلا عليهم رسول الله ﷺ من القرآن، فقال أهل النفاق منهم لأهل الإيمان: ماذا قال آتفاً، زاد الله أهل الهدى منهم هدى، كان بعض ما أنزل الله من القرآن ينسخ بعض ما قد كان الحكم مضى به قبل.

وقوله: ﴿وَأَتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وأعطى الله هؤلاء المهتدين تقواهم، وذلك استعماله إياهم تقواهم إياه»^(٢).

وقال السعدي: «بين حال المهتدين، فقال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا﴾ بالإيمان والانقياد، واتباع ما يرضي الله ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾ شكراً منه تعالى لهم على ذلك،

(١) مفاتيح الغيب (٢٨/٥٩-٦٠).

(٢) جامع البيان (٢٦/٥١-٥٢).

﴿وَأَنَّهُمْ تَقَوُّهُمْ﴾ أي: وفقهم للخير، وحفظهم من الشر، فذكر للمهتدين جزاءين: العلم النافع، والعمل الصالح^(١).

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/٧٢).

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾
فَأَنِّي لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ ﴿١٨﴾

★ غريب الآية:

أشراطها: علاماتها. واحدها: شَرَط، وأصله: الأعلام. وأشَرَط فلان نفسه
لأمر كذا؛ أي: أعلمها له وأعدّها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : فهل ينظر هؤلاء المكذبون بآيات الله من
أهل الكفر والنفاق إلا الساعة التي وعد الله خلقه بعثهم فيها من قبورهم أحياء؛ أن
تجيئهم فجأة لا يشعرون بمجيئها»^(١).

قال القرطبي: «وهذا وعيد للكفار»^(٢).

قال ابن كثير: «﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أي: أمارات اقترابها، كقوله تعالى: ﴿هَذَا
نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى﴾ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ الْأَازِفَةُ ﴿٥٧﴾»^(٣)، وكقوله: ﴿أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَ الْقَمَرُ﴾
﴿٥٨﴾»^(٤)، وقوله: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾^(٥)، وقوله: ﴿أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ
وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ ﴿٦٠﴾»^(٦)، فبعثة رسول الله ﷺ من أشراط الساعة؛ لأنه خاتم
الرسول الذي أكمل الله به الدين، وأقام به الحجة على العالمين، وقد أخبر صلوات
الله وسلامه عليه بآمارات الساعة وأشراطها، وأبان عن ذلك وأوضحه مما لم يؤته
نبي قبله، كما هو مبسوط في موضعه.

وقال الحسن البصري: بعثة محمد ﷺ من أشراط الساعة. وهو كما قال، ولهذا

(١) جامع البيان (٢٦/٥٢).

(٣) النجم: الآيتان (٥٦ و٥٧).

(٥) النحل: الآية (١).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٦/٢٤٠).

(٤) القمر: الآية (١).

(٦) الأنبياء: الآية (١).

جاء في أسمائه عليه السلام : أنه نبي التوبة، ونبي الملحمة^(١)، والحاشر الذي يحشر الناس على قدميه، والعاقب الذي ليس بعده نبي^(٢)»^(٣).

وقال الشنقيطي : « **﴿فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾** التحقيق إن شاء الله تعالى، في معنى هذه الآية الكريمة : أن الكفار يوم القيامة إذا جاءتهم الساعة؛ يتذكرون ويؤمنون بالله ورسوله، وأن الإيمان في ذلك الوقت لا ينفعهم لفوات وقته، فقوله : **﴿ذِكْرُهُمْ﴾** مبتدأ خبره **﴿فَأَنَّى لَهُمْ﴾** أي : كيف تنفعهم ذكراهم وإيمانهم بالله وقد فات الوقت الذي يقبل فيه الإيمان. والضمير المرفوع في **﴿جَاءَتْهُمْ﴾** عائد إلى الساعة التي هي القيامة.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن الكفار يوم القيامة يؤمنون ولا ينفعهم إيمانهم؛ جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى : **﴿وَقَالُوا ءَأَمْنَا بِهِ ءَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾** (٥٢) ^(٤)، وقوله تعالى : **﴿وَجَاءَتْ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَنذَكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾** (٥٣) ^(٥). وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة (الأعراف) في الكلام على قوله تعالى : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾** إلى قوله : **﴿أَوْ تُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾** ^(٦).

فظهر أن قوله : **﴿فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾** على حذف مضاف؛ أي : أنى لهم نفع ذكراهم.

والذكرى اسم مصدر بمعنى الاتعاظ الحامل على الإيمان^(٧).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في ذكر أشراف الساعة

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «بعثت أنا والساعة كهاتين،

(١) أخرجه : أحمد (٣٩٥/٤)، ومسلم (١٨٢٨-١٨٢٩/٤) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) أخرجه : أحمد (٨٠/٤)، والبخاري (٦٨٨/٦)، ومسلم (١٨٢٨/٤)، والترمذي (١٢٤/٥).

(٣) (٢٨٤٠)، والنسائي في الكبرى (٤٨٩/٦) من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه.

(٤) سبأ : الآية (٥٢).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٣١٥/٧).

(٦) الأعراف : الآية (٥٣).

(٧) الفجر : الآية (٢٣).

(٨) أضواء البيان (٧/٤٢٦-٤٢٧).

قال: وضم السبابة والوسطى^(١).

★ فوائد الحديث:

قال الحلبي: «ومعنى قول النبي ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين»؛ أي: أني أنا النبي الآخر، فلا يليني نبي آخر، وإنما تليني القيامة وهي مع ذلك دانية؛ لأن شرائطها متتابعة بيني وبينها، وذلك أنه أشار بإصبعيه المتجاورين إيماءً. إلا أن توليد الأنبياء عليهم السلام قد انقطع، فليس يتراخى الأمر بعده إلى أن تدرس شريعته ويبعث بعده نبي، وإنما تليه القيامة كما تلي السبابة الوسطى، وليست بينهما أصبع، وهذا لا يوجب أن يكون له علم بالساعة نفسها؛ لأن ما بين أول الأشرط وما بين آخر الأشرط والساعة غير معلوم، وإذا لم يكن معلومًا لم يوجب العلم بأول الأشرط ولا بدونها العلم بالساعة. والله أعلم.

وهذه الأشرط قد ذكرها الله جملة في القرآن فقال: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أي: دنت، وأولها النبي ﷺ؛ لأنه نبي آخر الزمان، وقد بعث وليس بينه وبين القيامة نبي، ثم بين النبي ﷺ ما يليه من الأشرط^(٢).

قلت: وقد قام النبي ﷺ ببيان هذه الأشرط التي أجمل الله تعالى ذكرها في كتابه بيانًا شافيًا كافيًا، وفصل أمرها للأمة تفصيلًا بليغًا وافيًا، لتكون على حذر تام مستمر من أمر الساعة وقيامها، وحتى لا تصيبهم غفلة فتبغتهم وهم عنها ساهون.

وقبل الشروع في ذكر هذه الأشرط - التي أراح النبي ﷺ النقاب عنها ورفع حجابها بتفصيل جملتها -؛ لا بد قبل الشروع في ذلك من التنبيه على بعض المسائل المهمة بين يدي هذا الموضوع، فنقول وبالله التوفيق:

المسألة الأولى: في بيان وجوب الإيمان والتصديق بكل ما أخبر به النبي ﷺ:

قال الموفق ابن قدامة المقدسي: «ويجب الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ، وصح به النقل عنه فيما شهدناه أو غاب عنا، نعلم أنه حق وصدق، وسواء في ذلك

(١) أخرجه: أحمد (١٣٠/٣)، والبخاري (١١/٤٢٢/٦٥٠٤)، ومسلم (٤/٢٢٦٨-٢٢٦٩/٢٢٩٥١/١٣٥) والسياق له، والترمذي (٤/٤٣٠/٢٢١٤).

(٢) المنهاج في شعب الإيمان (١/٣٤١).

ما عقلناه وجهلناه ولم نطلع على حقيقة معناه؛ مثل حديث الإسراء والمعراج، وكان يقظة لا منامًا، فإن قريشًا أنكرته وأكبرته، ولم تنكر المنامات. ومن ذلك أيضًا أن ملك الموت لما جاء إلى موسى عليه السلام ليقبض روحه لطمه ففقأ عينه، فرجع إلى ربه فرد عليه عينه^(١).

ومن ذلك أشراط الساعة، مثل خروج الدجال، ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام فيقتله، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج الدابة، وطلوع الشمس من مغربها، وأشباه ذلك مما صح به النقل^(٢).

والتصديق بأشراط الساعة «داخل في الإيمان بأن محمدًا رسول الله ﷺ؛ لأن من الإيمان به ﷺ تصديقه فيما أخبر به، وداخل في الإيمان بالغيب الذي امتدح الله المؤمنين به بقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ غَيْرِهِ﴾^(٣)، وداخل في الإيمان بالقدر، فإن سبيل علم الخلق بما قدره الله أمران:

أحدهما: وقوع الشيء، فكل ما كان ووقع علمنا أن الله قد شاءه؛ لأنه لا يكون ولا يقع إلا ما شاءه الله، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

الثاني: الإخبار بالشيء الماضي الذي وقع، وبالشئ المستقبل قبل وقوعه من الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ، فكل ما ثبت إخباره به من الأخبار في الماضي؛ علمنا بأنه كان على وفق خبره ﷺ، وكل ما ثبت إخباره عنه مما يقع في المستقبل؛ نعلم أن الله قد شاءه، وأنه لا بد وأن يقع على وفق خبره، كإخباره ﷺ بنزول عيسى عليه الصلاة والسلام في آخر الزمان، وإخباره بخروج المهدي، وبخروج الدجال، وغير ذلك من الأخبار^(٤).

فصل في بيان بعض ثمار وفوائد وقوع ما أخبر به ﷺ من المغيبات:

قال حمود التويجري: «وكل شيء أخبر النبي ﷺ أنه سيكون بعده فوق الأمر فيه

(١) أخرجه: أحمد (٢/٢٦٩)، والبخاري (٣/٢٦٥/١٣٣٩)، ومسلم (٤/١٨٤٢-١٨٤٣/٢٣٧٢)، والنسائي (٤/٤٢٤-٤٢٥/٢٠٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) البقرة: الآيات (١-٣).

(٣) لمعة الاعتقاد (ص: ٢٨-٣١).

(٤) قاله عبدالمحسن العباد في «عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر» (ص: ٢٢٢).

طبق ما أخبر به ﷺ؛ فهو من معجزاته وأعلام نبوته، وظهور المعجزات بعد زمان النبوة - ولا سيما في هذه الأزمان البعيدة من زمنه ﷺ - مما يزيد المؤمنين إيماناً به وتصديقاً بما أخبر به ﷺ من الغيوب الماضية والغيوب الآتية^(١).

المسألة الثانية: في بيان إفادة خبر الواحد العلم ووجوب الأخذ به في الإيمان بالغيبيات:

ليس التواتر في الإخبار عن المغيبات شرطاً لوجوب الإيمان بها، كما قد زعم ذلك بعض أهل البدع، ومن تبعهم من المتفقهة المقلدين وغيرهم من الجهلة العصريين وزنادقتهم؛ بل كل ما صح سنده إلى النبي ﷺ فالإيمان به واجب؛ سواء كان متواتراً، أو من أخبار الآحاد، وهذا قول أهل السنة والجماعة، وقد بسطنا القول في ذكر الحجج الدالة على إفادة أخبار الآحاد العلم القطعي اليقيني، والدالة على وجوب الأخذ بها في العقائد، والعمل بمقتضاها في الأحكام؛ في مقدمة كتابنا «المفسرون بين التأويل والإثبات في آيات الصفات»^(٢) بما أغنى عن إعادة ذلك هنا، والله ولي التوفيق، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

المسألة الثالثة: فيما ينبغي تجنبه من تنزيل النصوص على واقع معين:

قال محمد بن إسماعيل المقدم: «قد كان من هدي السلف الصالح رحمهم الله أنهم لا ينزلون أحاديث الفتن على واقع حاضر، وإنما يرون أصدق تفسير لها، وقوعها مطابقة لخبر النبي ﷺ، ولذلك نلاحظ أن عامة شارحي الأحاديث الشريفة كانوا يفيضون في شرحها، واستنباط الأحكام منها، حتى إذا أتوا على أبواب الفتن، وأشرط الساعة، أمسكوا أو اقتصدوا في شرحها للغاية، وربما اقتصروا على تحقيق الحديث، واكتفوا بشرح غريبه، بخلاف ما يحصل من بعض المتعجلين المتكلفين اليوم، بمجرد ظهور بوادر لأحداث معينة، سياسية كانت أو عسكرية، محلية أو عالمية؛ تستخفهم البُداءات، وتستفزهم الانفعالات، فيسقطون الأحاديث على أشخاص معينين، أو وقائع معينة، ثم لا تلبث الحقيقة أن تبين، ويكتشفوا أنهم تهوروا، وتعجلوا. وربما كان دافعهم نبيلاً، فهم يحسبون أن

(١) إتحاف الجماعة (١/٦-٧).

(٢) (١/٤٧٨-٥٠١).

إسقاط النبوءات على الواقع مما يزيد يقين المسلمين ، ويقوي إيمانهم ، ويمكنهم من إقامة الحجة على المكذبين بنبوة رسول الله ﷺ وفي هذا تأييد لدين الحق ، نقول : نعم ، ولكن بالشرط المذكور آنفاً ؛ لأن العجلة في مثل ذلك قد تأتي في عكس ما يشتهون ؛ إذ لو خيبت الأحداث - إذا اكتملت - ظنهم ، ربما كانت النتيجة عكسية عند الكفار ، وعند ضعاف المسلمين^(١) .

المسألة الرابعة : في تجنب تعيين التاريخ للملاحم والفتن التي جاءت النصوص بالإخبار عن وقوعها :

قال القرطبي : «والذي ينبغي أن يقال به في هذا الباب : أن ما أخبر به النبي ﷺ من الفتن والكوائن ؛ أن ذلك يكون ، وتعيين الزمان في ذلك من سنة كذا ؛ يحتاج إلى طريق صحيح يقطع العذر ، وإنما ذلك كوقت قيام الساعة ، فلا يعلم أحد أي سنة هي ، ولا أي شهر ، أما أنها تكون في يوم الجمعة في آخر ساعة منه ، وهي الساعة التي خلق الله فيها آدم ﷺ ، ولكن أي جمعة ؟ لا يعلم تعيين ذلك اليوم إلا الله وحده لا شريك له ، وكذلك ما يكون من الأشرار ؛ تعيين الزمان لها لا يعلم ، والله أعلم»^(٢) .

المسألة الخامسة : في بيان أن كون الشيء من أشرار الساعة لا يعني أنه حرام أو ممنوع :

قال النووي : «ليس كل ما أخبر ﷺ بكونه من علامات الساعة ، يكون محرماً أو مذموماً ، فإن تطاول الرعاء في البنيان ، وفشو المال ، وكون خمسين امرأة لهن قيم واحد ؛ ليس بحرام بلا شك ، وإنما هذه علامات ، والعلامة لا يشترط فيها شيء من ذلك ، بل تكون بالخير والشر ، والمباح والمحرم والواجب وغيره ، والله أعلم»^(٣) .

المسألة السادسة : في بيان حكمة تقديم الأشرار بين يدي الساعة :

قال السفاريني : «لما كان أمر الساعة شديداً ، وهولها مزيداً ، وأمرها بعيداً ؛ كان الاهتمام بشأنها أكثر من غيرها ، ولهذا أكثر النبي ﷺ من بيان أشرارها

(١) المهدي وفقه أشرار الساعة (ص : ٧٠٥-٧٠٦) .

(٢) التذكرة (٢/ ٤٧٧-٤٧٨) .

(٣) شرح صحيح مسلم (١/ ١٤٣) .

وأماراتها، وأخبر عما بين يديها من الفتن البعيدة والقريبة، ونبه أمته وحذرهم ليتأهبوا لتلك العقبة الشديدة»^(١).

قال الحليمي: «ثم إن الحِكم في تقديم الأشراف؛ دلالة الناس عليها، وإخبارهم بأن منها ما إذا وقع لم ينفع نفساً إيمانها، بتنبيه الناس عن رقذاتهم، وحثهم على الاحتياط لأنفسهم بالتوبة والإنابة؛ لئلا يباغتوا بالحول بينهم وبين تدارك الفوارط منهم، وليكونوا عند ظهور هذه الأشراف شيئاً فشيئاً، كالمريض إذا صادف إشراف الموت عليه، شيئاً فشيئاً، فإنه لا يألوا في ذلك الوقت أن يتوب ويوصي، وينظر لنفسه ولورثته وسائر أصحاب الوسائل عنده، ولذلك ينبغي للناس أن يكونوا بعد ظهور أشراف الساعة قد نظروا لأنفسهم، وانقطعوا عن الدنيا، واستبقوا الساعة واستعدوا لها، وبالله التوفيق»^(٢).

المسألة السابعة: في بيان جملة أقسام أشراف الساعة الواردة في الكتاب والسنة:

اعلم -رحمك الله- أنه قد اختلف العلماء في تقسيم الأشراف اختلافاً يسيراً، فمنهم من اعتبر في تقسيمها نوعها، فذهب إلى أن منها ما هو معتاد الوقوع، ومنها ما هو مستغرب خارق للعادة غير معتاد، كخروج الدابة وطلوع الشمس من مغربها. ومنهم من اعتبر في تقسيمها مكان ظهورها ووقوعها، فجعلها على قسمين: أشراف سماوية وهي المتعلقة بالأجرام السماوية كانشقاق القمر، وانتفاخ الأهلة، وطلوع الشمس من مغربها، وأخرى أرضية، وهي ما عدا الأولى، وهي كثيرة جداً. ومنهم من اعتبر في تقسيمها زمان ظهورها فذهب إلى أنها على ثلاثة أقسام: أشراف ظهرت وانقرضت؛ كموت النبي ﷺ، وقسم وقعت مبادئه أو ظهر الكثير منه ولم يستحكم؛ بل لا يزال ظهوره في تزايد حتى يستحكم، وقسم منها لم يقع شيء منه حتى الآن. ومنهم من ذهب إلى أنها على قسمين: صغرى وكبرى وهو أشهر التقسيمات، وعليه جرى عمل أكثر أهل العلم.

قال السخاوي: «والحاصل أن العلامات التي أخبر الشارع بأنها ستقع بعده قبل

(١) المسيح الدجال (ص: ٨).

(٢) المنهاج في شعب الإيمان (١/ ٣٤٢-٣٤٣)، وانظر التذكرة (ص: ٦٢٤-٦٢٥).

قيام الساعة مما في بعضها ما هو غير مذموم على أقسام :

أحدها : ما وقع على وفق ما قال : كتمني رؤيته ﷺ ، واقتتال الفتتين العظيمتين ، وقتال الترك ، وكثرة الهرج ، وظهور الفتن ، وتطاول الناس في البنيان ، وتمني بعض الناس الموت ، وأخذ أمته بأخذ القرون قبلها ، مما هو مندرج في علامات النبوة ، حيث وقع طبقاً للخبر . وفي كتاب «دلائل النبوة» للبيهقي وغيره مما هو بالأسانيد المقبولة الكثيرة .

ثانيها : وقعت مبادئه أو ظهر الكثير منه ولم يستحكم ، والمراد ما استحكم بحيث لم يبق مما يقابله إلا النادر ، فهذا هو الذي يعقبه قيام الساعة . ومن هذا القسم تقارب الزمان ، وكثرة الزلازل ، وإلقاء الشح ، وخروج الدجالين الكذابين ، وتوسيد الأمر إلى غير أهله ، وعدم قسم الميراث .

ثالثها : لم يقع منه إلى الآن شيء ، كطلوع الشمس من مغربها ، وإعلام الشجر وغيره باختفاء اليهود خلفه .

وهذا التقسيم أحسن من قول بعضهم : من العلامات ما هو أمانة لمجرد القرب كال دخان والخسف ، ومنها ما هو أمانة للحصول كال دجال ، وطلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة ، والنار التي تحشر الناس ، نسأل الله السلامة والخلاص إلى انتهاء القيامة^(١) .

المسألة الثامنة : ترتيب الأشراف :

وأما ترتيب هذه الأشراف والأمارات ؛ فالقول فيها كالقول في أقسامها ، بل هو تابع لها ؛ فإن ترتيبها وتصنيفها عند العلماء فرع تقسيمها ، وقد تبين أنه ليس لهذا ولا ذاك ضابط يعول عليه عند الرجوع إليه ، وإنما هو النظر والاجتهاد ، والله ولي التوفيق . وحسبي هنا أن آتي على ذكر معظم ما صحت به الأحاديث من الأشراف ، غير متقيد بتقسيم معين ، متجنباً للتكرار قدر الإمكان ، مراعيًا للاختصار ، مقتصرًا على ما لم يذكر من هذه الأشراف في حديث حذيفة بن أسيد ، المتضمن لذكر الآيات العشر العظام ، المتقدم ذكرها في مواضعها من كتابنا هذا ، والله ولي

(١) القناعة (ص : ١٣٢) .

التوفيق . ودونك هذه الأشرط :

فمنها : ارتفاع الأسافل وغير ذوي الأقدار من الرجال والنساء :

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « كان النبي ﷺ بارزاً يوماً للناس ، فأتاه رجل فقال : ما الإيمان ؟ قال : الإيمان أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وبلقائه ورسله ، وتؤمن بالبعث . قال : ما الإسلام ؟ قال : الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به ، وتقيم الصلاة ، وتؤدي الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان . قال : ما الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك . قال : متى الساعة ؟ قال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ، وسأخبرك عن أشراتها : إذا ولدت الأمة ربها ، وإذا تناول رعاة الإبل البهم في البنيان ، في خمس لا يعلمهن إلا الله . ثم تلا النبي ﷺ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ ^(١) الآية . ثم أدبر ، فقال : ردوه ، فلم يروا شيئاً . فقال : هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم » ^(٢) .

* غريب الحديث :

الأمة : الأمة هنا : هي الجارية المستولدة ، وربها سيدها .

رعاة : بالضم ، جمع راعي الغنم .

البهم : بضم الباء ، جمع بهيم ، وهو الأسود الذي لا يخالطه لون آخر .

* فوائد الحديث :

قوله : « متى الساعة ؟ » :

قال القرطبي : « مقصود هذا السؤال امتناع السامعين من السؤال عنها ؛ إذ قد كانوا أكثروا السؤال عن تعيين وقتها ، كما قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ ^(٣) و ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ﴾ ^(٤) ، وهو كثير في الكتاب والسنة ، فلما أجابه

(١) لقمان : الآية (٣٤) .

(٢) أخرجه : أحمد (٤٢٦/٢) ، والبخاري (١٥٣/١) ، ومسلم (٩/٣٩/١) ، وأبو داود (٤٦٩٨/٧٤/٥) ، والنسائي (٥٠٠٦/٤٧٦-٤٧٥/٨) ، وابن ماجه (٦٤/٢٥/١) .

(٣) الأعراف : الآية (١٨٧) .

(٤) الأحزاب : الآية (٦٣) .

النبي ﷺ بأنه لا يعلمها إلا الله؛ يثس السائلون من معرفتها، فانكفوا عن السؤال عنها، وهذا بخلاف الأسئلة الأخرى؛ فإن مقصودها استخراج الأجوبة عنها ليستعملها السامعون، ويعمل بها العاملون»^(١).

قوله: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»:

قال ابن كثير: «يعني قد استوى فيها علم كل مسؤول، وسائل بطريق الأولى والأخرى؛ لأنه إن كانت الألف واللام في «المسؤول» و«السائل» للعهد عائدة عليه وعلى جبريل، فكل أحد ممن سواهما لا يعلم ذلك بطريق الأولى والأخرى، وإن كانت للجنس عمت بطريق اللفظ، والله أعلم»^(٢).

قال ابن رجب: «وقوله: «وسأخبرك عن أشراطها»: لما كان العلم بوقت الساعة المسؤول عنه غير ممكن؛ انتقل منه إلى ذكر أشراطها، وهي علامتها الدالة على اقترابها، وهذا كما سأله الأعرابي: متى الساعة؟ فقال: «ما أعددت لها؟»^(٣)، فأعرض عن الجواب عن الساعة إلى ذكر الاستعداد لها؛ لأنه هو المأمور به، وهو الذي يعني السائل وغيره، وينبغي الاهتمام به.

وأما جبريل؛ فالظاهر - والله أعلم - أنه أراد بسؤاله عن الساعة إظهار انفراد الله بعلمها دون خلقه حتى ينقطع السؤال عنها، فقد كان النبي ﷺ كثيراً يسأل عنها حتى نزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفٌ إِلَّا هُوَ﴾^(٤)، ونزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفٌ إِلَّا هُوَ﴾^(٥).

وفي رواية عمر بن الخطاب لهذا الحديث: إن جبريل قال للنبي ﷺ: «أخبرني عن أماراتها» وقد ذكر لها النبي ﷺ في هذا الحديث علامتين: إحداهما: أن تلد الأمة ربها، والمراد بالرب: السيد، واختلف في معنى ذلك، فقيل: المراد أن يكثر فتوح بلاد الكفر والسبي، فيكثر السراري، فتلد الإماء الأولاد من سادتهن، وولد السيد بمنزلة السيد، فتصير الأمة ولدت ربها بهذا الاعتبار.

(١) المفهم (١/١٥٤-١٥٥).

(٢) النهاية (١/٢٠٢).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/١١٠)، والبخاري (١٠/٦٧٧/٦١٦٧)، ومسلم (٤/٢٠٣٢/٢٦٣٩)، وأبو داود (٥/

٥١٢٧/٣٤٥)، والترمذي (٤/٥١٣/٢٣٨٥) عن أنس رضي الله عنه.

(٤) النازعات: الآيات (٤٢-٤٤).

(٥) الأعراف: الآية (١٨٧).

ومن هؤلاء من قال : أريد أن الملوكة يتخذون السراري ، فتلد الإماء الملوكة ، وهم كالأرباب للناس .

ومنهم من قال : إن العجم تلد العرب ، والعرب كالأرباب للعجم ، قاله وكيع بن الجراح . .

وقيل : المراد بقوله : « تلد الأمة ربها » كثرة الفتوح في بلاد الكفار ، وجلب الرقيق حتى تجلب المرأة من بلد الكفر صغيرة فتعتق في بلد الإسلام ، ثم تجلب أمها بعدها فتشتريها البنت وتستخدمها جاهلة بكونها أمها ، وقد وقع ذلك في الإسلام .

وهذا القول مثل الذي قبله ؛ في أن من أشراط الساعة كثرة الفتوح وجلب الرقيق من بلاد الكفر .

وقيل : المراد بقوله « أن تلد الأمة ربها » : أن يكثر العقوق من الأولاد حتى يعامل الولد أمه معاملة أمته بالسب والإهانة ، ويشهد لهذا : أنه جاء في رواية : « أن تلد المرأة ربها » فلم يخصه بالأمة .

وقيل : المراد بقوله « أن تلد الأمة ربها » : أن يكثر الجهل ، ويقل العلم ، حتى تباع أمهات الأولاد ولهن أولاد ، فربما تداولها أيدي الملاك ، وتناولت المدد ، حتى يشتريها بعض أولادها ويستخدمها جاهلاً بأنها أمه . وفي هذا القول نظر وبعد . وعلى هذا القول والذي قبله : فالذي من أشراط الساعة هو كثرة الجهل وقلة العلم ، وفساد الأعمال بظهور العقوق ، والاستهانة ببيع ما لا يجوز بيعه .

وقيل : بل أراد بولادة الأمة ربها أنه يكثر عدول الناس عن النكاح إلى التسري فقط ، والله أعلم .

والعلامة الثانية : أن يتناول رعاية الإبل البهم في البنيان . . وتناولهم في البنيان : هو بمصيرهم ملوكاً ذوي ثروة وأموال . .

وهذا وقع في زمن بني أمية حيث كانوا يستعملون الأعراب الحفاة على الناس ، ويستعينون بهم على أعمالهم ، ثم لما انتقل الملك عن العرب إلى غيرهم انتقل إلى من كان ببلاده كذلك .

وفي هذا إشارة إلى أن من أشراط الساعة فساد ولاية الأمور بجهلهم وجفائهم ،

ويشهد لهذا الحديث الآخر: «إذا وكل الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»^(١).

والتطاول في البنيان من أشراط الساعة أيضًا. وقد خرج البخاري ومسلم من رواية أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يتطاول الناس في البنيان»^(٢)، وقد كان بناء النبي ﷺ للمساجد والبيوت قصيرًا^(٣).

قال القرطبي: «وقد اقتصر في هذا الحديث على ذكر بعض الأشرط التي يكون وقوعها قريبًا من زمانه، وإلا فالشروط كثيرة، وهي أكثر مما ذكر هنا، كما دل عليه الكتاب والسنة، ثم إنها منقسمة إلى ما يكون من نوع المعتاد، كهذه الأشرط المذكورة في هذا الحديث، وكرفع العلم، وظهور الجهل، وكثرة الزنى، وشرب الخمر، إلى غير ذلك، وأما التي ليست من النوع المعتاد: فكخروج الدجال، ونزول عيسى ابن مريم، وخروج يأجوج ومأجوج، ودابة الأرض، وطلوع الشمس من مغربها، والدخان، والنار التي تسوق الناس وتحشرهم على ما يأتي»^(٤).

ومنها: تكلم الرويبضة وتخوين الأمين واثتمان الخائن:

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «بينما النبي ﷺ في مجلس يحدث القوم جاءه أعرابي فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ يحدث. فقال بعض القوم: سمع ما قال فكره ما قال. وقال بعضهم: بل لم يسمع. حتى إذا قضى حديثه قال: أين أراه السائل عن الساعة؟ قال: ها أنا يا رسول الله! قال: فإذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة، قال: كيف إضاعتها؟ قال: إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»^(٥).

★ غريب الحديث:

وسد: معناه: أسند، وأصله: الوسادة.

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن بين يدي الساعة سنين خداعة، يصدق فيها الكاذب، ويكذب فيها الصادق، ويخون فيها الأمين، ويؤتمن فيها الخائن، ويتكلم فيها الرويبضة. قالوا: يا رسول الله! وما الرويبضة؟ قال:

(١) سيأتي تخريجه قريباً.

(٢) المفهم (١/١٥٥).

(٣) سيأتي تخريجه قريباً.

(٤) فتح الباري (١/٢١٦-٢٢٠).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/٣٦١)، والبخاري (١/١٨٨/٥٩).

الفويسق يتكلم في أمر العامة»^(١).

* عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لكع بن لكع»^(٢).

* غريب الحديثين:

خوادة: جمع خادعة؛ أي: قليلة الخير، فواسد.

الروبيضة: تصغير الرابضة، وهو العاجز الذي ربض عن معالي الأمور، وقعد عن طلبها، وزيادة التاء للمبالغة، والتافه الخسيس الحقير^(٣).

لكع: اللكع عند العرب: العبد، ثم استعمل في الحمق والذم، يقال للرجل: لُكِعُ، والمرأة: لُكَاع. وقد لُكِعَ الرجلُ يُلْكَعُ لُكْعًا، فهو ألكع؛ أي: اللئيم الوسخ^(٤).

* فوائد الأحاديث:

قال ابن بطال: «وإنما قصد ﷺ بذلك الخبر: أن من أماره قيام الساعة ارتفاع الأسافل وغير ذوي الأخطار من الرجال والنساء. ومن ارتفاع وضعاء الرجال ومن لا خطر له منهم، يحول الذين كانوا حفاة عراة عالة من الغنم؛ رعاة أهل الشرف في البنيان من الغنى وكثرة المال من بعد العيلة والفاقة، وهذا نظير قوله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لكع بن لكع» يعني العبيد والسفلة من الناس»^(٥).

وقال: «وقوله: «إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة» هو كلام مجمل، أحب الأعرابي السائل النبي ﷺ شرحه له فقال له: «كيف إضاعتها يا رسول الله؟ قال: إذا أسند الأمر إلى غير أهله». فأجابه ﷺ بجواب عام دخل فيه تضييع الأمانة، وما

(١) أخرجه: أحمد (٢٢٠/٣)، وأبو يعلى (٣٧٨/٦)، والبزار [كشف الأستار (٤/١٣٢/٣٣٧٣)]، وذكره الهيثمي في المجمع (٢٨٤/٧) وقال: «رواه البزار، وقد صرح ابن إسحاق بالسماع من عبدالله بن دينار، وبقية رجاله ثقات»، وجود إسناده الحافظ في الفتح (١٠٥/١٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٣٨٩/٥)، والترمذي (٤٢٧-٤٢٨/٤٢٠٩) وقال: «حديث حسن غريب». وصححه الألباني (صحيح الجامع [٧٤٣١]) (٣) النهاية (١٨٥/٢).

(٤) النهاية (٢٦٨/٤) بتصرف. (٥) شرح ابن بطال (١١٥-١١٦).

كان في معناها مما لا يجري على طريق الحق، كاتخاذ العلماء الجاهل عند موت أهل العلم، واتخاذ ولاية الجور وحكام الجور عند غلبة الباطل وأهله، وقد ذكر ابن أبي شيبه من حديث المقبري عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «سيأتي على الناس سنوات خداعات، يصدق فيها الكاذب، ويكذب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويخون فيها الأمين، وينطق الرويبضة». قيل: وما الرويبضة؟ قال: الرجل التافه يتكلم في أمر العامة»^(١).

وقد رأينا أكثر هذه العلامات، وما بقي منها فغير بعيد، روى ابن عيينة عن عبد العزيز بن رفيع قال: سمعت شداد بن معقل قال: سمعت ابن مسعود يقول: أول ما تفقدون من دينكم الأمانة، وآخر ما تفقدون الصلاة^(٢)»^(٣).

وقال: «قوله: «إذا وسد الأمر إلى غير أهله» معناه: أن الأئمة قد ائتمنهم الله على عبادته، وفرض عليهم النصيحة لهم؛ لقوله ﷺ: «كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته»^(٤). فينبغي لهم تولية أهل الدين والأمانة للنظر في أمر الأمة، فإذا قلدوا غير أهل الدين، واستعملوا من يعينهم على الجور والظلم؛ فقد ضيعوا الأمانة التي فرض الله عليهم.

وقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تقوم الساعة حتى يؤتمن الخائن ويستخون الأمين»^(٥). وهذا إنما يكون إذا غلب الجاهل، وضعف أهل الحق عن القيام به

(١) أخرجه: أحمد (٢/٢٩١)، وابن ماجه (٢/١٣٣٩/٤٠٣٦)، وصححه الحاكم (٤/٤٦٥-٤٦٦) ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه: الطبراني (٩/١٤١/٨٧٠٠)، وابن أبي شيبه (٧/٣٦٠/٣٥٨٧٨)، وعبد الرزاق (٣/٣٦٣/٥٩٨١)، والبيهقي في الكبرى (٦/٢٨٩)، وذكره الهيثمي في المجمع (٧/٣٣٠) وقال: «رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح غير شداد بن معقل وهو ثقة»، وصححه الحاكم (٤/٥٠٤) ووافقه الذهبي.

(٣) شرح صحيح البخاري (١٠/٢٠٦-٢٠٧).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/٥)، والبخاري (٥/٢٢٢/٢٥٥٤)، ومسلم (٣/١٤٥٩/١٨٢٩)، وأبو داود (٣/٣٤٢-٣٤٣/٢٩٢٨)، والترمذي (٤/١٨٠-١٨١/١٧٠٥)، والنسائي في الكبرى (٥/٣٧٤/٩١٧٣) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه بنحوه أحمد (٢/١٦٢)، وذكره الهيثمي في المجمع (٧/٢٨٤) وقال: أبو سبرة هذا اسمه سالم بن سبرة، قال أبو حاتم: مجهول. وقال الحاكم (١/٧٥-٧٦): «هذا حديث صحيح، فقد اتفق الشيخان على الاحتجاج بجميع رواته، غير أبي سبرة الهذلي وهو تابعي كبير مبين ذكره في المسانيد والتواريخ غير مطعون فيه»، ووافقه الذهبي، وجملة: «حتى يؤتمن الخائن ويخون الأمين» وردت في أحاديث بعضها في الباب.

ونصرته»^(١).

قوله: «فانتظر الساعة»:

قال المناوي: «لأنه قد جاء أشراتها . وإنما دل على دنو الساعة لإفضائه إلى اختلال الأمر والنهي، ووهن الدين، وضعف الإسلام، وغلبة الجهل، ورفع العلم، وعجز أهل الحق عن القيام به ونصرته، وللساعة أشراف كثيرة كبار وصغار، وهذا منها»^(٢).

قال ابن الملك: «فإن قلت: لم لم يقتصر في جواب السؤال الأول على قوله: «إذا ضيعت الأمانة»؟ قلنا: لو اقتصر لتوهم أنه وقت قيام الساعة، فزاد قوله: «فانتظر» لينبه على أنه من أماراتها، فعلى هذا لا يكون (إذا) شرطية، فإن قلت: كان ينبغي أن يأتي في السؤال الثاني بـ(متى) ليطابق الجواب، قلنا: مراد تقدير الكلام: متى تضيع الأمانة، وكيف حصول إضاعتها؟ فأجاب بقوله ﷺ: «إذا وسد الأمر»، ولم يشتغل ببيان كيفية التضييع لطوله، وإنما قال فيه أيضًا: «فانتظر الساعة» تنبيهًا على دنو الساعة إذ ذاك؛ لأن تغير الولاية وفسادهم مستلزم لتغير الرعايا، وعن هذا قيل: الناس على دين ملوكهم»^(٣)»^(٤).

ومنها: رفع العلم وظهور الجهل وكثرة الزنا وانتشار شرب الخمر وقلة الرجال وكثرة النساء:

* عن أنس رضي الله عنه قال: لأحدثنكم حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ لا يحدثكم به أحد غيري، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن من أشراف الساعة أن يرفع العلم، ويكثر الجهل، ويكثر الزنا، ويكثر شرب الخمر، ويقل الرجال، ويكثر النساء، حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد»^(٥).

★ فوائد الحديث:

في هذا الحديث من الفقه: أن من أشراف الساعة وأماراتها التي تقدم قيامها:

(١) شرح صحيح البخاري (١/١٣٨).

(٢) فيض القدير (١/٤٥١).

(٣) قال في تذكرة الموضوعات (ص: ١٨٣): «لا أعرفه حديثًا»، وكذا في المقاصد الحسنة (ص: ٤٤١).

(٤) مبارك الأزهار (٢/٦٤-٦٥).

(٥) أخرجه: أحمد (٣/٢٠٢)، والبخاري (٩/٤١٢)، ومسلم (٤/٢٠٥٦)، [٩]٢٦٧١، والترمذي (٤/

٤٢٦/٢٢٠٥)، والنسائي في الكبرى (٣/٤٥٥)، وابن ماجه (٢/١٣٤٣)، (٤٠٤٥).

رفع العلم وظهور الجهل، وفشو الزنا، وكثرة شرب الخمر، وانتشار ذلك، وقلة الرجال وكثرة النساء.

قال الحافظ: «وقال القرطبي في «المفهم»: في هذا الحديث علم من أعلام النبوة؛ إذ أخبر عن أمور ستقع، فوقعت خصوصاً في هذه الأزمان»^(١). قال ابن الجوزي: «وأما رفع العلم فيكون بشيئين: أحدهما: بموت العلماء، كما قال في حديث عبد الله بن عمرو: «ولكن يقبضه بقبض العلماء»^(٢)»^(٣).

قال القرطبي: «وهو - أي: حديث ابن عمرو رضي الله عنه - نص في أن رفع العلم لا يكون بمحوه من الصدور، بل بموت العلماء، وبقاء الجهال الذين يتعاطون مناصب العلماء في الفتيا والتعليم، يفتون بالجهل ويعلمونه، فينتشر الجهل ويظهر، وقد ظهر ذلك ووجد على نحو ما أخبر عليه السلام، فكان ذلك دليلاً من أدلة نبوته، وخصوصاً في هذه الأزمان؛ إذ قد ولي المدارس والفتيا كثير من الجهال والصبيان، وحرّمها أهل ذلك الشأن، غير أنه جاء في كتاب الترمذي عن جبير بن نفير عن أبي الدرداء: ما يدل على أن الذي يرفع هو العمل. قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «كنا مع النبي صلى الله عليه وآله، فشخص ببصره إلى السماء، ثم قال: هذا أوان يختلس فيه العلم من الناس حتى لا يقدرُوا منه على شيء». فقال زياد بن لبيد الأنصاري: وكيف يختلس منا وقد قرأنا القرآن؟ فوالله لنقرأه، ولنقرئته نساءنا وأبناءنا. فقال: «ثكلتك أمك يا زياد! إن كنت لأعدّك من فقهاء أهل المدينة، هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى، فماذا تغني عنهم؟». قال: فلقيت عبادة بن الصامت، فقلت: ألا تسمع إلى ما يقول أخوك أبو الدرداء؟ فأخبرته بالذي قال أبو الدرداء، قال: «صدق أبو الدرداء، إن شئت لأحدثنك بأول علم يرفع: الخشوع، يوشك أن تدخل المسجد الجامع فلا ترى فيه رجلاً خاشعاً»^(٤)، قال: هذا حديث حسن غريب. وقد

(١) فتح الباري (١/٢٣٨).

(٢) أخرجه: أحمد (١٦٢/٢)، والبخاري (١/٢٥٨/١٠٠)، ومسلم (٤/٢٠٥٨/٢٦٧٣)، والترمذي (٥/٣١/٢٦٥٢)، والنسائي في الكبرى (٣/٤٥٥-٤٥٦/٥٩٠٧)، وابن ماجه (١/٢٠/٥٢).

(٣) كشف المشكل (٣/٢٣٢).

(٤) أخرجه الترمذي (٥/٣١-٣٢/٢٦٥٣) وقال: «هذا حديث حسن غريب، ومعاوية بن صالح ثقة عند أهل الحديث، ولا نعلم أحداً تكلم فيه غير يحيى بن سعيد القطان»، وصححه الحاكم (١/٩٩)، ووافقه الذهبي.

خرجه النسائي من حديث جبير بن نفير أيضًا عن عوف بن مالك الأشجعي من طرق صحيحة^(١). وظاهر هذا الحديث أن الذي يرفع إنما هو العمل بالعلم، لا نفس العلم، وهذا بخلاف ما ظهر من حديث عبد الله بن عمرو، فإنه صريح في رفع العلم. قلت: ولا تباعد فيهما، فإنه إذا ذهب العلم بموت العلماء، خلفهم الجهال، فأفتوا بالجهل فعمل به، فذهب العلم والعمل، وإن كانت المصاحف والكتب بأيدي الناس، كما اتفق لأهل الكتابين من قبلنا، ولذلك قال رسول الله ﷺ لزياد على ما نص عليه النسائي: «ثكلتك أمك زياد! هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى؟»^(٢) وذلك أن علماءهم لما انقضوا خلفهم جهالهم، فحرفوا الكتاب، وجعلوا المعاني، فعملوا بالجهل، وأفتوا به، فارتفع العلم والعمل، وبقيت أشخاص الكتب لا تغني شيئًا^(٣).

قال ابن الجوزي: «والثاني: بخساسة الهمم واقتناعها باليسير منه، فإنها إذا دنت قصرت، وكشف هذا أنك إذا تأملت من سبق من العلماء؛ رأيت كل واحد منهم يفتن في العلوم ويرتقي في كل فن إلى أقصاه، حتى رويناه عن الشعبي أنه قال: ما أروي أقل من الشعر، ولو شئت لأنشدتكم شهرًا لا أعيد. أخبرنا القزاز قال: أنبأنا أحمد بن علي الحافظ قال: حدثنا الصوري قال: سمعت رجاء بن محمد بن عيسى المعدل يقول: سألت الدارقطني فقلت له: رأى الشيخ مثل نفسه؟ فقال: إن كان في فن واحد فقد رأيت من هو أفضل مني، وأما من اجتمع فيه ما اجتمع في فلا. ثم إن الرغبات فترت في العلم، فصار صاحب الحديث يقتصر على ما علا إسناده ويعرض عن الفقه، فلو وقعت مسألة في الطهارة لم يهتد لجوابها، وصار الفقيه يقتصر على ما كتب في التعليقة، ولا يدري هل الحديث الذي بنى عليه الحكم صحيح أم لا، وصار اللغوي يشتغل بحفظ ألفاظ العرب، ولا يلتفت إلى الفقه،

(١) أخرجه: أحمد (٢٦/٢٧-٢٧)، والنسائي في الكبرى (٣/٤٥٦/٥٩٠٩)، وصححه ابن حبان (١٠/٤٣٣/٤٥٧٩)، والحاكم (١/٩٨-٩٩)، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه: أحمد (٤/١٦٠)، وابن ماجه (٢/١٣٤٤/٤٠٤٨)، قال البوصيري: «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات إلا أنه منقطع، قال البخاري في التاريخ الصغير: لم يسمع سالم بن أبي الجعد من زياد بن ليلى، وتبعه على ذلك الذهبي في الكاشف». وللحديث شاهدان من حديث عوف بن مالك وأبي الدرداء رضي الله عنهما.

(٣) المفهم (٦/٧٠٥-٧٠٨).

فهذا رفع العلم . ثم له رفع من حيث المعنى : وهو أنا إذا وجدنا العالم المتقن قد مال إلى الدنيا وتشاغل بخدمة السلاطين ، والتردد إليهم غير أمر بالمعروف ولا ناه لهم عن المنكر ، وانعكف على اللذات ، وربما مزجها بحرام كلبس الحرير ، لم يبق لعلمه نور عند المقتبس ، فصار كالطبيب المخلط ، لا يكاد يقبل قوله في الحمية ، فمات العلم عنده وهو موجود ، نسأل الله ﷻ عزماً مجداً لا فتور فيه ، وعملاً خالصاً لا رياء معه^(١) .

قوله : «ويكثر الزنا» ، وفي رواية : «ويظهر الزنا» :

قال الحافظ : «ليس المراد تجدد وجوده ؛ فإنه كان موجوداً ، وإنما المراد شهرته وكثرته ، كما وقع في رواية مسلم : «ويفشو الزنا»^(٢) .

قوله : «ويكثر شرب الخمر» : قال الكرمانى : «فإن قلت : شرب الخمر كيف يكون من علاماتها ، والحال أنه كان واقعاً في جميع الأزمان ، وقد حد رسول الله ﷺ بعض الناس لشربه إياها؟^(٣) قلت : المراد أن يشرب شرباً فاشياً ، أو أن نفس الشرب وحده ليس علامة ، بل العلامة مجموع الأمور المذكورة»^(٤) .

وقال القسطلاني : «فالمطلق محمول على المقيّد خلافاً لمن ذهب إلى أنه لا يجب حمله عليه ، والاحتياط بالحمل ههنا أولى ؛ لأن حمل كلام النبوة على أقوى محامله أقرب ؛ فإن السياق يفهم أن المراد بأشراط الساعة وقوع أشياء لم تكن معهودة حين المقالة ، فإذا ذكر شيئاً كان موجوداً عند المقالة ؛ فحمله على أن المراد بجعله علامة أن يتصف بصفة زائدة على ما كان موجوداً كالثرة والشهرة أقرب»^(٥) .

قوله : «ويقل الرجال ويكثر النساء» :

قال الكرمانى : «أي : بسبب تلاحم الفتن وقتل الرجال فيها ، كما ورد في المواضع الأخر . ويكفي كثرتهم في قلة العلم وظهور الجهل والزنا ؛ لأن النساء

(١) كشف المشكل (٣/ ٢٣٢-٢٣٣) .

(٢) انتقاض الاعتراض (١/ ١٢١) .

(٣) أخرجه : أحمد (٣/ ١٧٦) ، والبخاري (١٢/ ٧٤/ ٦٧٧٣) ، ومسلم (٣/ ١٣٣٠/ ١٧٠٦) ، وأبو داود (٤/

٦٢١/ ٤٤٧٩) ، والترمذي (٤/ ٣٨/ ١٤٤٣) ، والنسائي في الكبرى (٣/ ٢٤٩/ ٥٢٧٣) ، وابن ماجه (٢/

٨٥٨/ ٢٥٧٠) عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ أتى برجل شرب الخمر فجلبه بجريدتين نحو أربعين . .

الحديث .

(٥) إرشاد الساري (١/ ٣١٥) .

(٤) شرح صحيح البخاري (١/ ٢/ ٦٠) .

حبائل الشيطان، وهن ناقصات عقل ودين»^(١).

قال الحافظ: «وقال أبو عبد الملك: هو إشارة إلى كثرة الفتوح، فتكثر السبايا، فيتخذ الرجل الواحد عدة موطوءات. قلت: وفيه نظر؛ لأنه صرح بالقلة في حديث أبي موسى الآتي في الزكاة عند المصنف فقال: «من قلة الرجال وكثرة النساء»، والظاهر أنها علامة محضة لا لسبب آخر، بل يقدر الله في آخر الزمان أن يقل من يولد من الذكور ويكثر من يولد من الإناث، وكون كثرة النساء من العلامات مناسبة لظهور الجهل ورفع العلم»^(٢).

وقال أيضًا: «قوله: «القيم الواحد»؛ أي: الذي يقوم بأمورهن، ويحتمل أن يكنى به عن اتباعهن له لطلب النكاح حلالًا أو حرامًا»^(٣).

وقال أيضًا **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: «واللام للعهد إشعارًا بما هو معهود من كون الرجال قوامين على النساء»^(٤).

قال الكرمانى: «فإن قلت: هل لتخصيص هذه الأمور بالذكر فائدة معلومة؟ قلت -والله أعلم-: يحتمل أن يكون ذلك لأنها مشعرة باختلال الضرورات الخمس الواجبة رعايتها في جميع الأديان التي بحفظها صلاح المعاش والمعاد، ونظام أحوال الدارين، وهي الدين والعقل والنفس والنسب والمال، فرفع العلم مخل بحفظ الدين، وشرب الخمر بالعقل، وبالمال أيضًا، وقلة الرجال بسبب الفتن، وظهور الزنا بالنسب، وكذا بالمال غالبًا، فإن قلت: لم كان اختلال هذه الأمور من علاماتها؟ قلت: لأن الخلائق لا يتركون سدى، ولا نبي بعد هذا الزمان، فتعين خراب العالم وقرب القيامة»^(٥).

ومنها: قتال المسلمين لليهود والترك ولقوم ينتعلون الشعر:

* عن عمرو بن تغلب **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قال: قال النبي **ﷺ**: «إن من أشراط الساعة أن تقاتلوا قومًا ينتعلون نعال الشعر، وإن من أشراط الساعة أن تقاتلوا قومًا عراض

(١) شرح صحيح البخاري (١/ ٢/ ٦١).

(٢) فتح الباري (١/ ٢٣٧).

(٣) فتح الباري (٩/ ٤١٣).

(٤) فتح الباري (١/ ٢٣٩).

(٥) شرح صحيح البخاري (١/ ٢/ ٦١-٦٢).

الوجوه، كأن وجوههم المجان المطرقة»^(١).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا الترك، صفار الأعين، حمر الوجوه، ذلف الأنوف، كأن وجوههم المجان المطرقة، ولا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قومًا نعالهم الشعر»^(٢).

* غريب الحديثين:

ذلف الأنوف: بضم الذا والمعجمة: جمع الأذلف، وهو صغر الأنف مستوي الأرنبة، وهو الفطس. وقيل: قصر الأنف وانبطاحه، ورواه بعضهم بدال مهملة. وقال ابن قرقول: وقيدناه بالوجهين، وبالمعجمة أكثر. وقيل: تشمير الأنف عن الشفة، وعن ابن فارس: الذلف الاستواء في طرف الأنف، والعرب تقول: أملح النساء الذلف. والأنوف: جمع أنف، مثل: فلس فلوس، ويجمع على أنف وإناف. وفي المخصص: هو جمع المنخر، وسمي أنفًا لتقدمه.

المجان المطرقة: أي: التراس التي ألست العقب شيئًا فوق شيء. ومنه طارق النعل: إذا صيرها طاقًا فوق طاق، وركب بعضها فوق بعض، ورواه بعضهم بتشديد الراء للتكثير، والأول أشهر. شبه وجوههم بالترس: لبسطها وتدويرها، وبالمطرقة: لغلظها وكثرة لحمها.

* فوائد الحديثين:

قال الحافظ: «هذا والحديث الذي بعده ظاهر في أن الذين ينتعلون الشعر غير الترك، وقد وقع للإسماعيلي من طريق محمد بن عباد قال: بلغني أن أصحاب بابك كانت نعالهم الشعر»^(٣).

قال ابن أبي جمرة: «ظاهر الحديث يدل على أن الرهطين المذكورين فيه إذا ظهرا فهو علم على اقتراب الساعة، والكلام عليه من وجهين:

(١) أخرجه: أحمد (٥/٧٠)، والبخاري (٦/١٢٩/٢٩٢٧)، وابن ماجه (٢/١٣٧٢/٤٠٩٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/٥٣٠)، والبخاري (٦/١٢٩/٢٩٢٨)، ومسلم (٤/٢٢٣٣/٢٩١٢/٦٥)، وأبو داود (٤/٤٠٩٧).

(٣) الفتح (٦/١٣٠). وانظر شرح مسلم للنووي (١٨/٣٠).

الوجه الأول: فيه دليل على أن معجزات النبي ﷺ على قسمين: مشاهد مرئي، وأخبار يؤمن بها ويصدق، وكل الأمة اجتمع في ذلك أولهم وآخرهم، وإن كان النبي ﷺ قد انتقل إلى الآخرة، لكن معجزاته ﷺ لم تزل باقية مستمرة إلى قيام الساعة، بيان ذلك: أن الصحابة رضوان الله عليهم عاينوا ما كان في زمانهم من معجزات النبي ﷺ مما أظهر الله على يديه، وآمنوا بما أخبر به مما يأتي بعدهم، وأهل هذا الزمان قد حصل لهم الإيمان بمشاهدة ما ورد في هذا الحديث وأشباهه، والتصديق بما رأى الصحابة رضوان الله عليهم، والإيمان بما يأتي بعد، وكذلك من يأتي بعدهم لا بد من معجزات يشاهدونها، وذلك مستمر لا ينقطع إلى قيام الساعة، وهذا من الأدلة الظاهرة على علو منزلته ﷺ، التي لم تزل معجزاته مشاهدة إلى يوم القيامة.

الوجه الثاني: خروج هذين الرهطين المذكورين، هل هو دال على الآخرة كما أخبر ﷺ لا غير؟ أو فيه معنى زائد على ما يظهر من صيغة لفظه؟ محتمل للوجهين معاً، والمعنى الزائد هو أن يكون ذلك من جملة الفتن التي تكون عند اقتراب الساعة، مع ما فيه من الدلالة على قرب القيامة، فإن كان دالاً على قرب الآخرة ليس إلا، فتكون فائدة الإخبار به أن يقطع الأمل من هذه الدار عند معاينة ذلك؛ إذ إنها قد انصرفت، والإقبال على الآخرة والعمل على الخلاص فيها إذ إنها قد قربت، فظهر منه ﷺ هنا ما أخبر ﷺ عنه في كتابه حيث وصفه بقوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَجِيمٌ﴾^(١)؛ لأنه ﷺ نظر الخير لأمته بكل ممكن أمكنه من أخبار أو حال، وإن كان المراد بالإخبار به أن يعلم أن ما ذكر فيه من جملة الفتن، مع كونه دالاً على قرب قيام الساعة، فتكون الفائدة فيه المسارعة إلى أخذ الدواء الذي به يقع الخلاص من الفتن، والدواء هو ما قد نص ﷺ عليه في غير هذا الحديث حين ذكر الفتن فقليل له: ما تأمرنا إن أدركنا ذلك؟ قال ﷺ: «الجؤوا إلى الإيمان والأعمال الصالحات»^(٢)، وهذا الوجه الأخير هو الأظهر والله أعلم، وهو

(١) التوبة: الآية (١٢٨).

(٢) ثبت بنحوه أخرجه: أحمد (٤٢٨/١)، والبخاري (٣٦٠٣/٧٥٩/٦) عن ابن مسعود ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إنها ستكون فتن وأمور تنكرونها، قالوا: يا رسول الله! فما تأمرنا؟ قال: تؤدون الحق الذي عليكم، وتسالون الله ﷻ الذي لكم».

أن يكون المراد بسياق الحديث المعنيين اللذين ذكرناهما في هذا الوجه الأخير،
بدليل قوله ﷺ: «اتركوا مقاتلة الترك ما تركوكم»^(١)، فلو أنهم من جملة الفتن ما
حض ﷺ على ترك قتالهم ما لم يبدؤوا بالقتال، وأمر بقتال غيرهم من الكفار
مطلقاً، ولأن معنى قوله ﷺ: «الجؤوا إلى الإيمان والأعمال الصالحات» يظهر
من قوة الإخبار بهذا الحديث؛ إذ إن الفتن لا تقع إلا لضعف في الإيمان، أو فترة
في كماله، فقد ظهر ما أخبر به ﷺ، فوجب الامتثال لما أمر به، فمن رزق التوفيق
لا امتثال ما أمر به؛ ضمن له الخلاص بمقتضى الوعد الجميل، والحذر الحذر لمن
أراد الخلاص أن يلتفت لفساد الوقت، ولا للخلل الواقع في الأحوال؛ لأن ذلك
سبب للهلاك، جعلنا الله ممن قوى إيمانه، وأصلح عمله»^(٢).

قال ابن كثير: «المقصود أن الترك قاتلهم الصحابة، فهزموهم وغنموهم وسبوا
نساءهم وأبناءهم، وظاهر هذا الحديث يقتضي أن هذا يكون من أشراط الساعة، لا
يكون إلا بين يديها قريباً، فقد يكون هذا واقعاً مرات عديدة بين المسلمين والترك،
حتى يكون آخر ذلك خروج يأجوج ومأجوج. . وإن كان أشراط الساعة أعم من أن
يكون بين يديها قريباً منها، أو يكون مما يقع في الجملة، حتى ولو تقدم قبلها بدهر
طويل، إلا أنه مما يقع بعد زمان النبي ﷺ، وهذا الذي يظهر بعد تأمل الأحاديث
الواردة في هذا الباب»^(٣).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا
اليهود، حتى يقول الحجر وراءه اليهودي: يا مسلم! هذا يهودي ورائي فاقتله»^(٤).

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «هذا إنما يكون - والله أعلم - بعد قتل الدجال؛ فإن اليهود هم
أكثر أتباعه»^(٥).

(١) أخرجه: أبو داود (٤٨٥-٤٨٦/٤)، والنسائي (٣٥٠-٣٥١/٦)، وفي الكبرى (٢٨-٢٩/٣).
(٤٣٨٥).

(٢) النهاية في الفتن والملاحم (٩/١).

(٣) بهجة النفوس (١٣٠-١٣١).

(٤) أخرجه: أحمد (٤١٧/٢)، والبخاري (٢٩٢٦/٦)، ومسلم (٢٩٢٢/٢٢٣٩/٤).

(٥) المفهم (٢٥١/٧).

قال ابن بطال: «قال المهلب: في هذا الحديث دليل على ظهور الآيات بتكلم الجماد عند نزول عيسى ابن مريم، الذي يستأصل الدجال واليهود معه. وفيه دليل على بقاء دين محمد ودعوته بعد نزول عيسى ابن مريم؛ لقوله: «تقاتلوا»، ولا يكونوا مخاطبين بالقتال إلا وهم على دينهم؛ لجواز علم النبي ﷺ أن الذين يقاتلون الدجال غير من يخاطب بالحضرة، لكن خاطب من بالحضرة لمجيء من بعدهم على مذهبهم، وهذا في كتاب الله كثير، خاطب من الحضرة ما يلزم الغائبين الذين لم يخلقوا بعد»^(١).

ومنها: تباهي الناس في المساجد:

* عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد»^(٢).

★ فوائد الحديث:

في هذا الحديث: «دليل على أن التباهي في المساجد من أشرط الساعة»^(٣).
قال القاري: «من علامات القيامة: أن يتباهى الناس في المساجد؛ أي: في شأنها أو بنائها، يعني يتفاخر كل أحد بمسجده ويقول: مسجدي أرفع، أو أزين أو أوسع أو أحسن، رياءً وسمعةً، واجتلاباً للمدحة»^(٤).

قال في «عون المعبود»: «قال ابن رسلان: هذا الحديث فيه معجزة ظاهرة لإخباره ﷺ عما سيقع بعده، فإن تزويق المساجد والمباهاة بزخرفتها كثر من الملوك والأمراء في هذا الزمان، بالقاهرة والشام وبيت المقدس، بأخذهم أموال الناس ظلمًا، وعمارتهن بها المدارس على شكل بديع، نسأل الله السلامة والعافية. انتهى»^(٥).

(١) شرح البخاري (١٠٧/٥-١٠٨).

(٢) أخرجه: أحمد (١٤٥/٣)، وأبو داود (٤٤٩/٣١١/١)، والنسائي (٣٦١-٣٦٢/٢)، وابن ماجه (١/١)، وصححه ابن خزيمة (٢٨١-٢٨٢/٢)، وابن حبان (الإحسان ٤/٤٩٣/١٦١٤).

(٣) أفاده ابن خزيمة في صحيحه (٢٨١/٢). (٤) المرقاة (٢/٤٢٢).

(٥) (١١٨/٢). ولمزيد الفائدة ينظر المنهل (٤٤-٤٥/٤)، والفتح (٧١١/١).

ومنها : عودة الجزيرة العربية جنائنا خضرة نضرة وأنهارا جارية :

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى يكثر المال ويفيض ، حتى يخرج الرجل بزكاة ماله فلا يجد أحدا يقبلها منه ، وحتى تعود أرض العرب مروجًا وأنهارًا »^(١).

* غريب الحديث:

المروج : جمع مرج ، وهي الأرض الواسعة ذات نبات كثير ، تمرج فيه الدواب ؛ أي : تخلق تسرح مختلطة كيف شاءت .

* فوائد الحديث:

في هذا الحديث : «إخبار النبي ﷺ بما يكون ، ولا بد من كونه إن كان قاله ، فإنه لا يقول إلا حقًا»^(٢).

قال الألباني رحمه الله : «وقد بدأت تبشير هذا الحديث تتحقق في بعض الجهات من جزيرة العرب ، بما أفاض الله عليها من خيرات وبركات ، وآلات ناضحات تستنبط الماء الغزير من بطن أرض الصحراء»^(٣).

وقال النووي : «قوله ﷺ : «حتى تعود أرض العرب مروجًا وأنهارًا» معناه - والله أعلم - أنهم يتركونها ويعرضون عنها ، فتبقى مهملة لا تزرع ولا تسقى من مياهها ، وذلك لقلة الرجال ، وكثرة الحروب ، وتراكم الفتن ، وقرب الساعة ، وقلة الآمال ، وعدم الفراغ لذلك والاهتمام به»^(٤).

وقال القرطبي : «أي : تنصرف دواعي العرب عن مقتضى عاداتهم من انتجاع الغيث والارتحال في المواطن للحروب والغارات ، ومن نخوة النفوس العربية الكريمة الأبية إلى أن يتقاعدوا عن ذلك ، فينشغلوا بغراسة الأرض وعمارتها ، وإجراء مياهها ، كما قد شوهد في كثير من بلادهم وأحوالهم»^(٥).

(١) أخرجه : أحمد (٢/ ٣٧٠ و ٤١٧)، ومسلم (٢/ ٧٠١/ ١٥٧) واللفظ له .

(٢) أفاده القاضي عياض في الإكمال (٣/ ٥٣٣).

(٣) السلسلة الصحيحة (١/ ١٠).

(٤) شرح صحيح مسلم (٧/ ٨٥).

(٥) المفهم (٣/ ٥٧).

ومنها : قلة البركة في الزمان وكثرة الفتن والقتل :

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «يتقارب الزمان، وينقص العمل، ويلقى الشح، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج. قالوا: يا رسول الله! أيما هو؟ قال: القتل القتل»^(١).

* غريب الحديث:

أيما : هي (أي) مشددة مضافة إلى (ما) بمعنى شيء، وتسمى (ما) هذه تامة، لا تحتاج إلى صفة ولا صلة، والمبتدأ مقدر؛ أي : هو أي شيء؟ أي : الهرج.

* فوائد الحديث:

قال ابن بطال : «هذا كله إخبار من النبي ﷺ بأشراط الساعة، وقد رأينا هذه الأشراف عياناً فأدركناها، فقد قبض العلم، وظهر الجهل، وألقي بالشح في القلوب، وعمت الفتن، وكثر القتل»^(٢).

قال ابن أبي جمرة : «ظاهر الحديث يدل على خمسة أحكام : الأول : الإخبار بتقارب الزمان، والثاني : نقص العمل، والثالث : إلقاء الشح، والرابع : ظهور الفتن، والخامس : كثرة الهرج وهو القتل. والكلام عليه من وجوه :

منها أن يقال : ما معنى تقارب الزمان؟ وكيف يكون نقص العمل؟ وما معنى هذا الشح الملقى، هل هو على العموم أو على الخصوص؟ وما الفتن المشار إليها؟ وما صفة القتل الذي يكثر، هل هو بحق أو بغيره؟ وما معنى الهرج؟ أما قولنا : ما معنى تقارب الزمان؟ فمعناه : أن يقصر ويقل طوله، وقد جاء في حديث غير هذا كقوله ﷺ : «تكون السنة كالشهر والشهر كالجمعة، والجمعة كالיום واليوم كالساعة، والساعة كالنفس»^(٣) أو كما قال ﷺ، ولا يخلو هذا القصر أن يكون المراد به معنوياً أو حسيّاً، فأما المعنوي فقد ظهر وله سنون عديدة، يعرف ذلك أهل

(١) أخرجه : أحمد (٢/٢٣٣)، والبخاري (١٣/١٦/٧٠٦١)، ومسلم (٤/٢٠٥٧/١٥٧ [١١])، وابن ماجه (٢/٤٠٥٢/١٣٤٥).

(٢) شرح البخاري (١٣/١٠).

(٣) أخرجه : أحمد (٢/٥٣٧-٥٣٨)، وأبو يعلى (١٢/٣٢-٣٣/٦٦٨٠)، وقال الهيثمي (٧/٣٣١) : رجاله رجال الصحيح، وصححه ابن حبان (١٥/٢٥٦-٢٥٧/٦٨٤٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الأعمال، ومن له فطنة ما من أهل الدنيا، المشتغلين بالأسباب فيها، فإنهم يجدون أنفسهم لا يقدرّون أن يبلغوا من عمل أسباب الدنيا قدر الذي كانوا يعملون، ويشكون ذلك ولا يدرون العلة من أين هي، وكذلك أهل أعمال الآخرة قد وجدوا نقص العمل، ونقص تلك المعاني الخاصة بالقلوب الحاملة على الأعمال، فالعلة في ذلك -والله أعلم- ما دخل في الإيمان من الضعف من كثرة إظهار الأمور المخالفة للسان العلم من وجوه عديدة، من حيث لا يخفى على ذي بصيرة، ومما دخل من أجلها في الأقوات من الشبه، بل من الحرام المحض، حتى إن كثيراً من الناس ما يتوقف في هذا الباب عن شيء، وكيف قدر أن يصل إلى شيء فعل ولا يبالي، فإن البركة في الزمان والرزق والبدن من طريق قوة الإيمان، واتباع الأمر واجتناب النهي، يشهد لذلك قوله جل جلاله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾^(١).

وأما إن كان المقصود بتقارب الزمان أن يكون حساً ظاهراً؛ فهذا لم يظهر بعد، ولعله من الأمور التي تكون عند قرب الساعة، ولعله عليه السلام عنى بذلك الوجهين معا، فيكون الواحد وهو المعنوي قد ظهر، وبقي الآخر وهو الحسي، حتى يصل وقته مع ما بقي من الشروط.

وأما كيفية نقص العمل فعلى وجهين: إن كان في الحسي الذي لم يظهر بعد؛ فهذا بين لا يحتاج فيه إلى تعليل؛ لأن الزمان ظرف الأعمال، فإذا نقص نقص بعض العمل لا محالة. وأما نقصه في المعنوي فمن وجهين: أحدهما ما أشرنا إليه آنفاً، وهو من جهة المطعم وما دخل فيه من الخلل، وقلة الباعث الذي هو حامل على الأعمال ومحرض عليها، وذلك من ضعف الإيمان. والثاني: من قلة المساعد على ذلك في الخارج، والنفوس من طبعها أنها ميالة إلى جنسها، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾^(٢)، وكثرة شياطين الإنس الذين هم أضرب عليك من الشيطان الرجيم، إلا تلك العصاة التي شاء سبحانه وتعالى بقاءها على الحق لا يضرها من خالفها، فهي محمولة بالقدرة واللفظ الرباني، وإنما جاءت الأخبار على الغالب من أحوال الناس.

وأما قولنا: ما معنى الشح الذي يلقي، هل هو على العموم أو على الخصوص؟ محتمل. والظاهر العموم؛ لأن الشح الخاص المستعمل عند الناس فيما عدا

(٢) المائدة: الآية (٢).

(١) الأعراف: الآية (٩٦).

الفرائض، لا يعود منه ذلك الضرر المخوف، وإنما الشح الذي يخاف منه ومن وباله؛ الشح بالفرائض، ومن يشح بها فمن باب أولى أن يشح بغيرها، فيكون عامًا، والله أعلم. يشهد لهذا قوله ﷺ: «لا تزاد الدنيا إلا إدبارًا، ولا الناس إلا شحًا»^(١) أو كما قال ﷺ، فجاء لفظ عام في الحديثين معا، ولا يسمي الفقهاء شحيحًا إلا الذي يشح بالفرائض، والناس يسمون الشحيح كل من لا وجود عليهم، ولا ينظرون هل أدى فرضه أم لا؟ كما يزعمون أن الكنز هو ما جعل من المال تحت الأرض، والعلماء يقولون: الكنز هو المال الذي لم تخرج زكاته، كان على وجه الأرض أو في بطنها مدفونًا، وإذا كان مدفونًا وهو يخرج زكاته، فليس عندهم بكنز، وأمثال حقوق الأموال سبب إلى ذهابها، وقلة بركتها، وطروء الجوائح عليها، ولذلك قال ﷺ: «لا ينقص مال من صدقة»^(٢) أو كما قال ﷺ، قال أهل العلم: معناه: أن المال الذي يخرج منه الزكاة لا يلحقه عاهة، ولا يتلف، ولا يلحقه شيء من الأشياء التي تأتي على الأموال فينقص بها؛ فإن الزكاة تحرسه من ذلك، ولذلك سميت زكاة، فإن المال يزكو بها وينمو، وكذلك صاحبه، ولذلك قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾^(٣).

وأما قولنا: ما الفتن التي قد عرفها بالآلف واللام؟ فهي -والله أعلم- التي قد بينها ﷺ بقوله: «فتن كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، أو يمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا»^(٤) أو كما قال ﷺ؛ لأن كل فتنة يسلم فيها الدين، فليست بفتنة مخوفة، أعاذنا الله من جميعها بمنه وفضله. والهرج يحتمل معنيين: أحدهما الفتن التي تقع بين الناس، ويخوض بعضهم في بعض، والثاني القتل، ولذلك استفهم الصحابة ﷺ سيدنا ﷺ بقولهم: «أيما هو» فأزال ﷺ الاحتمال الأول بقوله: «القتل» ثم أكده ثانيًا لزوال الاحتمال الأول.

(١) أخرجه: ابن ماجه (٢/ ١٣٤٠-١٣٤١/ ٤٠٣٩)، والحاكم (٤/ ٤٤١)، من حديث أنس بن مالك ﷺ، وضعفه الشيخ الألباني في الضعيفة (٧٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٣١)، والترمذي (٤/ ٤٨٧/ ٢٣٢٥) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٤١٣/ ٤٢٢٨) من حديث أبي كبشة الأنماري ﷺ.

(٣) التوبة: الآية (١٠٣).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٠٤)، ومسلم (١/ ١١٠/ ١١٨)، والترمذي (٤/ ٤٢٢/ ٢١٩٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وأما قولنا : ما معنى كثرة القتل ، هل يكون ذلك لحقوق لازمة أو لغير ذلك؟ فاعلم أن القتل الذي هو في الحقوق اللازمة شرعاً رحمة للعباد والبلاد، يشهد لذلك قوله ﷺ : «لأن يقام حدّ من حدود الله في بقعة خير لهم من أن تمطر السماء عليهم ثلاثين يوماً ، وقيل أربعين يوماً»^(١) أو كما قال ﷺ ، فهذا في حد واحد، فكيف إذا كثر القيام بالحدود وفشا أمرها وتعددت!! وإنما يكون القتل والله أعلم في الوجهين اللذين قد ذكرهما ﷺ في أحاديث متفرقة، منها قوله ﷺ : «لا تقوم الساعة حتى لا يعرف المقتول فيم قُتل ، ولا القاتل فيم قتل»^(٢) أو كما قال ﷺ ، ولا يكون ذلك إلا لكثرة القتل بغير لسان العلم، حتى لا يعرف القاتل ولا المقتول لم وقع بهم ذلك الأمر. والوجه الثاني : قوله ﷺ : «لا تقوم الساعة حتى ينحسر الفرات عن جبل من ذهب، يقتل عليه من كل مائة تسعة وتسعون»^(٣) أو كما قال ﷺ .

وهنا بحث، وهو ما الفائدة بأن أخبرنا بهذه الفتن؟ فنقول والله الموفق : لوجوه : منها : أن نستعيذ منها كما قال ﷺ : «اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ونعوذ بك من فتنة القبر، ونعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، ونعوذ بك من فتنة المحيا والممات»^(٤) وهو ﷺ معافى من جميعها ، لكن ذلك على طريق التعليم لنا، وعلى جهة الأدب منه ﷺ مع الربوبية، حتى يجعل نفسه المكرومة من جملة العبيد الذين يخافون الفتن. ومنها : لأن يستعمل منا من رأى منها شيئاً الدواء الذي قد علمناه، وهو قوله ﷺ لما سأله بعض الصحابة عند ذكره ﷺ الفتن فقال له : ما تأمرني إن أدركني ذلك الزمان؟ فقال ﷺ : «الجؤوا إلى الإيمان والأعمال الصالحات». فبين ﷺ كيف العمل فيها، وقد جاء من طريق آخر أنه لا يسلم منها إلا من يكون حلساً من أحلاس بيته. ومنها : لأن يتبين لنا الوجوه التي منها الفتن،

(١) أخرجه : أحمد (٤٠٢/٢)، والنسائي (٤٤٦-٤٤٧/٤٩١٩-٤٩٢٠)، وابن ماجه (٢/٨٤٨/٢٥٣٨)، وصححه ابن حبان (١٠/٢٤٤/٤٣٩٨)، وانظر الصحيحة رقم (٢٣١).

(٢) أخرجه مسلم (٤/٢٢٣١/٢٩٠٨) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه.

(٣) أخرجه : أحمد (٢/٣٠٦)، والبخاري (١٣/٩٨/٧١١٩)، ومسلم (٤/٢٢١٩/٢٨٩٤)، وأبو داود (٤/٤٩٣/٤٣١٣-٤٣١٤)، والترمذي (٤/٦٠٢/٢٥٦٩-٢٥٧٠)، وابن ماجه (٢/٣٤٣/٤٠٤٦) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه.

(٤) أخرجه : أحمد (١/٢٤٢)، ومسلم (١/٤١٣/٥٩٠)، وأبو داود (٢/١٩٠/١٥٤٢)، والترمذي (٥/٤٩٠/٣٤٩٤)، والنسائي (٤/٤١٠/٢٠٦٢)، وابن ماجه (٢/١٢٦٢/٣٨٤٠) من حديث ابن عباس رضى الله عنه.

فناخذ في سد تلك الطرق ، مستعينين بالله على ذلك . ومنها : لأن تكون معجزاته ﷺ متتابعة إلى يوم القيامة ؛ لأنه كلما خرجت واحدة مما ذكر ﷺ في هذا الحديث وغيره ، هي معجزة له ﷺ في الوقت وفي ظهورها متتابعة إلى يوم القيامة ، حق لله تعالى وحق له ﷺ وحق لأمته . فالحق الذي هو لله تعالى هو استصحاب ظهور حجته ﷺ على عباده ؛ لأن ظهور معجزة الرسول ﷺ حجة الله تعالى ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾^(١) ، وحجة الرسل في تصديق ما جاؤوا به ، وتصديق رسله حجة على عباده ، وزيادة قوة في إيمانهم . وأما الذي هو حق له ﷺ فدوام معجزاته ودوام إنذاره إلى يوم القيامة بالطريقين العظيمين ، بالكتاب لقوله تعالى : ﴿ لَأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾^(٢) ، فإنذاره ﷺ عليه باق إلى يوم القيامة بإظهار معجزاته ﷺ ، وهي ظهور كل ما أخبر به ﷺ ؛ فإن على ظهور كل واحدة منها علماً بتصديقه ﷺ مقوياً لما جاء به ، وهذا مما خص به ﷺ دون غيره من الأنبياء عليهم السلام . وأما الذي هو حق لأمته فهو أن يكون هذا الخير الذي جاء به ﷺ متساوياً في أمته من أولها إلى آخرها ، من طريقين بالكتاب العزيز الذي حفظ عليهم ولم يוכלوا في ذلك إلى أنفسهم ، فكان يقع فيه التغيير والتبديل ، كما وقع في الكتب المتقدمة ، وبمعجزاته ﷺ التي هي من أول أمته إلى آخرها على نوعين : منها ما هي ظاهرة لأهل ذلك الزمان ، ومنها ما يصدقون به ولم يروها ، حتى يكون الشاهد منها ما يصدق الغائب ، وإن كانت كلها صدقاً ، لكن فاق الصحابة رضي الله عنهم بزيادة الصحبة ، وعانوا ما كان في وقتهم منها ، وآمنوا بما أخبر به ﷺ أنه يكون بعدهم ، ومن جاء بعدهم آمن بالذي شاهد منها الصحابة رضي الله عنهم ، وبالتالي أتت بعدهم إيمان تصديق ، فحصل لهم بها إيمان ومشاهدة ، والذين يأتون في آخر الزمان ، يؤمنون بما تقدم منها تقليداً ، وبما في زمانهم معاينة ، فجاء هذا الخير الذي جاء به ﷺ في أمته من أولها إلى آخرها ، ولبقاء هذا الخير دائماً أخبر ﷺ أنه « لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة »^(٣) أو كما قال ﷺ ، فإن الخير إذا بقي في الأرض لا بد له من أهل له قائمين به ، وكذلك هي إشارته ﷺ بقوله : « أمتي مثل

(١) الإسراء: الآية (١٥).

(٢) الأنعام: الآية (١٩).

(٣) أخرجه : أحمد (٣/٣٤٨) ، ومسلم (١/١٣٧/١٥٦) من حديث جابر رضي الله عنه .

المطر، لا يدري أيه أنفع أوله أو آخره»^(١) أو كما قال ﷺ .

وهنا بحث : وهو أنه لا يكون هذا الخير إلا للذين يعلمون علم الكتاب والسنة ، فإنه لا يعلم ما أخبر ﷺ به إلا من سمع الحديث واعتنى به ، فمن اشتغل بغير ذلك من العلوم فاته هذا الخير ، وبقيت الحجة عليه قائمة بتضييعه لأثر النبوة التي بها الخير بدءًا وعودًا ، وأصلًا وفرعًا . ومنها أن تكون النفوس تُراض على دفعها وكراهيتها ، حتى إن ظهر منها شيء تجد النفس لها كراهية ، فإذا كرهتها أولًا ووقيت أولها كفيت فيما بقي منها ؛ لقوله ﷺ : « تعرض الفتن على القلب عودًا عودًا ، فأى قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء ، وأيما قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء ، حتى يصير على قلبين : على أبيض مثل الصفا ، فلا يضره فتنة ما دامت السموات والأرض ، والآخر أسود مرباد كالكوز مجخيًا ، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه »^(٢) ، والأسود المربد هو شدة البياض في سواد ، والكوز المجخي هو الكوز المنكوس ، ولذلك قيل : قلبك فاحفظه من الفتن ، وإلى الله فالجأ في ذلك »^(٣) .

ومنها : ثلاثة عشر شرطاً وعلامة تضمنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه :

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تقتل فئتان عظيمتان ، تكون بينهما مقتلة عظيمة ، دعوتهما واحدة ، وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين ؛ كلهم يزعم أنه رسول الله ، وحتى يقبض العلم ، وتكثر الزلازل ، ويتقارب الزمان ، وتظهر الفتن ، ويكثر الهرج وهو القتل ، وحتى يكثر فيكم المال فيفيض ، حتى يهم رب المال من يقبل صدقته ، وحتى يعرضه فيقول الذي يعرضه عليه : لا أرب لي به ، وحتى يتناول الناس في البنيان ، وحتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول : يا ليتني مكانه ، وحتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون ، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً . ولتقوم الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما

(١) أخرجه : أحمد (٣/ ١٣٠) ، والترمذي (٥/ ١٤٠ / ٢٨٦٩) وقال : « حسن غريب » ، وقال الحافظ في الفتح (٧/

٧) : « وهو حديث حسن له طرق قد يرتقي بها إلى الصحة » ، من حديث أنس رضي الله عنه .

(٢) أخرجه : أحمد (٥/ ٤٠٥) ، ومسلم (١/ ١٢٨ - ١٣٠ / ١٤٤) عن حذيفة رضي الله عنه .

(٣) بهجة النفوس (٤/ ٢٥٧ - ٢٦٠) .

بينهما ، فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقوم الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ، ولتقوم الساعة وهو يلبط حوضه فلا يسقي فيه ، ولتقوم الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها»^(١).

★ غريب الحديث؛

لقحته : اللقحة : الناقة ذات اللبن .

يلبط حوضه : بفتح أوله من الثلاثي وبضمه من الرباعي ، والمعنى : يصلحه بالطين والمدر ، فيسد شقوقه ليملاؤه ، ويسقي منه دوابه . يقال : لاط الحوض يلبطه : إذا أصلحه بالمدر ونحوه . ومنه قيل : اللائط لمن يفعل الفاحشة^(٢).

★ فوائد الحديث؛

قال القرطبي : «قال علماؤنا -رحمة الله عليهم- : هذه ثلاث عشرة علامة جمعها أبو هريرة في حديث واحد ، ولم يبق بعد هذا ما ينظر فيه من العلامات والأشراط في عموم إنذار النبي ﷺ بفساد الزمان ، وتغيير الدين ، وذهاب الأمانة ؛ ما يغني عن ذكر التفاصيل الباطلة والأحاديث الكاذبة في أشراط الساعة»^(٣).

قال الحافظ : «وأما قوله : «حتى تقتل فئتان» المراد بالفئتين علي ومن معه ومعاوية ومن معه ، ويؤخذ من تسميتهم «مسلمين» ومن قوله : «دعوتهما واحدة» ؛ الرد على الخوارج ومن تبعهم في تكفير كل من الطائفتين»^(٤).

وأما قوله : «وحتى يبعث دجالون كلهم يزعم أنه رسول الله» . فقال الحافظ : «ظاهر في أن كلاً منهم يدعي النبوة ، وهذا هو السرف في قوله في آخر الحديث الماضي : «واني خاتم النبيين»^(٥) ويحتمل أن يكون الذين يدعون النبوة منهم ما ذكر

(١) أخرجه : أحمد (٢/٢٣٦-٢٣٧)، والبخاري (١٣/١٠٢/٧١٢١) واللفظ له ، ومسلم (١/١٣٧/١٥٧)، وأبو داود (٤/٥٠٦-٥٠٧/٤٣٣٣)، والترمذي (٤/٤٣٢/٢٢١٨).

(٢) التذكرة (٢/٤٧٦).

(٣) فتح الباري (١٣/١١٠).

(٤) فتح الباري (١٣/١٠٦).

(٥) أخرجه : أحمد (٤/٣٩٦)، والطبراني في الكبير (٣/١٨٨/٣٠٢٦)، والأوسط (٦/١١٤/٥٤١٦)، والبزار كما في كشف الأستار (٤/١٣٢/٣٣٧٤)، وقال الهيثمي في المجمع (٧/٣٣٢) : «رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط والبزار، ورجال البزار رجال الصحيح»، وقال الحافظ في الفتح (١٣/١٠٨) : «أخرجه أحمد عن حذيفة بسند جيد».

من الثلاثين أو نحوها ، وأن من زاد على العدد المذكور يكون كذاباً فقط ، لكن يدعو إلى الضلالة كغلاة الرافضة والباطنية ، وأهل الوحدة والحلولية وسائر الفرق الدعاة إلى ما يعلم بالضرورة أنه خلاف ما جاء به محمد ﷺ ، ويؤيده أن في حديث علي عند أحمد : «فقال علي لعبد الله بن الكواء : وإنك لمنهم»^(١) ، وابن الكواء لم يدع النبوة ، وإنما كان يغلو في الرفض»^(٢) .

قال القاضي عياض : «وهذا الحديث قد ظهر ، فلو عد من تنبأ من زمن النبي ﷺ إلى الآن ، ممن اشتهر بذلك وعرف واتبعته جماعة على ضلالتهم ؛ لوجد هذا العدد فيهم ، ومن طالع كتب الخبر والتاريخ عرف صحة هذا ، فلو لا التطويل لسردنا منهم هذا العدد ، والله أعلم»^(٣) .

قال الحافظ : «وليس المراد بالحديث من ادعى النبوة مطلقاً ؛ فإنهم لا يحصون كثرة لكون غالبهم ينشأ لهم ذلك عن جنون أو سوداء ، وإنما المراد من قامت له شوكة وبدت له شبهة كمن وصفنا ، وقد أهلك الله تعالى من وقع له ذلك منهم ، وبقي منهم من يلحقه بأصحابه ، وآخرهم الدجال الأكبر»^(٤) .

وأما قوله : «وتكثر الزلازل» : فقال الحافظ : «قد وقع في كثير من البلاد الشمالية والشرقية والغربية كثير من الزلازل ، ولكن الذي يظهر أن المراد : بكثرتها شمولها ودوامها ، وقد وقع في حديث سلمة بن نفيل عند أحمد^(٥) : «وبين يدي الساعة سنوات الزلازل» ، وله^(٦) عن أبي سعيد : «تكثر الصواعق عند اقتراب

(١) أخرجه : البخاري في التاريخ الكبير (كتاب الكنى ص : ٢١) ، وعبد الله بن الإمام أحمد في السنة (ص : ٢٣١) ، وأبو يعلى (٣٤٩/١ - ٤٤٩/٣٥٠) ، وابن أبي عاصم (٩٨٢) ، وذكره الهيثمي في المجمع (٣٣٣/٧) وقال : «رجاله ثقات» ، وضعفه الشيخ الألباني في ظلال الجنة (٤٧٦/٢) .

(٢) فتح الباري (١٠٨-١٠٩) .

(٣) إكمال المعلم (٤٦٣/٨) .

(٤) فتح الباري (٧٦٦/٦) .

(٥) في المسند (١٠٤/٤) ، وصححه ابن حبان (٦٧٧٧/١٨٠/١٥) ، والحاكم (٤٤٧/٤ - ٤٤٨/٨٣٨٣) وقال : «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ، قال الذهبي : «لم يخرجاه لأرطاة» ، وهو ثبت ، والخبر من غرائب الصحاح ، وقد ذكره الهيثمي في المجمع (٣٠٦/٧) وقال : «رواه أحمد والطبراني والبخاري وأبو يعلى ، ورجاله ثقات» .

(٦) في المسند (٦٤-٦٥/٣) ، وصححه الحاكم على شرط مسلم (٤٤٣-٤٤٤/٤) ، وذكره الهيثمي (٩/٨) وقال : «رواه أحمد عن محمد بن مصعب ، وهو ضعيف» .

الساعة»^(١).

وأما قوله: «وتظهر الفتن» فالمراد كثرتها واشتهارها وعدم التكاثر بها، والله المستعان»^(٢).

وقوله: «وحتى يكثُر فيكم المال»؛ يقول الحافظ: «يشعر بأنه محمول على زمن الصحابة، فيكون إشارة إلى ما وقع من الفتوح، واقتسامهم أموال الفرس والروم، ويكون قوله: «فيفيض حتى يهمل رب المال» إشارة إلى ما وقع في زمن عمر بن عبدالعزيز، فقد تقدم أنه وقع في زمنه أن الرجل كان يعرض ماله للصدقة، فلا يجد من يقبل صدقته، ويكون قوله: «وحتى يعرضه» فيقول الذي يعرضه عليه: لا أرب لي به» إشارة إلى ما سيقع في زمن عيسى ابن مريم^(٣)»^(٤).

ومنها: هبوب ريح ألين من الحرير تأخذ أرواح أهل الإيمان، فلا يبقى إلا أهل الشرك والكفر، وعليهم تقوم الساعة:

* عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله الله»^(٥).

* عن علباء السلمي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة إلا على حُثالة الناس»^(٦).

★ غريب الحديث:

حُثالة: الحثالة: الرديء من كل شيء، ومنه حثالة الشعير والأرز والتمر وكل ذي قشر.

* عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس»^(٧).

(١) فتح الباري (١٣/١٠٩).

(٢) الفتح (١٣/٢١).

(٣) تحديد الزمن يحتاج إلى خبر صحيح عن المعصوم عليه السلام كما تقدمت الإشارة إليه في مقدمة هذا المبحث من أسرار الساعة.

(٤) فتح الباري (١٣/١٠٩).

(٥) أخرجه: أحمد (٣/١٠٧)، ومسلم (١/١٣١/١٤٨)، والترمذي (٤/٤٢٦-٤٢٧/٢٢٠٧).

(٦) أخرجه: أحمد (٣/٤٩٩)، والطبراني (١٨/٨٤-٨٥/١٥٦)، وصححه الحاكم (٤/٤٩٥-٤٩٦) ووافقه الذهبي، وذكره الهيثمي في المجمع (٨/١٣) وقال: «رجاله ثقات».

(٧) أخرجه: أحمد (١/٣٩٤ و٤٣٥)، ومسلم (٤/٢٢٦٨/٢٩٤٩).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يبعث ريحًا من اليمن ألين من الحرير، فلا تدع أحدًا في قلبه - قال أبو علقمة: مثقال حبة، وقال عبدالعزيز: مثقال ذرة من إيمان؛ إلا قبضته»^(١).

* عن المغيرة بن شعبه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يزال قوم من أمتي ظاهرين على الناس حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون»^(٢).

* عن عائشة رضي الله عنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى. فقلت: يا رسول الله! إن كنت لأظن حين أنزل الله: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾^(٣): أن ذلك تامًا. قال: إنه سيكون من ذلك ما شاء الله، ثم يبعث الله ريحًا طيبة، فتوفى كل من في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، فيبقى من لا خير فيه، فيرجعون إلى دين آبائهم»^(٤).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس على ذي الخلصة، وذو الخلصة طاغية دوس التي كانوا يعبدون في الجاهلية»^(٥).

* غريب الحديث:

أليات: جمع ألية، بفتح فسكون: اللحم المشرقة على الظهر والفخذ.
 ذي الخلصة: هو بيت كان فيه صنم لدوس وخنعم وبجيلة وغيرهم. وقيل: ذو الخلصة: الكعبة اليمانية التي كانت باليمن، فأنفذ إليها رسول الله ﷺ جرير بن عبد الله فخر بها. وقيل: ذو الخلصة اسم الصنم نفسه.
 طاغية دوس: أي صنمهم. ودوس: قبيلة ينسبون إلى دوس بن عُذثان - بضم المهملة وبعد الدال الساكنة مثلثة - بن عبد الله بن زهران.

(١) أخرجه مسلم (١/١٠٩/١١٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/٢٤٤)، والبخاري (٦/٧٨٤/٣٦٤٠)، ومسلم (٣/١٥٢٣/١٩٢١).

(٣) التوبة: الآية (٣٣).

(٤) أخرجه مسلم (٤/٢٢٣٠/٢٩٠٧).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/٢٧١)، والبخاري (١٣/٩٥/٧١١٦)، ومسلم (٤/٢٢٣٠/٢٩٠٦).

* فوائد الأحاديث:

قال السخاوي: «بعد موت عيسى عليه السلام تهب ريح فتقبض أرواح المؤمنين، كما تقدم في أواخر الكلام على خروج يأجوج ومأجوج، مع أنه لم يقع الإفصاح هناك بكونه بعد موته، ثم إنه لم يعين جهة مجيء الريح، وقد ثبت في الصحيح: «أن الله تعالى يبعث ريحًا من اليمن»، وفي رواية: «من قبل الشام»^(١)؛ فإن في حديث: «يخرج الدجال في أمتي، فيبعث الله عيسى ابن مريم، فيطلبه فيهلكه، ثم يمكث الناس سبع سنين، ثم يرسل الله تعالى ريحًا باردة من قبل الشام، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير من إيمان إلا قبضته»، وفيه: «فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع» يعني بخفة الطير: مسارعتهن وخفتهم إلى الشرور وقضاء الشهوات كطيران الطير، وكأحلام السباع؛ أي: في الإفساد والعدوان في خلق السباع العادية، لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكراً، فيتمثل لهم الشيطان فيأمرهم بعبادة الأوثان، ثم ينفخ في الصور - ولا مانع من المجيء منهما معًا، أو يكون ابتداءها من أحد الإقليمين، ثم تجيء من الآخر ويتصل ذلك وينتشر، وتلك الريح ألين من الحرير - فلا تدع أحدًا في قلبه مثقال حبة من إيمان إلا قبضته . .

قال النووي: (وأما الحديث الآخر: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق إلى يوم القيامة حتى يأتي أمر الله»؛ فليس مخالفًا لها؛ لأن معناه أنهم لا يزالون على الحق حتى تأتيهم هذه الريح اللينة قرب القيامة وعند تظاهر أشراتها، فأطلق فيه بقاءهم إلى قيام الساعة على أشراتها ودنوها المتناهي في القرب). وقريب منه قول شيخنا: أمر الله هو هبوب تلك الريح الآتي بعد وقوع الآيات العظام التي تعقبها قيام الساعة، ولا يتخلف عنها إلا شيئًا يسيرًا، فيكون الظهور قبل هبوبها، فأما ما بعده فلا يبقى إلا الشرار وليس فيهم مؤمن، فعليهم تقوم الساعة. وعلى هذا فآخر الآيات المؤذنة بقيام الساعة هبوب تلك الريح، ولعل هذا هو الوقت المشار إليه بقوله: «لا تقوم الساعة حتى يرجع ناس من أمتي إلى عبادة الأوثان من دون الله

(١) أخرجه: أحمد (١٦/٢)، ومسلم (٢٢٥٨/٤/٢٩٤٠)، والنسائي في الكبرى (١١٦٢٩/٥٠١/٦) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

تعالى»^(١)، وفي لفظ: «لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى؛ إن الله يبعث ريحاً طيبة، فيتوفى كل من في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، فيبقى من لا خير فيه، فيرجعون إلى دين آبائهم». ونحوه: «لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات -أي: أعجاز- نساء دوس على ذي الخلصة» يعني: صنم دوس التي كانت تعبده في الجاهلية، وفي لفظ: «لا تقوم الساعة حتى تتدافع مناكب نساء بني عامر على ذي الخلصة»؛ على أن ابن بطال قال فيه وما أشبهه: (ليس المراد به أن الدين ينقطع كله في جميع أقطار الأرض حتى لا يبقى منه شيء؛ لأنه ثبت أن الإسلام إلى قيام الساعة، إلا أنه يضعف ويعود غريباً كما بدأ. وجنح إلى أن الطائفة التي تبقى على الحق تكون بيت المقدس، وقال: فهذا تألف الأخبار)؛ يعني: حيث حملها في الطرفين على ما قال. ونازعه شيخنا بأنه ليس فيما احتج به تصريح ببقاء أولئك إلى قيام الساعة، وإنما فيه: «حتى يأتي أمر الله» فيحتمل أن يكون المراد بأمر الله ما ذكر من قبض من بقي من المؤمنين؛ يعني: كما سلف، فظواهر الأخبار تقتضي أن الموصوفين بكونهم بيت المقدس أن آخرهم كان مع عيسى عليه السلام، ثم إذا بعث الله الريح الطيبة فقبضت روح كل مؤمن لم يبق إلا شرار الناس، وقد ثبت: «لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس». وذلك إنما يقع بعد طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة، وسائر الآيات العظام»^(٢).

قال ابن كثير: «وفي معنى قوله ﷺ: «حتى لا يقال في الأرض: الله، الله» قولان:

أحدهما: أن معناه: أن أحداً لا ينكر منكراً، ولا يزجر أحد أحداً إذا رآه قد تعاطى منكراً، وعبر عن ذلك بقوله: «حتى لا يقال: الله، الله» كما تقدم في حديث عبد الله بن عمرو: «فيبقى فيها عجاجة لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً».

والقول الثاني: حتى لا يذكر الله في الأرض، ولا يعرف اسمه فيها، وذلك عند فساد الزمان، ودمار نوع الإنسان، وكثرة الكفر، والفسوق والعصيان، وهذا كما في

(١) أخرجه: أحمد (٢٧٨/٥)، وأبو داود (٤٥٠/٤-٤٥٢/٤)، وابن ماجه (٣٩٥٢/١٣٠٤/٢) مطولاً.

وأخرجه: مسلم (١٥٢٣/٣)، والترمذي (٢٢١٩/٤٣٢/٤) مختصراً من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٢) القناعة (ص: ٦٦-٧٢).

الحديث الآخر: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: لا إله إلا الله»^(١)، وكما تقدم في الحديث الآخر إن الشيخ الكبير يقول: «أدركت الناس وهم يقولون: لا إله إلا الله»^(٢)، ثم يتفاقم الأمر ويتزايد الحال، حتى يترك ذكر الله في الأرض، وينسى بالكلية، فلا يعرف فيها وأولئك شرار الناس وعليهم تقوم الساعة»^(٣).

ومنها: شدة موافقة أهل الإسلام لليهود والنصارى في ركوب المحرمات والمعاصي والمخالفات:

* عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر، وذراعًا ذراعًا، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم. قلنا: يا رسول الله! اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟»^(٤).

* غريب الحديث:

سنن: السنن: بفتح السين والنون، هو الطريق.

* فوائد الحديث:

قال ابن بطلال: «أخبر ﷺ: أن أمته قبل قيام الساعة يتبعون المحدثات من الأمور والبدع والأهواء المضلة، كما اتبعتها الأمم من فارس والروم، حتى يتغير الدين عند كثير من الناس، وقد أندر ﷺ في كثير من حديثه أن الآخر شر، وأن الساعة لا تقوم إلا على شرار الخلق، وأن الدين إنما يبقى قائمًا عند خاصة من المؤمنين، لا يخافون العداوات، ويحتسبون أنفسهم على الله في القول بالحق، والقيام بالمنهج القويم في دين الله»^(٥).

قال النووي: «والمراد بالشبر والذراع وجحر الضب: التمثيل بشدة الموافقة لهم، والمراد الموافقة في المعاصي والمخالفات، لا في الكفر، وفي هذا معجزة

(١) أخرجه: أحمد (٢٦٨/٣) واللفظ له، ومسلم (١٤٨/١٣١/١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه: ابن ماجه (١٣٤٤-١٣٤٥/٢)، قال في الزوائد: «إسناده صحيح، رجاله ثقات»، وصححه الحاكم (٥٤٥/٤)، ووافقه الذهبي، وهو في الصحيحة رقم (٨٧) من حديث حذيفة رضي الله عنه.

(٣) النهاية في الفتن والملاحم (١٨٦-١٨٧).

(٤) أخرجه: أحمد (٨٩-٨٤/٣)، والبخاري (٧٣٢٠/٣٧١/١٣)، ومسلم (٢٦٦٩/٢٠٥٤/٤).

(٥) شرح ابن بطلال (٣٦٦/١٠).

لرسول الله ﷺ، فقد وقع ما أخبر به ﷺ^(١).

قال شيخ الإسلام: «أخبر أنه سيكون في أمته مضاهاة لليهود والنصارى، وهم أهل الكتاب، ومضاهاة لفارس والروم، وهم الأعاجم، وقد كان ﷺ ينهى عن التشبه بهؤلاء وهؤلاء، وليس هذا إخباراً عن جميع الأمة؛ بل قد تواتر عنه أنه قال: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرة على الحق حتى تقوم الساعة»، وأخبر ﷺ «أن الله لا يجمع هذه الأمة على ضلالة»^(٢) و«أن الله لا يزال يفرس في هذا الدين غرساً يستعملهم فيه بطاعته»^(٣)، فعلم بخبره الصدق أن لا بد أن يكون في أمته قوم متمسكين بهديه الذي هو دين الإسلام محضاً، وقوم منحرفين إلى شعبة من شعب دين اليهود، أو إلى شعبة من شعب دين النصارى، وإن كان الرجل لا يكفر بهذا الانحراف، بل وقد لا يفسق أيضاً، بل قد يكون الانحراف كفرًا، وقد يكون فسقًا، وقد يكون سيئة، وقد يكون خطأ، وهذا الانحراف أمر تتقاضاه الطباع، ويزينه الشيطان، فلذلك أمر العبد بدوام دعاء الله سبحانه بالهداية إلى الاستقامة، التي لا يهودية فيها ولا نصرانية أصلاً»^(٤).

ومنها: غربة أهل الإيمان آخر الزمان:

* عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء». قيل: ومن الغرباء؟ قال: النزاع من القبائل»^(٥).

(١) شرح صحيح مسلم (١٦/ ١٨٠).

(٢) أخرجه: الترمذي (٤٠٥/ ٤) وقال: «غريب من هذا الوجه»، والحاكم (١١٥-١١٦) وحكى فيه اضطراباً، ووافقه الذهبي، والحديث حسنه الشيخ الألباني بمجموع طرقه في الصحيحة رقم (١٣٣١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٠٠)، وابن ماجه (١/ ٨/ ٥)، وصححه ابن حبان (٢/ ٣٢-٣٣/ ٣٢٦)، وهو في الصحيحة (٢٤٤٢) من حديث أبي عتبة رضي الله عنه.

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم (ص: ٦).

(٥) أخرجه: أحمد (١/ ٣٩٨)، والترمذي (٥/ ١٩/ ٢٦٢٩)، وابن ماجه (٢/ ١٣٢٠/ ٣٩٨٨)، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند (٥/ ٢٩٦): «إسناده صحيح».

* غريب الحديث:

طوبى: اسم الجنة، وقيل: شجرة فيها، وأصلها (فُعلَى) من الطيب، ضمت الطاء فانقلبت الياء واوًا.

النزاع: جمع نازع ونزيع، وهو الغريب الذي نزع عن أهله وعشيرته؛ أي: بعد وغاب؛ أي: طوبى للمهاجرين الذين هجروا أوطانهم في الله تعالى.

* فوائد الحديث:

قال ابن هبيرة: «في هذا الحديث من الفقه: أن الله تعالى أظهر الإسلام غريبًا، وكان في نأناة، ثم إنه أظهره على الدين كله والمشركون راغمون، فأخبر ﷺ أنه سيعود غريبًا كما بدأ غريبًا، وهذا إنما يكون إذا انقلبت الأمور ومات العلماء، ودرست السنن وظهرت البدع، وكانت أشراط الساعة، وإن آثار ذلك ومقدماته لاثحة بادية، والله تعالى يتدارك عباده برأفته»^(١).

قال شيخ الإسلام: «وقوله ﷺ: «ثم يعود غريبًا كما بدأ» يحتمل شيئين: أحدهما: أنه في أمكنة وأزمنة يعود غريبًا بينهم ثم يظهر، كما كان في أول الأمر غريبًا ثم ظهر، ولهذا قال: «سيعود غريبًا كما بدأ». وهو لما بدأ كان غريبًا لا يعرف، ثم ظهر وعرف، وكذلك يعود حتى لا يعرف، ثم يظهر ويعرف، فيقل من يعرفه في أثناء الأمر كما كان من يعرفه أولًا.

ويحتمل أنه في آخر الدنيا لا يبقى مسلمًا إلا قليل. وهذا إنما يكون بعد الدجال ويأجوج وماجوج عند قرب الساعة، وحينئذ يبعث الله ريحًا تقبض روح كل مؤمن ومؤمنة، ثم تقوم القيامة»^(٢).

ومنها: خروج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه:

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان، يسوق الناس بعصاه»^(٣).

(١) الإفصاح (٤/ ٢٦٠-٢٦١).

(٢) الفتاوى (١٨/ ٢٩٥-٢٩٦).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٤١٧)، والبخاري (٦/ ٦٧٦/ ٣٥١٧)، ومسلم (٤/ ٢٢٣٢/ ٢٩١٠).

* فوائد الحديث:

بواب البخاري رَحِمَهُ اللهُ عَلَى هذا الحديث بقوله: «باب تغير الزمان حتى تعبد الأوثان».

قال الحافظ: «وفي ذلك إشارة إلى أن ملك القحطاني يقع في آخر الزمان عند قبض أهل الإيمان، ورجوع كثير ممن يبقى بعدهم إلى عبادة الأوثان، وهم المعبر عنهم بشرار الناس الذين تقوم عليه الساعة»^(١).

وقوله: «يسوق الناس بعصاه»:

قال القرطبي: «كناية عن استقامة الناس وانقيادهم إليه واتفاقهم عليه، ولم يرد نفس العصا، وإنما ضرب بها مثلاً لطاعتهم له، واستيلائه عليهم، إلا أن في ذكرها دليلاً على خشونته عليهم، وعسفه بهم. وقد قيل: إنه يسوقهم بعصاه، كما تساق الإبل والماشية، وذلك لشدة عنفه وعدوانه»^(٢).

قال الحافظ: «شبهه بالراعي، وشبه الناس بالغنم، ونكتة التشبيه: التصرف الذي يملكه الراعي في الغنم. وهذا الحديث يدخل في علامات النبوة من جملة ما أخبر به ﷺ قبل وقوعه ولم يقع بعد»^(٣).

ومنها: تشبب المشيخة:

* عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: «يكون قوم في آخر الزمان يخضبون بهذا السواد، - قال حسين: كحواصل الحمام - لا يريحون رائحة الجنة»^(٤).

* فوائد الحديث:

قوله: «يخضبون بهذا السواد»:

قال القاري: «أراد جنسه، لا نوعه المعين، فمعناه باللون الأسود، وكأنه كان متعارفاً في زمانه الشريف، ولهذا عبر عنه «بهذا السواد»، أو أراد السواد الصرف؛

(١) فتح الباري (١٣/١٤٤).

(٢) التذكرة (٢/٤٨٨).

(٣) فتح الباري (٦/٦٧٧).

(٤) أخرجه: أحمد (١/٢٧٣)، وأبو داود (٤/٤١٨/٤٢١٢)، والنسائي (٨/٥١٤/٥٠٩٠)، وصححه الألباني [صحيح أبي داود (٢/٧٩٢/٣٥٤٨)].

ليخرج الأحمر الذي يضرب إلى السواد، كالكتم والحناء، ويؤيد تقييده بقوله: «كحواصل الحمام» أي: كصدورها؛ فإنها سود غالباً»^(١).

ومنها: تخصيص السلام بالمعرفة، وكثرة التجارة، وفشو قطيعة الرحم، وظهور الكتاب، وظهور شهادة الزور وكتمان شهادة الحق:

* عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «بين يدي الساعة تسليم الخاصة، وفشو التجارة حتى تعين المرأة زوجها على التجارة، وقطع الأرحام، وفشو القلم، وظهور الشهادة بالزور، وكتمان شهادة الحق»^(٢).

★ فوائد الحديث:

قال الألباني رحمه الله: «هذا الحديث من أعلام نبوته ﷺ؛ لأن كل ما فيه قد تحقق في عصرنا»^(٣).

قال في عون المعبود: «وتخصيص السلام بمن يعرف من أشراف الساعة كما جاء في الحديث»^(٤).

قال النووي: «قال المتولي: إذا لقي رجل جماعة فأراد أن يخص طائفة منهم بالسلام كره؛ لأن القصد من السلام المؤانسة والألفة، وفي تخصيص البعض إيحاش للباقيين، وربما صار سبباً للعداوة»^(٥).

أما قوله في هذا الحديث: «فشو القلم»: فقال ابن عبد البر: «فإنه أراد ظهور الكتاب، وكثرة الكتاب، روى المبارك بن فضالة، عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يرفع العلم، ويفيض المال، ويظهر القلم، ويكثر

(١) المرقاة (٨/٢٣٢).

(٢) أخرجه: أحمد (١/٤٠٧ - ٤٠٨)، البخاري في الأدب المفرد (١٠٤٩) والسياق له. والحاكم (٤/٤٤٥ - ٤٤٦) وسكت عنه وكذا الذهبي، وذكره الهيثمي في المجمع (٧/٣٢٩) وقال: «رواه كله أحمد، والبزار بعضه... ورجال أحمد والبزار رجال الصحيح»، قال الألباني في الصحيحة (٦/٦٣٣): «رواه البخاري في الأدب المفرد... وأحمد... بإسناد صحيح، رجاله ثقات رجال مسلم غير سيار، وهو سيار أبو الحكم كما وقع في رواية البخاري... وهو ثقة من رجال الشيخين».

(٣) صحيح الأدب المفرد (ص: ٤٠٢).

(٤) عون المعبود (١٤/١٠٢).

(٥) الأذكار (ص: ٢٥٤) دار الحديث.

التجار»^(١).

قال الحسن: لقد أتى علينا زمان، إنما يقال: تاجر بني فلان، وكاتب بني فلان، ما يكون في الحي إلا التاجر الواحد والكاتب الواحد. قال الحسن: والله إن كان الرجل ليأتي الحي العظيم، فما يجد به كاتبًا»^(٢).

قال الألباني: «ففي الحديث إشارة قوية إلى اهتمام الحكومات اليوم في أغلب البلاد بتعليم الناس القراءة والكتابة، والقضاء على الأمية حتى صارت الحكومات تتباهى بذلك، فتعلن أن نسبة الأمية قد قلت عندها حتى كادت أن تمحى، فالحديث علم من أعلام نبوته ﷺ، بأبي هو وأمي. ولا يخالف ذلك - كما قد يتوهم البعض - ما صح عنه ﷺ في غير ما حديث أن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويظهر الجهل؛ لأن المقصود به العلم الشرعي الذي به يعرف الناس ربهم ويعبدونه حق عبادته، وليس بالكتابة ومحو الأمية كما يدل على ذلك المشاهدة اليوم؛ فإن كثيرًا من الشعوب الإسلامية فضلًا عن غيرها، لم تستفد من تعلمها القراءة والكتابة على المناهج العصرية إلا الجهل والبعد عن الشريعة الإسلامية، إلا ما قلّ وندر، وذلك مما لا حكم له»^(٣).

وأما قوله: «وظهور الشهادة بالزور، وكتمان شهادة الحق»: فقال ابن عبد البر: «قد جعل رسول الله ﷺ ظهور شهادة الزور، وكتمان شهادة الحق، من أشراط الساعة، عائبًا لذلك وموبخًا عليه، فإذا كان كتمان شهادة الحق عيبًا وحرامًا؛ فالبدار إلى الإخبار بها قبل أن يسأل عنها، فيه الفضل الجسيم، والأجر العظيم، إن شاء الله»^(٤).

ومنها: ظهور قوم يلزمون السياط:

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك إن طالت بك مدة، أن

(١) أخرجه ابن عبد البر مرسلاً، ووصله النسائي (٧/٢٨٠/٤٤٦٨)، وفي الكبرى (٤/٥/٦٠٤٨)، والطيالسي (١/١٦١/١١٧١)، وصححه الحاكم (٢/٧)، ووافقه الذهبي بهذا السياق عن عمرو بن تغلب رضي الله عنه، وقد تقدم قريباً بسياق آخر عند أحمد (٥/٧٠)، والبخاري (٦/١٢٩/٢٩٢٧)، وابن ماجه (٢/١٣٧٢/٤٠٩٨) عن عمرو أيضاً.

(٣) الصحيحة (٦/٦٣٥).

(٢) فتح البر (١١/٣٤٠-٣٤١).

(٤) فتح البر (١١/٣٤٠).

تري قومًا في أيديهم مثل أذئاب البقر، يغدون في غضب الله، ويروحون في سخط الله»^(١).

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «هذا الحديث من معجزات النبوة، فقد وقع ما أخبر به ﷺ»^(٢).
قال القرطبي: «فإنه خلف بعد تلك الأعصار قوم يلزمون الشياطين المؤلمة، التي لا يجوز أن يضرب بها في الحدود قصدًا لتعذيب الناس، فإن أمروا بإقامة حد أو تعزير تعدوا المشروع في ذلك؛ في الصفة والمقدار، وربما أفضى بهم الهوى، وما جبلوا عليه من الظلم إلى هلاك المضروب، أو تعظيم عذابه، وهذا أحوال الشرط بالمغرب، والعوانية في هذه البلاد. وعلى الجملة: فهم سخط الله في الجملة، عاقب الله بهم شرار خلقه غالبًا، نعوذ بالله من سخطه في الدنيا والآخرة»^(٣).

ومنها: ظهور رجال لا خلاق لهم نساؤهم كاسيات عاريات:

* عن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيكون في آخر أمتي رجال يركبون على سروج كأشباه الرجال، ينزلون على أبواب المساجد، نساؤهم كاسيات عاريات، على رؤوسهن كأسنمة البخت العجاف، العنوهن فإنهن ملعونات، لو كانت وراءكم أمة من الأمم لخدمن نساؤكم نساءهم كما يخدمنكم نساء الأمم قبلكم»^(٤).

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «هذا الحديث من معجزات النبوة؛ فقد وقع ما أخبر به النبي ﷺ». أما الكاسيات ففيه أوجه:

أحدها: معناها كاسيات من نعمة الله عاريات من شكرها.

(١) أخرجه: أحمد (٣٠٨/٢ و ٣٢٣)، ومسلم (٢٨٥٧/٤ و ٢١٩٣)، واللفظ له.

(٢) شرح صحيح مسلم (١٥٧/١٧). (٣) المفهم (٤٤٩/٥).

(٤) أخرجه: أحمد (٢٢٣/٢)، والطبراني في الأوسط (١٥٤/١٠ - ٩٣٢٧/١٥٥)، وفي الصغير (١٠٩٧).

مختصرًا، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٣/٦٤ و ٥٧٥٣)، واللفظ له، والحاكم (٤٣٦/٤) على شرط =

والثاني: كاسيات من الثياب، عاريات من فعل الخير والاهتمام لآخرتهن والاعتناء بالطاعات.

والثالث: تكشف شيئاً من بدنهن إظهاراً لجمالها، فهن كاسيات عاريات.

والرابع: يلبسن ثياباً رفاقاً تصف ما تحتها، كاسيات عاريات في المعنى^(١).

قال ابن عبد البر: «وأما معنى «كاسيات عاريات»؛ فإنه أراد اللواتي يلبسن من الثياب الشيء الخفيف الذي يصف ولا يستر، فهن كاسيات بالاسم، عاريات في الحقيقة»^(٢).

قال الشيخ أحمد شاكر: «وعلى كل حال.. فقد تحقق في عصرنا هذا، بل قبله، وجود هاته النسوة الكاسيات العاريات الملعونات»^(٣).

وقال الشيخ الألباني: «في الحديث معجزة علمية غيبية أخرى غير المتعلقة بالنساء الكاسيات العاريات، ألا وهي المتعلقة برجالهن الذين يركبون السيارات ينزلون على أبواب المساجد، ولعمر الله إنها لنبوء صادقة نشاهدها كل يوم جمعة حينما تتجمع السيارات أمام المساجد حتى ليكاد الطريق على رحبه يضيق بها، ينزل منها رجال ليحضرُوا صلاة الجمعة، وجمهورهم لا يصلون الصلوات الخمس، أو على الأقل لا يصلونها في المساجد، فكأنهم قنعوا من الصلوات بصلاة الجمعة، ولذلك يتكاثرون يوم الجمعة، وينزلون بسياراتهم أمام المساجد، فلا تظهر ثمرة الصلاة عليهم، وفي معاملتهم لأزواجهم وبناتهم، فهم بحق: نساؤهم كاسيات عاريات. وثمة ظاهرة أخرى ينطبق عليها الحديث تمام الانطباق، ألا وهي التي نراها في تشييع الجنائز على السيارات في الآونة الأخيرة من هذا العصر، يركبها أقوام لا خلاق لهم من الموسرين المترفين التاركين للصلاة، حتى إذا وقفت السيارة التي تحمل الجنازة وأدخلت المسجد للصلاة عليها، مكث أولئك المترفون أمام

= الشيخين، وتعقبه الذهبي بقوله: «عبد الله بن عياش وإن كان قد احتج به مسلم فقد ضعفه أبو داود والنسائي، وقال أبو حاتم: هو قريب من ابن لهيعة». وذكره الهيثمي في المجمع (١٣٧/٥) وقال: «رواه أحمد والطبراني في الثلاثة، ورجال أحمد رجال الصحيح»، والحديث حسنه الألباني في الصحيحة (٤١٦/٦).

(٢) فتح البر (٥٩١/٣).

(١) شرح صحيح مسلم (١٥٧/١٧).

(٣) شرح المسند (٣٨/١٢).

المسجد في سياراتهم ، وقد ينزل عنها بعضهم ينتظرون الجنازة ليتابعوا تشييعها إلى قبرها نفاقاً اجتماعياً ومداهنة ، وليس تعبدًا وتذكرًا للآخرة ، والله المستعان . هذا هو الوجه في تأويل هذا الحديث عندي ، فإن أصبت فمن الله ، وإن أخطأت فمن نفسي ، والله تعالى هو المسؤول أن يغفر لي خطيئتي وعمدي ، وكل ذلك عندي»^(١) .

ومنها : خروج نار بأرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى :

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى »^(٢) .

* غريب الحديث :

بُصرى : بضم الباء : مدينة حوران المعروفة بالشام ، بينها وبين دمشق نحو ثلاث مراحل^(٣) .

* فوائد الحديث :

ترجم البخاري رحمته الله لهذا الحديث بقوله : «باب خروج النار» . وقال أنس : قال النبي ﷺ : «أول أشراط الساعة : نار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب»^(٤) .

قال الحافظ : «قال النووي : تواتر العلم بخروج هذه النار عند جميع أهل الشام . وقال أبو شامة في «ذيل الروضتين» : وردت في أوائل شعبان سنة أربع وخمسين كتب من المدينة الشريفة فيها شرح أمر عظيم حدث بها ، فيه تصديق لما في الصحيحين ، فذكر هذا الحديث . . قال : فأخبرني بعض من أثق به ممن شاهدها أنه بلغه أنه كتب بتيماء على ضوئها الكتب . . ومن ذلك أن في بعض الكتب : ظهر في أول جمعة من جمادى الآخرة في شرقي المدينة نار عظيمة ، بينها وبين المدينة نصف يوم ، انفجرت من الأرض ، وسال منها واد من نار حتى حاذى جبل أحد . وفي كتاب آخر : انبجست الأرض من الحرة بنار عظيمة يكون قدرها مثل مسجد المدينة ، وهي برأي العين من المدينة ، وسال منها واد يكون مقداره أربع

(١) الصحيحة (٤١٥-٤١٦) .

(٢) أخرجه : البخاري (٧١١٨/٩٨/١٣) ، ومسلم (٢٢٢٧-٢٢٢٨/٢٢٢٨-٢٩٠٢) .

(٣) شرح صحيح مسلم (٢٤/١٨) .

(٤) فتح الباري (٩٨/١٣) .

فراسخ، وعرضه أربع أميال، يجري على وجه الأرض، ويخرج منه مهاد وجبال صغار. وفي كتاب آخر: ظهر ضوؤها إلى أن رأوها من مكة، قال: ولا أقدر أصف عظمها، ولها دوي. قال أبو شامة: ونظم الناس في هذا أشعارًا، ودام أمرها أشهرًا، ثم خمدت. والذي ظهر لي أن النار المذكورة في حديث الباب هي التي ظهرت بنواحي المدينة، كما فهمه القرطبي وغيره. وأما النار التي تحشر الناس فنار أخرى^(١).

ومنها: خراب الكعبة وانقطاع الحج:

* عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لا تقوم الساعة حتى لا يحج البيت»^(٢).

★ فوائد الحديث:

ظاهر هذا الحديث يعارض قوله ﷺ: «ليحج البيت، وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج»^(٣)؛ قال الحافظ ابن حجر: «ولكن يمكن الجمع بين الحديثين؛ فإنه لا يلزم من حج الناس بعد خروج يأجوج ومأجوج أن يمتنع الحج في وقت ما عند قرب ظهور الساعة، ويظهر - والله أعلم - أن المراد بقوله: «ليحج البيت» أي: مكان البيت»^(٤).

وقال ابن كثير: «ولا منافاة في المعنى بين الروایتين؛ لأن الكعبة يحجها الناس، ويعتَمرون بها بعد خروج يأجوج ومأجوج وهلاكهم، وطمانينة الناس، وكثرة أرزاقهم في زمان المسيح عليه الصلاة والسلام، ثم يبعث الله ريحًا طيبة، فيقبض بها روح كل مؤمن ومؤمنة، ويتوفى نبي الله عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، ويصلي عليه المسلمون، ويدفن بالحجرة النبوية مع رسول الله ﷺ فيها»^(٥)، ثم يكون خراب الكعبة على يدي ذي السويقتين بعد هذا، وإن كان ظهوره

(١) فتح الباري (٩٩/١٣).

(٢) أخرجه البخاري (١٥٩٣/٥٨٠/٣) معلقاً بصيغة الجزم، ووصله أبو يعلى (٩٩١/٢٧٧/٢)، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٥١/١٥١/٦٧٥٠)، والحاكم (٤٥٣/٤)، ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه: أحمد (٢٨-٢٧/٣)، والبخاري (١٥٩٣/٥٨٠/٣) عن أبي سعيد رضي الله عنه.

(٤) فتح الباري (٥٨١/٣). (٥) يحتاج ذلك إلى خبر صحيح.

في زمان المسيح، كما قال كعب الأحبار^(١).

قال القرطبي: «وقيل: إن خرابه يكون بعد رفع القرآن من صدور الناس ومن المصاحف، وذلك بعد موت عيسى عليه السلام، وهو الصحيح في ذلك»^(٢).

ومنها: مطر شديد لا تكن منه إلا بيوت الشعر:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تمطر السماء مطرًا لا يكن منه بيوت المدر، ولا يكن منه إلا بيوت الشعر»^(٣).

★ غريب الحديث:

المدر: هو الطين الصلب المتماسك.

★ فوائد الحديث:

في هذا الحديث: «إخباره ﷺ عن المطر الشديد الذي يكون في آخر الزمان الذي يتعذر الكن منه في البيوت»^(٤).

قال السندي: «قوله: «لا تكن» أي: لا تستر منه شيئًا؛ أي: أن ذلك المطر ينزل من بيوت المدر، ولا تمنع بيوت المدر من نزوله، ولا ينزل من بيوت الشعر، وهو تعالى قادر على كل شيء»^(٥).

قال الألباني: «ثم اعلم أن ظاهره -أي حديث أبي هريرة- يخالف ما جاء في حديث النواس بن سمعان في قصة يأجوج ومأجوج، وإهلاك الله تعالى إياهم، حتى تنتن الأرض من زهومتهم، وفيه: «ثم يرسل الله عليهم مطرًا لا يكن منه بيت مدر ولا وبر، فيفسل الأرض حتى يتركها كالزلقة»^(٦) رواه مسلم وغيره. . فقوله:

(١) النهاية في الفتن والملاحم (١/١٥٦). (٢) التذكرة (٢/٤٤٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/٢٦٢)، وذكره الهيثمي في المجمع (٧/٣٣١): وقال: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح»، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٥/١٧٣-١٧٤/٦٧٧٠) واللفظ له.

(٤) أفاده ابن حبان في صحيحه (١٥/١٧٣) الإحسان.

(٥) حاشية المسند (١٣/١٢).

(٦) أخرجه: أحمد (٤/١٨١-١٨٢)، ومسلم (٤/٢٢٥٠-٢٢٥٥/٢٩٣٧)، وأبو داود (٤/٤٩٦-٤٩٧/٤٣٢١)، والترمذي (٤/٤٤٢-٤٤٥/٢٢٤١)، والنسائي في الكبرى (٦/٢٣٥/١٠٧٨٣)، وابن ماجه (٢/١٣٥٦-١٣٥٩/٤٠٧٥) عن النواس بن سمعان رضي الله عنه.

«ولا وبر» ينافي قوله في حديث الترجمة: «إلا بيت الشعر»، فلعل ذلك يكون في زمنين مختلفين»^(١).

ومنها: إخباره ﷺ بمنع العراق والشام ومصر خراجها:

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «منعت العراق درهمها وقفيظها، ومنعت الشام مديها ودينارها، ومنعت مصر إردبها ودينارها، وعدتم من حيث بدأت، وعدتم من حيث بدأت»، شهد على ذلك لحم أبي هريرة ودمه^(٢).

* غريب الحديث:

قفيظها: القفيظ لأهل العراق: ثمانية مكايك، والمكوك صاع ونصف.
مديها: المُدِّي: مكيال لأهل الشام، يسع خمسة وأربعين رطلًا. وهو غير المُدِّ.

إردبها: الإردب لأهل مصر: مكيال لهم يسع أربعة وعشرين صاعًا، والهمزة فيه زائدة.

* فوائد الحديث:

قال القرطبي: «وهذا منه إخبار بأن أمور الدين وقواعده يترك العمل بها لضعف القائم بها، أو لكثرة الفتن واشتغال الناس بها، وتفاقم أمر المسلمين، فلا يكون من يأخذ الزكاة ولا الجزية ممن وجبت عليه، فيمتنع من وجب عليه حق من أدائه، والله تعالى أعلم»^(٣).

قال البغوي: «وللحديث تأويلان: أحدهما: سقوط ما وظف عليهم باسم الجزية بإسلامهم، فصاروا بالإسلام مانعين لتلك الوظيفة، وذلك معنى قوله ﷺ: «وعدتم من حيث بدأت» أي: كان في سابق علم الله سبحانه وتعالى، وتقديره: أنهم سيسلمون، فعادوا من حيث بدؤوا.

(١) الصحيحة (٧/ ٧٩٥/ ٣٢٦٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٦٣)، ومسلم (٤/ ٢٢٢٠-٢٢٢١/ ٢٨٩٦)، وأبو داود (٣/ ٤٢٦/ ٣٠٣٥).

(٣) المفهم (٧/ ٢٣٠).

والتأويل الثاني : هو أنهم يرجعون عن الطاعة ، فيمنعون ما وظف عليهم ، وكان هذا القول من النبي ﷺ دليلاً على نبوته حيث أخبر عن أمر أنه واقع قبل وقوعه ، فخرج الأمر في ذلك على ما قاله^(١) .

ومنها : تكليم الجماد والحيوان للإنسان :

* عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «الذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى تكلم السباع الإنس ، وحتى تكلم الرجل عذبة سوطه ، وشراك نعله ، وتخبره فخذه بما أحدث أهله من بعده»^(٢) .

* غريب الحديث :

عذبة سوطه : العذبة : بفتح العين المهملة والذال المعجمة ؛ أي : السير المعلق في طرفه .

شراك نعله : بكسر الشين المعجمة : أحد سيور النعل ، تكون على وجهها .

* فوائد الحديث :

قال القرطبي : «وفي هذا الحديث ما يرد على كفره الأطباء والزنادقة الملحدين ، وأن الكلام ليس مرتبطاً بالهبة والبلة ، وإنما الباري جلت قدرته يخلقه متى شاء ، في أي شيء شاء ، من جماد أو حيوان ، على ما قدره الخالق الرحمن ، فقد كان الحجر^(٣) والشجر^(٤) يسلمان عليه ﷺ ، تسليم من نطق وتكلم ، ثبت ذلك في غير ما حديث ، وهو قول أهل أصول الدين في القديم والحديث ، وثبت باتفاق حديث البقرة والذئب ، وأنهما تكلما ، على ما أخبر عنهما ﷺ في الصحيحين^(٥) ،

(١) شرح البغوي (١١/١٧٨) .

(٢) أخرجه : أحمد (٨٣-٨٤/٣) ، والترمذي (٤١٣/٤ / ٢١٨١) والسياق له ، وقال : «هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث القاسم بن الفضل ، والقاسم بن الفضل ثقة مأمون عند أهل الحديث وثقه يحيى بن سعيد القطان وعبد الرحمن بن مهدي» ، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٤/٤١٨-٤١٩ / ٦٤٩٤) ، والحاكم (٤/٤٦٧) على شرط مسلم ووافقه الذهبي .

(٣) أخرجه : أحمد (٨٩/٥) ، ومسلم (٤/١٧٨٢ / ٢٢٧٧) عن جابر بن سمرة رضي الله عنه .

(٤) أخرجه : أحمد (٣٠٠/٣) ، والبخاري (٦/٧٤٦ / ٣٥٨٤) ، وأبو داود (١/٦٥٣ / ١٠٨١) ، والترمذي (٢/٣٧٩ / ٥٠٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٥) أخرجه : أحمد (٢٤٥-٢٥٦ / ٢) ، والبخاري (٦/٦٣٥ / ٣٤٧١) ، ومسلم (٤/١٨٥٧ / ٢٣٨٨) ، والنسائي في الكبرى (٥/٣٧ / ٨١١١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

قاله ابن دحية^(١).

قال التويعري: «الذي لا شك فيه أن السباع تكلم الإنس في آخر الزمان كلامًا حقيقيًا، وكذلك الفخذ، وعذبة السوط، وشراك النعل، فكلها تكلم الناس في آخر الزمان كلامًا حقيقيًا، ومن أنكر ذلك أو شك فيه؛ فهو ممن يشك في إسلامه؛ لأنه لم يحقق الشهادة بأن محمدًا رسول الله، ومن تحقيقها تصديق النبي ﷺ فيما أخبر به من الغيوب الماضية، والغيوب الآتية، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(٢)، وقال النبي ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، ويؤمنوا بي وبما جئت به، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله»^(٣). . وتكليم السباع للإنس فيه خرق للعادة، وكذلك تكليم الفخذ وعذبة السوط، وشراك النعل، فكل ذلك خارق للعادة، ومستغرب جدًا، ولهذا يكون وجود ذلك دليلًا على اقتراب الساعة ودنوها»^(٤).

ومن أشراط الساعة التي أخبر النبي ﷺ بها: خروج المهدي، وهو رجل صالح من آل بيت النبي ﷺ يخرج في آخر الزمان، يؤيد الله به الدين، يملك خمس أو سبع سنين، يملأ الأرض عدلًا بعدما ملئت جورًا، وتكثر النعم في زمانه، فتخرج الأرض نباتها، وترسل السماء قطرها، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد:

قال ابن كثير: «وفي زمانه تكون الثمار كثيرة، والزروع غزيرة، والمال وافرًا، والسلطان قاهرًا، والدين قائمًا، والعدو راغمًا، والخير في أيامه دائمًا»^(٥).

اسمه ونسبه:

* عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم - قال زائدة في حديثه - لَطَوَّلَ اللَّهُ ذلك اليوم - ثم اتفقوا - حتى يبعث فيه رجلًا مني،

(١) التذكرة (٢/ ٤٩٠).

(٢) النجم: الآيتان (٤٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٤٢٣/ ٢)، والبخاري (١٣٨/ ٦)، ومسلم (٥٢/ ١)، وأبو داود (١٠١/ ٣)،
٢٦٤٠، والترمذي (٥/ ٥)، والنسائي (٣١١-٣١٢/ ٦)، وابن ماجه (٢/ ١٢٩٥)، (٣٩٢٧).

(٤) إتحاف الجماعة (٣/ ٢٢٣-٢٢٤).

(٥) النهاية (١/ ٣١).

أو من أهل بيتي، يواطئ اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي»^(١).

★ فوائد الحديث:

قال القاري: «فيكون اسمه محمد بن عبد الله، وفيه رد على الشيعة حيث يقولون: المهدي الموعود هو القائم المنتظر، وهو محمد بن الحسن العسكري»^(٢).
وقال شيخ الإسلام في معرض رده على ابن مطهر الرافضي: «إن لفظ الحديث حجة عليكم، لا لكم؛ فإن لفظه: «يواطئ اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي»، فالمهدي الذي أخبر به النبي ﷺ اسمه: محمد بن عبد الله، لا محمد بن الحسن، وقد روي عن علي عليه السلام أنه قال: «هو من ولد الحسن بن علي، لا من ولد الحسين»^(٣).

قال ابن القيم: «وفي كونه من ولد الحسن سر لطيف، وهو أن الحسن عليه السلام ترك الخلافة لله، فجعل الله من ولده من يقوم بالخلافة الحق المتضمن للعدل الذي يملأ الأرض، وهذه سنة الله في عباده، أنه من ترك لأجله شيئاً أعطاه الله أو أعطى ذريته أفضل منه، وهذا بخلاف الحسين عليه السلام؛ فإنه حرص عليها وقاتل عليها فلم يظفر بها، والله أعلم»^(٤).

صفته:

★ عن أبي سعيد الخدري عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «المهدي مني، أجلى الجبهة، أقنى الأنف، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، ويملك سبع سنين»^(٥).

★ عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «المهدي منا آل البيت، يصلحه الله

(١) أخرجه: أحمد (١/٣٧٧ و ٤٣٠ و ٤٤٨)، وأبو داود (٤/٤٧٢-٤٧٣/٤٢٨٢)، والترمذي (٤/٤٣٨/٢٢٣٠) وقال: «حسن صحيح»، وصححه ابن حبان (١٣/٤٨٤/٥٩٥٤).

(٢) المرقاة (٩/٣٥١).

(٣) منهاج السنة (٤/٩٥).

(٤) المنار المنيف (ص: ١٣٩).

(٥) أخرجه: أحمد (٣/١٧)، وأبو داود (٤/٤٧٤-٤٧٥/٤٢٨٥) واللفظ له، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٥/٦٨٢٦/٢٣٨)، والحاكم (٤/٥٥٧)، قال الذهبي: «عمران ضعيف، ولم يخرج له مسلم»، وحسنه الشيخ الألباني في المشكاة رقم (٥٤٥٤)، وفي سنن أبي داود (٣٦٠٤).

في ليلة»^(١).

* عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : خشينا أن يكون بعد نبينا حدث ، فسألنا نبي الله ﷺ فقال : «إن في أمتي المهدي يخرج ، يعيش خمساً أو سبعمائة أو تسعاً - زيد الشاذل - قال : قلنا : وما ذاك؟ قال : سنين ، قال : فيجيء الرجل إليه ، فيقول : يا مهدي ! أعطني أعطني . فيحني له في ثوبه ما استطاع أن يحمله»^(٢).

* غريب الأحاديث:

أجلى الجبهة : أي : واسعها . وفي «النهاية» : النزعتان من جانب الرأس بما لا شعر عليه ، والجلأ ، مقصوراً : انحسار مقدم الرأس من الشعر أو نصف الرأس أو هو دون الصلع ، والنعت : أجلى وجلواء ، وجبهة جلواء : واسعة .
أقنى الأنف : قال في «النهاية» : القنا في الأنف : طوله ودقة أرنبته مع حذب في وسطه ، يقال : رجل أقنى ، وامرأة قنواء . قال القاري : والمراد : لم يكن أفطس ؛ فإنه مكروه الهيئة^(٣).

* فوائد الأحاديث:

قوله : «يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت جوراً وظلماً» :

قال القاري : «فيكون جامعاً لما ذكر الله : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾»^(٤).

(١) أخرجه : أحمد (٨٤ / ١) ، وابن ماجه (٤٠٨٥ / ١٣٦٧ / ٢) . قال البوصيري في الزوائد : «قال البخاري في التاريخ عقب حديث إبراهيم بن محمد بن الحنفية هذا : في إسناده نظر ، وذكره ابن حبان في الثقات ووثقه العجلي ، قال البخاري : فيه نظر ، ولا أعلم له حديثاً غير هذا . وقال ابن معين وأبو زرعة : لا بأس به ، وأبو داود الحفري : اسمه عمر بن سعد ، واحتج به مسلم في صحيحه ، وباقيهم ثقات» . قال الألباني في الصحيحة (ج : ٢٣٧١) بعد أن نقل كلام العلماء في ياسين العجلي : «وسائر الرواة ثقات ، فالإسناد حسن لكن متابعة سالم بن أبي حفصة المتقدمة - وهو صدوق في الحديث - ترفع الحديث إلى مرتبة الصحيح ، والله أعلم» .

(٢) أخرجه : أحمد (٢١ / ٣) ، والترمذي (٢٢٣٢ / ٤٣٩ / ٤) ، وابن ماجه (٤٠٨٣ / ١٣٦٧ - ١٣٦٦ / ٢) ، والحاكم (٥٥٨ / ٤) من طرق عن زيد العمي عن أبي صديق الناجي عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً . قال ابن عدي : وهذا الحديث مداره على زيد العمي ، وبه يعرف . قلت : زيد العمي ، قال عنه ابن حجر في «التقريب» : «ضعيف» . وقال الترمذي : «هذا حديث حسن ، وقد روي من غير وجه عن أبي سعيد عن النبي ﷺ» .
والحديث حسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» و «صحيح سنن ابن ماجه» .
(٣) المرقاة (٣٥١ / ٩) .
(٤) النحل : الآية (٩٠) .

وقائماً بما قاله العلماء من أن الدين هو التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله، وموصوفاً بوصف الكمال، وهو إجراء كل من تجلي الجمال وتجلي الجلال في محله اللائق بكل حال من الأحوال»^(١).

قوله: «يصلحه الله في ليلة»:

قال ابن كثير: «أي: يتوب عليه، ويوفقه، ويلهمه، ويرشده، بعد أن لم يكن كذلك»^(٢).

قال الشيخ الألباني: «ولعل المقصود بذلك أنه يصلحه؛ أي: يعدّه لتولي قيادة المسلمين، لا أنه كان فاسقاً فأصلحه الله وتاب عليه»^(٣).

* عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يكون في آخر أمتي خليفة يحثي المال حثياً ولا يعدّه عدّاً»^(٤).

* فوائد الحديث:

قال المناوي: «قالوا: وهو المهدي»^(٥).

وأشار إليه القرطبي رحمته الله فقال: «وقد روى الترمذي وأبو داود أحاديث صحيحة في هذا الخليفة، وسمياه بالمهدي»^(٦).

وقال الشيخ الألباني: «وهو المهدي المبشر بخروجه بين يدي نزول عيسى عليه السلام، ويصلي عيسى عليه السلام خلفه»^(٧).

وفي قوله: «يحثي المال حثياً» يقول النووي: «هذا الحثو الذي يفعله هذا الخليفة؛ يكون لكثرة الأموال والغنائم والفتوحات مع سخاء نفسه»^(٨).

مسألة تعيين المهدي:

قال ابن القيم رحمته الله: «وقد اختلف الناس في المهدي على أربعة أقوال:

(٢) النهاية (١/٢٩).

(١) المرقاة (٩/٣٥٠).

(٣) قصة المسيح الدجال (ص: ١٤١).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/٣٣٣)، ومسلم (٤/٢٢٣٤/٢٩١٣).

(٦) المفهم (٧/٢٥٢).

(٥) فيض القدير (٦/١٣).

(٧) صحيح الجامع (٥/٢١٧).

(٨) شرح مسلم (١٨/٣٢).

أحدها : أنه المسيح ابن مريم ، وهو المهدي على الحقيقة .

واحتج أصحاب هذا بحديث محمد بن خالد الجندي المتقدم^(١) ، وقد بينا حاله وأنه لا يصح ، ولو صح لم يكن فيه حجة ؛ لأن عيسى أعظم مهدي بين يدي رسول الله ﷺ وبين الساعة .

وقد دلت السنة الصحيحة عن النبي ﷺ على نزوله على المنارة البيضاء شرقي دمشق^(٢) ، وحكمه بكتاب الله ، ووضع الجزية^(٣) ، وإهلاك أهل الملل في زمانه .
فيصح أن يقال : لا مهدي في الحقيقة سواه ، وإن كان غيره مهدياً ؛ كما يقال : لا علم إلا ما نفع ، ولا مال إلا ما وقى وجه صاحبه . وكما يصح أن يقال : إنما المهدي عيسى ابن مريم ، يعني المهدي الكامل المعصوم .

القول الثاني : أنه المهدي الذي ولي من بني العباس ، وقد انتهى زمانه .
واحتج أصحاب هذا القول بما رواه أحمد في مسنده : حدثنا وكيع عن شريك عن علي بن زيد عن أبي قلابة عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا رأيتم الرايات السود قد أقبلت من خراسان ، فأتوها ولو حبواً على الثلج ؛ فإن فيها خليفة الله المهدي»^(٤) .

وعلي بن زيد قد روى له مسلم متابعة ، ولكن هو ضعيف ، وله مناكير تفرد بها ، فلا يحتج بما ينفرد به . . وفي سنن ابن ماجه عن عبد الله بن مسعود قال : «بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ أقبل فتية من بني هاشم ، فلما رأهم النبي ﷺ اغرورقت

(١) وهو : «لا مهدي إلا عيسى ابن مريم» أخرجه : ابن ماجه (٢/ ١٣٤٠-١٣٤١/ ٤٠٣٩) ، والحاكم (٤/ ٤٤١) ، وبين علته فقال : «فذكرت ما انتهى إليه من علة هذا الحديث تعجباً لا محتجاً به» ، ووافقه الذهبي . قال في الضعيفة (٧٧) : منكر من حديث أنس ؓ .

(٢) أخرجه : أحمد (٤/ ١٨١-١٨٢) ، ومسلم (٤/ ٢٢٥٠-٢٢٥٥/ ٢٩٣٧) ، وأبو داود (٤/ ٤٩٦-٤٩٧/ ٤٣٢١) ، والترمذي (٤/ ٤٤٢-٤٤٥/ ٢٢٤١) ، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٣٥/ ١٠٧٨٣) ، وابن ماجه (٢/ ١٣٥٦-١٣٥٩/ ٤٠٧٥) عن النواس بن سمعان ؓ .

(٣) أخرجه : أحمد (٢/ ٤٠٦) ، وأبو داود (٤/ ٤٩٨-٤٩٩/ ٤٣٤) ، وصححه ابن حبان (١٥/ ٢٣٣-٢٣٤/ ٦٨٢١) ، والحاكم (٢/ ٥٩٥) ، ووافقه الذهبي ، من حديث أبي هريرة ؓ .

(٤) أخرجه : أحمد (٢/ ٢٧٧) ، وابن ماجه (٢/ ١٣٦٧/ ٤٠٨٤) ، وصححه الحاكم (٤/ ٤٦٣-٤٦٤) ، ووافقه الذهبي ، لكن له علل بينها الشيخ الألباني ، وحكم بتركه . انظر الضعيفة (٨٥) .

عيناه . . «^(١) الحديث . وفي إسناده يزيد بن أبي زياد، وهو سيئ الحفظ، اختلط في آخر عمره، وكان يقبل التلقين، وهذا والذي قبله لو صح لم يكن فيه دليل على أن المهدي الذي تولى من بني العباس هو المهدي الذي يخرج في آخر الزمان؛ بل هو مهديٌّ من جملة المهديين، وعمر بن عبدالعزيز كان مهديًّا؛ بل هو أولى باسم المهدي منه، وقد قال رسول الله ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي»^(٢).

وقد ذهب الإمام أحمد - في إحدى الروايتين عنه - وغيره إلى أن عمر بن عبدالعزيز منهم، ولا ريب أنه كان راشدًا مهديًّا، ولكن ليس بالمهدي الذي يخرج في آخر الزمان؛ فالمهدي في جانب الخير والرشد كالدجال في جانب الشر والضلال، وكما أن بين يدي الدجال الأكبر صاحب الخوارق دجالين كذابين؛ فكذلك بين يدي المهدي الأكبر مهديون راشدون.

القول الثالث: أنه رجل من أهل بيت النبي ﷺ من ولد الحسن بن علي، يخرج في آخر الزمان، وقد امتلأت الأرض جورًا وظلمًا، فيملؤها قسطًا وعدلًا. وأكثر الأحاديث على هذا تدل . .

وأما الرافضة الإمامية فلهم قول رابع: وهو أن المهدي هو محمد بن الحسن العسكري المنتظر من ولد الحسين بن علي، لا من ولد الحسن، الحاضر في الأمصار، الغائب عن الأبصار!! الذي يورث العصا ويختم الفضا، دخل سرداب سامراء طفلًا صغيرًا من أكثر من خمس مئة سنة، فلم تره بعد ذلك عين، ولم يحس فيه بخبر ولا أثر!! وهم ينتظرونه كل يوم يقفون بالخیل على باب السرداب، ويصيحون به أن يخرج إليهم: اخرج يا مولانا! اخرج يا مولانا! ثم يرجعون بالخبية والحرمان، فهذا دأبهم ودأبه. ولقد أحسن من قال:

(١) أخرجه: ابن ماجه (٢/١٣٦٦/٤٠٨٢)، والطبراني في الكبير (١٠/٨٥/١٠٠٣١)، وفي الأوسط (٦/٣٢٧/٥٦٩٥)، والبزار في البحر الزخار (٤/٣١٠/١٤٩١)، والحاكم (٤/٤٦٤)، وقال الذهبي: «هذا موضوع». وقال الشيخ الألباني في ضعيف ابن ماجه (٨٨٦): «ضعيف».

(٢) أخرجه: أحمد (٤/١٢٦-١٢٧)، وأبو داود (٥/١٣-١٥/٤٦٠٧)، والترمذي (٥/٤٣-٤٤/٢٦٧٦) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (١/١٦-١٧/٤٤-٤٣)، وصححه ابن حبان (١/١٧٨-١٧٩/٥)، والحاكم (١/٩٥-٩٧) ووافقه الذهبي، من حديث العرياض بن سارية رضي الله عنه.

ما آن للسرداب أن يلد الذي كلمتموه بجهلكم ما آنا
فعلى عقولكم العفاء فإنكم ثلثتم العنقاء والغيلانا
ولقد أصبح هؤلاء عارًا على بني آدم وضحكة يسخر منهم كل عاقل .

أما مهدي المغاربة محمد بن تومرت ، فإنه رجل كذاب ظالم متغلب بالباطل ، ملك بالظلم والتغلب والتحيل ، فقتل النفوس وأباح حريم المسلمين ، وسبى ذراريهم ، وأخذ أموالهم ، وكان شرًا على الملة من الحجاج بن يوسف بكثير ، وكان يودع بطن الأرض في القبور جماعة من أصحابه أحياء يأمرهم أن يقولوا للناس : إنه المهدي الذي بشر به النبي ﷺ ، ثم يردم عليهم ليلاً لئلا يكذبوه بعد ذلك ، وسمى أصحابه الجهمية نفاة صفات الرب ، وكلامه وعلوه على خلقه واستوائه على عرشه ورؤية المؤمنين له بالأبصار يوم القيامة : الموحدين ! واستباح قتل من خالفهم من أهل العلم والإيمان ، وتسمى بالمهدي المعصوم . ثم خرج المهدي الملحد عبيد الله بن ميمون القداح ، وكان جده يهوديًا من بيت مجوسي ، فانتسب بالكذب والزور إلى أهل البيت ، وادعى أنه المهدي الذي بشر به النبي ﷺ ، وملك وتغلب ، واستفحل أمره إلى أن استولت ذريته الملاحدة المنافقون - الذين كانوا أعظم الناس عداوة لله ولرسوله - على بلاد المغرب ومصر والحجاز والشام ، واشتدت غربة الإسلام ومحنته ومصيبته ، وكانوا يدعون الإلهية ، ويدعون أن للشرعية باطنًا يخالف ظاهرها ، وهم ملوك القرامطة الباطنية أعداء الدين ، فتستروا بالرفض والانتساب كذبًا إلى أهل البيت ، ودانوا بدين أهل الإلحاد ، ولم يزل أمرهم ظاهرًا إلى أن أنقذ الله الأمة ، ونصر الإسلام بصلاح الدين يوسف بن أيوب ، فاستنقذ الملة الإسلامية منهم وأبادهم ، وعادت مصر دار إسلام بعد أن كانت دار نفاق وإلحاد في زمنهم .

والمقصود أن هؤلاء لهم مهدي ، وأتباع ابن تومرت لهم مهدي ، والرافضة الاثنا عشرية لهم مهدي ، فكل هذه الفرق تدعي في مهديها الظلوم الغشوم والمستحيل المعدوم ؛ أنه الإمام المعصوم والمهدي المعلوم الذي بشر به النبي ﷺ وأخبر بخروجه ، وهي تنتظره كما تنتظر اليهود القائم الذي يخرج في آخر الزمان فتعلو به كلمتهم ، ويقوم به دينهم ، وينصرون به على جميع الأمم ، والنصارى تنتظر المسيح يأتي قبل يوم القيامة ، فيقيم دين النصرانية ويبطل سائر الأديان ، وفي

عقيدتهم نزع المسيح الذي هو إله حق من إله حق من جوهر أبيه الذي نزل طامينا ، إلى أن قالوا : وهو مستعد للمجيء قبل يوم القيامة ، فالمثلل الثلاث تنتظر إمامًا قائمًا يقوم في آخر الزمان ، ومنتظر اليهود الدجال الذي يتبعه من يهود أصبهان سبعون ألفًا ، وفي المسند مرفوعًا عن النبي ﷺ : «أكثر أتباع الدجال اليهود والنساء»^(١) . والنصارى تنتظر المسيح عيسى ابن مريم ، ولا ريب في نزوله ، ولكن إذا نزل كسر الصليب ، وقتل الخنزير ، وأباد الملل كلها سوى ملة الإسلام»^(٢) .

العلامات التي يعرف بها عند خروجه :

* عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : «يعوذ عائد بالبيت ، فإذا كانوا ببیداء من الأرض خسف بهم»^(٣) .

* فوائد الحديث :

ترجم له ابن حبان بقوله : «ذكر الخبر المصرح بأن القوم الذين يخسف بهم إنما هم القاصدون إلى المهدي في زوال الأمر عنه»^(٤) .

وقال الطبري : «وهو المهدي بدليل إيراد أبي داود هذا الحديث في باب المهدي»^(٥) .

وقال ابن حجر الهيتمي : «إن ذلك العائد هو المهدي ، وأن تلك البیداء الحليفة»^(٦) .

* عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة ، فينزل عيسى ابن مريم ، فيقول أميرهم : تعال صل لنا ، فيقول : لا ، إن بعضكم على بعض أمراء ؛ تكرمة الله هذه

(١) أخرجه : أحمد (٢١٦-٢١٧/٤) ، والطبراني في الكبير (٨٣٩٢/٦٠/٩) ، وقال الهيتمي في المجمع (٧/٣٤٢) : «رواه أحمد والطبراني ، وفيه علي بن زيد ، وفيه ضعف وقد وثق ، وبقيت رجالهما رجال الصحيح» ، وصححه الحاكم (٤٧٨/٤) ، وتعقبه الذهبي بقوله : «أبو هبيرة واو» .

(٢) المنار المنيف (ص : ١١٤-١٢٢) .

(٣) أخرجه : أحمد (٢٩٠/٦) ، ومسلم (٢٨٨٢/٢٢٠٩/٤) ، وأبو داود (٤٧٦-٤٧٧/٤٢٨٩) ، والترمذي (٢١٧١/٤٠٧/٤) .

(٥) شرح المشكاة (١١/٣٤٤٤) .

(٤) الإحسان (١٥/١٥٨) .

(٦) الزواجر (١/٤٧٠) .

الأمة»^(١).

★ فوائد الحديث:

قال محمد حبيب الله الشنقيطي: «ولم يعين الإمام هنا باسمه؛ بل أطلق، وورد مقيّداً بأنه المهدي في أحاديث أخر، منها: ما أخرجه أبو نعيم عن أبي سعيد والحارث بن أبي أسامة عن جابر أن النبي ﷺ قال: «ينزل عيسى ابن مريم، فيقول أميرهم المهدي: تعال صلّ بنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمير تكرمة الله لهذه الأمة». قال ابن القيم بعد ذكره حديث الحارث: وهذا إسناد جيد»^(٢).

قال أبو الحسن الأبري في مناقب الشافعي: «تواترت الأخبار بأن المهدي من هذه الأمة، وأن عيسى يصلي خلفه»^(٣).

وقال السيوطي: «إن صلاة عيسى ﷺ خلف المهدي ثابتة في عدة أحاديث صحيحة بإخبار النبي ﷺ، وهو الصادق المصدوق»^(٤).

وقال صديق حسن خان -بعد ذكر حديث جابر السابق-: «ليس فيه ذكر المهدي، ولكن لا محمل له ولأمثاله من الأحاديث إلا المهدي المنتظر؛ لما دلت عليه الأخبار المتقدمة والآثار الكثيرة»^(٥).

وقال الشيخ الألباني: «هو المهدي محمد بن عبد الله ﷺ؛ كما تظاهرت بذلك الأحاديث بأسانيد بعضها صحيح، وبعضها حسن»^(٦).

وقال المناوي: «نزول عيسى لقتل الدجال يكون في زمن المهدي، ويصلي عيسى خلفه كما جاءت به الأخبار، وجزم به جمع من الأخيار»^(٧).

مكان وزمان خروجه:

قال ابن كثير: «ويكون ظهوره من بلاد المشرق، لا من سرداب سامراء كما يزعمه جهلة الرافضة؛ من أنه موجود فيه الآن، وهم ينتظرون خروجه في آخر

(١) أخرجه: أحمد (٣٤٥-٣٨٤)، ومسلم (١/١٣٧/١٥٦).

(٢) المهدي وفقه أشراف الساعة (ص: ٥٣). (٣) نقلاً عن الفتح (٦/٦١١).

(٤) نزول عيسى آخر الزمان (ص: ٥٦). (٥) الإذاعة (ص: ٧٨).

(٦) مختصر صحيح مسلم للمندري (ص: ٣٠٩).

(٧) فيض القدير (٦/٣٠١).

الزمان؛ فإن هذا نوع من الهذيان، وقسط كبير من الخذلان شديد من الشيطان؛ إذ لا دليل على ذلك ولا برهان، لا من كتاب ولا سنة ولا معقول صحيح ولا استحسان^(١).

وقال: «والمقصود أن المهدي الممدوح الموعود بوجوده في آخر الزمان؛ يكون أصل ظهوره وخروجه من ناحية المشرق، ويباع له عند البيت، كما دل على ذلك بعض الأحاديث»^(٢).

مسألة: فيمن يمكث المهدي ومدة مكثه:

* عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «لا تنقضي الأيام ولا يذهب الدهر حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي، اسمه اسمي»^(٣).

قال الطيبي: «قوله: «يملك العرب» لم يذكر العجم، وهم مرادون أيضًا؛ لأنه إذا ملك العرب واتفقت كلمتهم، وكانوا يدًا واحدة، قهروا سائر الأمم»^(٤).

قال القاري: «ويمكن أن يقال: ذكر العرب لغلبتهم في زمنه، أو لكونهم أشرف، أو هو من باب الاكتفاء، ومراده العرب والعجم، كقوله تعالى: ﴿سَرَّيْلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ﴾^(٥) أي: والبرد. والأظهر أنه اقتصر على ذكر العرب؛ لأنهم كلهم يطيعونه بخلاف العجم، بمعنى ضد العرب؛ فإنه قد يقع منهم خلاف في طاعته، والله تعالى أعلم»^(٦).

قال ابن كثير: «وهذا يدل على أن أكبر مدته تسع، وأقلها خمس أو سبع»^(٧).

تواتر أحاديث المهدي:

قال الشوكاني: «والأحاديث الواردة في المهدي التي أمكن الوقوف عليها منها خمسون حديثًا، فيها الصحيح والضعيف المنجبر، وهي متواترة بلا شك ولا شبهة، بل يصدق وصف التواتر على ما هو دونها على جميع الاصطلاحات المحررة في

(١) النهاية (٢٩/١).

(٢) المصدر نفسه (٣٠/١).

(٣) أخرجه: أحمد (٣٧٧/١)، وأبو داود (٤٧٢-٤٧٣/٤)، والترمذي (٤٣٨/٤/٢٢٣٠) وقال: «حسن صحيح»، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٣/٢٨٤/٥٩٥٤).

(٤) الكاشف (٣٤٤٣/١١).

(٥) النحل: الآية (٨١).

(٦) المرقاة: (٣٤٩/٩).

(٧) النهاية في الفتن والملاحم (٣١/١).

الأصول. وأما الآثار عن الصحابة المصراحة بالمهدي فهي كثيرة أيضًا، لها حكم الرفع؛ إذ لا مجال للاجتهاد في مثل ذلك»^(١).

قال صديق حسن خان: «والأحاديث الواردة فيه على اختلاف رواياتها كثيرة جدًا، تبلغ حد التواتر، وهي في السنن وغيرها من دواوين الإسلام من المعاجم والمسانيد»^(٢).

قال البرازنجي: «واعلم أن الأحاديث الواردة في المهدي على اختلاف رواياتها لا تكاد تنحصر، فقد قال محمد بن الحسن الأسنوي في كتاب «مناقب الشافعي»: قد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ بذكر المهدي وأنه من أهل بيته، انتهى. . إلى أن قال: قد علمت أن أحاديث وجود المهدي وخروجه آخر الزمان، وأنه من عترة رسول الله ﷺ من ولد فاطمة، بلغت حد التواتر المعنوي، فلا معنى لإنكارها»^(٣).

قال أبو الحسن الأبري: «قد تواترت الأخبار واستفاضت، وكثرت بكثرة رواياتها عن المصطفى ﷺ بخروجه، وأنه من أهل بيته، وأنه يملك سبع سنين، وأنه يملأ الأرض عدلاً، وأنه يخرج مع عيسى عليه السلام، فيساعده على قتل الدجال بباب لد بأرض فلسطين، وأنه يؤم هذه الأمة ويصلي عيسى خلفه»^(٤).

قال محمد بن جعفر الكتاني: «الأحاديث الواردة في المهدي المنتظر متواترة، وكذا الواردة في الدجال، وفي نزول سيدنا عيسى عليه السلام»^(٥).

ومن هذه الأشراف ما تضمنه حديث عوف بن مالك رضي الله عنه:

* عن عوف بن مالك رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوك -وهو في قبة من آدم- فقال: «اعدد ستاً بين يدي الساعة: موتي، ثم فتح بيت المقدس، ثم موتان يأخذ فيكم كقصاص الغنم، ثم استفاضة المال حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطاً، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني

(١) (التوضيح في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر والدجال والمسيح) نقلاً عن الإذاعة (ص: ٦٢).

(٢) (٣) الإضاءة (ص: ١٨٤).

(٢) الإذاعة (ص: ٦١).

(٤) القناعة (ص: ٧٩).

(٥) نظم المتناثر من الحديث المتواتر (ص: ١٤٧).

الأصفر، فيغدرون فيأتونكم تحت ثمانين غاية، تحت كل غاية اثنا عشر ألفاً»^(١).

★ غريب الحديث:

موتان: بضم الميم وسكون الواو، بوزن البطلان: الموت الكثير الوقوع. ويروى أيضاً بفتح الميم.

قعاص الغنم: القعاص بالضم: داء يأخذ الغنم لا يلبثها أن تموت.

بنو الأصفر: هم الروم.

هدنة: بضم الهاء وسكون المهملة بعدها نون: هي الصلح على ترك القتال بعد التحرك فيه.

غاية: الغاية الراية وسميت بذلك لأنها غاية المتبع إذا وقفت وقف.

★ فوائد الحديث:

قال العيني: «وهذه الست المذكورة ظهرت منها الخمس: موت النبي ﷺ، وفتح بيت المقدس، والموتان كان في طاعون عمواس زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، مات فيه سبعون ألفاً في ثلاثة أيام، واستفاضة المال كانت في خلافة عثمان رضي الله عنه، عند تلك الفتوح العظيمة والفتنة استمرت بعده، والسادسة لم تجئ بعد»^(٢).

فأما موته ﷺ فهو من أعظم المصائب في الدين.

قال القرطبي: «أول أمر دهم الإسلام موت النبي ﷺ ثم بعده موت عمر، فبموت النبي ﷺ انقطع الوحي وماتت النبوة وكان أول ظهور الشر بارتداد العرب وغير ذلك، وكان أول انقطاع الخير وأول نقصانه، قال أبو سعيد: ما نفطنا أيدينا من التراب من قبر رسول الله ﷺ حتى أنكرنا قلوبنا، وقال أبو بكر الصديق في أبيات يرثي بها النبي ﷺ:

فلتحدثن حوادث من بعده تعنى بهن جوانح وصدور

وقالت صفية بنت عبد المطلب في أبيات ترثي بها النبي ﷺ:

(١) أخرجه: أحمد (٢٥/٦)، والبخاري (٣٤٠-٣٤١/٦)، وأبو داود (٢٧١-٢٧٢/٥)، وابن ماجه (١٣٤١-١٣٤٢/٢). (٤٠٤٢).

(٢) عمدة القاري (١٠/٥٣٠) ينظر كلام المقرئ (١٣/١٩١).

لعمرك ما أبكي النبي لفقده ولكن ما أخشى من الهرج آتيا^(١).

وأما بيت المقدس ؛ فقد «فتح مرتين مرة في زمن عمر ومرة في زمن الأكراد الأيوبية، فتحه السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الملك الناصر، وكان من أعظم فتوح الإسلام، ثم بعد موته رده بعض أولاده إلى النصارى، ثم استرده حفيده داود الملك الناصر، وأنشد في ذلك بعض الشعراء يهنيه :

المسجد الأقصى له عادة إذا غدا بالكفر مستوطننا
فنناصر طهره أولا سارت فصارت مثلا سائرا
أن يبعث الله له ناصرا ونناصر طهره أخيرا^(٢).

وأما الموتان ؛ فقد قال عنه الطيبي : «كان ذلك في طاعون عمواس زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو أول طاعون وقع في الإسلام، مات منه سبعون ألفا في ثلاثة أيام»^(٣).

قال الحافظ ابن كثير : «المشهور الذي عليه الجمهور أن طاعون عمواس كان بها -أي : سنة ثمانى عشرة-، وقد تبعنا قول سيف بن عمر وابن جرير في إيراده ذلك في السنة التي قبلها، لكننا نذكر وفاة من مات في الطاعون في هذه السنة إن شاء الله تعالى، قال ابن إسحاق وأبو معشر : كان في هذه السنة طاعون عمواس وعام الرمادة، فتفانى فيهما الناس»^(٤).

قال المقرئزي : «قال سيف بن عمر : قالوا : ووقع الطاعون بالشام ومصر والعراق، واستقر في الشام، ومات فيه الناس الذين هم في أهل الأمصار، وفي المحرم وصفر، يعني سنة سبع عشرة وارتفع عن الناس، وكتبوا إلى عمر -رضي الله تبارك وتعالى عنه- بإخلاء الشام، قالوا : وكان ذلك الطاعون موتانا لم ير مثيله، طمع له العدو في الناس، وتخوفت له قلوب المسلمين لما كثر موته، وطال مكثه حتى ما تكلم في ذلك اثنان فاختلفوا، فأمر معاذ بن جبل رضي الله تبارك وتعالى عنه بالصبر حتى ينجلي، وأمر عمرو بن عبسة بالتنحي»^(٥).

(٢) من كلام البرازنجي في الإشاعة (ص : ٨٢).

(٤) البداية والنهاية (٧ / ٩٢).

(١) التذكرة (٢ / ٤٧٩).

(٣) شرح الطيبي (١١ / ٣٤٢٥).

(٥) إمتاع الأسماع (١٣ / ١٩٣).

«وممن مات في طاعون عمواس من مشاهير الصحابة: أبو عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وشرحبيل بن حسنة، والفضل بن العباس وهو ابن عم رسول الله ﷺ، وأبو مالك الأشعري، ويزيد بن أبي سفيان أخو معاوية، والحارث بن هشام أخو أبي جهل، وأبو جندل الذي جاء يوم الحديبية يرسف في قيوده، وسهيل بن عمرو الذي قام بمكة يوم مات النبي ﷺ فثبت الناس، وهو والد أبي الجندل»^(١).
وأما استفاضة المال «فالمراد به كثرته»^(٢).

قوله: «حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطًا» أي: غضبان لعدده المائة قليلًا، وهذه الكثرة ظهرت في خلافة عثمان رضي الله تعالى عنه عند الفتوح، وأما اليوم فبعض أهل زماننا يعدون الألف قليلًا ويحقرونه»^(٣).
وأما الفتنة التي لا يبقى بيت من بيوت العرب إلا دخلته؛ فقال المهلب: «والفتنة لم تزل من زمن عثمان، عصمنا الله من مضلات الفتن ما ظهر منها وما بطن، وقد دعا ﷺ ألا يجعل بأس أمته بينهم»^(٤).

وأما الهدنة التي تكون بين المسلمين وبين بني الأصفر؛ أي: الروم؛ فقد قال عنها ابن المنير: «أما قصة الروم فلم تجتمع إلى الآن، ولا بلغنا أنهم غزوا في البر في هذا العدد، فهي من الأمور التي لم تقع بعد، وفيه بشارة ونذارة، وذلك أنه دل على أن العاقبة للمؤمنين مع كثرة ذلك الجيش، وفيه إشارة إلى أن عدد جيوش المسلمين سيكون أضعاف ما هو عليه، ووقع في رواية للحاكم من طريق الشعبي عن عوف بن مالك في هذا الحديث: «أن عوف بن مالك قال لمعاذ في طاعون عمواس: إن رسول الله ﷺ قال لي: اعدد ستًّا بين يدي الساعة، فقد وقع منهن ثلاث، يعني موته ﷺ وفتح بيت المقدس والطاعون، قال: وبقي ثلاث، فقال له معاذ: إن لهذا أهلاً»^(٥)»^(٦).

(١) الإشاعة (ص: ٩٩-١٠٠).

(٢) البغوي في شرح السنة (٤٤/١٥).

(٣) قاله القاري في المرقاة (٣٠٥/٩).

(٤) شرح ابن بطل على البخاري (٣٥٨/٥).

(٥) أخرجه الحاكم (٤٢٢-٤٢٣) وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٦) قاله الحافظ في الفتح (٣٤٢-٣٤٣).

قال المهلب: «في هذا الحديث علامات النبوة، وأن الغدر من أشراط الساعة»^(١).

قلت: وقد ثبت تفسير هذه الهدنة في حديث ذي مخبر رضي الله عنه:

* عن حسان بن عطية قال: مال مكحول وابن أبي زكرياء إلى خالد بن معدان وملت معهم، فحدثنا عن جبير بن نفيير قال: قال جبير: انطلق بنا إلى ذي مخبر: رجل من أصحاب النبي ﷺ، فأتيناه فسأله جبير عن الهدنة، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ستصالحون الروم صلحًا آمنًا، فتغزون أنتم وهم عدوًا من ورائكم، فتنصرون وتغنمون وتسلمون، ثم ترجعون حتى تنزلوا بمرج ذي تلؤل، فيرفع رجل من أهل النصرانية الصليب فيقول: غلب الصليب، فيغضب رجل من المسلمين فيدقه، فعند ذلك تغدر الروم وتجمع للملحمة»^(٢).

* غريب الحديث:

الروم: جيل معروف في بلاد واسعة تضاف إليهم فيقال: بلاد الروم. . وأما حدود الروم؛ فمشارقهم وشمالهم الترك والخزر ورس، وهم الروس، وجنوبهم الشام والإسكندرية، ومغاربهم البحر والأندلس، وكانت الرقة والشامات كلها تعد في حدود الروم أيام الأكاسرة، وكانت دار الملك أنطاكية، إلى أن نفاهم المسلمون إلى أقصى بلادهم^(٣).

* فوائد الحديث:

قال القاري: «قوله: «ستصالحون الروم» الخطاب للمسلمين، «صلحًا»: مفعول مطلق من غير بابه، أو بحذف الزوائد، «آمنًا» بالمد: صفة «صلحًا»؛ أي: صلحًا ذا أمن، أو على أن الإسناد مجازي، «فتغزون أنتم» أي: فتقاتلون أيها المسلمون، «وهم» أي: الروم المصالحون معكم «عدوًا من ورائكم» أي: من

(١) شرح ابن بطلال على البخاري (٣٥٧/٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٩١/٤)، وأبو داود (٤٢٩٢/٤٨١/٤) واللفظ له، وابن ماجه (٤٠٨٩/١٣٦٩/٢) وقال البوصيري: «إسناده حسن»، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٥/١٠١-١٠٣/١٠٣-٦٧٠٨-٦٧٠٩)، والحاكم (٤٢١/٤) ووافقه الذهبي.

(٣) معجم البلدان (٩٨-٩٧/٣).

خلفكم، «فتنصرون» بصيغة المفعول؛ أي: فينصركم الله عليهم، «وتغنمون» أي: الأموال، «وتسلمون» أي: من القتل والجرح في القتال، «ثم ترجعون» أي: عن عدوكم، «حتى تنزلوا» أي: أنتم وأهل الروم «بمرج» بفتح فسكون؛ أي: روضة، وفي النهاية: أرض واسعة ذات نبات كثير، «ذي تلؤل» بضم التاء: جمع تل بفتحها، وهو موضع مرتفع، «فيرفع رجل من أهل النصرانية»: وهو الأروام حينئذ، «الصليب»: وهو خشبة مربعة، يدعون أن عيسى عليه السلام صلب على خشبة كانت على تلك الصورة، «فيقول» أي: الرجل منهم، «غلب الصليب» أي: غلبنا ببركة الصليب، «فيغضب رجل من المسلمين» حيث نسب الغلبة لغير الحبيب، «فيدقه» أي: فيكسر المسلم الصليب، «فعند ذلك تغدر الروم» بكسر الدال؛ أي: تنقض العهد، «وتجمع» أي: رجالهم ويجمعون، «للملحمة» أي: للقتال أو للمقتلة، «وزاد بعضهم» أي: الرواة، «فيثور» أي: يعدو ويقوم، «المسلمون إلى أسلحتهم» أي: مسرعون وناهضين إليها، «فيقتتلون» أي: معهم، «فيكرم الله تلك العصاة» أي: الجماعة من المسلمين «بالشهادة»، وجعلهم الله شهداء ﴿أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١٦٩) ﴿فَرِحِينَ﴾ (١) (٢) الآية (٣).

وقد دل على هذه المعاني أحاديث صحيحة منها:

* عن يسير بن جابر قال: هاجت ريح حمراء بالكوفة، فجاء رجل ليس له هجيرى إلا: يا عبد الله بن مسعود! جاءت الساعة. قال: فقعد وكان متكئا، فقال: إن الساعة لا تقوم حتى لا يقسم ميراث، ولا يفرح بغنيمة، ثم قال بيده هكذا، ونحاهما نحو الشام، فقال: عدو يجمعون لأهل الإسلام، ويجمع لهم أهل الإسلام. قلت: الروم تعني؟ قال: نعم، وتكون عند ذاكم القتال ردة شديدة، فيشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل، فيفيء هؤلاء وهؤلاء، كل غير غالب، وتفنى الشرطة، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل، فيفيء هؤلاء

(١) آل عمران: الآيتان (١٦٩ و ١٧٠).

(٢) هي لأبي داود (٤/٤٨١-٤٨٢/٤٢٩٣).

(٣) مرقاة المفاتيح (٩/٣١٨-٣١٩).

وهؤلاء، كل غير غالب وتفنى الشرطة، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبية، فيقتتلون حتى يمسوا، فيفني هؤلاء وهؤلاء، كل غير غالب وتفنى الشرطة، فإذا كان يوم الرابع، نهد إليهم بقية أهل الإسلام، فيجعل الله الدبرة عليهم، فيقتلون مقتلة - إما قال لا يرى مثلها، وإما قال: لم ير مثلها - حتى إن الطائر ليمر بجناباتهم فما ي خلفهم حتى يخر ميتًا، فيتعاد بنو الأب، كانوا مائة، فلا يجدونه بقي منهم إلا الرجل الواحد، فبأي غنيمة يفرح؟ أو أي ميراث يقاسم؟ فبينما هم كذلك إذ سمعوا ببأس هو أكبر من ذلك، فجاءهم الصريخ، إن الدجال قد خلفهم في ذرايرهم، فيرفضون ما في أيديهم ويقبلون، فيبعثون عشرة فوارس طليعة، قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف أسماءهم وأسماء آبائهم، وألوان خيولهم، هم خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ، أو من خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ»^(١).

★ غريب الحديث:

ليس له هجيرى: أي ليس له شأن ودأب، وهجيرى: بكسر الهاء والجيم مشددة مقصورة، بمعنى الهجير.

فيشترط المسلمون شرطة للموت: قال النووي: «أما قوله «فيشترط» فضبطوه بوجهين:

أحدهما: فيشترط بمثناة تحت ثم شين ساكنة ثم مثناة فوق.

والثاني: فيتشترط بمثناة تحت ثم مثناة فوق ثم شين مفتوحة وتشديد الراء»^(٢).

والشرطة: «بضم الشين: طائفة من الجيش تقدم للقتال».

نهد إليهم بقية أهل الإسلام: نهد بفتح النون والهاء؛ أي: نهض وتقدم.

فجعل الله الدبرة عليهم: الدبرة، بفتح الدال: أي الهزيمة، وروي الدائرة، بالالف بعدها همزة: وهي بمعنى الدبرة، قال الأزهري: الدائرة: الدولة تدور على الأعداء.

★ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم

(١) أخرجه: أحمد (١/٤٣٥)، ومسلم (٤/٢٢٢٣-٢٢٢٤/٢٨٩٩).

(٢) شرح صحيح مسلم (١٨/٢٠).

بالأعماق أو بدابق، فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ، فإذا تصافوا قالت الروم: خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم. فيقول المسلمون: لا والله، لا نخلي بينكم وبين إخواننا. فيقاتلونهم، فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبدًا، ويقتل ثلثهم أفضل الشهداء عند الله، ويفتح الثلث لا يفتنون أبدًا، فيفتتحون القسطنطينية، فبينما هم يقتسمون الغنائم قد علقوا سيوفهم بالزيتون؛ إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح قد خلفكم في أهليكم. فيخرجون، وذلك باطل، فإذا جاؤوا الشام خرج، فبينما هم يعدون للقتال يسوون الصفوف؛ إذ أقيمت الصلاة، فينزل عيسى ابن مريم عليه السلام، فأمهم، فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لانداب حتى يهلك، ولكن يقتله الله بيده، فيريهم دمه في حربته^(١).

* غريب الحديث:

بالأعماق أو بدابق: «الأعماق بفتح الهمزة وبالعين المهملة، ودابق: بكسر الباء الموحدة وفتحها والكسر هو الصحيح وهما موضعان بقرب حلب»^(٢).

فيخرج إليهم جيش من المدينة: يحتمل أنها مدينته عليه السلام؛ لأنها صارت كالعلم عليها، وسياق الحديث يدل أنها بالشام^(٣).

خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا: روي: «سبوا» على وجهين: فتح السين والباء وضمهما، وصوب القاضي عياض رواية الضم. وقال النووي: «كلاهما صواب؛ لأنهم سبوا أولًا، ثم سبوا الكفار، وهذا موجود في زماننا، بل معظم عساكر الإسلام في بلاد الشام ومصر سبوا، ثم هم اليوم بحمد الله يسبون الكفار، وقد سبواهم في زماننا مرارًا كثيرة، يسبون في المرة الواحدة من الكفار ألقًا، ولله الحمد على إظهار الإسلام وإعزازه»^(٤).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «سمعت بمدينة جانب منها في البر وجانب منها في البحر؟ قالوا: نعم يا رسول الله! قال: لا تقوم الساعة حتى يفزوها سبعون ألفًا من بني إسحق، فإذا جاؤوها نزلوا فلم يقاتلوا بسلاح ولم يرموا بسهم، قالوا: لا إله إلا الله والله أكبر، فيسقط أحد جانبيها، - قال ثور: لا أعلمه إلا قال:

(١) أخرجه مسلم (٢٨٩٧/٢٢٢١/٤).

(٢) شرح مسلم للنووي (١٧/١٨).

(٣) إكمال الإكمال (٣٤٥/٩).

(٤) شرح مسلم للنووي (١٧/١٨).

الذي في البحر - ثم يقولوا الثانية : لا إله إلا الله والله أكبر ، فيسقط جانبها الآخر ، ثم يقولوا الثالثة : لا إله إلا الله والله أكبر ، فيفرج لهم ، فيدخلوها فيغنموا ، فبينما هم يقتسمون المغانم إذ جاءهم الصريخ فقال : إن الدجال قد خرج ، فيتركون كل شيء ويرجعون»^(١).

★ غريب الحديث:

الصريخ : المستغيث ، (فعل) من الصراخ .

★ فوائد الأحاديث:

في هذه الأحاديث من الفوائد : تبشير النبي ﷺ هذه الأمة بفتح القسطنطينية ، وأن فتحها «سيكون في مستقبل قريب أو بعيد يعلمه الله ﷻ» ، وهو الفتح الصحيح لها ، حين يعود المسلمون إلى دينهم الذي أعرضوا عنه ، وأما فتح الترك الذي كان قبل عصرنا هذا ، فإنه كان تمهيداً للفتح الأعظم ، ثم هي قد خرجت بعد ذلك من أيدي المسلمين ، منذ أعلنت حكومتهم هناك أنها حكومة غير إسلامية وغير دينية ، وعاهدت الكفار أعداء الإسلام ، وحكمت أمتها بأحكام القوانين الوثنية الكافرة ، وسيعود الفتح الإسلامي لها ، إن شاء الله كما بشر به رسول الله ﷺ»^(٢).

قال القرطبي : «وقوله : «لا تقوم الساعة حتى يفزوها سبعون ألفاً من بني إسحاق» ، هكذا صحت الرواية عند الجميع ، وفي الأمهات . قال القاضي أبو الفضل : قال بعضهم : المعروف المحفوظ من بني إسماعيل ، وهو الذي يدل عليه الحديث وسياقه ؛ لأنه إنما يعني به : العرب والمسلمين ، بدليل الحديث الذي سماها في الأم وأنها : القسطنطينية ، وإن لم يصفها بما وصفها به هنا .

قلت : وهذا فيه بعد من جهة اتفاق الرواة والأمهات على بني إسحاق ، فإذا المعروف خلاف ما قال هذا القائل ، ويمكن أن يقال : إن الذي وقع في الرواية صحيح ، غير أنه أراد به العرب ونسبهم إلى عمهم ، وأطلق عليهم ما يطلق على ولد الأب ، كما يقال ذلك في الخال ، حتى قد قيل : الخال أحد الأبوين - والله تعالى أعلم - وأما قوله : إن هذه القرية هي القسطنطينية ، فينبغي أن يبحث عن صفتها ، هل

(١) أخرجه مسلم (٤/٢٢٣٨/٢٩٢٠).

(٢) من كلام أحمد شاكر في عمدة التفسير (٢/٢٥٦).

توافق ما وصفه النبي ﷺ في هذه المدينة أم لا؟ وأما ما ذكره مسلم في الأم من حديث القسطنطينية فهو ما تقدم في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - الذي قال في أوله: «لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق، أو بدابق» قال فيه: «فيقاتلهم المسلمون فينهزم ثلث، ويقتل ثلث، ويفتح الثلث القسطنطينية، فبينما هم يقسمون الغنائم قد علقوا سيوفهم بالزيتون، إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح قد خلفكم في أهليكم»، وظاهر هذا يدل على: أن القسطنطينية إنما تفتح بالقتال، وهذا الحديث يدل على أنها تفتح بالتهليل والتكبير، فقول بعضهم فيه بعد، والحاصل: أن القسطنطينية لا بد من فتحها، وأن فتحها من أشراط الساعة على ما شهدت به أخبار كثيرة، منها: ما ذكرناه آنفاً، ومنها: ما أخرجه الترمذي من حديث معاذ بن جبل عن النبي ﷺ قال: «الملحمة العظمى، وفتح القسطنطينية، وخروج الدجال، في سبعة أشهر»^(١) قال: هذا حديث حسن صحيح، وفيه عن أنس بن مالك: أن فتح القسطنطينية مع قيام الساعة، هكذا رواه موقوفاً. قال محمود: هذا حديث غريب، والقسطنطينية: هي مدينة الروم تفتح عند خروج الدجال، والقسطنطينية قد فتحت في زمان بعض أصحاب النبي ﷺ.

قلت: وعلى هذا فالفتح الذي يكون مقارناً لخروج الدجال هو الفتح المراد بهذه الأحاديث؛ لأنها اليوم بأيدي الروم - دمرهم الله تعالى - والله بتفاصيل هذه الوقائع أعلم»^(٢).

قال الأبي: «ولم يجب عن التعارض بين الحديثين، وتنتفي المعارضة بأنه إنما قال: «يفتح ثلثهم قسطنطينية»، وفتحها أعم من أن يكون بقتال أو بالتهليل والتكبير المذكور»^(٣).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب، يقتتل الناس عليه، فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون،

(١) أخرجه: أحمد (٢٣٤/٥)، وأبو داود (٤٨٢/٤ - ٤٨٣/٤ - ٤٢٩٤ - ٤٢٩٥)، والترمذي (٢٢٣٨/٤ - ٤٤٢/٤) وقال: «حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه»، وابن ماجه (١٣٧٠/٢ - ٤٠٩٢)، والحاكم (٤٢٦/٤) وسكت عنه، وتبعه الذهبي، وضعفه الشيخ الألباني في ضعيف السنن.

(٢) المفهم (٢٤٨/٧ - ٢٥٠).

(٣) إكمال الإكمال (٣٧٠/٩).

ويقول كل رجل منهم: لعلي أكون أنا الذي أنجو»^(١).

★ غريب الحديث:

حتى يحسر الفرات: يقال: حسرت العمامة عن رأسي والثوب عن بدني؛ أي: كشفته.

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «وتسميته كنزًا باعتبار حاله قبل أن ينكشف، وتسميته جبلًا للإشارة إلى كثرتة، ويؤيده ما أخرجه مسلم من وجه آخر عن أبي هريرة رفعه: «تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة، فيجبيء القاتل فيقول: في هذا قتلت. فيجبيء السارق فيقول: في هذا قطعت يدي، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئًا»^(٢). قال ابن التين: إنما نهى عن الأخذ منه لأنه للمسلمين، فلا يؤخذ إلا بحقه، قال: ومن أخذه وكثر المال ندم لأخذه ما لا ينفعه، وإذا ظهر جبل من ذهب كسد الذهب، ولم يرد. قلت: وليس الذي قاله بيبين، والذي يظهر أن النهي عن أخذه لما ينشأ عن أخذه من الفتنة والقتال عليه. وقوله: «وإذا ظهر جبل من ذهب. إلخ؛ في مقام المنع، وإنما يتم ما زعم من الكساد أن لو اقتسمه الناس بينهم بالسوية، ووسعهم كلهم فاستغنوا أجمعين، فحينئذ تبطل الرغبة فيه، وأما إذا حواه قوم دون قوم، فحرص من لم يحصل له منه شيء باق على حاله، ويحتمل أن تكون الحكمة في النهي عن الأخذ منه لكونه يقع في آخر الزمان عند الحشر الواقع في الدنيا، وعند عدم الظهور أو قلته فلا ينتفع بما أخذ منه، ولعل هذا هو السر في إدخال البخاري له في ترجمة خروج النار، ثم ظهر لي رجحان الاحتمال الأول، لأن مسلماً أخرج هذا الحديث أيضًا من طريق أخرى عن أبي هريرة بلفظ: «يحسر الفرات عن جبل من ذهب» فيقتل عليه الناس فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون، ويقول كل رجل منهم لعلي أكون أنا الذي أنجو. وأخرج مسلم أيضًا عن أبي بن كعب قال: لا يزال الناس مختلفة أعناقهم في طلب الدنيا، سمعت رسول الله ﷺ

(١) أخرجه: أحمد (٣٠٦/٢)، والبخاري (٧١١٩/٩٨/١٣)، ومسلم (٢٨٩٤/٢٢١٩/٤) واللفظ له، وأبو داود (٤٩٣/٤٩٣-٤٣١٣)، والترمذي (٢٥٦٩-٢٥٧٠/٦٠٢/٤)، وابن ماجه (٤٠٤٦/١٣٤٣/٢).

(٢) أخرجه: مسلم (١٠١٣/٧٠١/٢)، والترمذي (٢٢٠٨/٤٢٧/٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

يقول: «يوشك أن يحسر الفرات عن جبل من ذهب، فإذا سمع به الناس ساروا إليه، فيقول من عنده: لئن تركنا الناس يأخذون منه ليذهبن به كله، قال: فيقتلون عليه، فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون»^(١)، فبطل ما تخيله ابن التين، وتوجه التعقب عليه، ووضح أن السبب في النهي عن الأخذ منه ما يترتب على طلب الأخذ منه من الاقتتال فضلاً عن الأخذ، ولا مانع أن يكون ذلك عند خروج النار للمحشر، لكن ليس ذلك السبب في النهي عن الأخذ منه. وقد أخرج ابن ماجه عن ثوبان رفعه قال: «يقتل عند كنزكم ثلاثة، كلهم ابن خليفة»^(٢) فذكر الحديث في المهدي، فهذا إن كان المراد بالكنز فيه الكنز الذي في حديث الباب، دل على أنه إنما يقع عند ظهور المهدي، وذلك قبل نزول عيسى وقبل خروج النار جزماً، والله أعلم»^(٣).

ومنها: كثرة الروم وشدتهم آخر الزمان:

* عن موسى بن علي عن أبيه قال: قال المستورد القرشي عند عمرو بن العاص: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تقوم الساعة والروم أكثر الناس». فقال له عمرو: أبصر ما تقول. قال: أقول ما سمعت من رسول الله ﷺ. قال: لئن قلت ذلك، إن فيهم لخصالاً أربعاً، إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرة، وخيرهم لمسكين ویتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك»^(٤).

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «هذا الحديث قد صدقه الوجود؛ فإنهم اليوم أكثر من في العالم غير ياجوج وماجوج؛ إذ قد عمروا من الشام إلى أقصى منقطع أرض الأندلس، وقد اتسع دين النصارى اتساعاً عظيماً لم تتسعه أمة من الأمم، وكل ذلك بقضاء الله تعالى وقدره، ووصف عبد الله بن عمرو لهم بما وصفهم به من تلك الأوصاف الجميلة، الذين أدرك هو زمانهم، وأما ما في الوجود منهم اليوم، فهم أنجس

(١) أخرجه: أحمد (١٣٩/٥)، ومسلم (٢٢٢٠/٤/٢٨٩٥) من حديث أبي ﷺ.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) فتح الباري (١٣/١٠١).

(٤) أخرجه: أحمد (٢٣٠/٤)، ومسلم (٢٢٢٢/٤/٢٨٩٨).

الخليقة وأركسهم ، وهم موصوفون بنقيض تلك الأوصاف»^(١).

وقال ابن كثير - بناءً على وصفهم بتلك الأوصاف الجميلة - : «وهذا يدل على أن الروم يسلمون في آخر الزمان ، ولعل فتح القسطنطينية ، يكون على يدي طائفة منهم . فالروم يكونون في آخر الزمان خيرًا من بني إسرائيل ؛ فإن الدجال يتبعه تسعون ألفًا من يهود أصبهان ، فهم أنصار الدجال ، وهؤلاء - أعني الروم - قد مدحوا في هذا الحديث ، فلعلهم يسلمون على يدي المسيح ابن مريم ، والله أعلم»^(٢).

ومنها : كثرة الأمطار وقلة الزرع :

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى يمطر الناس مطرًا عامًا ، ولا تنبت الأرض شيئًا »^(٣).

★ فوائد الحديث :

قال المناوي : « ليس عام القحط الذي لا تمطر الناس فيه مع وجود البركة ، بل أن تمطروا ولا تنبت ، وذلك لأن اليأس بعد وقوع الرجاء بظهور مخايله أفضع مما كان حاصلًا من أول الأمر ، والنفس مترقة حدوثها ، قال :

أظلت علينا من ندادك غمامة فلا غيمها يجلو فييأس طامع
أضاءت لنا برق وأبطار شاشها ولا غيثها يهمني فيروي عطاشها »^(٤).

قال القرطبي : « إن الأحق باسم السنة والجذب أن يتوالى المطر حتى تغرق الأرض ويفسد ما عليها بكثرتة وتواليه ، وإنما كان هذا أحق بهذا الاسم ، لأنه أمتع من التصرف ، وأضيق للحال ، وأعلم للقوت ، وأسرع في الإهلاك »^(٥).

ومنها : صدق رؤيا المؤمن في آخر الزمان :

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إذا اقترب الزمان لم تكذ رؤيا المؤمن

(٢) النهاية (١/ ٥٨).

(١) المفهم (٧/ ٢٣٦).

(٣) أخرجه : أحمد (٣/ ١٤٠)، وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ٣٣٠) وعزاه لأحمد وأبي يعلى والبزار، وقال : « رجال الجميع ثقات »، والحاكم (٤/ ٥١٣) وصححه ووافقه الذهبي.

(٥) المفهم (٢/ ٥٤٨).

(٤) فيض القدير (٥/ ٣٩١).

تكذب، وأصدقهم رؤيا أصدقهم حديثاً»^(١).

★ فوائد الحديث:

قال ابن بطال: «معناه - والله أعلم - : إذا اقتربت الساعة، وقبض أكثر العلم، ودرست معالم الديانة بالهرج والفتنة، فكان الناس على فترة من الرسل يحتاجون إلى مذكر ومجدد، لما درس من الدين، كما كانت الأمم قبلنا تذكر بالنبوة، فلما كان نبينا محمد ﷺ خاتم الرسل، وما بعده من الزمان، ما يشبه الفترة؛ عوضوا مما منع من النبوة بعده بالرؤيا الصادقة، التي هي جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة الآتية بالتبشير والإنذار. وقد ذكر أبو سليمان الخطابي في غريب الحديث عن أبي داود السجستاني؛ أنه كان يقول في تأويل قوله ﷺ: «إذا تقارب الزمان لم تكدرؤيا المؤمن تكذب»، قال: تقارب الزمان هو استواء الليل والنهار، قال: والمعبرون يزعمون أنه أصدق الأزمان لوقوع التعبير وقت انبثاق الأنوار، ووقت ينع الثمار وإدراكها، وهما الوقتان اللذان يتقارب الزمان فيهما، ويعتدل الليل والنهار، قال المؤلف: والتأويل الأول هو الصواب الذي أراده النبي ﷺ؛ لأنه قد روي مرفوعاً عنه»^(٢).

ومنها: ظهور الخسف والمسح والقذف:

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «يكون في آخر هذه الأمة خسف ومسح وقذف». قالت: قلت: يا رسول الله! أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم، إذا ظهر الخبث»^(٣).

ومنها: زوال الجبال عن أماكنها وظهور الأمور العظام:

* عن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تزول الجبال عن أماكنها، وترون الأمور العظام التي لم تكونوا ترونها»^(٤).

(١) أخرجه: أحمد (٢/٢٦٩)، والبخاري (١٢/٥٠٠/٧٠١٧)، ومسلم (٤/١٧٧٣/٢٢٦٣)، وأبو داود (٥/

٢٨٢/٥٠١٩)، والترمذي (٤/٤٦١/٢٢٧٠)، وابن ماجه (٢/١٢٨٩/٣٩١٧).

(٢) شرح البخاري (٩/٥٣٨-٥٣٩).

(٣) أخرجه: الترمذي (٤/٤١٥/٢١٨٥)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢/٢٣٧/١٧٧٦).

(٤) أخرجه: الطبراني (٧/٢٠٧/٦٨٥٧)، وذكره الهيثمي في المجمع (٧/٣٢٦) وقال: «فيه عفير بن معدان، وهو

ضعيف»، وصححه الألباني. انظر الصحيحة (٣٠٦١).

ومنها: انتفاخ الأهلة واتخاذ المساجد طرقاً وظهور موت الفجأة:

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من اقتراب الساعة أن يرى الهلال قبلاً، فيقال: لليلتين، وأن يتخذ المساجد طرقاً، وأن يظهر موت الفجأة»^(١).

★ غريب الحديث:

قبلاً: بفتحين، وهو: أن يرى ساعة ما يطلع، فيقال: هو ابن ليلتين.

★ فوائد الحديث:

قال المناوي: «أي: يرى ساعة ما يطلع لعظمه ووضوحه من غير أن يتطلب، «فيقال لليلتين» أي: هو ابن ليلتين، «وأن تتخذ المساجد طرقاً» للمارة، يدخل الرجل من باب ويخرج من باب، فلا يصلي فيه تحية، ولا يعتكف فيه لحظة، «وأن يظهر موت الفجأة» فيسقط الإنسان ميتاً وهو قائم يكلم صاحبه، أو يتعاطى مصالحة»^(٢).

* * *

(١) أخرجه: الطبراني في الأوسط (١٠/١٧٣/٩٣٧٢)، والصغير (٢/٣٩٨/١١٠٣)، وصححه الألباني. انظر الصحيحة (٥/٣٦٧).

(٢) فيض القدير (٦/١٠).

قوله تعالى : ﴿ فَأَنِّي لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ ﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير : « يقول - تعالى ذكره - : فمن أي وجه لهؤلاء المكذبين بآيات الله ذكرى ما قد ضيّعوا وفرطوا فيه من طاعة الله إذا جاءتهم الساعة ، يقول : ليس ذلك بوقت ينفعهم التذكر والندم ؛ لأنه وقت مجازاة لا وقت استعتاب ولا استعمال »^(١) .

قال السعدي : « ففي هذا الحث على الاستعداد قبل مفاجأة الموت ، فإن موت الإنسان قيام ساعته »^(٢) .

* * *

(١) جامع البيان (٥٣/٢٦) .

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧٣/٧) .

قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - لنبيه محمد ﷺ: فاعلم يا محمد أنه لا معبود تنبغي أو تصلح له الألوهة، ويجوز لك وللخلق عبادته؛ إلا الله الذي هو خالق الخلق، ومالك كل شيء، يدين له بالربوبية كل ما دونه»^(١).

قال السعدي: «العلم لا بد فيه من إقرار القلب ومعرفته بمعنى ما طلب منه علمه، وتماحه أن يعمل بمقتضاه.

وهذا العلم الذي أمر الله به - وهو العلم بتوحيد الله -؛ فرض عين على كل إنسان، لا يسقط عن أحد كائناً من كان، بل كل مضطر إلى ذلك. والطريق إلى العلم بأنه لا إله إلا الله أمور:

أحدها، بل أعظمها: تدبر أسمائه وصفاته، وأفعاله الدالة على كماله وعظمته وجلالته، فإنها توجب بذل الجهد في التأله له، والتعبد للرب الكامل الذي له كل حمد ومجد وجلال وجمال.

الثاني: العلم بأنه تعالى هو المنفرد بالخلق والتدبير، فيعلم بذلك أنه المنفرد بالألوهية.

الثالث: العلم بأنه المنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب به ومحبته، والتأله له وحده لا شريك له.

الرابع: ما نراه ونسمعه من الثواب لأوليائه القائمين بتوحيده من النصر والنعم العاجلة، ومن عقوبته لأعدائه المشركين به، فإن هذا داع إلى العلم بأنه تعالى وحده المستحق للعبادة كلها.

الخامس: معرفة أوصاف الأوثان والأنداد التي عبدت مع الله، واتخذت آلهة،

(١) جامع البيان (٢٦/٥٣-٥٤).

وأنها ناقصة من جميع الوجوه، فقيرة بالذات، لا تملك لنفسها ولا لعبادها نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، ولا ينصرون من عبدهم، ولا ينفعونهم بمثل ذرة، من جلب خير أو دفع شر، فإن العلم بذلك يوجب العلم بأنه لا إله إلا الله وبطلان إلهية ما سواه.

السادس: اتفاق كتب الله على ذلك، وتواطؤها عليه.

السابع: أن خواص الخلق، الذين هم أكمل الخليقة أخلاقًا وعقولًا، ورأيًا وصوابًا وعلماً - وهم الرسل والأنبياء والعلماء الربانيون - قد شهدوا لله بذلك.

الثامن: ما أقامه الله من الأدلة الأفقية والنفسية، التي تدل على التوحيد أعظم دلالة، تنادي عليه بلسان حالها بما أودعها من لطائف صنعته، وبديع حكمته، وغرائب خلقه.

فهذه الطرق التي أكثر الله من دعوة الخلق بها إلى أنه لا إله إلا الله، وأبداها في كتابه، وأعادها عند تأمل العبد في بعضها؛ لا بد أن يكون عنده يقين وعلم بذلك، فكيف إذا اجتمعت وتواطأت واتفقت، وقامت أدلة التوحيد من كل جانب، فهناك يرسخ الإيمان والعلم بذلك في قلب العبد، بحيث يكون كالجبال الرواسي، لا تزلزله الشبه والخيالات، ولا يزداد - على تكرر الباطل والشبه - إلا نموًا وكمالًا.

هذا، وإن نظرت إلى الدليل العظيم، والأمر الكبير - وهو تدبر هذا القرآن العظيم، والتأمل في آياته -؛ فإنه الباب الأعظم إلى العلم بالتوحيد، ويحصل به من تفاصيله وجمله ما لا يحصل في غيره^(١).

قال عبدالرحمن بن قاسم: «استدل المصنف - أي: محمد بن عبدالوهاب - رحمه الله بهذه الآية الكريمة على وجوب البداءة بالعلم قبل القول والعمل، كما استدل بها البخاري رحمه الله على صحة ما ترجم به؛ وذلك أن الله تعالى أمر نبيه ﷺ بأمرين: بالعلم ثم العمل. والمبدوء به العلم في قوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾، ثم أعقبه بالعمل في قوله: ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لِدُنْيِكَ﴾، فدل على أن مرتبة العلم مقدمة على مرتبة العمل، وأن العلم شرط في صحة القول والعمل، فلا يعتبر إلا به، فهو مقدم عليهما؛ لأنه مصحح النية المصححة للعمل^(٢).

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٧٣-٧٥).

(٢) حاشية الأصول الثلاثة (ص: ٢١).

قال ابن القيم في معرض بيان أن كلاً من العلم والعمل ينقسم إلى وسيلة وغاية : «فليس العلم كله وسيلة مرادة لغيرها ؛ فإن العلم بالله وأسمائه وصفاته هو أشرف العلوم على الإطلاق ، وهو مطلوب لنفسه مراد لذاته ؛ قال الله تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ (١) ، فقد أخبر سبحانه أنه خلق السموات والأرض ونزل الأمر بينهما ؛ ليعلم عباده أنه بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ، فهذا العلم هو غاية الخلق المطلوبة ؛ وقال تعالى : ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ .

فالعالم بوحديته تعالى وأنه لا إله إلا هو مطلوب لذاته ، وإن كان لا يُكتفى به وحده ، بل لا بد معه من عبادته وحده لا شريك له ، فهما أمران مطلوبان لأنفسهما : أن يُعرف الرب تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه ، وأن يُعبد بموجبها ومقتضاها ، فكما أن عبادته مطلوبة مرادة لذاتها ، فكذلك العلم به ومعرفته . وأيضاً ؛ فإن العلم من أفضل أنواع العبادات - كما تقدم تقريره - فهو متضمن للغاية والوسيلة» (٢) .

قال الحافظ ابن حجر : «استدل سفيان بن عيينة بهذه الآية على فضل العلم كما أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣) في ترجمته من طريق الربيع بن نافع عنه أنه تلاها فقال : ألم تسمع أنه بدأ به فقال : (اعلم) ثم أمره بالعمل؟» (٤) .

قال الكرمانى : «يعلم من الآية أن التوحيد مما يجب العلم به ، ولا يجوز فيه التقليد» (٥) .

قال تقي الدين الهلالي : «فائدة : يجب على كل مسلم أن يعلم معنى (لا إله إلا الله) ، ويعتقده بقلبه ، ويقولها بلسانه ، ويعمل بمقتضاها ، وإلا فليس من أهلها ولو قالها في كل يوم ألف مرة ؛ فإن أهل الردة الذين قاتلهم أبو بكر الصديق ومعه جميع الصحابة ، وسبى ذريتهم ، وغنم أموالهم ، كانوا يقولون : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، ويصلّون ويقرؤون القرآن ، ويحجون ويصومون ، فلم تنفعهم ؛

(١) الطلاق : الآية (١٢) .

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٥٣٥) .

(٣) انظر الحلية (٧/ ٣٠٥-٣٠٦) .

(٤) فتح الباري (١/ ٢١٢) .

(٥) شرح البخاري (٢/ ٣٠) .

لأنهم لم يعملوا بمقتضاها، لما امتنعوا من دفع الزكاة إلى أبي بكر الصديق، ومعناها: أن يشهد قائلها على نفسه قولاً واعتقاداً وعملاً؛ أنه لا يعبد إلا الله، ويتبرأ من عبادة غيره، ويحب في ذلك ويبغض فيه، ويوالي ويعادي عليه، فمن فعل ذلك فهو من أهل (لا إله إلا الله)»^(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

المبينة لحاجة الخلق إلى العقيدة في الدنيا والآخرة

- * عن عتبان بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لن يوافي عبد يوم القيامة يقول: لا إله إلا الله، يتغني بها وجه الله، إلا حرم الله عليه النار»^(٢).
- * عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله؛ دخل الجنة»^(٣).
- * عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله؛ حرم الله عليه النار»^(٤).

★ فوائد الأحاديث:

انظر فوائد هذه الأحاديث عند قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾^(٥).

(١) سبيل الرشاد (٢/٢١٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٤٤٩/٥)، والبخاري (١/٦٨٣/٤٢٥)، ومسلم (١/٤٥٥-٤٥٦/٣٣) مطولاً، والنسائي (٢/٨٤٣/٤٤٠)، وابن ماجه (١/٢٤٩/٧٥٤) مختصراً.

(٣) أخرجه: أحمد (١/٦٥)، ومسلم (١/٥٥/٢٦)، والنسائي في الكبرى (٦/٢٧٤/١٠٩٥٢-١٠٩٥٤).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/٣١٨)، ومسلم (١/٥٧-٥٨/٢٩)، والترمذي (٥/٢٣-٢٤/٢٦٣٨)، والنسائي في الكبرى (٦/٢٧٧/١٠٩٦٧).

(٥) يوسف: الآية (١٠٦).

قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «وقوله: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكَ﴾ أي: اطلب من الله المغفرة لذنبك، بأن تفعل أسباب المغفرة من التوبة والدعاء بالمغفرة، والحسنات الماحية، وترك الذنوب والعفو عن الجرائم.

﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ فإنهم - بسبب إيمانهم - كان لهم حق على كل مسلم ومسلمة.

ومن جملة حقوقهم أن يدعو لهم ويستغفر لذنوبهم، وإذا كان مأمورًا بالاستغفار لهم المتضمن لإزالة الذنوب وعقوباتها عنهم، فإن من لوازم ذلك النصح لهم، وأن يحب لهم من الخير ما يحب لنفسه، ويكره لهم من الشر ما يكره لنفسه، ويأمرهم بما فيه الخير لهم، وينهاهم عما فيه ضررهم، ويعفو عن مساوئهم ومعاييبهم، ويحرص على اجتماعهم اجتماعًا تتألف به قلوبهم، ويزول ما بينهم من الأحقاد المفضية للمعاداة والشقاق، الذي به تكثر ذنوبهم ومعاصيهم»^(١).

قال ابن أبي العز: «فأمره سبحانه بالتوحيد والاستغفار لنفسه وللمؤمنين والمؤمنات، فالتوحيد أصل الدين، والاستغفار له وللمؤمنين كماله. فالدعاء لهم بالمغفرة والرحمة وسائر الخيرات، إما واجب وإما مستحب، وهو على نوعين: عام وخاص، أما العام فظاهر، كما في هذه الآية، وأما الدعاء الخاص، فالصلاة على الميت، فما من مؤمن يموت إلا وقد أمر المؤمنون أن يصلوا عليه صلاة الجنازة، وهم مأمورون في صلاتهم عليه أن يدعوا له، كما روى أبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا صليتم على

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٧٦-٧٧).

الميت فأخلصوا له الدعاء»^(١)»^(٢).

قال أبو منصور الماتريدي: «أرجى آية للمؤمنين هذه الآية؛ لأنه ﷺ أمر رسوله ﷺ أن يستغفر لهم، فلا يُحتمل ألا يستغفر، وقد أمره مولاه بالاستغفار، ثم لا يُحتمل أيضاً أنه إذا استغفر لهم على ما أمره به فلا يجيب له. وكذلك دعاء سائر الأنبياء ﷺ نحو دعاء إبراهيم ﷺ: ﴿رَبِّنا أَعْفِرْ لي وَلِوَلَدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾^(٣)، ونحو دعاء نوح ﷺ: ﴿رَبِّ أَعْفِرْ لي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾^(٤) ونحو ذلك.

وكذا استغفار الملائكة أيضاً كقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾^(٥) وقوله: ﴿فَاعْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾^(٦).

هذه الآيات أرجى آيات للمؤمنين، ودعوات الأنبياء -عليهم السلام- أفضل وسائل، تكون إلى الله تعالى، وأعظم قُرب عنده، والله الموفق.

ثم قوله ﷺ: ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لِدُنْيِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ فيه دلالة نقض المعتزلة؛ لأنهم يقولون: إن الصغائر مغفورة، لا يجوز لله تعالى أن يعذب عباده عليها، والكبائر لا يحل له أن يغفرها لهم إلا بالاستغفار منهم والتوبة. فهذه الآية، تنقض قولهم ومذهبهم؛ لأنه أمر رسوله أن يستغفر لهم: فلا يخلو: إما أن تكون صغائر، وهي مغفورة عندهم؛ فكأنه يقول: اللهم لا تُجِرْ؛ لأنها مغفورة، لا يسع له أن يعذب عليها وإما أن تكون كبائر، ولا يحل له المغفرة عنها، فيكون قوله: اللهم اغفر لهم كأنه قال: اللهم جُرْ؛ لأن مغفرته إياهم عن الكبائر تكون جوراً ووضع الشيء في غير موضعه.

فكيف ما كان ففيها نقض قولهم وحجة لقولنا: إن له أن يعذبهم عليها، وإن كانت صغائر، وله أن يعفو عنها، وإن كانت كبائر؛ إذ المغفرة عن الذنب تكون، والله الموفق للصواب»^(٧).

(١) أخرجه: أبو داود (٣/٥٣٨/٣١٩٩)، وابن ماجه (١/٤٨٠/١٤٧٩)، وصححه ابن حبان (٧/٣٤٥-٣٤٦/).

(٢) شرح الطحاوية (ص: ٤٢٥-٤٢٦).

(٣) إبراهيم: الآية (٤١)، عن أبي هريرة ؓ.

(٤) نوح: الآية (٢٨).

(٥) الشورى: الآية (٥).

(٦) غافر: الآية (٧).

(٧) تأويلات أهل السنة (٤/٥٠٧-٥٠٨).

وقال أبو حيان: «وفي الآية ما يدل على التواضع وهضم النفس إذ أمره بالاستغفار، ومع غيره بالاستغفار لهم»^(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل الاستغفار

* عن أبي هريرة رضي الله عنه: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾، قال رسول الله ﷺ: «إني لأستغفر الله في اليوم سبعين مرة»^(٢).

* عن عبد الله بن سرجس رضي الله عنه قال: رأيت النبي ﷺ وأكلت معه خبزًا ولحمًا أو قال: ثريدًا، قال: فقلت له: استغفر لك النبي ﷺ؟ قال: نعم، ولك، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾. قال: ثم درت خلفه فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه، عند ناغض كتفه اليسرى جمعًا عليه خيلان كأمثال الثآليل^(٣).

* غريب الحديث:

ناغض كتفه: بالنون والغين والضاد المعجمتين، والغين مكسورة، والناغض أعلى الكتف.

الخيلان: بكسر الخاء وإسكان الياء: جمع الخال، وهو الشامة في الجسد. الثآليل: حلمة الثدي.

* عن الأغر المزني رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة»^(٤).

* غريب الحديث:

ليغان: ليغطي، والغين: التغطية، وما يتغشى القلب.

(١) البحر المحيط (٨٠/٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٢٨٢/٢)، والترمذي (٣٢٥٩/٣٥٧/٥) واللفظ له، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وأخرجه بدون ذكر الآية: البخاري (٦٣٠٧/١٢١/١١)، والنسائي في الكبرى (١٠٢٦٩/١١٤/٦).

(٣) أخرجه: أحمد (٨٢/٥)، ومسلم (١٨٢٣/٤-١٨٢٤/٢٣٤٦) واللفظ له، والترمذي في الشمائل (مختصر: رقم ٢٠)، والنسائي في الكبرى (١١٤٩/٤٦٠/٦).

(٤) أخرجه: أحمد (٢٦٠/٤)، ومسلم (٢٧٠٢/٢٠٧٥/٤) واللفظ له، وأبو داود (١٧٧/٢-١٧٨/١٥١٥)، والنسائي في الكبرى (١٠٢٧٦/١١٦/٦).

قال القرطبي: «ولا يظن أن أحداً قال: إن قلب النبي ﷺ تأثر بسبب ذنب وقع منه بغين أو رين، أو طبع عليه، فإن من جوز الصغائر على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم يقل: إنها إذا وقعت منهم أثرت في قلوبهم كما تؤثر الذنوب في قلوب العصاة، بل: هم مغفور لهم ومكرمون، وغير مؤاخذين بشيء من ذلك، فثبت بهذا أن ذلك الغين ليس هو بسبب الذنب، ولكن اختلفوا في ذلك الغين. فقالت طائفة: إنه عبارة عن فترات وغفلات عن الذكر الذي كان دأبه، فكان يستغفر الله من تلك الفترات، وقيل: كان ذلك بسبب ما اطلع عليه من أحوال أمته. وما يكون منها بعده، فكان يستغفر الله لهم. وقيل: كان ذلك لما يشغله من النظر في أمور أمته ومصالحهم، ومحاربة عدوه عن عظيم مقامه، فكان يرى أن ذلك - وإن كان من أعظم الطاعات، وأفضل الأعمال - نزول عن علو درجاته ورفعة مقامه، فيستغفر ربه من ذلك، وقيل: كان ذلك حال خشية وإعظام لله تعالى. والاستغفار الذي صدر منه لم يكن لأجل ذلك الغين بل للقيام بالعبادة، ألا ترى قوله في الحديث: «إنه لا يغان على قلبي، وإني لأستغفر الله» فأخبر بأمرين مستأنفين ليس أحدهما معلقاً على الآخر»^(١).

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إن كنا لنعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة «رب اغفر لي وتب علي، إنك أنت التواب الرحيم»^(٢).

* عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ أنه كان يدعو بهذا الدعاء: «رب اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري كله، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي خطاياي وعمدي وجهلي وجدي. وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير»^(٣).

(١) المفهم (٢٦-٢٧/٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/٢١)، والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٦١٨)، وأبو داود (١٧٨/٢/١٥١٦) واللفظ له، والترمذي (٤٦١/٥/٣٤٣٤) وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب»، والنسائي في الكبرى (١١٩/٦).

(١٠٢٩٢)، وابن ماجه (٢/١٢٥٣/٣٨١٤)، وصححه ابن حبان (الإحسان ٣/٢٠٦-٢٠٧/٩٢٧).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/٤١٧)، والبخاري (١١/٢٣٤/٦٣٩٨) واللفظ له، ومسلم (٤/٢٠٨٧/٢٧١٩).

* فوائد الأحاديث:

«في هذه الأحاديث بيان فضل الاستغفار، وأن رسول الله ﷺ كان يكثر من الاستغفار مع مكانته من العصمة، وذلك لمعرفة لحق الله تعالى حق المعرفة، ولكي تتأسى به أمته، ولما كان الإنسان لا ينفك عن الذنوب والغفلة، كانت حاجته إلى الاستغفار دائمة، وأن الاستغفار باب من أبواب الرزق، وسبب من أسباب تفريج الكرب، وإذهاب الهم»^(١).

قال ابن القيم: «لا ريب أن القلب يصدأ كما يصدأ النحاس والفضة وغيرهما.. وصدأ القلب بأمرين: بالغفلة والذنوب، وجلاؤه بشيئين: بالاستغفار والذكر»^(٢).

قال القرطبي: وإنما أخبر النبي ﷺ بأنه يكرر توبته كل يوم مع كونه مغفوراً له؛ ليُلحِق به غيره نفسه بطريق الأولى؛ لأن غيره يقول: إذا كانت حال من تحقق مغفرة ذنوبه هكذا، كانت حال من هو في ذلك في شك أخرى وأولى، وكذلك القول في الاستغفار والتوبة يقتضي شيئاً يتاب منه، إلا أن ذلك منقسم بحسب حال من صدر منه ذلك الشيء»^(٣).

قال القاضي عياض: وقوله «اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني. اللهم، اغفر لي جدي وهزلي وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي» الحديث: اعترافاً منه ﷺ وتواضعاً لربه واستكانة وعبادة بالدعاء، وشكراً لربه، وقد علم أنه مغفور له ما تقدم وما تأخر، ومثله قوله: «اغفر لي ما قدمت وما أخرت». وقيل: يحتمل على ما كان منه على سهو وغفلة، وقد يحتمل: ما تقدم وما تأخر مما مضى، ويحتمل أن يريد بقوله: «خطيئتي وجهلي، وإسرافي» ما كان قبل النبوة»^(٤).

* * *

(١) إهداء الديباجة (٥/١٧٢).

(٢) صحيح الوابل الصيب (ص: ٨٠) دار ابن الجوزي.

(٣) المفهم (٧/٢٨).

(٤) إكمال المعلم (٨/٢١٤-٢١٥).

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ أي: يعلم تصرفكم في نهاركم ومستقركم في ليلكم، كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾^(١)، وكقوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾^(٢). وهذا القول ذهب إليه ابن جريج، وهو اختيار ابن جرير. وعن ابن عباس: «متقلبكم في الدنيا، ومثواكم في الآخرة»، وقال السدي: متقلبكم في الدنيا، ومثواكم في قبوركم. والأول أولى وأظهر، والله أعلم^(٣).

قال القرطبي: «قلت: والعموم يأتي على هذا كله؛ فلا يخفى عليه سبحانه شيء من حركات بني آدم وسكناتهم، وكذا جميع خلقه، فهو عالم بجميع ذلك قبل كونه جملة وتفصيلاً، أولى وأخرى، سبحانه لا إله إلا هو»^(٤).

قال القنوجي: «والمعنى أنه عالم بجميع أحوالكم، لا يخفى عليه شيء منها، وإن دق وخفي، ومثله حقيق بأن يتقى ويخشى، وأن يستغفر»^(٥).

* * *

(١) الأنعام: الآية (٦٠).

(٢) هود: الآية (٦).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣١٧/٧).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٦٠/١٦).

(٥) فتح البيان (٦٧/١٣).

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴿٢١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «هذا ابتداء وصف حال المؤمنين في جدهم في دين الله، وحرصهم على ظهوره، وحال المنافقين من الكسل والفشل، والحرص على فساد دين الله وأهله؛ وذلك أن المؤمنين كان حرصهم يبعثهم على تمني الظهور، وتمني قتال العدو، وفضيحة المنافقين، ونحو ذلك مما هو ظهور للإسلام، فكانوا يأنسون بالوحي، ويستوحشون إذا أبطأ، والله تعالى قد جعل ذلك بآماد مضروبة وأوقات لا تتعدى، فمدح الله المؤمنين بحرصهم. وقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ معناه: تتضمن إظهارنا، وأمرنا بمجاهدة العدو، ونحوه. ثم أخبر تعالى عن حال المنافقين عند نزول أمر القتال»^(١).

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ يقول: رأيت الذين في قلوبهم شك في دين الله وضعف ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ يا محمد، ﴿نَظَرَ الْمَغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾؛ خوفاً أن تغزيهم وتامرهم بالجهاد مع المسلمين، فهم خوفاً من ذلك وتجنباً عن لقاء العدو ينظرون إليك نظر المغشي عليه الذي قد صرع. وإنما عني بقوله: ﴿مِنَ الْمَوْتِ﴾ من خوف الموت، وكان هذا فعل أهل النفاق. .

وقوله: ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمُ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فأولى لهؤلاء الذين في قلوبهم

مرض.

(١) المحرر الوجيز (٥/١١٧).

وقوله: ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ﴾ وعيد توعد الله به هؤلاء المنافقين . .
 وقوله: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ وهذا خبر من الله - تعالى ذكره - عن قيل هؤلاء
 المنافقين من قبل أن تنزل سورة محكمة، ويذكر فيها القتال، وأنهم إذا قيل لهم: إن
 الله مفترض عليكم الجهاد، قالوا: سمع وطاعة، فقال الله ﷻ لهم - إذا أنزلت
 سورة، وفرض القتال فيها عليهم، فشق ذلك عليهم، وكرهوه - : ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ
 مَّعْرُوفٌ﴾ قبل وجوب الفرض عليكم، ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ كرهتموه وشق عليكم . .
 وقوله: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ يقول: فإذا وجب القتال وجاء أمر الله بفرض ذلك
 كرهتموه . .

وقوله: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ يقول - تعالى ذكره - : فلو صدقوا الله
 ما وعدوه قبل نزول السورة بالقتال بقولهم - إذ قيل لهم: إن الله سيأمركم بالقتال - :
 طاعة، فوفوا له بذلك؛ لكان خيراً لهم في عاجل دنياهم، وآجل معادهم^(١).
 قال السعدي: «وذلك - أي: صدقهم الله ووفائهم بما عاهدوه به من قبل، خيرٌ
 لهم - من وجوه:

منها: أن العبد ناقص من كل وجه، لا قدرة له إلا إن أعانه الله، فلا يطلب زيادة
 على ما هو قائم بصدده.

ومنها: أنه إذا تعلققت نفسه بالمستقبل، ضعف عن العمل، بوظيفة وقته،
 وبوظيفة المستقبل، أما الحال، فلأن الهمة انتقلت عنه إلى غيره، والعمل تبع
 للهمة، وأما المستقبل، فإنه لا يجيء حتى تفتت الهمة عن نشاطها فلا يعان عليه.

ومنها: أن العبد المؤمل للآمال المستقبلية، مع كسله عن عمل الوقت الحاضر،
 شبيه بالمتألي الذي يجزم بقدرته على ما يستقبل من أموره، فأحرى به أن يخذل
 ولا يقوم بما هم به ووطن نفسه عليه، فالذي ينبغي أن يجمع العبد همه وفكرته
 ونشاطه على وقته الحاضر، ويؤدي وظيفته بحسب قدرته، ثم كلما جاء وقت
 استقبله بنشاط وهمة عالية مجتمعة غير متفرقة، مستعيناً بربه في ذلك، فهذا حريٌّ
 بالتوفيق والتسديد في جميع أموره^(٢).

(١) جامع البيان (٢٦/ ٥٤-٥٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٧٨-٧٩).

قال الشنقيطي : « ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة ، أنه إذا أنزل سورة محكمة ؛ أي : متقنة الألفاظ والمعاني ، واضحة الدلالة ، لا نسخ فيها ، وذكر فيها وجوب قتال الكفار ، تسبب عن ذلك كون الذين فى قلوبهم مرض ؛ أي : شك ونفاق ، ينظرون كنظر الإنسان الذي يغشى عليه لأنه فى سياق الموت ؛ لأن نظر من كان كذلك تدور فيه عينه ويزيغ بصره ؛ وهذا إنما وقع لهم من شدة الخوف من بأس الكفار المأمور بقتالهم .

وقد صرح - جل وعلا - بأن ذلك من الخوف المذكور فى قوله : ﴿ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِى يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ ^(١) .

وقد بين تعالى أن الأغنياء من هؤلاء المنافقين ، إذا أنزل الله سورة فيها الأمر بالجهاد ، استأذنوا النبي ﷺ فى التخلف عن الجهاد ، وذمهم الله على ذلك ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أَذِلَّةً أُولُوا الطَّلَاقِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ ^(٨٦) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ^(٨٧) ﴿ ^(٢) ^(٣) .

قال ابن عاشور : « هذه الآية إنباء مما سيكون منهم حين يجدد الجدد ، ويجيء أوان القتال ، وهى من معجزات القرآن فى الإخبار بالغيب ؛ فقد عزم أمر القتال يوم أحد ، وخرج المنافقون مع جيش المسلمين فى صورة المجاهدين ، فلما بلغ الجيش إلى الشوط بين المدينة وأحد ؛ قال عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين : ما ندري علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس ؟ ورجع هو وأتباعه ^(٤) . وكانوا ثلث الجيش ، وذلك سنة ثلاث من الهجرة ؛ أي : بعد نزول هذه الآية بنحو ثلاث سنين ^(٥) .

* * *

(١) الأحزاب : الآية (١٩) .

(٢) التوبة : الآيتان (٨٦ و ٨٧) .

(٣) أضواء البيان (٧/ ٤٢٧-٤٢٨) .

(٤) أخرجه ابن إسحق فى السيرة (٣/ ٦٤) ، وذكره ابن كثير فى البداية (٤/ ١٤) .

(٥) التحرير والتنوير (٢٦/ ١١١) .

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ ﴿٢٢﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى: ذكره لهؤلاء الذين وصف أنهم إذا نزلت سورة محكمة، وذكر فيها القتال نظروا إلى رسول الله ﷺ نظر المغشي عليه ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ أيها القوم، يقول: فلعلكم إن توليتم عن تنزيل الله - جل ثناؤه -، وفارقتم أحكام كتابه، وأدبرتم عن محمد ﷺ وعما جاءكم به ﴿أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يقول: أن تعصوا الله في الأرض، فتكفروا به، وتسفكوا فيها الدماء، ﴿وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ وتعودوا لما كنتم عليه في جاهليتكم من التشنت والتفرق بعدما قد جمعكم الله بالإسلام، وألف به بين قلوبكم»^(١).

وقال ابن عاشور: «فالمعنى: أفيتحقق إن توليتم أنكم تفسدون في الأرض وتقطعون أرحامكم، وأنتم تزعمون أنكم توليتم إبقاء على أنفسكم، وعلى ذوي قرابة أنسابكم، على نحو قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾^(٢)، وهذا توبيخ كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾^(٣). والمعنى: أنكم تقعون فيما زعمتم التَّفَادِي منه، وذلك بتأييد الكفر، وإحداث العداوة بينكم وبين قومكم من الأنصار. فالتولي هنا هو الرجوع عن الوجهة التي خرجوا لها، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾^(٤)، وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى﴾^(٥)، وقوله: ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾^(٦)»^(٧).

(١) جامع البيان (٥٦/٢٦).

(٣) البقرة: الآية (٨٥).

(٥) النجم: الآية (٣٣).

(٧) التحرير والتنوير (١١٢/٢٦).

(٢) البقرة: الآية (٢٤٦).

(٤) البقرة: الآية (٢٤٦).

(٦) طه: الآية (٦٠).

وقال السعدي: «فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿١٢﴾ أَي: فهما أمران: إما التزام لطاعة الله، وامتنثال لأوامره، فثم الخير والرشد والفلاح، وإما إعراض عن ذلك، وتولّ عن طاعة الله، فما ثم إلا الفساد في الأرض بالعمل بالمعاصي وقطيعة الأرحام»^(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

الدالة على وجوب صلة الرحم وتحريم قطعها

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ، حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْ خَلْقِهِ قَالَتْ الرَّحِمُ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ. قَالَ: نَعَمْ. أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مِنْ وَصْلِكَ وَأَقْطَعَ مِنْ قِطْعِكَ؟ قَالَتْ: بَلَى، يَا رَبِّ. قَالَ: فَهُوَ لَكَ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾»^(٢).

* غريب الحديث:

خلق الخلق: قال في المفهم: «خلق هنا بمعنى اخترع وأصله: التقدير، كما تقدم، والخلق هنا: بمعنى المخلوق، وأصله مصدر، يقال: خلق يخلق خلقًا: إذا قدر وإذا اخترع»^(٣).

العائذ بك: قال النووي: «العائذ المستعيز وهو المعتصم بالشيء والملتجئ إليه المستجير به»^(٤).

القطيعة: قال في النهاية: «القطيعة: الهجران والصد، وهي (فعيلة) من القطع، ويراد به ترك البر والإحسان إلى الأهل والأقارب، وهي ضد صلة الرحم»^(٥).

الرحم: قال القرطبي: الرحم عبارة عن قرابات الرجل من جهة طرفي آبائه وإن علوا، وأبنائه وإن نزلوا، وما يتصل بالطرفين من الأعمام والعمات، والأخوال

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/٧٩).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/٣٣٠)، والبخاري (١٠/٥١٠/٥٩٨٧) واللفظ له، ومسلم (٤/١٩٨٠-١٩٨١/٢٥٥٤)،

والنسائي في الكبرى (٦/٤٦١/١١٤٩٧). (٣) (٦/٥٢٤).

(٥) (٤/٨٢).

(٤) شرح مسلم (١٦/٩١).

والخالات، والإخوة والأخوات، ومن يتصل بهم من أولادهم برحم جامعة،
والقراة إذا نسبة من النسب، كالأبوة، والأخوة والعمومة»^(١).

* عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: «الرحم شجرة، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته»^(٢).

* غريب الحديث:

شجرة: بكسر المعجمة وسكون الجيم بعدها نون، وجاء بضم أوله وفتح ر واية
ولغة، وأصل الشجرة عروق الشجر المشتبكة، والشجن بالتحريك واحد الشجون،
وهي طرق الأودية، ومنه قولهم: «الحديث ذو شجون» أي: يدخل بعضه في
بعض^(٣).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إن الرحم شجرة من الرحمن، فقال الله:
من وصلك وصلته، ومن قطعك قطعته»^(٤).

* فوائد الأحاديث:

قال القرطبي: «الرحم المحرم قطعها، المأمور بصلتها على وجهين، عامة
وخاصة.

فالعامة: رحم الدين، وتجب مواصلتها بملازمة الإيمان، والمحبة لأهله
ونصرتهم، والنصيحة لهم، وترك مضارتهم، والعدل بينهم، والنصفة في
معاملتهم، والقيام بحقوقهم الواجبة كتمريض المرضى، وحقوق الموتى: من
غسلهم والصلاة عليهم، ودفنهم، وغير ذلك من الحقوق المترتبة لهم.

وأما الرحم الخاصة: فتجب لهم الحقوق العامة، وزيادة عليها كالنفقة على
القراة القريبة، وتفقد أحوالهم، وترك التغافل عن تعاهدهم في أوقات ضروراتهم،
وتتأكد في حقهم حقوق الرحم العامة، حتى إذا تزاومت الحقوق بدئ بالأقرب
فالأقرب»^(٥).

(١) المفهم (٦/٥٢٤).

(٢) أخرجه: البخاري (١٠/٥١١/٥٩٨٩) واللفظ له، مسلم (٤/١٩٨١/٢٥٥٥).

(٣) الفتح (١١/٥١٢).

(٤) أخرجه: البخاري (١٠/٥١١/٥٩٨٨).

(٥) المفهم (٦/٥٢٦).

قال الحافظ: «قال ابن أبي جمرة: تكون صلة الرحم بالمال، وبالعون على الحاجة، وبدفع الضرر، وبطلاقة الوجه، وبالدعاء. والمعنى الجامع إيصال ما أمكن من الخير، ودفع ما أمكن من الشر بحسب الطاقة، وهذا إنما يستمر إذا كان أهل الرحم أهل استقامة، فإن كانوا كفاراً أو فجاراً فمقاطعتهم في الله هي صلتهم، بشرط بذل الجهد في وعظهم، ثم إعلامهم إذا أصرروا أن ذلك بسبب تخلفهم عن الحق، ولا يسقط مع ذلك صلتهم بالدعاء لهم بظهر الغيب أن يعودوا إلى الطريق المثلى»^(١).

فيها: «تعظيم أمر الرحم، وأن صلتها مندوب مرغّب فيه، وأن قطعها من الكبائر لورود الوعيد الشديد فيه»^(٢).

* عن جبير بن مطعم رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة قاطع»^(٣).

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «قوله: «لا يدخل الجنة قاطع» قال سفيان يعني: قاطع رحم. هذا التفسير صحيح لكثرة مجيء لفظ قاطع في الشرع مضافاً إلى الرحم، فإذا ورد عرياً عن الإضافة حمل على ذلك الغالب»^(٤).

ثم قال: «هذا الحديث يدل دلالة واضحة على وجوب صلة الرحم على الجملة، وعلى تحريم قطعها، وأنه كبيرة، ولا خلاف فيه. لكن الصلة درجات بعضها أرفع من بعض، فأدناها ترك المهاجرة، وأدنى صلتها بالسلام. وهذا بحسب القدرة عليها، والحاجة إليها، فمنها ما يتعين ويلزم، ومنها ما يستحب ويرغب فيه، وليس من لم يبلغ أقصى الصلات يسمى قاطعاً، ولا من قصر عما ينبغي له ويقدر عليه يسمى واصلاً»^(٥).

وقال أيضاً: «قال القاضي: وقد اختلف في حد الرحم التي تجب صلتها، فقال

(٢) الفتح (١٠/١١٣).

(١) الفتح (١٠/٥١٢-٥١٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/٨٤)، والبخاري (١٠/٥٠٨/٥٩٨٤)، ومسلم (٤/١٩٨١/٢٥٥٦)، وأبو داود (٢/٣٢٣/١٦٩٦)، والترمذي (٤/٢٧٩/١٩٠٩).

(٤) المفهم (٦/٥٢٦-٥٢٧).

(٥) المفهم (٦/٥٢٧).

بعض أهل العلم: هي كل رحم محرم، وعلى هذا فلا تجب في بني الأعمام وبني الأخوال. وقيل: بل هذا في كل رحم ممن ينطلق عليه ذلك من ذوي الأرحام في الموارث محرما كان أو غير محرم. قلت: فيخرج من هذا: أن رحم الأم التي لا يتوارث بها لا تجب صلتهم، ولا يحرم قطعهم، وهذا ليس بصحيح، والصواب ما ذكرناه قبل هذا من التعميم والتقسيم^(١).

* عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة؛ مثل البغي وقطيعة الرحم»^(٢).

* غريب الحديث:

أجدر: بسكون الجيم، أحق.

البغي: هو الجور والكبر والظلم.

* فوائد الحديث:

قال البنا: «معناه أن الله ﷻ يعجل له العقوبة في الدنيا غير ما يؤخره له من العقاب الشديد في الآخرة. قال المناوي^(٣): قوله: «قطيعة الرحم»: بنحو إيذاء أو صد أو هجر فإنه كبيرة كما يفيد هذا الوعيد الشديد، وأما قطيعتها بترك الإحسان فليس بكبيرة»^(٤).

* عن عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله: أنا الرحمن، وهي الرحم، شققت لها اسما من اسمي، من وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته»^(٥).

* عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه يرفعه إلى النبي ﷺ قال: «الراحمون يرحمهم

(١) المفهم (٥٢٧/٦-٥٢٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٣٦/٥)، والبخاري في الأدب المفرد (٦٧)، وأبو داود (٤٩٠٢/٢٠٨/٥)، والترمذي (٤/٥٧٣/٢٥١١) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (١٤٠٨/٢/٤٢١١)، وصححه ابن حبان (الإحسان ٢/٢٠٠-٢٠١/٤٥٥-٤٥٦)، والحاكم (٣٥٦/٢) ووافقه الذهبي.

(٣) انظر كلامه في الفيض (٤٧٨/٥).

(٤) الفتح الرباني (٢١٧/١٩).

(٥) أخرجه: أحمد (١٩٤/١)، أبو داود (١٦٩٤/٣٢٢/٢)، الترمذي (١٩٠٧/٢٧٨/٤) وقال: حديث صحيح، وصححه الحاكم (١٥٧/٤-١٥٨).

الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء، الرحم شجنة من الرحمن، فمن وصلها وصله الله، ومن قطعها قطعه الله»^(١).

* عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»^(٢).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله! إنني إذا رأيتك طابت نفسي، وقرت عيني، فأنبئني عن كل شيء. فقال: «كل شيء خلق من ماء». قال: قلت: يا رسول الله! أنبئني عن أمر إذا أخذت به دخلت الجنة. قال: «أفش السلام، وأطعم الطعام، وصل الأرحام، وقم بالليل والناس نيام، ثم ادخل الجنة بسلام»^(٣).

★ فوائد الأحاديث:

دلت هذه الأحاديث على عظم قدر صلة الرحم، وأن الله تعالى اشتق لها اسماً من اسمه، فمن وصلها وصله الله، ومن قطعها قطعه الله، وأمر بها نبيه ﷺ وحث عليها، وجعل جزاء واصلها دخول الجنة.

وقد تقدم الكلام على صلة الرحم وما يتعلق بها من أحكام وآداب في الأحاديث السابقة، بما أغنى عن إعادتها، والله المستعان وعليه التكلان.

* * *

(١) أخرجه: أحمد (١٦٠/٢)، أبو داود (٤٩٤١/٥)، الترمذي (١٩٢٤/٢٨٥/٤) واللفظ له وقال: حسن صحيح.

(٢) أخرجه: الدارمي (٣٤٠-٣٤١)، الترمذي (٥٦٢-٥٦٣/٤)، وقال: هذا حديث صحيح، ابن ماجه (٣٢٥١/١٠٨٣/٢) واللفظ للدارمي. وصححه الحاكم (١٣/٣) على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه: أحمد (٢٩٥/٢) واللفظ له، وذكره الهيثمي في المجمع (١٦/٥) وقال: رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح خلا أبي ميمونة وهو ثقة، وصححه ابن حبان (الإحسان ٦/٢٩٩/٢٥٥٩)، والحاكم (١٦٠/٤) ووافقه الذهبي.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ ﴿٢٣﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : هؤلاء الذين يفعلون هذا، يعني الذين يفسدون ويقطعون الأرحام؛ الذين لعنهم الله فأبعمهم من رحمته، ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ يقول: فسلبهم فهم ما يسمعون بأذانهم من مواعظ الله في تنزيله، ﴿وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ يقول: وسلبهم عقولهم، فلا يتبينون حجج الله، ولا يتذكرون ما يرون من عبره وأدله»^(١).

قال الرازي: «فيه لطيفة: وهي أن الله تعالى قال: (أصمهم) ولم يقل: (أصم أذانهم)، وقال: ﴿وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾، ولم يقل: أعماهم، وذلك لأن العين آلة الرؤية، ولو أصابها آفة لا يحصل الإبصار، والأذن لو أصابها آفة من قطع أو قلع تسمع الكلام؛ لأن الأذن خلقت وخلق فيها تعاريج ليكثر فيها الهواء المتموج، ولا يقرع الصماخ بعنف فيؤذي كما يؤذي الصوت القوي، فقال: (أصمهم) من غير ذكر الأذن، وقال: ﴿وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ مع ذكر العين؛ لأن البصر ههنا بمعنى العين، ولهذا جمعه بالأبصار، ولو كان مصدرًا لما جمع فلم يذكر الأذن؛ إذ لا مدخل لها في الإصمام، والعين لها مدخل في الرؤية؛ بل هي الكل، ويدل عليه أن الآفة في غير المواضع لما أضافها إلى الأذن سماها وقرأ، كما قال تعالى: ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرًا﴾^(٢) وقال: ﴿كَانَ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾^(٣)، والوقر دون الصم، وكذلك الطرش»^(٤).

وقال السعدي: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ﴾ أفسدوا في الأرض، وقطعوا أرحامهم ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ بأن أبعمهم عن رحمته، وقربوا من سخط الله. ﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ أي: جعلهم لا يسمعون ما ينفعهم ولا يبصرونه، فلم أذان ولكن لا تسمع سماع إذعان وقبول، وإنما تسمع سماعًا تقوم به حجة الله عليها، ولهم أعين ولكن لا يبصرون بها العبر والآيات، ولا يلتفتون بها إلى البراهين والبيانات»^(٥).

(١) جامع البيان (٥٧/٢٦).

(٢) فصلت: الآية (٥).

(٣) لقمان: الآية (٧).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٨/٦٥-٦٦).

(٥) تيسير الكريم الرحمن (٧٩/٧).

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ ﴿٢٤﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون مواعظ الله التي يعظم بها في أي القرآن، الذي أنزله على نبيه عليه الصلاة والسلام، ويتفكرون في حججه التي بينها لهم في تنزيله؛ فيعلموا بها خطأ ما هم عليه مقيمون، ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ فلا يعقلون ما أنزل الله في كتابه من المواعظ والعبر»^(١).

وقال ابن كثير: «يقول تعالى أمراً بتدبر القرآن وتفهمه، وناهياً عن الإعراض عنه، فقال: ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ ﴿٢٤﴾ أي: بل على قلوب أقفالها، فهي مُطَبَّقة لا يخلص إليها شيء من معانيه»^(٢).

قال ابن عطية: «قوله تعالى: ﴿يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ﴾ توقيف وتوبيخ، وتدبر القرآن زعيم بالتبيين والهدى»^(٣).

وقال القرطبي: «﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ أي: بل على قلوب أقفال أقفلها الله ﷻ عليهم فهم لا يعقلون. وهذا يرد على القدرية والإمامية مذهبهم»^(٤).

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (أم) فيه منقطة بمعنى (بل)، فقد أنكر تعالى عليهم إعراضهم عن تدبر القرآن، بأداة الإنكار التي هي الهمزة، وبين أن قلوبهم عليها أقفال لا تفتح لخير، ولا لفهم قرآن.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من التوبيخ والإنكار على من أعرض عن تدبر كتاب الله، جاء موضحاً في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ ﴿٨٢﴾^(٥)، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَذَبُّوا الْقَوْلَ أَمْ

(١) جامع البيان (٥٧/٢٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣٠٣/٧).

(٣) المحرر الوجيز (١١٩/٥).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٢٤٦/١٦).

(٥) النساء: الآية (٨٢).

جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ^(١)، وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ أَنْزَلَهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَذَبَرُوا عَائِنَتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٦٩﴾﴾ ^(٢).

وقد ذم - جل وعلا - المعرض عن هذا القرآن العظيم في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ ^(٣) الآية. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ ^(٤).

ومعلوم أن كل من لم يشتغل بتدبر آيات هذا القرآن العظيم؛ أي: تصفحها وتفهمها، وإدراك معانيها والعمل بها؛ فإنه معرض عنها، غير متدبر لها، فيستحق الإنكار والتوبيخ المذكور في الآيات إن كان الله أعطاه فهماً يقدر به على التدبر، وقد شكى النبي ﷺ إلى ربه من هجر قومه هذا القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ ^(٥).

وهذه الآيات المذكورة تدل على أن تدبر القرآن وتفهمه وتعلمه والعمل به؛ أمر لا بد منه للمسلمين.

وقد بين النبي ﷺ أن المشتغلين بذلك هم خير الناس. كما ثبت عنه ﷺ في الصحيح من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» ^(٦). وقال تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّينَئِمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ ^(٧).

فإعراض كثير من الأقطار عن النظر في كتاب الله، وتفهمه والعمل به، وبالسنة الثابتة المبينة له؛ من أعظم المناكر وأشنعها، وإن ظن فاعلوه أنهم على هدى.

ولا يخفى على عاقل أن القول بمنع العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، اكتفاء عنهما بالمذاهب المدونة، وانتفاء الحاجة إلى تعلمهما، لوجود ما يكفي عنهما من مذاهب الأئمة؛ من أعظم الباطل، وهو مخالف لكتاب الله وسنة رسوله وإجماع

(١) المؤمنون: الآية (٦٨).

(٢) ص: الآية (٢٩).

(٣) الكهف: الآية (٥٧).

(٤) السجدة: الآية (٢٢).

(٥) الفرقان: الآية (٣٠).

(٦) أخرجه: أحمد (٥٨/١)، والبخاري (٥٠٢٧/٩)، وأبو داود (١٤٥٢/٢)، والترمذي (١٥٩/٥).

(٧) (٢٩٠٧)، والنسائي في الكبرى (٨٠٣٦/١٩/٥)، وابن ماجه (٧٦-٧٧/٧٧-٢١١-٢١٢).

(٧) آل عمران: الآية (٧٩).

الصحابة، ومخالف لأقوال الأئمة الأربعة.

فمرتكبه مخالف لله ولرسوله، ولأصحاب رسوله جميعاً، وللأئمة رحمهم الله، كما سترى إيضاحه إن شاء الله تعالى.

قال الشنقيطي رحمته الله تحت عنوان: مسائل تتعلق بهذه الآية الكريمة:
«المسألة الأولى:

اعلم أن قول بعض متأخري الأصوليين: إن تدبر هذا القرآن العظيم، وتفهمه والعمل به؛ لا يجوز إلا للمجتهدين خاصة، وأن كل من لم يبلغ درجة الاجتهاد المطلق بشروطه المقررة عندهم، التي لم يستند اشتراط كثير منها إلى دليل من كتاب ولا سنة ولا إجماع ولا قياس جلي، ولا أثر عن الصحابة؛ قول لا مستند له من دليل شرعي أصلاً.

بل الحق الذي لا شك فيه، أن كل من له قدرة من المسلمين على التعلم والتفهم، وإدراك معاني الكتاب والسنة؛ يجب عليه تعلمهما، والعمل بما علم منهما.

أما العمل بهما مع الجهل بما يعمل به منهما فممنوع إجماعاً.
وأما ما علمه منهما علماً صحيحاً ناشئاً عن تعلم صحيح؛ فله أن يعمل به، ولو آية واحدة أو حديثاً واحداً.

ومعلوم أن هذا الذم والإنكار على من يتدبر كتاب الله عام لجميع الناس. ومما يوضح ذلك: أن المخاطبين الأولين به الذين نزل فيهم هم المنافقون والكفار، ليس أحد منهم مستكماً لشروط الاجتهاد المقررة عند أهل الأصول، بل ليس عندهم شيء منها أصلاً. فلو كان القرآن لا يجوز أن ينتفع بالعمل به، والاهتداء بهديه إلا المجتهدون بالاصطلاح الأصولي؛ لما وبخ الله الكفار وأنكر عليهم عدم الاهتداء بهداه، ولما أقام عليهم الحجة به حتى يحصلوا شروط الاجتهاد المقررة عند متأخري الأصوليين، كما ترى.

ومعلوم أن من المقرر في الأصول أن صورة سبب النزول قطعية الدخول، وإذا فدخول الكفار والمنافقين في الآيات المذكورة قطعي، ولو كان لا يصح الانتفاع بهدي القرآن إلا لخصوص المجتهدين؛ لما أنكر الله على الكفار عدم تدبرهم كتاب

اللَّهُ، وعدم عملهم به .

وقد علمت أن الواقع خلاف ذلك قطعاً، ولا يخفى أن شروط الاجتهاد لا تشترط إلا فيما فيه مجال للاجتهاد، والأمور المنصوصة في نصوص صحيحة، من الكتاب والسنة، لا يجوز الاجتهاد فيها لأحد، حتى تشترط فيها شروط الاجتهاد، بل ليس فيها إلا الاتباع، وبذلك تعلم أن ما ذكره صاحب «مراقي السعود» تبعاً للقرافي من قوله :

من لم يكن مجتهداً فالعمل منه بمعنى النص مما يحظر لا يصح على إطلاقه بحال ؛ لمعارضته لآيات وأحاديث كثيرة من غير استناد إلى دليل .

ومن المعلوم : أنه لا يصح تخصيص عمومات الكتاب والسنة ؛ إلا بدليل يجب الرجوع إليه .

ومن المعلوم أيضاً : أن عمومات الآيات والأحاديث، الدالة على حث جميع الناس، على العمل بكتاب الله، وسنة رسوله ؛ أكثر من أن تحصي، كقوله ﷺ : «تركتم فيكم ما إن تمسكتكم به لن تضلوا : كتاب الله وسنتي»^(١)، وقوله ﷺ : «عليكم بسنتي»^(٢) الحديث، ونحو ذلك مما لا يحصى . فتخصيص جميع تلك النصوص بخصوص المجتهدين، وتحريم الانتفاع بهدي الكتاب والسنة على غيرهم تحريماً باتاً ؛ يحتاج إلى دليل من كتاب الله، أو سنة رسوله ﷺ، ولا يصح تخصيص تلك النصوص بأراء جماعات من المتأخرين المقرين على أنفسهم بأنهم من المقلدين .

ومعلوم أن المقلد الصرف ؛ لا يجوز عده من العلماء ولا من ورثة الأنبياء، كما سترى إيضاحه إن شاء الله . وقال صاحب «مراقي السعود» ، في «نشر البنود» ، في شرحه لبيته المذكور آنفاً ما نصه : يعني أن غير المجتهد يحظر له ؛ أي : يمنع أن

(١) أخرجه : مالك (٨٩٩/٢) بلاغاً، ووصله الدارقطني (٢٤٥/٤)، والبيهقي (١١٤/١٠) عن أبي هريرة ؓ، وصححه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٩٧٩/٢ / ١٨٦٦)، والحاكم (٩٣/١)، ووافقه الذهبي، وفيه صالح ابن موسى الطلحي متروك، وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة (١٧٦١) بشواهده .

(٢) أخرجه : أحمد (١٢٦-١٢٧/٤)، وأبو داود (١٣/٥-٤٦٠٧/١٥)، والترمذي (٢٦٧٦/٤٣/٥) وقال : «حسن صحيح»، وابن ماجه (١٦-١٧/١٧-٤٣-٤٤)، وصححه ابن حبان (١٧٨-١٧٩/٥)، والحاكم (٩٥-٩٧/١)، ووافقه الذهبي، من حديث العرياض بن سارية ؓ .

يعمل بمعنى نص من كتاب أو سنة وإن صح سندها ؛ لا احتمال عوارضه ، من نسخ وتقييد ، وتخصيص وغير ذلك من العوارض التي لا يضبطها إلا المجتهد ، فلا يخلصه من الله إلا تقليد مجتهد . قاله القرافي . انتهى محل الغرض منه بلفظه .

وبه تعلم أنه لا مستند له ، ولا للقرافي الذي تبعه ، في منع جميع المسلمين ، غير المجتهدين من العمل بكتاب الله ، وسنة رسوله ، إلا مطلق احتمال العوارض ، التي تعرض لنصوص الكتاب والسنة ، من نسخ أو تخصيص أو تقييد ونحو ذلك ، وهو مردود من وجهين :

الأول : أن الأصل السلامة من النسخ حتى يثبت ورود النسخ ، والعام ظاهر في العموم حتى يثبت ورود المخصص ، والمطلق ظاهر في الإطلاق حتى يثبت ورود المقيّد ، والنص يجب العمل به حتى يثبت النسخ بدليل شرعي ، والظاهر يجب العمل به عمومًا كان أو إطلاقًا أو غيرهما حتى يرد دليل صارف عنه إلى المحتمل المرجوح ، كما هو معروف في محله .

وأول من زعم أنه لا يجوز العمل بالعام ، حتى يبحث عن المخصص فلا يوجد ونحو ذلك : أبو العباس بن سريج ، وتبعه جماعات من المتأخرين ، حتى حكوا على ذلك الإجماع حكاية لا أساس لها .

وقد أوضح ابن القاسم العبادي في «الآيات البينات» غلطهم في ذلك ، في كلامه على شرح المحلي لقول ابن السبكي في «جمع الجوامع» : (ويُتمسك بالعام في حياة النبي ﷺ ، قبل البحث عن المخصص ، وكذا بعد الوفاة ، خلافاً لابن سريج) اهـ .

وعلى كل حال فظواهر النصوص ، من عموم وإطلاق ، ونحو ذلك ، لا يجوز تركها إلا لدليل يجب الرجوع إليه ، من مخصص أو مقيّد ، لا لمجرد مطلق الاحتمال ، كما هو معلوم في محله .

فادعاء كثير من المتأخرين أنه يجب ترك العمل به حتى يبحث عن المخصص ، والمقيّد مثلاً ، خلاف التحقيق .

الوجه الثاني : أن غير المجتهد إذا تعلم بعض آيات القرآن ، أو بعض أحاديث النبي ﷺ ليعمل بها ، تعلم ذلك النص العام ، أو المطلق ، وتعلم معه مخصصه

ومقيده إن كان مخصصًا أو مقيدًا ، وتعلم ناسخه إن كان منسوخًا ، وتعلم ذلك سهل جدًا ، بسؤال العلماء العارفين به ، ومراجعة كتب التفسير والحديث المعتمد بها في ذلك ، والصحابة كانوا في العصر الأول يتعلم أحدهم آية فيعمل بها ، وحديثًا فيعمل به ، ولا يمتنع من العمل بذلك حتى يحصل رتبة الاجتهاد المطلق ، وربما عمل الإنسان بما علم ، فعلمه ما لم يكن يعلم ، كما يشير له قوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾^(١) ، وقوله تعالى : ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾^(٢) على القول بأن الفرقان هو العلم النافع الذي يفرق به بين الحق والباطل . وقوله تعالى : ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَقُوا اللَّهَ ءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾^(٣) الآية .

وهذه التقوى - التي دلت الآيات على أن الله يعلم صاحبها بسببها ما لم يكن يعلم - لا تزيد على عمله بما علم من أمر الله ، وعليه فهي عمل ببعض ما علم ، زاده الله به علم ما لم يكن يعلم .

فالقول بمنع العمل بما علم من الكتاب والسنة ، حتى يحصل رتبة الاجتهاد المطلق ؛ هو عين السعي في حرمان جميع المسلمين من الانتفاع بنور القرآن ، حتى يحصلوا شرطًا مفقودًا في اعتقاد القائلين بذلك ، وادعاء مثل هذا على الله وعلى كتابه وعلى سنة رسوله هو كما ترى .

تنبيه مهم :

يجب على كل مسلم ، يخاف العرض على ربه يوم القيامة ، أن يتأمل فيه ليرى لنفسه المخرج من هذه الورطة العظمى ، والطامة الكبرى ، التي عمت جل بلاد المسلمين من المعمورة ، وهي ادعاء الاستغناء عن كتاب الله وسنة رسوله استغناء تامًا ، في جميع الأحكام من عبادات ومعاملات ، وحدود وغير ذلك ، بالمذاهب المدونة .

وبناء هذا على مقدمتين :

إحداهما : أن العمل بالكتاب والسنة لا يجوز إلا للمتجهدين .

(٢) الأنفال : الآية (٢٩) .

(١) البقرة : الآية (٢٨٢) .

(٣) الحديد : الآية (٢٨) .

والثانية : أن المجتهدين معدومون عدماً كلياً ، لا وجود لأحد منهم في الدنيا ، وأنه بناء على هاتين المقدمتين ، يمنع العمل بكتاب الله وسنة رسوله منعاً باتاً على جميع أهل الأرض ، ويستغنى عنهما بالمذاهب المدونة .

وزاد كثير منهم على هذا منع تقليد غير المذاهب الأربعة ، وأن ذلك يلزم استمراره إلى آخر الزمان .

فتأمل يا أخي -رحمك الله- : كيف يسوغ لمسلم أن يقول بمنع الاهتداء بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وعدم وجوب تعلمهما والعمل بهما ، استغناء عنهما بكلام رجال غير معصومين ، ولا خلاف في أنهم يخطئون .

فإن كان قصدهم أن الكتاب والسنة لا حاجة إلى تعلمهما ، وأنهما يغني عنهما غيرهما ؛ فهذا بهتان عظيم ، ومنكر من القول وزور .

وإن كان قصدهم أن تعلمهما صعب لا يقدر عليه ، فهو أيضاً زعم باطل ؛ لأن تعلم الكتاب والسنة أيسر من تعلم مسائل الآراء والاجتهاد المنتشرة ، مع كونها في غاية التعقيد والكثرة ، والله -جل وعلا- يقول في سورة (القمر) مرات متعددة : ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ (١٧) ، ويقول تعالى في (الدخان) : ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٥٨) ، ويقول في (مريم) : ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ (٩٧) . (٣)

فهو كتاب ميسر بتيسير الله لمن وفقه الله للعمل به ، والله -جل وعلا- يقول : ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ (٤) ، ويقول : ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ هُدًى وَرَحْمَةٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٢) . (٥)

فلا شك أن الذي يتباعد عن هداه ، يحاول التباعد عن هدى الله ورحمته .

ولا شك أن هذا القرآن العظيم هو النور الذي أنزله الله إلى أرضه ؛ ليستضاء به فيعلم في ضوئه الحق من الباطل ، والحسن من القبيح ، والنافع من الضار ، والرشد من الغي ؛ قال الله تعالى : ﴿يَتَأْتِيَهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا

(١) القمر : الآية (١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠) .

(٣) مريم : الآية (٩٧) .

(٢) الدخان : الآية (٥٨) .

(٥) الأعراف : الآية (٥٢) .

(٤) العنكبوت : الآية (٤٩) .

مُيَسِّرًا^(١)، وقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكُم سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿فَاتَّبِعُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورَ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٥).

فإذا علمت أيها المسلم أن هذا القرآن العظيم هو النور الذي أنزله الله ليستضاء به، ويهتدى بهداه في أرضه، فكيف ترضى لبصيرتك أن تعمى عن النور. فلا تكن خفاشي البصيرة، واحذر أن تكون ممن قيل فيهم:

خفافيش أعماها النهار بضوئه مثل النهار يزيد أبصار الوري
ووافقها قطع من الليل مظلم نوراً ويعمي أعين الخفاش
﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾^(٦)، ﴿أَفَنَنْ يَعْلَمَ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَنْذَرُ أَولُوا الْأَلْبَابِ﴾^(٧).

ولا شك أن من عميت بصيرته عن النور، تخبط في الظلام، ومن لم يجعل الله له نوراً، فما له من نور.

وبهذا تعلم أيها المسلم المنصف أنه يجب عليك الجد والاجتهاد في تعلم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وبالوسائل النافعة المنتجة، والعمل بكل ما علمك الله منهما علماً صحيحاً.

ولتعلم أن تعلم كتاب الله وسنة رسوله في هذا الزمان أيسر منه بكثير في القرون الأولى؛ لسهولة معرفة جميع ما يتعلق بذلك، من ناسخ ومنسوخ، وعام وخاص، ومطلق ومقيد، ومجمل ومبين، وأحوال الرجال من رواية الحديث، والتمييز بين الصحيح والضعيف؛ لأن الجميع ضبط وأتقن ودون، فالجميع سهل التناول اليوم.

(٢) المائدة: الآيتان (١٥ و ١٦).

(٤) التغابن: الآية (٨).

(٦) البقرة: الآية (٢٠).

(١) النساء: الآية (١٧٤).

(٣) الشورى: الآية (٥٢).

(٥) الأعراف: الآية (١٥٧).

(٧) الرعد: الآية (١٩).

فكل آية من كتاب الله قد علم ما جاء فيها من النبي ﷺ، ثم من الصحابة والتابعين، وكبار المفسرين. وجميع الأحاديث الواردة عنه ﷺ حفظت ودونت، وعلمت أحوال متونها وأسانيدها، وما يتطرق إليها من العلل والضعف. فجميع الشروط التي اشترطوها في الاجتهاد يسهل تحصيلها جدًا على كل من رزقه الله فهماً وعلماً»^(١).

وقال تقي الدين الهلالي: «من المعلوم أن المقلدين لا يتدبرون القرآن، فقلوبهم مقفلة عنه، ولو علموا معناه لا يعملون به فقد زين لهم شيطانهم أن الأحكام لا تؤخذ من القرآن، وإنما تؤخذ من آراء أئمتهم، ويزعمون أن أئمتهم قد مخضوا القرآن والسنة، وأخرجوا زبدهما، وأودعوه كتب الرأي، ﴿أَفَمَنْ زَيْنَ لَهُمُ سَوْءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا نَذِيبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾^(٢)»^(٣).

* * *

(١) أضواء البيان (٧/٤٢٨-٤٣٧).

(٢) فاطر: الآية (٨).

(٣) سبيل الرشاد (٤/٩٣-٩٤).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُمُ
الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ ﴿٢٥﴾

★ غريب الآية:

سَوَّلَ: زَيَّنَ وَحَسَّنَ؛ يقال: سَوَّلْتُ لَهُ كَذَا؛ أي: حَسَّنْتُهُ لَهُ وَسَهَّلْتُهُ عَلَيْهِ.
أَمْلَى: أَمَهَلَ.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول الله ﷻ: إِنَّ الَّذِينَ رَجَعُوا الْقَهْقَرَىٰ عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ كَفَارًا
بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ وَقَصَدَ السَّبِيلَ، فَعَرَفُوا وَاضِحَ الْحُجَّةِ، ثُمَّ أَثَرُوا
الضَّلَالَةَ عَلَى الْهُدَىٰ عِنَادًا لِأَمْرِ اللَّهِ -تعالى ذكره- مِنْ بَعْدِ الْعِلْمِ..»

﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ يقول -تعالى ذكره-: الشَّيْطَانُ زَيَّنَ لَهُمْ ارْتِدَادَهُمْ عَلَى
أَدْبَارِهِمْ، مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ..»

وقوله: ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ يقول: وَمَدَّ اللَّهُ لَهُمْ فِي آجَالِهِمْ مُلَاوَةً مِنَ الدَّهْرِ، وَمَعْنَى
الْكَلَامِ: الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ، وَاللَّهُ أَمْلَىٰ لَهُمْ^(١).

وقال ابن عاشور: «لم يزل الكلام على المنافقين، فالذين ارتدوا على أدبارهم
منافقون، فيجوز أن يكون مرادًا به قوم من أهل النفاق كانوا قد آمنوا حقًا ثم رجعوا
إلى الكفر؛ لأنهم كانوا ضعفاء الإيمان، قليلي الاطمئنان، وهم الذين مثلهم الله
في سورة (البقرة) بقوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ
اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾^(٢) الآية.

والارتداد على الأدبار على هذا الوجه: تمثيل للراجع إلى الكفر بعد الإيمان
بحال من سار ليصل إلى مكان ثم ارتد في طريقه. ولما كان الارتداد سيرًا إلى الجهة

(١) جامع البيان (٢٦/٥٨-٥٩).

(٢) البقرة: الآية (١٧).

التي كانت وراء السائر جعل الارتداد إلى الأدبار؛ أي: إلى جهة الأدبار. وجيء بحرف (على) للدلالة على أن الارتداد متمكن من جهة الأدبار كما يقال: على صراط مستقيم.

والهدى: الإيمان، وتبين الهدى لهم على هذا الوجه تبين حقيقي؛ لأنهم ما آمنوا إلا بعد أن تبين لهم هدى الإيمان.

وعلى هذا الوجه فالإتيان بالموصول والصلة ليس إظهاراً في مقام الإضمار؛ لأن أصحاب هذه الصلة بعض الذين كان الحديث عنهم فيما تقدم. ويجوز أن يكون مراداً به جميع المنافقين، عبر عن تصميمهم على الكفر بعد مشاركتهم المسلمين في أحوالهم في مجلس النبي ﷺ، والصلاة معه، وسماع القرآن والمواظب بالارتداد؛ لأنه مفارقة لتلك الأحوال الطيبة؛ أي: رجعوا إلى أقوال الكفر وأعماله، وذلك إذا خلوا إلى شياطينهم، وتبين الهدى على هذا الوجه كونه بيناً في نفسه، وهو بين لهم لو ضوح أدلته، ولا غبار عليه، فهذا التبين من قبيل قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾^(١)؛ أي: ليس معه ما يوجب ريب المرتابين. ويجوز أن يكون المراد به قوماً من المنافقين لم يقاتلوا مع المسلمين، بعد أن علموا أن القتال حق. وهذا قول ابن عباس والضحاك والسدي، وعليه فلعل المراد: الجماعة الذين انخزلوا يوم أُحُد مع عبد الله بن أبي ابن سلول، والارتداد على الأدبار على هذا الوجه حقيقة؛ لأنهم رجعوا عن موقع القتال بعد أن نزلوا به، فرجعوا إلى المدينة وكانت المدينة خلفهم. وهذا عندي أظهر الوجهين وأليق بقوله بعد: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَدْبَرَهُمْ﴾^(٢). والهدى على هذا الوجه هو الحق؛ أي: من بعد ما علموا أن الحق قتال المشركين^(٣).

قال الشنقيطي: «الظاهر أن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى، قوم كفروا بعد إيمانهم.

وقال بعض العلماء: هم اليهود الذين كانوا يؤمنون بنبينا محمد ﷺ، فلما بعث وتحققوا أنه هو النبي الموصوف في كتبهم كفروا به.

(٢) محمد: الآيتان (٢٦ و ٢٧).

(١) البقرة: الآية (٢).

(٣) التحرير والتنوير (٢٦/ ١١٤-١١٥).

وعلى هذا القول فارتدادهم على أدبارهم هو كفرهم به بعد أن عرفوه وتيقنوه .
وعلى هذا ، فالهدى الذي تبين لهم هو صحة نبوته ﷺ ، ومعرفته بالعلامات
الموجودة في كتبهم .

وعلى هذا القول فهذه الآية يوضحها قوله تعالى في سورة (البقرة) : ﴿وَلَمَّا
جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا
جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾^(١) ؛ لأن قوله : ﴿فَلَمَّا
جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا﴾ مبين معنى قوله : ﴿مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَى﴾ ، وقوله :
﴿كَفَرُوا بِهِ﴾ مبين معنى قوله : ﴿أَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ﴾ .

وقال بعض العلماء : نزلت الآية المذكورة في المنافقين .

وقد بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة : أن سبب ارتداد هؤلاء القوم من
بعد ما تبين لهم الهدى ، هو إغواء الشيطان لهم ؛ كما قال تعالى مشيراً إلى علة
ذلك : ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ ؛ أي : زين لهم الكفر والارتداد عن الدين ، ﴿وَأَمَّلَى
لَهُمْ﴾ أي : مدّ لهم في الأمل ، ووعدهم طول العمر .

قال الزمخشري : ﴿سَوَّلَ لَهُمْ﴾ : سهّل لهم ركوب العظائم ، من السؤل : وهو
الاسترخاء ، وقد اشتقه من السؤل من لا علم له بالتصريف والاشتقاق جميعاً .
﴿وَأَمَّلَى لَهُمْ﴾ : ومدّ لهم في الآمال والأمانى . انتهى .

وإيضاح هذا : أن هؤلاء المرتدين على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى ؛ وقع
لهم ذلك بسبب أن الشيطان سؤل لهم ذلك ؛ أي : سهله لهم وزينه لهم وحسنه لهم
ومناهم بطول الأعمار ؛ لأن طول الأمل من أعظم أسباب ارتكاب الكفر
والمعاصي . .

ومعنى إملاء الشيطان لهم وعده إياهم بطول الأعمار ، كما قال تعالى : ﴿يَعِدُّهُمْ
وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾^(٢) .

وقال تعالى : ﴿وَأَسْتَفْزِزُ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ إلى قوله : ﴿وَعِدُّهُمْ وَمَا
يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾^(٣) .

(٢) النساء : الآية (١٢٠) .

(١) البقرة : الآية (٨٩) .

(٣) الإسراء : الآية (٦٤) .

وقال بعض العلماء : ضمير الفاعل في قوله : ﴿وَأْمَلَى لَهُمْ﴾ على قراءة الجمهور راجع إلى الله تعالى .

والمعنى : الشيطان ﴿سَوَّلَ لَهُمْ﴾ أي : سهّل لهم الكفر والمعاصي ، وزين ذلك وحسنه لهم ، والله - جل وعلا - ﴿أَمْلَى لَهُمْ﴾ أي : أمهلهم إمهال استدراج .

وكون التسويل من الشيطان والإمهال من الله ، قد تشهد لهم آيات من كتاب الله ، كقوله تعالى في تزيين الشيطان لهم : ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾^(١) الآية ، وقوله تعالى : ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ وَليَهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٢) ، وقوله تعالى : ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾^(٣) الآية ، إلى غير ذلك من الآيات .

وكقوله تعالى في إملاء الله لهم استدراجاً : ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٤) وأُملى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ^(٥) . وقوله تعالى : ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمِلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾^(٦) ، وقوله تعالى : ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾^(٧) ، وقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا فَسَّوْا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾^(٨) ، وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(٩) ، وقوله تعالى : ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ ۖ سَارِعٌ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(١٠) ، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة^(١١) .

* * *

(١) الأنفال : الآية (٤٨) .

(٣) إبراهيم : الآية (٢٢) .

(٥) آل عمران : الآية (١٧٨) .

(٧) الأنعام : الآية (٤٤) .

(٨) الأعراف : الآية (٩٥) .

(٩) المؤمنون : الآيتان (٥٥ و ٥٦) .

(١٠) أضواء البيان (٧/ ٥٨٤-٥٨٦) .

(٢) النحل : الآية (٦٣) .

(٤) الأعراف : الآيتان (١٨٢ و ١٨٣) .

(٦) مريم : الآية (٧٥) .

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ ﴿٢٦﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: «أي: مالثوهم وناصحوهم في الباطن على الباطل، وهذا شأن المنافقين يظهرون خلاف ما يبطنون؛ ولهذا قال الله ﷻ: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ أي: يعلم ما يسرون وما يخفون، الله مطلع عليه وعالم به، كقوله: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ﴾^(١)»^(٢).

وقال الشنقيطي: «الإشارة في قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ راجعة إلى قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ مَوَلٌ لَّهُمْ وَأَمَلَى لَهُمْ﴾.

أي: ذلك التسويل والإملاء المفضي إلى الكفر بسبب أنهم ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾»^(٣).

قال ابن جرير: «﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ يقول -تعالى ذكره-: واللَّهُ يعلم إسرار هذين الحزبين المتظاهرين من أهل النفاق، على خلاف أمر الله وأمر رسوله، إذ يتسارون فيما بينهم بالكفر بالله ومعصية الرسول، ولا يخفى عليه ذلك ولا غيره من الأمور كلها»^(٤).

قال الماتريدي: «كراهة نزول ما أنزل الله تعالى على رسوله كانت من اليهود وجميع الكفرة لقوله تعالى: ﴿مَا يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾»^(٥)، واللَّهُ أعلم»^(٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/٣٠٣).

(٤) جامع البيان (٢٦/٥٩).

(١) النساء: الآية (٨١).

(٣) أضواء البيان (٧/٥٨٧).

(٥) البقرة: الآية (١٠٥).

(٦) تأويلات أهل السنة (٤/٥١١).

قال الشنقيطي: «وظاهر الآية يدل على أن بعض الأمر الذي قالوا لهم سنطيعكم فيه مما نزل الله وكرهه أولئك المطاعون.

والآية الكريمة تدل على أن كل من أطاع من كره ما نزل الله في معاونته له على كراهته ومؤازرته له على ذلك الباطل؛ أنه كافر بالله بدليل قوله تعالى فيمن كان كذلك: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ﴾ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ﴿٢٨﴾ (١).

وقد قدمنا ما يوضح ذلك من القرآن في سورة (الشورى) في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا أَخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ (٢) وفي مواضع عديدة من هذا الكتاب المبارك.

وبينا في سورة (الشورى) أيضاً شدة كراهة الكفار لما نزل الله، وبيننا ذلك بالآيات القرآنية في الكلام على قوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ (٣).

وقد قدمنا مراراً أن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب (٤).

* * *

(١) محمد: الآيتان (٢٧ و ٢٨).

(٢) الشورى: الآية (١٠).

(٣) الشورى: الآية (١٣).

(٤) أضواء البيان (٧/ ٥٨٧).

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ
وَأَذْبَرَهُمْ﴾ ﴿٢٧﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: «أي: كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم وتعصت الأرواح في أجسادهم، واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب، كما قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ﴾^(١)، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بالضرب ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾^(٢)»^(٣).

قال ابن عاشور: وهذا - أي: حالهم عند الموت - يقتضي شيئين: أولهما: أنهم ميتون لا محالة، وثانيهما: أن موتهم يصحبها تعذيب.

فالأول مأخوذ بدلالة الالتزام، وهو في معنى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِلْآخِرَةِ نَحْنُ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿١٨﴾^(٤)، وقوله: ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾^(٥).

والثاني هو صريح الكلام، وهو وعيد لتعذيبهم في الدنيا عند الموت. والمقصود وعيدهم بأنهم سيعجل لهم العذاب من أول منازل الآخرة وهو حالة الموت. ولما جعل هذا العذاب محققاً وقوعه؛ رتب عليه الاستفهام عن حالهم استفهاماً مستعملاً في معنى تعجيب المخاطب من حالهم عند الوفاة، وهذا التعجيب مؤذن بأنها حالة فظيعة غير معتادة؛ إذ لا يتعجب إلا من أمر غير معهود،

(٢) الأنعام: الآية (٩٣).

(٤) آل عمران: الآية (١٦٨).

(١) الأنفال: الآية (٥٠).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٢١).

(٥) التوبة: الآية (٨١).

والسياق يدل على الفطاعة . .

والمقصود من هذه الحال : وعيدهم بهذه المِيتة الفظيعة التي قدرها الله لهم ، وجعل الملائكة تضرب وجوههم وأدبارهم ؛ أي : يضربون وجوههم التي وَقَّوْهَا من ضرب السيف حين فرُّوا من الجهاد ؛ فإن الوجوه مما يقصد بالضرب بالسيوف عند القتال . . ويضربون أدبارهم التي كانت محل الضرب لو قاتلوا ، وهذا تعريض بأنهم لو قاتلوا لفرُّوا فلا يقع الضرب إلا في أدبارهم^(١) .

* * *

(١) التحرير والتنوير (٢٦/١١٨-١١٩) .

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ ﴿٢٨﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : تفعل الملائكة هذا الذي وصفت بهؤلاء المنافقين ؛ من أجل أنهم اتبعوا ما أسخط الله ، فأغضبه عليهم من طاعة الشيطان ، ﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ يقول : وكرهوا ما يرضيه عنهم من قتال الكفار به ، بعد ما افترضه عليهم .

وقوله : ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ يقول : فأبطل الله ثواب أعمالهم وأذهبه ؛ لأنها عملت في غير رضاه ولا محبته ، فبطلت ، ولم تنفع عاملها»^(١).

قال ابن عاشور: «والجمع بين الإخبار عنهم باتباعهم ما أسخط الله ، وكرهتهم رضوانه ، مع إمكان الاجتزاء بأحدهما عن الآخر ؛ للإيماء إلى أن ضرب الملائكة وجوه هؤلاء مناسب لإقبالهم على ما أسخط الله ، وأن ضربهم أدبارهم مناسب لكرهتهم رضوانه ؛ لأن الكراهة تستلزم الإعراض والإدبار ، ففي الكلام أيضاً محسن اللف والنشر المرتب . فكان ذلك التعذيب مناسباً لحالي توقيهم في الفرار من القتال ، وللسبيين الباعثين على ذلك التوقي .

وفرع على اتباعهم ما أسخط الله وكرهتهم رضوانه قوله : ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ فكان اتباعهم ما أسخط الله وكرهتهم رضوانه سبباً في الأمرين : ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند الوفاة ، وإحباط أعمالهم»^(٢).

وقال الشوكاني: «أي : بسبب اتباعهم ما يسخط الله من الكفر والمعاصي ، وقيل : كتمانهم ما في التوراة من نعت نبينا ﷺ ، والأول أولى لما في الصيغة من العموم ، ﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ أي : كرهوا ما يرضاه الله من الإيمان والتوحيد

(١) جامع البيان (٢٦ / ٦٠) .

(٢) التحرير والتنوير (٢٦ / ١١٩) .

والطاعة، ﴿فَلَحَبَطَ﴾ الله ﴿أَعْمَلَهُمْ﴾ بهذا السبب، والمراد بأعمالهم: الأعمال التي صورتها صورة الطاعة، وإلا فلا عمل لكافر، أو ما كانوا قد عملوا من الخير قبل الردة^(١).

قال الشنقيطي: «اعلم أن هذه الآية الكريمة قد قال بعض العلماء: إنها نزلت في المنافقين.

وقال بعضهم: إنها نزلت في اليهود، وأن المنافقين أو اليهود قالوا للكفار الذين كرهوا ما نزل الله: سنطيعكم في بعض الأمر، وهو عداوة النبي ﷺ، والتعويق عن الجهاد ونحو ذلك.

وبعضهم يقول: إن الذين اتبعوا ما أسخط الله، هم اليهود حين كفروا بالنبي ﷺ لما عرفوه، وكرهوا رضوانه، وهو الإيمان به ﷺ.

والتحقيق الذي لا شك فيه أن هذه الآيات عامة في كل ما يتناوله لفظها، وأن كل ما فيها من الوعيد عام لمن أطاع من كره ما نزل الله.

مسألة:

اعلم أن كل مسلم يجب عليه في هذا الزمان تأمل هذه الآيات من سورة (محمد) وتدبرها، والحذر التام مما تضمنته من الوعيد الشديد؛ لأن كثيراً ممن ينتسبون للمسلمين داخلون بلا شك فيما تضمنته من الوعيد الشديد؛ لأن عامة الكفار من شرقيين وغربيين كارهون لما نزل الله على رسوله محمد ﷺ، وهو هذا القرآن، وما يبينه به النبي ﷺ من السنن. فكل من قال لهؤلاء الكفار الكارهين لما نزل الله: سنطيعكم في بعض الأمر، فهو داخل في وعيد الآية.

وأحرى من ذلك من يقول لهم: سنطيعكم في كل الأمر، كالذين يتبعون القوانين الوضعية مطيعين بذلك للذين كرهوا ما نزل الله، فإن هؤلاء لا شك أنهم من تتوفاهم الملائكة بضربون وجوههم وأدبارهم، وأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه، وأنه محبط أعمالهم. فاحذر كل الحذر من الدخول في الذين قالوا: سنطيعكم في بعض الأمر^(٢).

(١) فتح القدير (٥/٥٦).

(٢) أضواء البيان (٧/٥٨٩-٥٩٠).

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنْهُمْ﴾ ﴿٢٩﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: اعتقد المنافقون أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين؟! بل سيوضح أمرهم، ويجليه حتى يفهمهم ذوو البصائر، وقد أنزل تعالى في ذلك سورة (براءة)، فبين فيها فضائحهم وما يعتمدونه من الأفعال الدالة على نفاقهم، ولهذا إنما كانت تسمى (الفاضحة)، والأضغان: جمع ضغن، وهو ما في النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله والقائمين بنصره»^(١).

قال ابن عاشور: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنْهُمْ﴾ ﴿٢٩﴾: انتقال من التهديد والوعيد إلى الإنذار بأن الله مطلع رسوله ﷺ على ما يضمره المنافقون من الكفر والمكر والكيد؛ ليعلموا أن أسرارهم غير خافية، فيوقنوا أنهم يكيدون عقولهم في ترتيب المكائد بلا طائل، وذلك خيبة لآمالهم»^(٢).

وقال السعدي: «يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ من شبهة أو شهوة، بحيث تخرج القلب عن حال صحته واعتداله؛ أن الله لا يخرج ما في قلوبهم من الأضغان والعداوة للإسلام وأهله؟ هذا ظن لا يليق بحكمة الله، فإنه لا بد أن يميز الصادق من الكاذب، وذلك بالابتلاء بالمحن، التي من ثبت عليها، ودام إيمانه فيها؛ فهو المؤمن حقيقة، ومن رده على عقبه فلم يصبر عليها، وحين أتاه الامتحان جزع وضعف إيمانه، وخرج ما في قلبه من الضغن، وتبين نفاقه، هذا مقتضى الحكمة الإلهية»^(٣).



(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٢٠).

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٢١).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٨٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ ﴿٣٠﴾

★ غريب الآية:

سيماهم: علاماتهم.

لحن القول: أي: في فحواه ومعناه، أو الكلام المحال به إلى غير ظاهره للتعريض.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ولو نشاء يا محمد لأريناك أشخاصهم، فعرفتهم عياناً، ولكن لم يفعل تعالى ذلك في جميع المنافقين سترًا منه على خلقه، وحملاً للأمور على ظاهر السلامة، ورد السرائر إلى عالمها، ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾؛ أي: فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم، يفهم المتكلم من أي الحزبين هو بمعاني كلامه وفحواه، وهو المراد من لحن القول، كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: «ما أسرّ أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه، وفلتات لسانه»^(١).

قال الماتريدي: «أي: لو نشاء لجعلنا لهم أعلاماً في الوجه والقول لتعرفهم، ولكن لم يجعل لهم، ولكن جعل معرفتهم بأعمال يعملون، فيظهر نفاقهم بذلك، والله أعلم، كقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(٢)، وقوله في آية أخرى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾^(٣)، وقوله في آية أخرى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ﴾^(٤)، وقوله في آية أخرى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَفْزِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٢١).

(٢) البقرة: الآية (٢٠٤).

(٤) التوبة: الآية (٥٤).

(٣) المنافقون: الآية (٤).

قُلُوبُهُمْ^(١)، ونحو ذلك من الآيات مما يظهر نفاقهم وخلافهم بالأعمال التي كانوا يعملون. فدلّت هذه الآيات على أنه كان لا يعرفهم بالسيماء والنطق والقول والأجسام، وإنما يعرفهم بأفعال كانوا يفعلونها، واللّه أعلم^(٢).

قال السيوطي: «قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ استدلال به من جعل التعريض بالقذف موجبا للحد^(٣)».

وقال القرطبي: «قال الكلبي: فلم يتكلم بعد نزولها عند النبي ﷺ منافق إلا عرفه. وقيل: كان المنافقون يخاطبون النبي ﷺ بكلام تواضعوه فيما بينهم، والنبي ﷺ يسمع ذلك ويأخذ بالظاهر المعتاد، فنبه الله تعالى عليه، فكان بعد هذا يعرف المنافقين إذا سمع كلامهم».

قال أنس: فلم يخف منافق بعد هذه الآية على رسول الله ﷺ، عرفه الله ذلك بوحى أو علامة عرفها بتعريف الله إياه.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ أي: لا يخفى عليه شيء منها^(٤).

* * *

(١) التوبة: الآية (٤٥).

(٢) تأويلات أهل السنة (٤/٥١٢).

(٣) الإكليل (ص: ٢٣٨).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٦/٢٥٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوًا
أَخْبَارَكُمْ﴾ ﴿٢١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ أي: ولنختبرنكم بالأوامر والنواهي، ﴿حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوًا أَخْبَارَكُمْ﴾. وليس في تقدم علم الله تعالى بما هو كائن أنه سيكون شك ولا ريب، فالمراد: حتى نعلم وقوعه؛ ولهذا يقول ابن عباس في مثل هذا: «إلا لنعلم؛ أي: لنرى»^(١).

قال الشنقيطي: «ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الله - جل وعلا - يبلو الناس؛ أي: يختبرهم بالتكاليف، كبذل الأنفس والأموال في الجهاد ليطهر بذلك صادقهم من كاذبهم، ومؤمنهم من كافرهم؛ جاء موضحاً في آيات أخر، كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ﴾^(٢) الآية، وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّادِقِينَ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٤)، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهِمْ وَبَنَاتِهِمْ وَلِعَلَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْبُذُوهُمْ إِلَى الْبُحْرِ وَهُمْ لَا يُفْلَتُونَ﴾^(٥)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُذِرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾^(٦) الآية، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ﴾ الآية.

وقد قدمنا إزالة الإشكال في نحوه في سورة (البقرة) في الكلام على قوله تعالى:

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٠٤).

(٣) آل عمران: الآية (١٤٢).

(٥) العنكبوت: الآيات (١-٣).

(٢) البقرة: الآية (٢١٤).

(٤) التوبة: الآية (١٦).

(٦) آل عمران: الآية (١٧٩).

﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾^(١)
الآية^(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات القدر

* عن علي رضي الله عنه قال: «كنا مع النبي ﷺ في بقيع الغرقد في جنازة، فقال: ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار. فقالوا: يا رسول الله! أفلا نتكل؟ فقال: اعملوا، فكل ميسر. ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾^(٣) ﴿وَصَدَقَ بِالْحَقِّ﴾^(٤) إلى قوله: ﴿لِلْمُسْرَى﴾^(٥).

* فوائد الحديث:

قال أبو الحسن الأشعري: «وقد أجمع المسلمون قبل حدوث الجهمية والمعتزلة والحرورية على أن لله علماً لم يزل، وقد قالوا: علم الله لم يزل، وعلم الله سابق في الأشياء، ولا يمتنعون أن يقولوا في كل حادثة تحدث، ونازلة تنزل: كل هذا سابق في علم الله، فمن جحد أن لله علماً؛ فقد خالف المسلمين وخرج عن اتفاقهم»^(٥).

وقال أبو عمر بن عبد البر: «وإنما يجري الخلق فيما سبق من علم الله، والقدر سر الله، لا يدرك بجداول، ولا يشفي منه مقال، والحجاج فيه مرتجة لا يفتح شيء منها إلا بكسر شيء وغلقه، وقد تظاهرت الآثار وتواترت الأخبار فيه عن السلف الأخيار، الطيبين الأبرار، وبالأستسلام والانقياد، والإقرار بأن علم الله سابق، ولا يكون في ملكه إلا ما يريد، وما ربك بظلام للعبيد»^(٦).

وسياتي بيان ذلك مستوفى في سورة (الليل) من هذا السفر المبارك، وبالله التوفيق.

(١) البقرة: الآية (١٤٣).

(٢) أضواء البيان (٧/ ٥٩٠-٥٩١).

(٣) الليل: الآيات (٥-١٠).

(٤) أخرجه: أحمد (١٣٢-١٣٣)، والبخاري (٩١٧/ ٨)، ومسلم (٢٠٣٩-٢٠٤٠/ ٤)، وأبو

داود (٦٨-٦٩/ ٥)، والترمذي (٤١٠-٤١١/ ٣٣٤٤)، والنسائي في الكبرى (٥١٦/ ٦)

(٥) وابن ماجه (٣٠-٣١/ ٧٨). (٤) الإبانة (ص: ٨٩).

(٥) فتح البر (٢/ ٢٩٣-٢٩٤).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَلُهُمْ﴾ ﴿٣٢﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى - ذكره -: إن الذين جحدوا توحيد الله، وصدوا الناس عن دينه الذي ابتعث به رسله ﴿وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ يقول: وخالفوا رسوله محمداً ﷺ، فحاربوه وأذوه من بعد ما علموا أنه نبي مبعوث، ورسول مرسل، وعرفوا الطريق الواضح بمعرفته، وأنه لله رسول.

وقوله: ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ لأن الله بالغ أمره، وناصر رسوله، ومظهره على من عاداه وخالفه، ﴿وَسَيُحِطُّ أَعْمَلُهُمْ﴾ يقول: وسيذهب أعمالهم التي عملوها في الدنيا، فلا ينفعهم بها في الدنيا ولا الآخرة، ويبطلها إلا مما يضرهم»^(١).

قال السعدي: «هذا وعيد شديد لمن جمع أنواع الشر كلها من الكفر بالله وصد الخلق عن سبيل الله الذي نصبه موصلاً إليه»^(٢).

قال الشنقيطي: «وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَشَاقُّوا الرَّسُولَ﴾ أي: خالفوا محمداً ﷺ مخالفة شديدة.

وقد دلت هذه الآية الكريمة على أمرين:

أحدهما: أن الذين كفروا وصدوا غيرهم عن الحق وخالفوه ﷺ لن يضروا الله بكفرهم شيئاً؛ لأنه غني لذاته الغنى المطلق.

والثاني: أنهم إنما يضررون بذلك أنفسهم؛ لأن ذلك الكفر سبب لإحباط أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿وَسَيُحِطُّ أَعْمَلُهُمْ﴾.

وهذان الأمران اللذان تضمنتهما هذه الآية الكريمة جاءا موضحين في آيات من كتاب الله.

(١) جامع البيان (٢٦/٦٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/٨٤).

فمن الآيات الدالة على الأول الذي هو غنى الله عن خلقه، وعدم تضرره بمعصيتهم، قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾^(٤)، وقوله تعالى: ﴿فَكْفُرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾^(٥)، وقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾^(٦) إلى غير ذلك من الآيات.

ومن الآيات الدالة على الثاني وهو إحباط أعمالهم بالكفر؛ أي: إبطالها به، قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾^(٧)، وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾^(٨) الآية، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَقًّا إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾^(٩)، وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطِلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١٠) إلى غير ذلك من الآيات^(١١).

وقال ابن عاشور: «الظاهر أن المعنى بالذين كفروا هنا الذين كفروا المذكورون في أول هذه السورة، وفيما بعد من الآيات التي جرى فيها ذكر الكافرين؛ أي: الكفار الصرحاء، عاد الكلام إليهم بعد الفراغ من ذكر المنافقين الذين يخفون الكفر؛ عودًا على بدء لتهوين حالهم في نفوس المسلمين، فبعد أن أخبر الله أنه أضل أعمالهم وأنهم اتبعوا الباطل، وأمر بضرب رقابهم، وأن التعس لهم، وحقّرهم بأنهم يتمتعون ويأكلون كما تاكل الأنعام، وأن الله أهلك قري هي أشد منهم قوة، ثم جرى ذكر المنافقين، بعد ذلك ثني عنان الكلام إلى الذين كفروا أيضًا؛ ليعرف الله المسلمين بأنهم في هذه المآزق التي بينهم وبين المشركين

(١) آل عمران: الآية (٩٧).

(٢) الزمر: الآية (٧).

(٣) إبراهيم: الآية (٨).

(٤) يونس: الآية (٦٨).

(٥) التغابن: الآية (٦).

(٦) فاطر: الآية (١٥).

(٧) الفرقان: الآية (٢٣).

(٨) إبراهيم: الآية (١٨).

(٩) النور: الآية (٣٩).

(١٠) هود: الآية (١٦).

(١١) أضواء البيان (٧/ ٥٩٤-٥٩٥).

لا يلحقهم منهم أدنى ضرر، وليزيد وصف الذين كفروا بأنهم شاقوا الرسول ﷺ .
 فالجملة استئناف ابتدائي، وهي توطئة لقوله: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ﴾^(١) .
 وتبين الهدى لهم: ظهور ما في دعوة الإسلام من الحق الذي تدركه العقول إذا
 نبهت إليه، وظهور أن أمر الإسلام في ازدياد ونماء، وأن أمور الآخرين في إدبار،
 فلم يردعهم ذلك عن محاولة الإضرار بالرسول ﷺ كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا
 نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾^(٢) . فحصل من مجموع ذلك أن الرسول ﷺ رسول
 الله، وأن الإسلام دين الله .

وقيل: المراد بالذين كفروا في هذه الآية يهود قريظة والنضير، وعليه فمشاقتهم
 الرسول ﷺ مشاقة خفية، مشاقة كيد ومكر، وتبين الهدى لهم: ظهور أن محمداً ﷺ
 هو الموعود به في التوراة وكتب الأنبياء، فتكون الآية تمهيداً لغزو قريظة
 والنضير^(٣) .

* * *

(١) محمد: الآية (٣٥) .

(٢) الرعد: الآية (٤١) .

(٣) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٢٥-١٢٦) .

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ ﴿٣٣﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله ورسوله ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ في أمرهما ونهيهما ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ يقول: ولا تبطلوا بمعصيتكم إياهما وكفركم بربكم ثواب أعمالكم؛ فإن الكفر بالله يحبط السالف من العمل الصالح»^(١).

قال ابن عاشور: «اعتراض بين جملة ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ﴾^(٢)، وبين جملة ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾^(٣)، وجه به الخطاب إلى المؤمنين بالأمر بطاعة الله ورسوله ﷺ، وتجنب ما يبطل الأعمال الصالحة اعتباراً بما حكى من حال المشركين في الصد عن سبيل الله ومشاقة الرسول ﷺ.

فوصف الإيمان في قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ مقابل وصف الكفر في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وطاعة الله مقابل الصد عن سبيل الله، وطاعة الرسول ضد مشاقة الرسول ﷺ والنهي عن إبطال الأعمال ضد بطلان أعمال الذين كفروا.

فطاعة الرسول ﷺ التي أمروا بها هي امتثال ما أمر به ونهى عنه من أحكام الدين. وأما ما ليس داخلاً تحت التشريع، فطاعة أمر الرسول ﷺ فيه طاعة انتصاح وأدب، ألا ترى أن بريرة لم تطع رسول الله ﷺ في مراجعة زوجها مُغيث^(٤) لما علمت أن أمره إياها ليس بعزم.

(١) جامع البيان (٢٦/٦٢).

(٢) محمد: الآية (٣٢).

(٣) محمد: الآية (٣٤).

(٤) أخرجه: أحمد (١/٢١٥)، والبخاري (٩/٥١٠-٥١١/٥٢٨٣)، وأبو داود (٢/٦٧٠-٦٧١/٢٢٣١)،

والترمذي (٣/٤٦٢/١١٥٦)، والنسائي (٨/٦٣٦-٦٣٧/٥٤٣٢)، وابن ماجه (١/٦٧١/٢٠٧٥).

والإبطال: جعل الشيء باطلاً؛ أي: لا فائدة منه، فالإبطال تتصف به الأشياء الموجودة.

ومعنى النهي عن إبطالهم الأعمال: النهي عن أسباب إبطالها، فهذا مهيع قوله: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾. وتسمح محامله بأن يشمل النهي والتحذير عن كل ما بين الدين أنه مبطل للعمل كلاً أو بعضاً، مثل الردة ومثل الرياء في العمل الصالح، فإنه يبطل ثوابه. وهو عن ابن عباس قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾^(١).

وكان بعض السلف يخشى أن يكون ارتكاب الفواحش مبطلاً لثواب الأعمال الصالحة، ويحمل هذه الآية على ذلك، وقد قالت عائشة لما بلغها أن زيد بن أرقم عقد عقداً تراه عائشة حراماً: «أخبروا زيداً أنه أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ إن لم يترك فعله هذا»^(٢)، ولعلها أرادت بذلك التحذير، وإلا فما وجه تخصيص الإحباط بجهاده؟ وإنما علمت أنه كان أنفـس عمل عنده.

وعن الحسن البصري والزهري: «لا تبطلوا أعمالكم بالمعاصي الكبائر». ذكر ابن عبد البر في «الاستيعاب»: أن زيد بن أرقم قال: «غزا رسول الله ﷺ تسع عشرة غزوة، وغزوت منها معه سبع عشرة غزوة»^(٣). وهذه كلها من مختلف الأفهام في المعنى بإبطال الأعمال وما يبطلها، وأحسن أقوال السلف في ذلك ما روي عن ابن عمر قال: «كنا نرى أنه ليس شيء من حسناتنا إلا مقبولاً، حتى نزل: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾، فقلنا: ما هذا الذي يبطل أعمالنا؟ فقلنا: الكبائر الموجبات والفواحش، حتى نزل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾»^(٤)، فكففنا عن القول في ذلك، وكنا نخاف على من أصاب الكبائر، ونرجو لمن لم

(١) البقرة: الآية (٢٦٤).

(٢) أخرجه: الدارقطني (٥٢/٣)، والبيهقي في الكبرى (٣٣٠/٥)، وعبد الرزاق (٨/١٨٤-١٨٥/١٤٨١٢-١٤٨١٣)، ونسبه الزيلعي في نصب الراية (١٦/٤) لمسند الإمام أحمد، وقال ابن عبد الهادي في التنقيح (٥٥٨/٢): «هذا إسناد جيد»، وكذا شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٢٥٩/٢٠-٢٦٠)، وابن القيم في إعلام الموقعين (٢١٦/٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٣٦٨/٤)، والبخاري (٣٥٤/٧)، ومسلم (١٢٥٤/٩١٦/٢)، والترمذي (١٦٧/٤).

(٤) النساء: الآية (٤٨).

يصبها»^(١) اهـ. فأبان أن ذلك محامل محتملة لا جزم فيها.

وعن مقاتل: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ بالمن، وقال: هذا خطاب لقوم من بني أسد أسلموا وقالوا لرسول الله ﷺ: قد آثرناك وجئناك بنفوسنا وأهلنا، يمتنون عليه بذلك، فنزلت فيهم هذه الآية، ونزل فيهم أيضًا قوله تعالى: ﴿يَمْتُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ اسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُونَا عَلَىٰ إِسْلَامِكُمْ﴾^(٢).

وهذه محامل ناشئة عن الرأي والتوقع، والذي جاء به القرآن وبينته السنة الصحيحة أن الحسنات يذهبن السيئات، ولم يجرى أن السيئات يذهبن الحسنات، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٣) (٤).

قال القنوجي: «ليس في هذه الآية دليل كما ظنه الزمخشري على إحباط الطاعات بالكبائر على ما زعمت المعتزلة والخوارج، فجمهورهم على أن كبيرة واحدة تحبط جميع الطاعات، حتى إن من عبد الله طول عمره، ثم شرب جرعة خمر فهو كمن لم يعبد قط»^(٥).

قال السعدي: «وإذا كان الله قد نهى عن إبطال الأعمال، فهو أمر بإصلاحها، وإكمالها وإتمامها، والإتيان بها، على الوجه الذي تصلح به علمًا وعملاً»^(٦).

قال ابن المنير: «قاعدة أهل السنة مؤسسة على أن الكبائر ما دون الشرك لا تحبط حسنة مكتوبة؛ لأن الله لا يظلم مثقال ذرة، وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرًا عظيمًا، نعم يقولون: إن الحسنات يذهبن السيئات، كما وعد به الكريم - جل وعلا - وقاعدة المعتزلة موضوعة على أن كبيرة واحدة تحبط ما تقدمها من الحسنات ولو كانت مثل زبد البحر؛ لأنهم يقطعون بخلود الفاسق في النار وسلب سمة الإيمان منه، ومتى خلد في النار لم تنفع طاعاته ولا إيمانه، فعلى

(١) أخرجه بنحوه أبو يعلى (١٠/١٨٥-١٨٦/٥٨١٣)، وذكره الهيثمي في المجمع (٥/٧) وقال: «رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح غير حرب بن سريج وهو ثقة».

(٢) الحجرات: الآية (١٧). (٣) النساء: الآية (٤٠).

(٤) التحرير والتنوير (٢٦/١٢٦-١٢٨). (٥) فتح البيان (١٣/٧٨).

(٦) تيسير الكريم الرحمن (٧/٨٥).

هذا بنى الزمخشري كلامه ، وجلب الآثار التي في بعضها موافقة في الظاهر لمعتقده ، ولا كلام عليها جملة من غير تفصيل ؛ لأن القاعدة المتقدمة ثابتة قطعاً بأدلة اقتضت ذلك يحاشي كل معتبر في الحل والعقد عن مخالفتها ، فمهما ورد من ظاهر يخالفها وجب رده إليها بوجه من التأويل ، فإن كان نصاً لا يقبل التأويل ؛ فالطريق في ذلك تحسين الظن بالمنقول عنه ، والتوريك بالغلط على النقلة ، على أن الأثر المذكور عن ابن عمر هو أولى بأن يدل ظاهره لأهل السنة فتأمله . وأما محمل الآية عند أهل الحق ؛ فعلى أن النهي عن الإخلال بشرط من شروط العمل ، وبركن يقتضي بطلانه من أصله ، لا أنه يبطل بعد استجماعه شرائط الصحة والقبول^(١) .

قال القرطبي : «احتج علماؤنا وغيرهم بهذه الآية على أن التحلل من التطوع - صلاة كان أو صوماً - بعد التلبس به لا يجوز ؛ لأن فيه إبطال العمل وقد نهى الله عنه»^(٢) .

قال ابن عاشور : «وإطلاق الإبطال على القطع وعدم الإتمام يشبه أنه مجاز ؛ أي : لا تتركوا العمل الصالح بعد الشروع فيه ، فأخذوا منه أن النفل يجب بالشروع لأنه من الأعمال ، وهو قول أبي حنيفة في النوافل مطلقاً . ونسب ابن العربي في الأحكام مثله إلى مالك . ومثله القرطبي وابن الفرس . ونقل الشيخ الجدي في «حاشيته على المحلى» عن القرافي في «شرح المحصول» ، ونقل حلولو في «شرح جمع الجوامع» عن القرافي في «الذخيرة» : أن مالكا قال بوجوب سبع نوافل بالشروع ، وهي : الصلاة والصيام والحج والعمرة والاعتكاف والائتمام وطواف التطوع دون غيرها نحو الوضوء والصدقة والوقف والسفر للجهاد ، وزاد حلولو إلحاق الضحية بالنوافل التي تجب بالشروع ، ولم أقف على مأخذ القرافي ذلك ، ولا على مأخذ حلولو في الأخير»^(٣) .

قال النووي : «قال الشافعي والأصحاب رحمهم الله تعالى : إذا دخل في صوم تطوع أو صلاة تطوع استحباب له إتمامهما ؛ لقوله تعالى : ﴿وَلَا يُبْطَلُوا أَعْمَلُكُمْ﴾ ،

(١) الانتصاف (حاشية الكشف ٣/ ٥٣٨) .

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٢٥٥) .

(٣) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٢٨-١٢٩) .

وللخروج من خلاف العلماء؛ فإن خرج منهما بعذر أو بغير عذر؛ لم يحرم عليه ذلك ولا قضاء عليه، لكن يكره الخروج منهما بلا عذر لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾، هذا هو المذهب. وفيه وجه حكاه الرافعي: أنه لا يكره الخروج بلا عذر، ولكنه خلاف الأولى.

وأما الخروج منه بعذر فلا كراهة فيه بلا خلاف، ويستحب قضاؤه؛ سواء خرج بعذر أم بغيره لما سنذكره من الأحاديث.

وبهذا قال عمر وعلي وابن مسعود وابن عمر وابن عباس وجابر بن عبد الله وسفيان الثوري وأحمد وإسحق. وقال أبو حنيفة: يلزمه الإتمام، فإن خرج منهما لعذر لزمه القضاء ولا إثم، وإن خرج بغير عذر لزمه القضاء وعليه الإثم.

وقال مالك وأبو ثور: يلزمه الإتمام، فإن خرج بلا عذر لزمه القضاء، وإن خرج بعذر فلا قضاء. واختلف أصحاب أبي حنيفة فيمن دخل في صوم أو صلاة يظنهما عليه، ثم بان في أثناهما أنهما ليسا عليه، هل يجوز الخروج منهما أم لا، واحتج لمن أوجب إتمام صوم التطوع وصلاته بمجرد الشروع فيهما بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾، وبحديث طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال للأعرابي الذي سأله عن الإسلام: «خمس صلوات في اليوم والليلة، قال: هل عليّ غيرهن؟ قال: لا، إلا أن تطوع»^(١) إلى آخر الحديث.

قالوا: وهذا الاستثناء متصل، فمقتضاه وجوب التطوع بمجرد الشروع فيه، قالوا: ولا يصح حملكم على أنه استثناء منقطع، بمعنى أنه يقدر، لكن لك أن تطوع؛ لأن الأصل في الاستثناء الاتصال، فلا تقبل دعوى الانقطاع فيه بغير دليل. واحتجوا أيضًا بالقياس على حج التطوع وعمرته، فإنهما يلزمان بالشروع بالإجماع. واحتج أصحابنا بحديث عائشة قالت: «دخل عليّ النبي ﷺ ذات يوم فقال: هل عندكم شيء؟ قلنا: لا، قال: فإني إذن صائم، ثم أتانا يومًا آخر، فقلنا: يا رسول الله! أهدي لنا حيس، فقال: أرنيه، فلقد أصبحت صائمًا، فأكل» رواه

(١) أخرجه: أحمد (١٦٢/١)، والبخاري (٤٦/١٤٢)، ومسلم (٤٠/١-٤١/١١)، وأبو داود (١٧٢/١-١٧٣/١)، والنسائي (٢٤٦/١-٢٤٧/٢٥٧).

مسلم^(١) بهذا اللفظ، وفي رواية لمسلم: «فأكل، ثم قال: قد كنت أصبحت صائماً»، وفي رواية أبي داود - وإسناده على شرط البخاري ومسلم - قالت عائشة: «فقلنا يا رسول الله! قد أهدي لنا حيس، فحبسناه لك، فقال: أدنيه، فأصبح صائماً وأفطر»^(٢) هذا لفظه، وعن عائشة أيضاً قالت: «دخل علي رسول الله ﷺ ذات يوم، فقال: أعندك شيء؟ فقلت: لا، قال: إني إذن أصوم. قالت: ودخل عليّ يوماً آخر، فقال: أعندك شيء؟ قلت: نعم، قال: إذن أفطر، وإن كنت قد فرضت الصوم»^(٣)، رواه الدارقطني والبيهقي بهذا اللفظ، وقال: إسناده صحيح.

وعن أبي جحيفة قال: «أخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء متبذلة، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له في الدنيا حاجة. فجاء أبو الدرداء، فصنع له طعاماً، فقال: كل، فإني صائم. قال: ما أنا بآكل حتى تأكل، فأكل. فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، قال: نم فنام، ثم ذهب يقوم، فقال: نم فنام، قال: نم فنام. فلما كان من آخر الليل قال سلمان: قم الآن، فصليا. فقال له سلمان: إن لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه. فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له. فقال النبي ﷺ: صدق سلمان» رواه البخاري^(٤). وعن أم هانئ قالت: قال رسول الله ﷺ: «الصائم المتطوع أمير نفسه: إن شاء صام، وإن شاء أفطر»، وفي روايات: «أمين أو أمير نفسه» رواه أبو داود^(٥) والترمذي^(٦) والنسائي^(٧) والدارقطني^(٨) والبيهقي^(٩) وغيرهم^(١٠)، وألفاظ رواياتهم متقاربة

(١) مسلم (٢/٨٠٨-٨٠٩/١١٥٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/٢٠٧)، وأبو داود (٢/٨٢٤-٨٢٥/٢٤٥٥)، والترمذي (٣/١١١-٧٣٣/٧٣٤)، والنسائي (٤/٥٠٧-٥٠٨/٢٣٢٤)، وفي الكبرى (٢/١١٥/٢٦٣٦)، وابن ماجه (١/٥٤٣/١٧٠١)، وصححه ابن خزيمة (٣/٣٠٨/٢١٤٣)، وابن حبان (٨/٣٩١-٣٩٢/٣٦٢٨).

(٣) أخرجه: النسائي في الكبرى (٢/١١٦/٢٦٣٩)، والدارقطني (٢/١٧٥)، والطيالسي رقم (١٥٥١)، والبيهقي (٤/٢٧٥).

(٤) البخاري (٤/٢٦٢-٢٦٣/١٩٦٨)، والترمذي (٤/٥٢٦/٢٤١٣).

(٥) في سننه (٢/٨٢٥-٨٢٦/٢٤٥٦). (٦) في سننه (٣/١٠٩-١١٠/٧٣٢).

(٧) في سننه الكبرى (٢/٢٤٩-٢٥٠/٣٣٠٢). (٨) في سننه (٢/١٧٤).

(٩) في السنن (٤/٢٧٦-٢٧٧)، وفي معرفة السنن والآثار (٧/٣٣٨-٣٣٩).

(١٠) أخرجه أيضاً: أحمد (٦/٣٤١)، وصححه الحاكم (١/٤٣٩)، ووافقه الذهبي.

المعنى وإسناده جيد، ولم يضعفه أبو داود، وقال الترمذي: في إسناده مقال. .
وأما الجواب عن احتجاجهم بحديث طلحة فهو أن معناه: لكن لك أن تطوع،
ويكون الاستثناء منقطعاً، وهو إن كان خلاف الأصل؛ لكن يتعين تأويله ليجمع بينه
وبين الأحاديث التي ذكرناها. وأما القياس على الحج والعمرة، فالفرق أن الحج
لا يخرج منه بالإفساد لتأكد الدخول فيه بخلاف الصوم. .

واحتج أصحابنا لعدم وجوب القضاء بما احتج به البيهقي عن أبي سعيد
الخدري قال: «صنعت لرسول الله ﷺ طعاماً، فأتى هو وأصحابه، فلما وضع
الطعام قال رجل من القوم: إني صائم، فقال رسول الله ﷺ: دعاكم أخوكم
وتكلف لكم، ثم قال له: أفطر، وصم يوماً مكانه إن شئت»^(١)، قالوا: ولأن الأصل
عدم القضاء، ولم يصح في وجوبه شيء»^(٢).

* * *

(١) أخرجه: البيهقي في الكبرى (٢٧٩/٤)، والطبراني في الأوسط (١٥٢/٤/٣٢٦٤)، وذكره الهيثمي في
المجمع (٥٣/٤) وقال: «رواه الطبراني في الأوسط، وفيه حماد بن أبي حميد وهو ضعيف، وبقية رجاله
ثقات». قال الحافظ في الفتح (٢٦٣/٤) عن إسناده البيهقي: «إسناده حسن». وأقره الألباني في الإرواء (٧/
١٢-١٤).

(٢) المجموع (٦/٣٦٣-٣٦٨).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ ﴿٢٤﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - : إن الذين أنكروا توحيد الله، وصدوا من أراد الإيمان بالله وبرسوله عن ذلك، ففتنوههم عنه، وحالوا بينهم وبين ما أرادوا من ذلك، ﴿ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ يقول: ثم ماتوا وهم على ذلك من كفرهم، ﴿فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ يقول: فلن يعفو الله عما صنع من ذلك، ولكنه يعاقبه عليه، ويفضحه به على رؤوس الأشهاد»^(١).

قال السعدي: «هذه الآية والتي في (البقرة) قوله: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ - فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾»^(٢) مقيدتان، لكل نص مطلق، فيه إحباط العمل بالكفر، فإنه مقيد بالموت عليه»^(٣).

قال الشوكاني: قيد سبحانه عدم المغفرة بالموت على الكفر؛ لأن باب التوبة وطريق المغفرة لا يغلقان على من كان حيًا، وظاهر الآية العموم، وإن كان السبب خاصًا»^(٤).

قال الشنقيطي: «ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن من مات على الكفر لن يغفر الله له؛ لأن النار وجبت له بموته على الكفر، جاء موضحًا في آيات آخر من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٩١﴾»^(٥)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾»^(٦)، وقوله تعالى: ﴿وَلَا

(٢) البقرة: الآية (٢١٧).

(٤) فتح القدير (٥/٥٨-٥٩).

(٦) البقرة: الآيتان (١٦١ و١٦٢).

(١) جامع البيان (٢٦/٦٢-٦٣).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/٨٦).

(٥) آل عمران: الآية (٩١).

الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ^(٢)﴾^(٣).

قال السعدي: «ومفهوم الآية الكريمة: أنهم إن تابوا من ذلك قبل موتهم، فإن الله يغفر لهم ويرحمهم، ويدخلهم الجنة، ولو كانوا مفنين أعمارهم في الكفر به، والصد عن سبيله، والإقدام على معاصيه، فسبحان من فتح لعباده أبواب الرحمة، ولم يغلقها عن أحد، ما دام حيًا متمكنًا من التوبة.

وسبحان الحليم، الذي لا يعاجل العاصين بالعقوبة، بل يعافيههم، ويرزقهم، كأنهم ما عصوه مع قدرته عليهم^(٤).

* * *

(١) النساء: الآية (١٨).

(٢) البقرة: الآية (٢١٧).

(٣) أضواء البيان (٧/ ٥٩٥-٥٩٦).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٨٦).

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَغْمَلَكُمْ ﴾ (٣٥)

★ غريب الآية :

يَتَرَكَكُمْ : ينقصكم ؛ يقال : وَتَرَهُ حَقَّهُ ؛ أي : نَقَصَهُ .

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي : «أي : لا تضعفوا عن قتال عدوكم ، ويستولي عليكم الخوف ، بل اصبروا واثبتوا ، ووطنوا أنفسكم على القتال والجلاد ، طلباً لمرضاة ربكم ، ونصيحاً للإسلام ، وإغضاباً للشيطان .

ولا تدعوا إلى المسالمة والمشاركة بينكم وبين أعدائكم ، طلباً للراحة ، ﴿ وَ ﴾ الحال أنكم ﴿ أَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ ﴾ أي : ينقصكم ﴿ أَغْمَلَكُمْ ﴾ .

فهذه الأمور الثلاثة ، كل منها مقتض للصر وعدم الوهن كونهم الأعلى ؛ أي : قد توفرت لهم أسباب النصر ، ووعدوا من الله بالوعد الصادق ؛ فإن الإنسان لا يهن إلا إذا كان أذل من غيره وأضعف عدداً ، وعدداً ، وقوة داخلية وخارجية .

الثاني : أن الله معهم ، فإنهم مؤمنون ، والله مع المؤمنين ، بالعون ، والنصر ، والتأييد ، وذلك موجب لقوة قلوبهم ، وإقدامهم على عدوهم .

الثالث : أن الله لا ينقصهم من أعمالهم شيئاً ، بل سيوفهم أجورهم ، ويزيدهم من فضله ، خصوصاً عبادة الجهاد ، فإن النفقة تضاعف فيه ، إلى سبع مائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة ، وقال تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١٢٠) وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ ﴿١﴾.

فإذا عرف الإنسان أن الله تعالى لا يضيع عمله وجهاده، أوجب له ذلك النشاط، وبذل الجهد فيما يترتب عليه الأجر والثواب، فكيف إذا اجتمعت هذه الأمور الثلاثة؛ فإن ذلك يوجب النشاط التام، فهذا من ترغيب الله لعباده، وتنشيطهم، وتقوية أنفسهم على ما فيه صلاحهم وفلاحهم^(٢).

قال ابن عاشور: «وهذا النهي عن الوهن وعن الدعاء إلى السلم تحذير من أمر توفرت أسباب حصوله متهيئة للإقدام على الحرب عند الأمر بها، وليس نهياً عن وهن حصل لهم، ولا عن دعائهم إلى السلم؛ لأن هذه السورة نزلت بعد غزوة بدر وقبل غزوة أُحُد في مدة لم يكن فيها قتال بين المسلمين والمشركين؛ ولكن التحذير من أن يستوهمهم المنافقون عند توجه أمر القتال فيقولوا: لو سالمنا القوم مدة حتى نستعيد عُدتنا ونسترجع قوتنا بعد يوم بدر، وقد كان أبو سفيان ومن معه من المشركين لما رجعوا إلى مكة مفلولين بعد وقعة بدر، يتربصون بالمسلمين فرصة يقاتلونهم فيها لما ضايقهم من تعرض المسلمين لهم في طريق تجارتهم إلى الشام مثل ما وقع في غزوة السويق، وغزوة ذي قرد. فلما كان في المدينة منافقون وكان عند أهل مكة رجال من أهل يثرب خرجوا منها مع أبي عامر الضبغي الملقب في الجاهلية بالراهب والذي غير النبي ﷺ لقبه فلقبه الفاسق^(٣)؛ كان من المتوقع أن يكيد للمسلمين أعداؤهم من أهل يثرب، فيظاهروا عليهم المشركين متسترين بعة طلب السلم، فحذرهم الله من أن يقعوا في هذه الحباله.

والوهن: الضعف والعجز، وهو هنا مجاز في طلب الدعة. ومعناه: النهي عن إسلام أنفسهم لخواطر الضعف، والعمل بهذا النهي يكون باستحضار مساوي تلك الخواطر؛ فإن الخواطر الشريرة إذا لم تقاومها همة الإنسان دبّت في نفسه رويداً رويداً حتى تتمكن منها فتصبح ملكة وسجيّة. فالمعنى: ادفخوا عن أنفسكم خواطر

(١) التوبة: الآيتان (١٢٠ و ١٢١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٨٦-٨٨).

(٣) أخرجه: ابن إسحق في السيرة (٣/ ٦٧)، والطبري في التاريخ (٢/ ٦٤)، وابن كثير في البداية (٤/ ١٧).

الوهن واجتنبوا مظاهره، وأوّلها الدعاء إلى السلم، وهو المقصود بالنهاي. والنهاي عن الوهن يقتضي أنهم لم يكونوا يومئذ في حال وهن.

وَعُظِف ﴿وَتَدْعُوا﴾ على ﴿تَهْنُوا﴾ فهو معمول لحرف النهي، والمعنى: ولا تدعوا إلى السلم، وهو عطف خاص على عام من وجه؛ لأن الدعاء إلى السلم مع المقدرة من طلب الدعة لغير مصلحة. وإنما خص بالذكر لثلا يظن أن فيه مصلحة استبقاء النفوس والعُدّة بالاستراحة من عُدوان العدو على المسلمين؛ فإن المشركين يومئذ كانوا متكالبين على المسلمين، فربما ظن المسلمون أنهم إن تداعوا معهم للسلم أمِنوا منهم، وجعلوا ذلك فرصة لينشروا الدعوة فعرّفهم الله أن ذلك يعود عليهم بالمضرة؛ لأنه يحط من شوكتهم في نظر المشركين، فيحسبونهم طلبوا السلم عن ضعف، فيزيدهم ذلك ضراوة عليهم، وتستخف بهم قبائل العرب بعد أن أخذوا من قلوبهم مكان الحرمة وتوقع البأس.

ولهذا المقصد الدقيق جمع بين النهي عن الوهن والدعاء إلى السلم وأُتبع بقوله: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾.

فتحصل مما تقرر أن الدعاء إلى السلم المنهي عنه هو طلب المسالمة من العدو في حال قدرة المسلمين وخوف العدو منهم، فهو سلم مقيد بكون المسلمين داعين له وبكونه عن وهن في حال قوة. قال قتادة: أي: لا تكونوا أول الطائفتين ضُرعَت إلى صاحبتهما. فهذا لا ينافي السلم المأذون فيه بقوله: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾^(١)؛ فإنه سلم طلبه العدو، فليست هذه الآية ناسخة لآية (الأنفال) ولا العكس، ولكل حالة خاصة، ومقيّد بكون المسلمين في حالة قوة ومنعة وعِدّة وعُدّة بحيث يدعون إلى السلم رغبة في الدعة^(٢).

قال الشوكاني: «اختلف أهل العلم في هذه الآية: هل هي محكمة أو منسوخة؟ فقليل: إنها محكمة، وإنها ناسخة لقوله: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ وقيل: منسوخة بهذه الآية. ولا يخفأك أنه لا مقتضي للقول بالنسخ؛ فإن الله سبحانه نهى المسلمين

(١) الأنفال: الآية (٦١).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/١٣١).

في هذه الآية عن أن يدعوا إلى السلم ابتداءً، ولم ينه عن قبول السلم إذا جنح إليه المشركون، فالآيتان محكمتان ولم يتواردا على محل واحد حتى يحتاج إلى دعوى النسخ أو التخصيص^(١).

قال الشنقيطي: «ومما يوضح معنى آية القتال هذه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾^(٢) الآية؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ من النصر الذي وعدكم الله به والغلبة، وجزيل الثواب.

وذلك كقوله هنا: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ وقوله: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ أي: بالنصر والإعانة والثواب..

وهذا الذي ذكرنا في معنى هذه الآية أولى وأصوب مما فسر لها به ابن كثير رحمه الله.

وهو أن المعنى: لا تدعوا إلى الصلح والمهادنة وأنتم الأعلى؛ أي: في حال قوتكم وقدرتكم على الجهاد.

أي: وأما إن كنتم في ضعف وعدم قوة فلا مانع من أن تدعوا إلى السلم؛ أي: الصلح والمهادنة، ومنه قول العباس بن مرداس السلمي:

السلم تأخذ منها ما رضيت به والحرب تكفيك من أنفاسها جرع^(٣).

قال السمرقندي: «وفي هذه الآية دليل على أن أيدي المسلمين إذا كانت عالية على المشركين لا ينبغي لهم أن يجيبوهم إلى الصلح؛ لأن فيه ترك الجهاد، وإن لم تكن يدهم عالية عليهم فلا بأس بالصلح لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾^(٤) يعني: إن مالوا للصلح فمل إليه^(٥).

قال الجصاص - في قوله: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ - : «فيه الدلالة على امتناع جواز طلب الصلح من المشركين.

(٢) النساء: الآية (١٠٤).

(٤) الأنفال: الآية (٦١).

(١) فتح القدير (٥/٥٩).

(٣) أضواء البيان (٧/٥٩٧-٥٩٨).

(٥) بحر العلوم (٣/٢٤٧).

وهو بيان لما أكد فرضه من قتال مشركي العرب حتى يسلموا، وقاتل أهل الكتاب ومشركي العجم حتى يسلموا أو يعطوا الجزية، والصلح على غير إعطاء الجزية خارج عن مقتضى الآيات الموجبة لما وصفنا، فأكد النهي عن الصلح بالنص عليه في هذه الآية، وفيه الدلالة على أن النبي ﷺ لم يدخل مكة صلحاً، وإنما فتحها عنوة؛ لأن الله قد نهاه عن الصلح في هذه الآية، وأخبر أن المسلمين هم الأعلون الغالبون، ومتى دخلها صلحاً برضاهم فهم متساوون؛ إذ كان حكم ما يقع بتراضي الفريقين فهما متساويان فيه، ليس أحدهما بأولى بأن يكون غالباً على صاحبه من الآخر^(١).

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ فيه بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء»^(٢).

قال ابن عاشور: «وقوله: ﴿وَلَنْ يَرْكُزَ أَعْمَلَكُمْ﴾ وعد بتسديد الأعمال ونجاحها عكس قوله في أول السورة: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ﴾^(٣)، فكفى عن توفيق الأعمال ونجاحها بعدم وترها؛ أي: نقصها؛ للعلم بأنه إذا كان لا ينقصها فبالحري أن لا يبطلها؛ أي: أن لا يخيبها، وهو ما تقدم من قوله: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَلُهُمْ﴾^(٤) سَيِّدِيهِمْ وَيُصْلِحْ بَالَهُمْ^(٥).

ويجوز أيضاً أن يراد منه صريحه؛ أي: ينقصكم ثوابكم على أعمالكم؛ أي: الجهاد المستفاد من قوله: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ﴾ فيفيد التحريض على الجهاد بالوعد بأجره كاملاً^(٥).

قال الشنقيطي: «وهذا المعنى الذي تضمنته هذه الآية الكريمة من عدم نقصه تعالى شيئاً من ثواب الأعمال جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَأِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً﴾^(٦).

(١) أحكام القرآن (٣/٣٩٣).

(٣) محمد: الآية (١).

(٤) محمد: الآيتان (٥٤ و٥٥).

(٥) التحرير والتنوير (٢٦/١٣٢).

(٦) الحجرات: الآية (١٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/٣٢٣).

وقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (٤٧)^(١).
والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة، وقد قدمناها مراراً^(٢).

* * *

(١) الأنبياء: الآية (٤٧).

(٢) أضواء البيان (٧/٥٩٨).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهُوَ وَلَئِنْ تَوَمَّنُوا وَتَنَقَّوْا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْتَلْكُمْ أَمْوَالُكُمْ﴾ ﴿٣٦﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى تحقيراً لأمر الدنيا وتهويناً لشأنها: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهُوَ﴾ أي: حاصلها ذلك إلا ما كان منها لله ﷻ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَمَّنُوا وَتَنَقَّوْا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْتَلْكُمْ أَمْوَالُكُمْ﴾ أي: هو غني عنكم لا يطلب منكم شيئاً، وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموال مواساةً لإخوانكم الفقراء؛ ليعود نفع ذلك عليكم، ويرجع ثوابه إليكم»^(١).

وقال القاسمي: «والظاهر أن المراد بيان غناه عن عباده، وأن طلب إنفاق الأموال منهم لعود نفعه إليهم لا إليه؛ لاستغنائه المطلق؛ فإن الصدقات دفع أحقاد صدور الفقراء عنهم، وفي بذله للجهاد دفع غائلة الشرور والفساد، وكله مما يعود ثمرته عليهم»^(٢).

قال السعدي: «هذا تزهيد منه لعباده في الحياة الدنيا بإخبارهم عن حقيقة أمرها، بأنها لعب ولهو، لعب في الأبدان ولهو في القلوب، فلا يزال العبد لاهياً في ماله، وأولاده، وزينته، ولذاته من النساء، والمآكل والمشارب، والمساكن والمجالس، والمناظر والرياسات، لاعباً في كل عمل لا فائدة فيه، بل هو دائر بين البطالة والغفلة والمعاصي، حتى تستكمل دنياه، ويحضره أجله، فإذا هذه الأمور قد ولت وفارقت، ولم يحصل العبد منها على طائل، بل قد تبين له خسارانه وحرمانه، وحضر عذابه، فهذا موجب للعاقل الزهد فيها، وعدم الرغبة فيها، والاهتمام بشأنها، وإنما الذي ينبغي أن يهتم به ما ذكره بقوله: ﴿وَإِنْ تَوَمَّنُوا وَتَنَقَّوْا﴾ بأن تؤمنوا بالله، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتقوموا بتقواه التي

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٠٦).

(٢) محاسن التأويل (١٥/ ٦٠).

هي من لوازم الإيمان ومقتضياته، وهي العمل بمرضاته على الدوام، مع ترك معاصيه، فهذا الذي ينفع العبد، وهو الذي ينبغي أن يتنافس فيه، وتبذل الهمم والأعمال في طلبه، وهو مقصود الله من عباده رحمة بهم ولطفًا، ليشبههم الثواب الجزيل»^(١).

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَمَّنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ﴾: هذه الأجور التي وعد الله بها من آمن واتقى جاءت مبينة في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢) إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَلْكُمْ أَمْوَالُكُمْ﴾: في هذه الآية الكريمة أوجه معلومة عند أهل التفسير، منها أن المعنى: ولا يسألکم النبي ﷺ أموالکم أجرًا على ما بلغکم من الوحي المتضمن لخیر الدنيا والآخرة.

وهذا الوجه تشهد له آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾^(٤)، وقوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرِمٍ مُثْقَلُونَ﴾^(٥).

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة (هود) في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُوا لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾^(٦)، وذكرنا بعض ذلك في سورة (الشورى) في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾^(٧)،^(٨).

قال ابن عاشور: «وهذه الآية في الإنفاق نظيرها قوله تعالى لجماعة من المسلمين في شأن الخروج إلى الجهاد: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْخُذْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾^(٩).

(٢) الحديد: الآية (٢٨).

(٤) ص: الآية (٨٦).

(٦) هود: الآية (٢٩).

(٨) أضواء البيان (٧/٥٩٩).

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/٨٨-٨٩).

(٣) سبأ: الآية (٤٧).

(٥) الطور: الآية (٤٠).

(٧) الشورى: الآية (٢٣).

(٩) التوبة: الآية (٣٨).

ف قوله : ﴿وَلَا يَسْتَلْكُمُ أَمْوَالُكُمْ﴾ يفيد بعمومه وسياقه معنى لا يسألكم جميع أموالكم ؛ أي : إنما يسألكم ما لا يجحف بكم ، فإضافة أموال وهو جمع إلى ضمير المخاطبين تفيد العموم ، فالمنفي سؤال إنفاق جميع الأموال ، فالكلام من نفي العموم لا من عموم النفي بقرينة السياق ، وما يأتي بعده من قوله : ﴿هَآأَنُتُمْ هَآؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(١) الآية .

ويجوز أن يفيد أيضا معنى : أنه لا يطالبكم بإعطاء مال لذاته فإنه غني عنكم ، وإنما يأمركم بإنفاق المال لصالحكم كما قال : ﴿وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ . وهذا توطئة لقوله بعده : ﴿هَآأَنُتُمْ هَآؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إلى قوله : ﴿فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي : ما يكون طلب بذل المال إلا لمصلحة الأمة ، وأية مصلحة أعظم من دمعها العدو عن نفسها لئلا يفسد فيها ويستعبدها ؟

وأما تفسير سؤال الأموال المنفي بطلب زكاة الأموال فصرف للآية عن مهيعة ؛ فإن الزكاة مفروضة قبل نزول هذه السورة ؛ لأن الزكاة فرضت سنة اثنتين من الهجرة على الأصح^(٢) .

* * *

(١) محمد : الآية (٣٨) .

(٢) التحرير والتنوير (٢٦ / ١٣٤ - ١٣٥) .

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخُلُوا وَيُخْرِجَ أَضْفَانَكُمْ﴾ ﴿٣٧﴾

* غريب الآية:

يُحْفِكُمْ: يُلِحُّ عليكم؛ يقال: أَخْفَى بالمسألة، وَالْحَفَّ وَالْحَجَّ، بمعنى واحد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول جل ثناؤه: إن يسألكم ربكم أموالكم ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾ يقول: فيجهدكم بالمسألة، ويلح عليكم بطلبها منكم فيلحف، ﴿تَبْخُلُوا﴾: يقول: تبخلوا بها وتمنعوها إياه، ضئاً منكم بها، ولكنه علم ذلك منكم، ومن ضيق أنفسكم فلم يسألكموها.

وقوله: ﴿وَيُخْرِجَ أَضْفَانَكُمْ﴾ يقول: ويخرج جل ثناؤه لو سألكم أموالكم بمسألته ذلك منكم أضغانكم قال: قد علم الله أن في مسألته المال خروج الأضغان»^(١).

قال ابن عاشور: «وهذه الآية أصل في سد ذريعة الفساد»^(٢).

وقال الرازي: «الفاء في قوله: ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾ للإشارة إلى أن الإحفاء يتبع السؤال بياناً لشح النفس، وذلك لأن العطف بالواو قد يكون للمثلين، وبالفاء لا يكون إلا للمتعاقبين، أو متعلقين أحدهما بالآخر، فكأنه تعالى بين أن الإحفاء يقع عقيب السؤال؛ لأن الإنسان بمجرد السؤال لا يعطي شيئاً، وقوله: ﴿تَبْخُلُوا وَيُخْرِجَ أَضْفَانَكُمْ﴾ يعني: ما طلبها، ولو طلبها وألح عليكم في الطلب لبخلتم، كيف وأنتم تبخلون باليسير لا تبخلون بالكثير، وقوله: ﴿وَيُخْرِجَ أَضْفَانَكُمْ﴾ يعني: بسببه، فإن الطالب وهو النبي ﷺ وأصحابه يطلبونكم، وأنتم لمحبة المال وشح الأنفس تمتنعون، فيفضي إلى القتال، وتظهر به الضغائن»^(٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٣٥/٢٦).

(١) جامع البيان (٦٥/٢٦).

(٣) تفسير الرازي (٧٥/٢٨).

وقال عبدالكريم الخطيب: «وفي الآية الكريمة إشارة إلى أن هذا المال هو مال الله سبحانه وتعالى، وأن لله سبحانه وتعالى أن يسأل هذا المال كله، وأن يأخذه جميعه، دون أن يكون في هذا ظلم لأحد؛ لأنه سبحانه لم يأخذ شيئاً ليس له، ومع هذا فإنه سبحانه يهب فضله وإحسانه لعباده، ثم يتقبل منهم بعض ما وهب؛ ليكون رصيذاً لهم من الفضل والإحسان، يطهرون به نفوسهم، ويغسلون به أدرانهم»^(١).

* * *

(١) التفسير القرآني للقرآن (١٣/٣٨٨).

قوله تعالى: ﴿هَآأَنُتُمْ هَآؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَّنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول - تعالى ذكره - للمؤمنين: ﴿هَآأَنُتُمْ﴾ أيها الناس ﴿هَآؤُلَآءِ﴾ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ» يقول: تدعون إلى النفقة في جهاد أعداء الله ونصرة دينه ﴿فَمِنْكُمْ مَّنْ يَبْخُلُ﴾ بالنفقة فيه . .

وقوله: ﴿وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَّفْسِهِ﴾ يقول - تعالى ذكره -: ومن يبخل بالنفقة في سبيل الله، فإنما يبخل عن بخل نفسه؛ لأن نفسه لو كانت جواداً لم تبخل بالنفقة في سبيل الله، ولكن كانت تجود بها، ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ يقول - تعالى ذكره -: ولا حاجة لله أيها الناس إلى أموالكم ولا نفقاتكم؛ لأنه الغني عن خلقه والخلق الفقراء إليه، وأنتم من خلقه، فأنتم الفقراء إليه، وإنما حضكم على النفقة في سبيله؛ ليكسبكم بذلك الجزيل من ثوابه^(١).

وقال القاسمي: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ﴾ أي: عن كل ما سواه، وكل شيء فقير إليه؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ أي: بالذات إليه، فوصفه بالغنى وصف لازم له، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لهم لا ينفكون عنه؛ أي: وإذا كان كذلك فإنما حضكم في النفقة في سبيله ليكسبكم بذلك الجزيل من ثوابه، وليعلم أن سبيل الله يشمل كل ما فيه نفع وخير وفائدة وقربة ومثوبة، وإنما اقتصر المفسرون على الجهاد لأنه فردة الأشهر وجزئيه الأهم وقت نزول الآيات، وإلا فلا ينحصر فيه^(٢).

* * *

(١) جامع البيان (٦٥ / ٢٥).

(٢) محاسن التأويل (٦١ / ١٥).

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: يقول -تعالى ذكره-: وإن تتولوا أيها الناس عن هذا الدين الذي جاءكم به محمد ﷺ، فترتدوا راجعين عنه، ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يقول: يهلككم ثم يجيء بقوم آخرين غيركم بدلاً منكم يصدقون به، ويعملون بشرائعه، ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ يقول: ثم لا يبخلوا بما أمروا به من النفقة في سبيل الله، ولا يضيعون شيئاً من حدود دينهم، ولكنهم يقومون بذلك كله على ما يؤمرون به^(١).

وقال أبو حيان: «﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا﴾ أي: عن الإيمان والتقوى؛ ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي: يخلق قوماً غيركم راغبين في الإيمان والتقوى، غير متولين عنهما؛ كما قال: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾^(٢)»^(٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة

في بيان منقبة من مناقب سلمان الفارسي رضي الله عنه وقومه

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «تلا رسول الله ﷺ يوماً هذه الآية: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ قالوا: ومن يستبدل بنا؟ قال: فضرب رسول الله ﷺ على منكب سلمان ثم قال: هذا وقومه، هذا وقومه»^(٤).

★ فوائد الحديث:

قال المباركفوري: «اعلم أن هذا الحديث صريح في أن قوله ﷺ: «لو كان الإيمان . . . إلخ؛ صدر منه عند نزول هذه الآية وحديث أبي هريرة الآتي في تفسير سورة (الجمعة) صريح في أن هذا القول صدر منه عند نزول قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَ﴾

(٢) إبراهيم: الآية (١٩).

(١) جامع البيان (٢٦/٦٦).

(٣) البحر المحيط (٢٦/٨).

(٤) أخرجه: الترمذي (٣٥٨/٥ / ٣٢٦٠)، وصححه الحاكم (٢/٢٥٨) على شرط مسلم.

مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴿١﴾ قال الحافظ في الفتح^(١) : يحتمل أن يكون ذلك صدر عند نزول كل من الآيتين^(٢) .

قال ابن عاشور : «هو يدل [أي هذا الحديث] على أن فارس إذا آمنوا لا يرتدون ، وهو من دلائل نبوة النبي ﷺ ؛ فإن العرب ارتد منهم بعض القبائل بعد وفاة النبي ﷺ ، وارتد البربر بعد فتح بلادهم وإيمانهم ثنتي عشرة مرة ؛ فيما حكاه الشيخ أبو محمد بن أبي زيد ، ولم يرتد أهل فارس بعد إيمانهم»^(٣) .

قلت : وسيأتي مزيد بيان لباقي فوائد هذا الحديث إن شاء الله تعالى عند قوله تعالى : ﴿وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ الآية (٣) من سورة (الجمعة) ، وبالله التوفيق .

* * *

(١) انظر كلام الحافظ في الفتح (٨/٨٢٩) .

(٢) تحفة الأحوذى (٩/١٠٤) .

(٣) التحرير والتنوير (٢٦/١٣٩) .

فهرس الموضوعات

سورة الدخان

- أغراض السورة ٥
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في اختبار النبي ﷺ لا بن صياد
بالدخان ٦
- قوله تعالى: ﴿حَمْدٌ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا
مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً
مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٦﴾ ١٣
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٣
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الليلة المباركة بليلة
القدر ١٨
- قوله تعالى: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ إِن كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ۝٧ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۝٨ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ
۝٩﴾ ٢٠
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٠
- قوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٥ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا
عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٦ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٧﴾ ٢٢

- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٢
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أشرط الساعة ٢٩
- قوله تعالى : ﴿ اِنَّ لَهُمُ الذِّكْرٰى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُوْلٌ مُّبِيْنٌ ﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوْا مُعَلَّمٌ مَّجْنُوْنٌ ﴿١٤﴾ ٣٢
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٢
- قوله تعالى : ﴿ اِنَّا كَاشِفُوْا الْعَذَابِ قَلِيْلًا اِنْكُمْ عَادُوْنَ ﴾ ﴿١٥﴾ ٣٤
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٤
- قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرٰى اِنَّا مُنْقِمُوْنَ ﴾ ﴿١٦﴾ ٣٦
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٦
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن البطشة الكبرى يوم القيامة ٣٧
- قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُوْلٌ كَرِيْمٌ ﴿١٧﴾ اَنْ اَدُوْا اِلٰى عِبَادِ اللّٰهِ اِنِّىْ لَكُمْ رَسُوْلٌ اَمِيْنٌ ﴿١٨﴾ وَاَنْ لَا تَعْلُوْا عَلٰى اللّٰهِ اِنِّىْ ءَاتِيْكُمْ بِسُلْطٰنٍ مُّبِيْنٍ ﴿١٩﴾ وَاِنِّىْ عُدْتُ بِرَبِّىْ وَرَبِّكُمْ اَنْ تَرْجُمُوْا ﴿٢٠﴾ وَاِنْ لَّمْ تُؤْمِنُوْا لِىْ فَاَعَزِّلُوْنِىْ ﴾ ﴿٢١﴾ ٣٨
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٨
- قوله تعالى : ﴿ فَدَعَا رَبُّهُ اَنْ هَٔؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُوْنَ ﴾ ﴿٢٢﴾ فَاسْرِ بِعِبَادِىْ لَيْلًا اِنَّكُمْ مُّتَّبِعُوْنَ ﴿٢٣﴾ وَاَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا اِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُوْنَ ﴿٢٤﴾ ٤٢
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٢
- قوله تعالى : ﴿ كَمْ تَرَكُوْا مِنْ جَنَّتٍ وَعَيْوُنٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوْعٍ وَمَقَامٍ كَرِيْمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوْا فِيْهَا فٰكِهِيْنَ ﴿٢٧﴾ كَذٰلِكَ وَاَوْرَثْنٰهَا قَوْمًا ءٰخَرِيْنَ ﴾ ﴿٢٨﴾ ٤٤
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٤
- قوله تعالى : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَآءُ وَالْاَرْضُ وَمَا كَانُوْا مُنْظَرِيْنَ ﴾ ﴿٢٩﴾ ٤٧

- ٤٧ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن السماء والأرض تبكيان على موت المؤمن ولا يعلم حقيقة ذلك إلا الله وأن تسيير الكون كله بيد الله
- ٤٨ قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ (٢٥) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُمْ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿ ٢٦ ﴾
- ٥٠ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٥٠ قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (٢٦)
- ٥٢ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٥٢ ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل عائشة رضي الله عنها
- ٥٢ قوله تعالى : ﴿ وَءَايَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَكٌ مُبِينٌ ﴾ (٢٦)
- ٥٧ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٥٧ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴾ (٢٦) إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ﴿ ٢٥ ﴾ فَأَتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿ ٢٦ ﴾
- ٥٨ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٥٨ قوله تعالى : ﴿ أَهْمٌ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبْعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْتَهُمْ إِيَّاهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ (٢٦)
- ٦٠ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٦٠ ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل تبع
- ٦١ قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِلْعَيْنِ ﴾ (٢٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ ٢٩ ﴾
- ٦٤ قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِلْعَيْنِ ﴾ (٢٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ ٢٩ ﴾

- ٦٤ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٤٠) يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ .
- ٦٦ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ﴾ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾
- ٦٩ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية وحكم القراءة
- ٦٩ بغير العربية
- قوله تعالى: ﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ (٤٥) كَغَلَى الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾
- ٧٢ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿خَذُوهُ فَأَعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ (٤٧) ثُمَّ صَبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾
- ٧٣ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿ذُوقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ (٤٩) إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾
- ٧٤ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾
- ٧٥ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ (٥٤)
- ٧٧ أقوال المفسرين في تأويل الآية

- ٧٨ قوله تعالى : ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾
 ٧٨ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى : ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّاهُمْ عَذَابَ
 ٧٩ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضَلًّا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾
 ٧٩ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذبح الموت وصفات أهل
 ٨٠ الجنة
 قوله تعالى : ﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْئِيهِ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَأَرْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ
 ٨٧ ﴿٥٩﴾
 ٨٧ أقوال المفسرين في تأويل الآية

سورة الجاثية

- قوله تعالى : ﴿حَمْدٌ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِّنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ
 ﴿٤﴾ وَخِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا
 ٨٩ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾
 ٨٩ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى : ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ
 ٩٩ ﴿٦﴾
 ٩٩ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى : ﴿وَبَلِّغْ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنَلَّىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يَصِرُ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ

- ١٠٢ يَسْمَعَهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾
- ١٠٢ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ١٠٥ قوله تعالى : ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾﴾
- ١٠٥ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في النهى أن يسافر بالقرآن إلى
- ١٠٦ أرض العدو
- قوله تعالى : ﴿مَنْ وَرَّاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾﴾
- ١١٠ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ١١٤ قوله تعالى : ﴿هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجَزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾
- ١١٤ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِيَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ
- ١١٧ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾
- ١١٧ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى : ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ
- ١١٨ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾
- ١١٨ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى : ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا
- ١٢٠ كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾
- ١٢٠ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ

- ١٢١ ﴿١٥﴾
- ١٢١ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٦﴾
- ١٢٢ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى : ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ يَنْتَهِ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا يَنْتَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾
- ١٢٥ ﴿١٧﴾
- ١٢٥ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى : ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٩﴾
- ١٢٨ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ١٢٨ قوله تعالى : ﴿هَذَا بَصِيرَتِي لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ﴿٢٠﴾
- ١٣٣ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى : ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ﴿٢١﴾
- ١٣٦ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ١٣٦ ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في خوف الصحابة من هذه الآية
- قوله تعالى : ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿٢٢﴾
- ١٤١ ﴿٢٣﴾

- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٤١
- قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ ﴾ ١٤٣
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٤٣
- قوله تعالى : ﴿ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً ﴾ ١٤٦
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٤٦
- قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ١٤٧
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٤٧
- قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ ١٤٨
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٤٨
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن من سب الدهر فقد آذى الله ١٥٠
- قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بِإِذْنِكَ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَعْنَا آبَاءَنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ١٥٤
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٥٤
- قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ١٥٥
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٥٥
- قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُحْشَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴾ ١٥٦
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٥٦

- قوله تعالى: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ
- ١٥٧ ﴿٢٨﴾
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٥٧
- قوله تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ
- ١٥٩ ﴿٢٩﴾
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٥٩
- قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ
- ١٦٠ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٦٠
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الجنة من رحمة الله ﷻ
- ١٦٠ قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَاستَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا
- ١٦٢ تُجْرِمِينَ ﴿٣١﴾
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٦٢
- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ
- ١٦٣ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ ﴿٣٢﴾
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٦٣
- قوله تعالى: ﴿وَبَدَأْ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾
- ١٦٤ ...
- أقول المفسرين في تأويل الآية ١٦٤
- قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَنُكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ
- ١٦٥ نَصِيرِينَ ﴿٣٤﴾
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٦٥

- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ترك الله الكافر يوم القيامة في عذاب النار ١٦٥
- قوله تعالى : ﴿ذَلِكُمْ بِأَنكُمْ اتَّخَذْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُمْخِرُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ١٦٧
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٦٧
- قوله تعالى : ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ١٦٨
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٦٨
- قوله تعالى : ﴿وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ١٦٩
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٦٩
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في اختصاص الله ﷻ بالكبرياء ١٦٩

سورة الأحقاف

- أغراض السورة ١٧١
- قوله تعالى : ﴿حَمْدٌ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ١٧٢
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٧٢
- قوله تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتَثْنُونِ بَكُتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرُونَ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ١٧٥
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٧٥

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الأثرارة بالخط والنهي
عن ذلك ١٧٩

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ
وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ

﴿٦﴾ ١٨١

أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٨١

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنْتَبِهَاتِ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا
سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ
أَعْلَمُ بِمَا نُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾ ١٨٣

أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٨٣

قوله تعالى : ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا
مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٩﴾ ١٨٥

أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٨٥

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أنه لا يقطع لمعين بجنة ولا
نار إلا ما نصّ الشارع على تعيينهم ١٨٩

قوله تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي
إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَقَامَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ ١٩٢

أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٩٢

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية ومنقبة
عبد الله بن سلام رضي الله عنه ١٩٤

قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ

- يَهْتَدُوا بِهِ، فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ ١٩٨
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٩٨
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تحريم الكبر وبيانها ٢٠١
- قوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبْتُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٢﴾ ٢٠٥
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٠٥
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿١٣﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ٢٠٦
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٠٦
- قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفَصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي بُنِيتُ إِلَيْكَ وَلَئِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿١٥﴾ ٢٠٧
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٠٧
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بر الوالدين ومنقبة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ٢١٠
- قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ ﴿١٦﴾ ٢١٢
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢١٢
- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَاذِيهِ أَفِ لَكُمْ أَنْ أَعِدَّائِي أَنْ أُخْرِجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفِثَانِ اللَّهَ وَإِلَيْكَ يَا آمِنٌ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرٌ

- ٢١٣ ﴿٧﴾ الْأَوَّلِينَ
- ٢١٣ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في نفي نزول الآية في
- ٢١٦ عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه
- قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرِ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾ (٨) وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٩﴾
- ٢١٨ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ (١٠)
- ٢٢٠ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أن كل لذة وشهوة قضاها المرء في الدنيا في ما له مندوحة عنها فهو استعجال له من نعيم الآخرة وأنه لو ترك ذلك لادخر له في الآخرة
- ٢٢٦ قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادَ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١١) قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَأَفَّكُنَا عَنْ ءَاهِتِنَا فَإِنَّا بِمَا نَعُدُّكَ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرِيتُكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴿١٣﴾
- ٢٢٨ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُنْطَرِفٌ بَلْ هُوَ مَا

- ٢٣٢ ﴿٢٤﴾ أَسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾
- ٢٣٢ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في خوفه ﷺ من الآيات التي عذبت بها الأمم السابقة أن تعذب بها أمته
- ٢٣٣
- قوله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿٢٥﴾
- ٢٣٩ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِيهَا إِنْ مَكَنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ﴿٢٦﴾
- ٢٤٠ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾
- ٢٤٤ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَدَاعِيَ الْإِسْلَامِ يَغْفِرَ لَكُمْ دُنُوبَكُمْ وَيُجْزِكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٢﴾
- ٢٤٧

- ٢٤٧ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٢٥١ ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذكر أخبار الجن
- قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغَيِّ بِخَلْقِهِنَّ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَغَيِّ الْمَوْتِ بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦٧﴾ ٢٦٧.....
- ٢٦٧ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٢٦٩﴾ ٢٦٩.....
- ٢٦٩ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى : ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزِّ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلِغٌ فَبَلَّغٌ فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ ﴿٢٧٠﴾ ٢٧٠.....
- ٢٧٠ أقوال المفسرين في تأويل الآية

سورة محمد

- ٢٧٥ أغراض السورة
- ٢٧٦ ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة سورة (محمد ﷺ)
- ٢٧٧ قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٧٧﴾ ٢٧٧.....
- ٢٧٧ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢٧٩﴾ ٢٧٩.....
- ٢٧٩ أقوال المفسرين في تأويل الآية

- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان صفة رد العاطس على من
 شتمه ٢٨١
- قوله تعالى : ﴿ ذَلِكْ يَآءَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَتَّبِعُوا الْبَاطِلَ وَأَءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَّبِعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ
 كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ﴾ ٢٨٤
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٨٤
- قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَخَسَّمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا
 مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآنْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّبَلَا
 بَعْضِكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ ٢٨٦
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٨٦
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان حكم أسير الحرب ،
 والدلالة على أن الجهاد ماض إلى يوم القيامة تحت راية كل بر وفاجر
 من أهل القبلة ٢٩١
- قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ ٢٩٧
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٩٧
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل الشهادة في سبيل الله
 قوله تعالى : ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ ٣٠٢
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٠٢
- قوله تعالى : ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ ﴾ ٣٠٤
- أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٠٤
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أن معرفة المؤمن بمنزله
 في الجنة أكثر من معرفته بمنزله في الدنيا ٣٠٤

- ٣٠٧ قوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نُّنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ ﴾ .
- ٣٠٧ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ
- ٣٠٩ اللَّهُ فَأَخِطَ أَعْمَالَهُمْ ۝٩ ﴾
- ٣٠٩ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في وعيد من قصر عمله على الدنيا واشتغل بها عن الواجبات وإحباط أعمال الكافرين
- ٣١٠ قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ
- ٣١٤ اللَّهُ عَلَيْهِمُ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ۝١٠ ﴾
- ٣١٤ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٣١٦ قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ۝١١ ﴾ ..
- ٣١٦ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أن من أسمائه سبحانه اسم (المولى)
- ٣١٦ قوله تعالى : ﴿ إِنَّا اللَّهُ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا
- ٣٢١ الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ۝١٢ ﴾ ..
- ٣٢١ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٣٢٢ ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذم الأكل الذي لا يشبع .
- قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا
- ٣٢٧ نَاصِرَ لَهُمْ ۝١٣ ﴾
- ٣٢٧ أقوال المفسرين في تأويل الآية

- ٣٢٩ ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الخروج من مكة وسكناها
قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتِيَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ
- ٣٣١ ﴿١٤﴾
- ٣٣١ أقوال المفسرين في تأويل الآية
قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَنْغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّن خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّن عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ
- ٣٣٤ ﴿١٥﴾
- ٣٣٤ أقوال المفسرين في تأويل الآية
٣٣٧ ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة أنهار الجنة
قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِّنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ
- ٣٤١ ﴿١٦﴾
- ٣٤١ أقوال المفسرين في تأويل الآية
٣٤٣ قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ
- ٣٤٣ ﴿١٧﴾
- ٣٤٣ أقوال المفسرين في تأويل الآية
قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ط فَدَّاءَ أَشْرَاطِهَا فَإِنِّي لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ
- ٣٤٥ ﴿١٨﴾
- ٣٤٥ أقوال المفسرين في تأويل الآية
٣٤٦ ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذكر أشراط الساعة
قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ
- ٤١٩ ﴿١٩﴾
- ٤١٩ أقوال المفسرين في تأويل الآية
قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
- ٤٢٠ ﴿٢٠﴾

- ٤٢٠ أقوال المفسرين في تأويل الآية
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة المبينة لحاجة الخلق إلى العقيدة
- ٤٢٣ في الدنيا والآخرة
- ٤٢٤ قوله تعالى : ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لِدُنْيِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾
- ٤٢٤ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٤٢٦ ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل الاستغفار
- ٤٢٩ قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ (١٩)
- ٤٢٩ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى : ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ
وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ
عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا
اللَّهُ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴿٢١﴾﴾
- ٤٣٠ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٤٣٠ قوله تعالى : ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ
﴿٢٢﴾﴾
- ٤٣٣ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة الدالة على وجوب صلة الرحم
وتحريم قطعها
- ٤٣٤ قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ (٢٣)
- ٤٣٩ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٤٣٩ قوله تعالى : ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (٢٤)
- ٤٤٠

- ٤٤٠ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ
 الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ ٤٤٩
 ٤٤٩ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي
 بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ ٤٥٣
 ٤٥٣ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ
 ٤٥٥﴾
 ٤٥٥ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ
 فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ﴾ ٤٥٧
 ٤٥٧ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ
 ٤٥٩﴾
 ٤٥٩ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ
 وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ ٤٦٠
 ٤٦٠ أقوال المفسرين في تأويل الآية
 قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ
 ٤٦٢﴾

- ٤٦٢ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٤٦٣ ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات القدر
- قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَصْرِوْا اللَّهُ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَلَهُمْ ﴾ ٤٦٤
- ٤٦٤ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ ٤٦٤
- ﴿ ﴾ ٤٦٧
- ٤٦٧ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ ٤٧٤
- ٤٧٤ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتَرَكَكُمْ أَعْمَلَكُمْ ﴾ ٤٧٤
- ٤٧٦ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهُمْ وَإِنْ تَوَلَّوْا وَتَنَقَّوْا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْتَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴾ ٤٨٢
- ٤٨٢ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى : ﴿ إِنْ يَسْتَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخُلُوا وَيُخْرِجْ أَضْعَانَكُمْ ﴾ ٤٨٥
- ٤٨٥ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴾ ٤٨٧

- ٤٨٧ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ٤٨٨ قوله تعالى : ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ .
- ٤٨٨ أقوال المفسرين في تأويل الآية
- ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان منقبة من مناقب سلمان
- ٤٨٩ الفارسي عليه السلام وقومه
- ٤٩١ فهرس الموضوعات

* * *